

الأعمال الكاملة
الطيب صالح



دار القردة - بيروت

علي مولا

الطَّيِّبُ صَالِحٌ

الأعمال الكاملة

موسم الهجرة إلى الشمال
عُرسُ الزَّين
ضوالبيت (بندر شاه)
مَريُود (بندر شاه)
دومة ود حامد

دار العودة - بيروت

الفرف : سعيد ترياقى

حقوق الطبع محفوظة

١٩٩٦.

يطلب من دار العودة - بيروت
كورنيش المزرعة - بناية ريفيرا مستر
تلفون : ٨١٨٤٠٥ - ٨١٨٤٠٦
ص. ب : ١٤٦٢٨٤ / برقياً : العودة
فاكس : ٨١٨٤٠٦

لمحة عن الطيب فنناً و انساناً

بقلم احمد سعيد محمية

رأيت الطيب الصالح أول مرة في بيت سفير السودان في لندن جمال محمد احمد ، وكان وديعاً رقيقاً ويكاد أن يكون حياً .

وأخذت أرقبه وكأنني استطلع فيه صورة غريبة من صور الكون المعجيب . . كم تحتلج وراء هذا المظهر الهاديء براكين فنية ! ! وكم تحتفي وراء هذه البساطة عوالم جياشة ، وحيوات محتدمة .

كنت قد قرأت أعماله العملاقة القليلة والنادرة « موسم الهجرة إلى الشمال » و « عرس الزين » - روايتيه الخالدتين - وقصتيه « دومة ود حامد » و « حفنة تمر » ، وكنت أحس أن موهبة عظيمة قد انفجرت في وطننا العربي ، وانها قد بدأت تنساب رافداً دافقاً في نهر الادب العربي المعاصر ، وأن هذه الموهبة تتويج للرواية العربية ، وتصعيد لمكانتها في الفن الروائي العالمي .

وكان الضوء قد بدأ يشع حول الطيب صالح وبنيير أعماله الفذة ، وكان عن تواضع جم يستغرب هذا الاحتفاء ، ويكاد أن ينكره ، وكان الذي يرون هذا الجانب فيه يدركون أن الطيب لا يرفض هذا الاحتفاء عن عدم ثقة

ولكن عن أصالة ، وعن إيمان الفنان فيه بأن دورته الفنية لم تكتمل ، وأنه لم يعط بعد كل ما يريد .

وعندما جالسته - وكان بسيطاً ومتبسّطاً - أدركت كيف أعطى هذا الفنان هذين العاملين المتتاليين بهذه الجودة الفنية ، وهذا المستوى العالمي . فقد رأيت فيه القدرة الخارقة على الرؤية والاستبصار والنفوذ إلى أدق الأمور - وهذه ملكة الفنان فيه - وأدركت انه لم يعتمد على هذه الموهبة وحسب بل شحذها شحذاً حاداً بالثقافة العربية فترود منها كل ما وسعته القدرة على التزود ، فقرأ المعاصرون وقثلمهم وضمهم أحلامهم ، وغاص في التراث فاستلهم روحه ، وتسلح بمعرفة شواقمه . وعابش الثقافة الغربية فكراً مكتوباً فقرأ أعمال الكلاسيكيين والمعاصرين الأوروبيين ، وعاش الحضارة الأوروبية انماط سلوك وطريقة حياة ومنهج تفكير - وبمذه قدرة على الاجتهاد والتحصيل والتشبع .

كان يذكر المتنبي والنواس ، ويذكر شكسبير وبيتس ، وكانت لديه مقدرة على استخراج اللؤلؤ من أعماق الادب العربي ، والجواهر من أعماق الآداب الغربية - والانكليزية منها خاصة - . وكانت لديه المقدرة على فهم روحي الحضارتين والمقارنة الذكية بينهما ، وكان يستطيع وهو يفعل ذلك أن لا يتحول إلى طريقة الباحث والمالم بل أن يحتفظ برؤية

الفنان وشفافيته ، وهذا ما يلهمه كل الذين قرأوا أعماله :
فالبساطة هي غلاف رقيق - مثل قشرة الجليد فوق سطح
البحر ، سرعان ما تخترق إلى الاعماق البعيدة السحيقة ،
والثقافة ليس استعراض ذهني ومقدرة في التقديم السطحي
بل هي تفاعل مع الفكرة والكلمة في المحتوى والشكل ،
والإصالة هي الارتباط بمحذور الوطن وتراجه - رغم البعد
الجغرافي عنه - وهذا هو الطيب صالح باختصار : البساطة
والثقافة والإصالة ثلاثة أقانيم في روح واحدة .

من هو الطيب أيضاً !!
أنه باختصار شديد ابن التاج الحضاري والعربي العربي
الافريقي .. - السودان - ولد في الشمال وعاش طفولته
وفتوته فيه ، ثم انتقل إلى الخرطوم ، وأكمل دراسته الجامعية
فيها ، وحصل على بكالوريوس في العلوم ، ثم انتقل إلى لندن
وأكمل تحصيله المالي في الشؤون الدولية ، ثم عمل في الإذاعة
البريطانية ، وتحول فرأس قسم الدراما فيها ، وعاد إلى
السودان وعمل مدير للإذاعة ، ثم طلب إليه أن يكون
مديراً للأعلام أو وكيلاً للوزارة فاعتذر ، لأنه كان يرى
المهمة شاقة وعاد إلى لندن .

تزوج من امرأة انكليزية قريبة من عالمنا العربي وقادرة
على فهم مشاكله وهي امرأة شديدة الحساسية والذكاء وهي

تمثل التطلع الذهني للطبيب في المرأة عامة ، وأنجب منها
ثلاث بنات .

والآن انتقل الطبيب إلى قطر وعمل فيها وكيلاً لوزارة
الأعلام ومشرفاً عاماً على أجهزتها ، واستطاع في مدة وجيزة
أن يصنع من دائرته واحدة خصبة للثقافة ومركزاً للإشعاع
الأدبي .

وشمال السودان هي المادة التي يختار الطبيب نماذجها
الإنسانية منها ، وشخص أعماله هي الرجال والنساء والأطفال
الذين يحفل بهم هذا الجزء من التراب السوداني ، وهم على
أية حال لا يختلفون كثيراً عن نماذج بقية أجزاء السودان
الأرض والناس .

مَوْسَمِ الْهَجْرَةِ إِلَى الشَّمَالِ

عدت الى أهلي يا سادتي بعد غيبة طويلة ، سبعة أعوام على وجه التحديد ، كنت خلالها أتعلم في أوروبا . تعلمت الكثير ، وغاب عني الكثير ، لكن تلك قصة أخرى . المهم انني عدت وبي شوق عظيم الى أهلي في تلك القرية الصغيرة عند منحني النيل . سبعة أعوام وأنا أحسن اليهم وأحلم بهم ، ولما جئتهم كانت لحظة عجيبة ان وجدتني حقيقة قائما بينهم ، فرحوا بي وضجوا حولي ، ولم يمض وقت طويل حتى احسست كأن ثلجاً يذوب في دخيلتي ، فكأنني مقرر طلعت عليه الشمس . ذاك دفء الحياة في العشرة ، فقدته زماناً في بلاد « تموت من البرد حيتانها » . تعودت أذناي أصواتهم ، وألفت عينايا أشكالهم من كثرة ما فكرت فيهم في الغيبة ، قام بيني وبينهم شيء مثل الضباب ، اول وهلة رأيتهم . لكن الضباب راح ، وأستيقظت ثاني يوم وصولي ، في فراشي الذي أعرفه في الغرفة التي تشهد جدرانها على ترهات حياتي في طفولتها ومطلع شبابها وأرخبيت أذني للريح . ذاك لعمرى صوت أعرفه ، له في

بلدنا وشوشة مرحة . صوت الريح وهي تمر بالنخل غيره وهي
تمر بحقول القمح . وسمعت هديل القمري ، ونظرت خلال
النافذة الى النخلة القائمة في فناء دارنا ، فعلمت ان الحياة لا
تزال بخير ، أنظر الى جذعها القوي المعتدل ، والى عروقها
الضاربة في الارض ، والى الجريد الاخضر المنهدل فوق هامتها
فأحس بالطمأنينة . أحس انني لست ريشة في مهب الريح ،
ولكنني مثل تلك النخلة ، مخلوق له أصل ، له جذور له هدف .
وجاءت أمي تحمل الشاي . وفرغ أبي من صلاته وأوراده
فجاء . وجاءت أخوتي ، وجاء اخوأي ، وجلسنا نشرب الشاي
ونتحدث ، شأنا منذ تفتحت عيناي على الحياة . نعم ،
الحياة طيبة ، والدنيا كحالتها لم تتغير .

فجأة تذكرت وجها رأيته بين المستقبلين لم أعرفه . سألتهم
عنه ، ووصفته لهم . رجل ربعة القامة ، في نحو الخمسين أو
يزيد قليلا ، شعر رأسه كثيف مبيض ، ليست له لحية وشاربه
أصفر قليلا من شوارب الرجال في البلد . رجل وسيم .

وقال أبي : « هذا مصطفى »

مصطفى من ؟ هل هو أحد المغتربين من أبناء البلد عاد ؟

وقال أبي ان مصطفى ليس من أهل البلد ، لكنه غريب
جاء منذ خمسة أعوام ، اشترى مزرعة وبنى بيتا وتزوج بنت
عمود .. رجل في حاله ، لا يعلمون عنه الكثير .

لا أعلم تماما ماذا أثار فضولي ، لكنني تذكرت أنه يوم

وصولي كان صامتاً . كل أحد سألني وسألته . سألوني عن أوروبا . هل الناس مثلنا أم يختلفون عنا؟ هل المعيشة غالية أم رخيصة ؟ ماذا يفعل الناس في الشتاء ؟ يقولون ان النساء سافرات يرقصن علانية مع الرجال . وسألني ود الريس: «هل صحيح انهم لا يتزوجون ولكن الرجل منهم يعيش مع المرأة بالحرام ؟ »

أسئلة كثيرة رددت عليها حسب علي . دهشوا حين قلت لهم ان الاوربيين ، اذا استثنينا فوارق ضئيلة ، مثلنا تماماً ، يتزوجون ويربون اولادهم حسب التقاليد والاصول ، ولهم أخلاق حسنة ، وهم عموماً قوم طيبون .

وسألني محجوب . « هل بينهم مزارعون ؟ »

وقلت له : « نعم بينهم مزارعون وبينهم كل شيء . منهم العامل والطبيب والمزارع والمعلم ، مثلنا تماماً » . وآثرت ألا أقول بقية ما خطر على بالي : « مثلنا تماماً . يولدون ويموتون وفي الرحلة من المهد إلى اللحد يحملون أحلاماً بعضها يصدق وبعضها يخيب . يخافون من المجهول ، ويفشدون الحب ، ويبحثون عن الطمأنينة في الزوج والولد . فيهم أقوياء ، وبينهم مستضعفون ، بعضهم أعطته الحياة أكثر مما يستحق ، وبعضهم حرمتها الحياة . لكن الفروق تضيق وأغلب الضعفاء لم يعودوا ضعفاء » . لم أزل لمحجوب هذا ، وليتني قلت ، فقد كان ذكياً . خفت ، من غروري ، ألا يفهم .

وقالت بنت مجذوب ضاحكة : « خفنا أن تعود إلينا
بنصرانية غلفاء » .

لكن مصطفى لم يقل شيئاً . ظل يستمع في صمت ،
يبتسم أحياناً ، ابتسامة أذكر الآن أنها كانت غامضة ،
مثل شخص يتحدث نفسه .

نسيت مصطفى بعد ذلك ، فقد بدأت أعيد صليقي بالناس
والأشياء في القرية . كنت سعيداً تلك الأيام ، كطفل يرى
وجهه في المرآة لأول مرة . وكانت أمي لي بالمرصاد ، تذكرني
بن مات ، لأذهب وأعزي ، وتذكرني بن تزوج ، لأذهب
وأهني . جبت البلد طويلاً وعرضاً معزياً ومهنثاً . ويوماً
ذهبت إلى مكاني الأثير ، عند جذع شجرة طلع على ضفة
النهر . كم عدد الساعات التي قضيتها في طفولتي تحت تلك
الشجرة ، أرمي الحجارة في النهر وأحلم ، ويشرد خيالي في
الأفق البعيد ؟ أسمع أنين السواقي على النهر ، وتصايح الناس
في الحقول ، وخوار ثور أو نهيق حمار . كان الحظ يسعدني
أحياناً ، فتمر الباخرة أمامي صاعدة أو نازلة . من مكاني
تحت الشجرة ، رأيت البلد يتغير في ببطء . راحت السواقي .
وقامت على ضفة النيل طلمبات لضخ الماء ، كل مكنة تؤدي
عمل مائة ساقية . ورأيت الضفة تنفهر عاماً بعد عام أمام
لطمات الماء ، وفي جانب آخر يتفهر الماء أمامها . وكانت
تخطر في ذهني أحياناً أفكار غريبة . كنت أفكر ، وأنا أرى

الشاطئ بضيق في مكان ، ويتسع في مكان ، أن ذلك شأن الحياة ، تعطي بيد وتأخذ باليد الأخرى . لكن لعلني أدركت ذلك فيما بعد . أنا الآن ، على أي حال ، أدرك هذه الحكمة ، لكن بذهني فقط ، إذ أن عضلاتي تحت جلدي مرنة مطواعة وقلبي متفائل . انني أريد أن آخذ حقي من الحياة عنوة ، أريد أن أعطي بسخاء ، أريد أن يفيض الحب من قلبي فينبع ويشمر . ثمة آفاق كثيرة لا بد أن تُزار ، ثمة ثمار يجب أن تُقطف ، كتب كثيرة تقرأ ، وصفحات بيضاء في سجل العمر ، سأكتب فيها جملاً واضحة بخط جريء . وأنظر إلى النهر بدأ ماؤه يربد بالظمي — لا بد أن المطر هطل في هضاب الحبشة — وإلى الرجال قاماتهم متكئة على الحارث ، أو منحنية على المعاول . وتمتليء عيناى بالحقول المنبسطة كراحة اليد إلى طرف الصحراء حيث تقوم البيوت . أسمع طائراً بفرد ، أو كلباً ينبج ، أو صوت فأس في الحطب — وأحس بالاستقرار . أحس انني مهم ، وانني مستمر ، ومتكامل . « لا .. لست أنا الحجر يلقى في الماء ، لكنني البذرة تبذر في الحقل » . وأذهب إلى جدي ، فيحدثني عن الحياة قبل أربعين عاماً ، قبل خمسين عاماً ، لا بل ثمانين ، فيقوى إحساسي بالأمن . كنت أحب جدي ، ويبدو أنه كان يؤثرني . ولعل أحد أسباب صداقتي معه ، انني كنت منذ صغري تشخذ خيالي حكايات الماضي ، وكان جدي يحب أن يحكي ، ولما سافرت خفت أن يموت في غيبتني . وكنت حين

يلم بي الحنين إلى أهلي ، أراه في منامي . قلت له ذلك ، فضحك وقال : « حدثني عراف وأنا شاب ، انني إذا جاوزت عمر النبوة - يعني الستين - فأنني سأصل المائة ، . وحسبنا عمره ، أنا وهو فوجدنا انه بقي له نحو اثني عشر عاما .

كان جدي يحدثني عن حاكم غاشم ، حكم ذلك الاقليم أيام الأتراك . ولست أعلم ما الذي دفع بمصطفى إلى ذهني ، لكنني تذكرته بغتة ، فقلت أسأل عنه جدي ، فهو عليم بحسب كل أحد في البلد ونسبه ، بل باحساب وأنساب مبعثرة قبلي وبحري ، أعلى النهر وأسفله . لكن جدي هز رأسه وقال انه لا يعلم عنه سوى انه من نواحي الخرطوم ، وانه جاء الى البلد منذ نحو خمسة أعوام ، واشترى أرضاً تفرق وارثوها ، ولم تبق منهم إلا امرأة . فأغراها الرجل بالمال واشتراها منها . ثم قبل أربعة أعوام زوجه محمود إحدى بناته . قلت لجدي : « أي بناته ؟ » فقال : « أظنها حسنه » . وهز جدي رأسه وقال : « تلك القبيلة . لا يبالون لمن يزوجون بناتهم » . لكنه أردف ، كأنه يعتذر ، ان مصطفى طول إقامته في البلد ، لم يبدو منه شيء منفر ، وانه يحضر صلاة الجمعة في المسجد بانتظام ، وانه يسارع « بذراعه وقدمه » في الأفراح والأفراح . .. هكذا طريقة جدي في الكلام .

* * *

بعد هذا بيومين ، كنت وحدي أقرأ وقت القيلولة .

كانت أمي وأختي تلتفطان مع بعض النسوة في أقصى البيت ،
وكان أبي نائماً ، وقد خرج أخوأي لشأن ما ، فخلوت بنفسي .
سمعت نحنة خارج البيت ، فقممت ، فإذا هو مصطفى ،
يحمل بطيخة كبيرة ، وزنبيلاً مملوءاً برتقالاً . ولعله رأى
الدهشة على وجهي ، فقال : « أرجو ألا أكون أيقظتك من
نوم . لكنني قلت أجيئك بعينة من ثمر الحقل ، تذوقه .
كذلك أحب أن أتعرف إليك . وقت الظهيرة ليس وقت
زيارة . اعذرني » .

لم يغب عني أدبه الجم ، فأهل بلدنا لا يبالون بعبارات
المحاملة . يدخلون في الموضوع دفعة واحدة ، يزورونك ظهراً
كان أو عصرأ ، لا يهمهم أن يقدموا المآذير . رددت الود
بالود ، ثم جيء بالشاي .

دقت النظر في وجهه ، وهو مطرق . انه رجل وسيم
دون شك ، جبهته عريضة رحبة ، وحاجباه متباعدان ،
يقومان أهلة فوق عينيه ، ورأسه بشعره الغزيز الأسيب
متناسق تماماً مع رقبته وكتفيه ، وانفه حاد منحراه مليئان
بالشمر . ولما رفع وجهه أثناء الحديث ، نظرت إلى فمه
وعينه ، فأحسست بالمزيج الغريب من القوة والضعف في وجه
الرجل . كان فمه رخوآ ، وكانت عيناه ناعستين ، تجملان وجهه
أقرب إلى الجمال منه إلى الوسامة . ويتحدث بهدوء ، لكن
صوته واضح قاطع . حين يسكن وجهه يقوى . وحين يضحك

يغلب الضعف على القوة . ونظرت إلى ذراعيه ، فكانتا قويتين ، عروقهما نافرة ، لكن أصابعه كانت طويلة رشيقة ، حين يصل النظر إليها بعد تأمل الذراع واليد ، تحس بفتة كأنك انحدرت من الجبل إلى الوادي .

قلت أدعه يتحدث ، فهو لم يحییء إليّ في حاة القیظ ، إلا ليقول لي شيئاً . ولعله من ناحية أخرى جاء بوازع من حسن النية . لكنه قطع عليّ حدسي . فقال : « لعلك الوحيد من أهل البلد ، الذي لم أسعد بالتعرف عليه من قبل ، . لماذا لا يترك هذا الأدب ، ونحن في بلد إذا غضب فيها الرجال ، قال بعضهم لبعض : يا ابن الكلب .

« سمعت كثيراً عنك من أهلك وأصدقائك ، - لا غرو ، فقد كنت أعد نفسي زينة الشباب في البلد .

« قالوا انك نلت شهادة كبيرة - ماذا تسمونها ؟ الدكتوراه ؟ » يقول لي ماذا تسمونها؟ لم يعجبني ذلك ، فقد كنت أحسب أن الملايين العشرة في القطر كلهم سمعوا بانتصاري . « يقولون انك لامع منذ صغرك » .

« العفو » - هكذا قلت ، لكنني ، والحق يقال ، كنت تلك الايام مزهواً بنفسي ، حسن الظن بها . « دكتوراه . هذا شيء كبير » .

فقلت له ، وأنا أتصنع التواضع ، ان الامر لا يبدو أنني قضيت ثلاثة أعوام ، أنقب في حياة شاعر مغمور من شعراء

الانكليز . واغتظت ، لا اخفي عليكم انني اغتظت ، حين ضحك الرجل ملء وجهه ، وقال :

« نحن هنا لا حاجة لنا بالشعر . لو انك درست علم الزراعة أو الهندسة أو الطب ، لكان خيراً » . انظر كيف يقول « نحن » ولا يشملني بها ، مع العلم بأن البلد بلدي ، وهو - لا أنا - الغريب .

لكنه ابتسم في وجهي برقة ، ولاحظت كيف طفى الضعف في وجهه على القوة ، وكيف أن عينيه في الواقع جيلتان كميني انثى ، وقال :

« لكن نحن مزارعون نفكر فيما يعيننا ، انما العلم ، مهما كان ، ضروري لرفعة الوطن » .

صمت برهة ، فازدحت اسئلة كثيرة في رأسي : من أين هو ؟ ولماذا استقر في هذا البلد ؟ وما هي قصته ؟ لكنني آثرت التريث ، واسعفني هو فقال :

« الحياة في هذا البلد هينة خيرة . الناس طيبون عسرتهم سهلة » .

فقلت له : « انهم يذكرونك بالخير . جدي يقول انك رجل فاضل » .

ضحك حينئذ ، ربما لانه تذكر مقابلة له مع جدي ، وبدأ كأنه سر من قولي ، وقال :

« جديك .. ذاك رجل . ذاك رجل .. تسعون عاماً وقامته منتصبه ، ونظره حاد ، وكل سن في فمه . يقفز فوق الحمار

خفيفاً ، ويمشي من بيته للمسجد في الفجر . هاه ذاك رجل .
كان غلصاً وهو يقول هذا . ولم لا ؟ وجدي ، في واقـع
الامر ، اعجوبة .

وخفت ان يفلت الرجل قبل أن أعلم عنه شيئاً – الى هذا
الحد بلغ فضولي – فجري السؤال عني لساني قبل أن افكر :
« هل صحيح انك من الخرطوم ؟ » .

وفوجيء الرجل قليلاً وخيل لي ان ما بين عينيه قد
تعكر ، لكنه بسرعة ومهارة عاد إلى هدوئه ، قال لي وهو
يتعمد أن يبتسم : « من ضواحي الخرطوم في الواقع . قل الخرطوم » .
وصمت برهة قصيرة ، وكأنه يناقش بينه وبين نفسه ، هل
يصمت أم يعطيني المزيد ثم رأيت الطيف الساحر يحوم حول
عينيه ، تماماً كما رأيته أول يوم ، وقال وهو ينظر اليّ وجهاً
قبالة وجهه :

« كنت في الخرطوم أعمل في التجارة . ثم لاسباب عديدة ،
قررت ان التحول للزراعة . كنت طول حياتي أشتاق للاستقرار
في هذا الجزء من القطر ، لا أعلم السبب . وركبت الباخرة ،
وأنا لا أعلم وجهتي . ولما رست في هذا البلد ، أعجبتني هبتها .
ومجس هاجس في قلبي : هذا هو المكان . وهكذا كان ، كما
تري . لم يخب ظني في البلد ولا أهله » . ثم صمت ، وقام قائلاً
انه ذاهب للحقل ، ودعاني للعشاء في بيته بعد يومين .
ولما أوصلته للباب ، قال لي وهو يودعني ، والطيف
الساحر اكثر وضوحاً حول عينيه :

« جدك يعرف السر » .

ولم يمهلي حتى أسأله : « أي سر يعرفه جدي ؟ جدي

ليست له أسرار . ولكنه مضى مبتعداً بخطوات نشيطة متحفزة ، رأسه يميل قليلاً الى اليسار .

* * *

ذهبت للعشاء فوجدت محجوباً ، والعمدة ، وسعيد التاجر ، وأبي . تعشنا دون ان يقول مصطفى شيئاً يثير الاهتمام . كان كعادته يسمع أكثر مما يتكلم . كنت ، حين يخفت الحديث وحين أجد أنه لا يعنيني كثيراً ، أتلفت حولي كأنني أحاول ان أجد في غرف البيت وجدرانه الجواب على الاسئلة التي تدور في رأسي . لكنه كان بيتاً عادياً ، ليس أحسن ولا أسوأ من بيوت الميسورين في البلد . منقسم الى جزئين كبقية البيوت ، جزء للنساء ، والقسم الذي فيه « الديوان » الرجال ورأيت الى يمين الديوان غرفة من الطوب الاحمر ، مستطيلة الشكل ، ذات نوافذ خضراء . سقفها لم يكن مسطحاً كالعادة ولكنه كان مثلثاً كظهر الثور .

قمنا أنا ومحجوب وتركنا الباقيين . وفي الطريق سألت محجوباً عن مصطفى . لم يخبرني بحديثه لكنه قال : « مصطفى رجل عميق » .

قضيت في البلد شهرين ، كنت خلالها سعيداً . وقد جمعتني الصدفة بمصطفى عدة مرات . مرة دعيت لحضرر اجتماع لجنة المشروع الزراعي . دعاني محجوب ، رئيس اللجنة وقد كان صديقي ، نشأنا معاً منذ طفولتنا . دخلت عليهم

وكان مصطفى بينهم ، وكانوا يبحثون أمراً يتعلق بتوزيع الماء على الحقول . ويبدو أن بعض الناس ، ومنهم من هو عضو في اللجنة ، كانوا يفتحون الماء في حقولهم قبل الموعد المحدد لهم . وأحتد النقاش وتصايحوا بعضهم على بعض وفجأة رأيت مصطفى يهب واقفاً . هداً اللفظ واستمعوا اليه باحترام زائد . وقال مصطفى ان الخضوع للنظام في المشروع أمر مهم والا أختلطت الامور وسادت الفوضى ، وان على اعضاء اللجنة خاصة أن يكونوا قدوة حسنة لغيرهم ، فاذا خالفوا القانون عوقبوا كبقية الناس . ولما فرغ من كلامه هز أغلب اعضاء اللجنة رؤوسهم استحساناً ، وصمت من عنانهم الكلام . لم يكن ثمة أدنى شك في ان الرجل من عجينة أخرى ، وأنه أحقهم برئاسة اللجنة ، لكن ربما لأنه ليس من أهل البلد لم ينتخبوه .

* * *

بعد هذا بنحو أسبوع ، حدث شيء أذهلني . دعاني محبوب لمجلس شراب . وبينما نحن نسمر جاء مصطفى يكلم محجوباً في شأن من شؤون المشروع . دعاه محجوب ان يجلس فاعتذر ، ولكن محجوباً حلف عليه بالطلاق . مرة أخرى لاحظت سحابة التبرم تنعقد ما بين عينيهِ ، ولكنه جلس ، وعاد بسرعة الى هدوئه الطبيعي . وناولهُ محجوب كأساً من الشراب ، فتردد برهة ثم أمسك بها ووضعها الى جانبه

دون ان يشرب منها . ومرة أخرى أقسم محبوب ، فشرب مصطفى . كنت أعرف محجوباً متهوراً ، فخطر لي أن أمنعه عن مضايقة الرجل ، اذ من الواضح أنه غير راغب في الجلسة أصلاً . لكن خاطراً آخر هجس في ذهني ، فتوقفت . شرب مصطفى الكأس الاولى باشمئزاز واضح ، شربها بسرعة ، كأنها دواء مقيت . لكنه لما وصل الى الكأس الثالثة ، أخذ يبطن ويص الشراب مصاً ، بلذة . حينئذ ارتخت عضلات وجهه ، وغاب التوتر في أركان فمه ، وأصبحت عيناه حالمتين ناعستين ، أكثر من ذي قبل . القوة التي تحسها في رأسه وجبهته وأنفه ، ضاعت تماماً في الضعف الذي سال ، مع الشراب ، على عينيه وفمه . وشرب مصطفى كأساً رابعة ، وكأساً خامسة . لم يعد في حاجة إلى تشجيع ، لكن محجوباً كان يحلف بالطلاق على أي حال . دفن مصطفى قامته في المقعد ، ومدد رجله . وأمسك الكأس بكلتا يديه ، وصرحت عيناه ، كما خيل لي ، في آفاق بعيدة ، ثم ، فجأة ، سمعته يتلو شعراً إنكليزياً ، بصوت واضح ونطق سليم . قرأ قصيدة وجدت فيها بعد بين قصائد عن الحرب العالمية الأولى :

« هؤلاء نساء فلاندرز

ينتظرن الضائعين ،

ينتظرن الضائعين الذين أبداً لن يفادروا الميناء ،

ينتظرن الضائعين الذين أبداً لن يجيء بهم القطار ،

إلى أحضان هؤلاء النسوة ، ذوات الوجوه الميتة ،
ينتظرن الضائعين ، الذين يرقدون موتى في الخنادق
والحاجز والطين في ظلام الليل .
هذه محطة تشارنغ كروس . الساعة جاوزت الواحدة .
ثمة ضوء ضئيل
ثمة ألم عظيم .

بعد ذلك تأوه ، وهو لا يزال ممسكاً بالكأس بين يديه ،
وعيناه سارحتان ، في آفاق داخل نفسه .

أقول لكم ، لو أن عفريتاً انشقت عنه الأرض فجأة ،
ووقف أمامي ، عيناه تقدحان الذهب ، لما ذعرت أكثر مما
ذعرت . وخامرني ، بفتنة ، شعور فظيع ، شيء مثل
الكاپوس ، كأننا نحن الرجال المجتمعين في تلك الغرفة ، لم
نكن حقيقة ، إنما وهماً من الأوهام . وقفزت ، ووقفت فوق
الرجل ، وصحت فيه : « ما هذا الذي تقول ؟ ما هذا الذي
تقول ؟ » نظر إلي نظرة جامدة ، لا أدري كيف أصفها ،
لكن لعلها كانت خليطاً من الاحتقار والضيق . ودفعني بعنف
بيده ، ثم هب واقفاً ، وخرج من الغرفة في خطوات ثابتة ،
مرفوع الرأس ، كأنه شيء ميكانيكي . كان محجوب مشغولاً ،
يضحك مع بقية من في المجلس ، فلم ينتبه لما حدث .

ذهبت إليه ثاني يوم في حقله ، فوجدته مكباً يحفر الأرض
حول شجرة ليمون . كان مرتدياً سروالاً من السكاكي قصيراً

متسخاً ، وقميصاً من الدبلان يصل إلى ركبتيه ، وعلى وجهه
بقع من الطين . حيائي بأدبه الجرم كعادته وقال لي : « بعض
فروع هذه الشجرة تثمر ليمونا ، وبعضها يثمر برتقالاً » .
فقلت له بالانجليزي ، عمداً : « شيء مدهش » . فنظر إلي
مستغرباً وقال : « ماذا ؟ » فأعدت الجملة . ضحك وقال لي :
« هل أنستك إقامتك الطويلة في المجلثا العربي ، أم تحسب
اننا خواجات ؟ » قلت له : « لكنك ليلة أمس قرأت الشعر
باللغة الانجليزية » .

غاطني صمته . فقلت له : « من الواضح انك شخص آخر
غير ما تزعم . من الخير أن تقول لي الحقيقة » . لم يبد عليه
أي تأثير بالتهديد الذي ضمنته كلامي ، ومضى يحفر حول
الشجرة . ولما فرغ من حفرة ، قال وهو ينفخ الطين عن
يديه دون أن ينظر إلي :

« لا أدري ماذا قلت وماذا فعلت في الليلة الماضية .
السكران لا يؤخذ على كلامه . إذا كنت قلت شيئاً ، فهو
كخترفة النائم ، أو هذيان المموم . لست له قيمة . أنا هو
هذا الشخص الذي أمامك ، كما يعرفه كل أحد في البلد . لست
خلاف ذلك ، وليس عندي شيء أخفيه » .

ذهبت إلى البيت ، ورأسي يضح بالأفكار . أنا واثق ان
وراء « مصطفى » قصة ، أو شيئاً لا يود أن يبوح به . هل
خانتني أذناي ليلة البارحة ؟ الشعر الانجليزي الذي قرأه ،

كان حقيقة . لم أكن سكران ، ولم أكن نائماً ، وصورته وهو جالس في ذلك المقعد ، ممدأرجليه ، ممسكاً بالكأس بـكلتا يديه ، صورة واضحة لا مرأى فيها . هل أحدث أبي ؟ هل أقول لمحجوب ؟ لعل الرجل قتل أحداً في مكان ما وفر من السجن ؟ لعله .. لكن أية أسرار في هذا البلد ؟ لعله فقد ذاكرته ؟ يقال أن بعض الناس يصابون « بالامنيزيا » أثر حادث . وأخيراً قررت أن أمهله يومين أو ثلاثة ، فلماذا لم يأتني بالحقيقة ، كان لي معه شأن آخر .

لم يطل انتظاري ، فقد جاءني مصطفى عشية ذلك اليوم . وجد أبي وأخوي أيضاً ، فقال أنه يريد أن يحدثني على انفراد . قمت معه ، فقال لي : « هل تحضر إلى بيتي مساء غد ؟ أريد أن أتحدث إليك » . ولما عدت سألتني أبي : « ماذا يريد مصطفى ؟ » فقلت له انه يريدني أن أفسر له عقداً بملكية أرض له في الخرطوم .

رحت إليه عند المغيب ، فوجدته وحده ، أمامه آنية شاي . عرض علي الشاي فأبيت ، فقد كنت في الحقيقة أتعجل سماع القصة . لا بد أنه قرر أن يقول الحقيقة . أعطاني سيجارة فقبلتها .

تفرست في وجهه وهو ينفث الدخان ببطء ، فبدأ هادئاً قوياً . أبعدت الفكرة ، وأنا أنظر في وجهه ، أت يكون قاتلاً . استعمال العنف يترك أثراً في الوجه لا تخطئه العين .

أما أنه فقد ذاكرته ، فهذا محتمل . وأخيراً بدأ مصطفى يتحدث ، ورأيت الطيف الساخر حول عينيه أوضح من أي وقت رأيت فيه . شيء محسوس ، كأنه لمع البرق .

« سأقول لك كلاماً لم أقله لأحد من قبل . لم أجد سبباً لذلك قبل الآن . قررت هذا حتى لا يجمع خيالك ، وأنت درست الشعر ، . ضحكك حتى يخفف حدة الاحتقار التي بدت في صوته وهو يقول هذا .

« خفت أن تذهب وتحدث إلى الآخرين . تقول لهم أنني لست الرجل الذي أزعـم . فيحدث . . يحدث بعض الحرج ، لي ولهم . لذا فإن لي عندك رجاء واحداً . أن تعديني بشرفك ، أن تقسم لي بأنك لن تبوح لخلق بشيء مما سأحدثك به الليلة . ونظر إلي نظرة مركزة . فقلت له :

« هذا يعتمد على ما ستقوله لي . كيف أعدك وأنا لا أعلم عنك شيئاً ؟ » .

فقال : « انني أقسم لك بأن شيئاً مما سأقوله لك لن يؤثر على وجودي في هذا البلد . انني رجل في كامل عقلي ، مسالم ، لا أحب لهذا البلد وأهله إلا الخير » .

لا أكتمك أنني ترددت . لكن اللحظة كانت مشحونة بالاحتمالات ، وكان فضولي عارماً ليس له حد . خلاصة القول أنني وعدت وأقسمت ، فدفع مصطفى إلي برزمة أوراق وأوماً لي أن أنظر فيها فتحت ورقة فاذا هي وثيقة ميلاده .

مصطفى سعيد ، من مواليد الخرطوم ، ١٦ أغسطس عام ١٨٩٨ ... الأب متوفي ، الأم فاطمة عبد الصادق ، فتحت بعد ذلك جواز سفره ، الاسم ، المولد ، البلد ، كما في شهادة الميلاد . المهنة « طالب » . تاريخ صدور الجواز عام ١٩١٦ في القاهرة وجدده في لندن عام ١٩٢٦ . كان ثمة جواز سفر آخر ، انكليزي ، صدر في لندن عام ١٩٢٩ . قلبت صفحاته فاذا أختام كثيرة ، فرنسية وألمانية وصينية ودنماركية . كل هذا شحذ خيالي بشكل لا يوصف ، فلم أستطع المضي في تقليب صفحات جواز السفر ، وانصرف ذهني عن بقية الأوراق . ولا بد أن وجهي كان مشحوناً بالترقب حين نظرت إليه . مضى مصطفى ينفث في دخان سيجارته برهة ، ثم قال :

انها قصة طويلة . لكنني لن أقول لك كل شيء . وبعض التفاصيل لن تهمل كثيراً ، وبعضها ... المهم انني كما ترى ولدت في الخرطوم . نشأت يتيماً ، فقد مات ابي قبل أن أولد ببضعة أشهر ، لكنه ترك لنا ما يستر الحال . كان يعمل في تجارة الجمال . لم يكن لي أخوة ، فلم تكن الحياة عسيرة علي وعلى أمي . حين أرجع الآن بذاكرتي ، أراها بوضوح ، شفتاها الرقيقتان مطبقتان في حزم ، وعلى وجهها شيء مثل القناع . لا أدري . قناع كثيف ، كأن وجهها صفحة بحر ، هل تفهم ؟ ليس له لون واحد بل ألوان متعددة ، تظهر وتغيب وتتنازع . لم يكن لنا أهل . كنا ، أنا وهي ، أهلاً بعضنا لبعض . كانت كأنها شخص غريب جمعتني به الظروف صدفة في الطريق . لعاني كنت مخلوقاً غريباً ، أو لعل أمي كانت غريبة . لا أدري . لم نكن نتحدث كثيراً ، وكنت ، ولعلك تعجب ، أحس احساساً دافئاً بأنني حر ، بأنه ليس ثمة مخلوق أب أو أم ، يربطني كالوقد الى بقعة معينة ومحيط معين . كنت

أقرأ واثام ، أخرج وأدخل ، اللعب خارج البيت ، أتسكع في الشوارع ، ليس ثمة أحد يأمرني أو ينهاني . الا أنني منذ صغري ، كنت أحس بأنني ... انني مختلف . أقصد انني لست كبقية الاطفال في سني ، لا أتاثر بشيء لا أبكي اذا ضربت ، لا أفرح اذا أثنى عليّ المدرس في الفصل ، لا أتاالم لما يتاالم له الباقون . كنت مثل شيء مكور من المطاط ، تلقيه في الماء فلا يبتل ، ترميه على الارض فيقفز . كان ذلك الوقت أول عهدنا بالمدارس أذكر الآن الناس كانوا غير راغبين فيها . كانت الحكومة تبعث أعوانها يحوون البلاد والاحياء ، فيخفي الناس ابناءهم . كانوا يظنونها شراً عظيماً جاءهم مع جيوش الاحتلال . كنت اللعب مع الصبية خارج دارنا ، فجاء رجل على فرس ، في زي رسمي ، ووقف فوقنا . جرى الصبية ، وبقيت انظر الى الفرس والى الرجل فوقه . سألتني عن اسمي فأخبرته . قال لي كم عمرك ، فقلت له لا ادري . قال لي : « هل تحب ان تتعلم في المدرسة ؟ » قلت له : « ما هي المدرسة ؟ » فقال لي : « بناء جميل من الحجر وسط حديقة كبيرة على شاطئ النيل . يدق الجرس وتدخل الفصل مع التلاميذ . تتعلم القراءة والكتابة والحساب » . قلت للرجل : « هل البس عمامة كهذه ؟ » وأشرت الى شيء كالقبة فوق رأسه . فضحك الرجل وقال لي : « هذه ليست عمامة . هذه برنيطة . قبة » . وترجل من على فرسه ووضعها فوق رأسي فغاب وجهي كله فيها . ثم قال الرجل : « حين تكبر ، وتخرج

من المدرسة ، وتصير موظفاً في الحكومة ، تلبس قبعة كهذه ،
قلت للرجل : « اذهب للمدرسة » . أردفني الرجل خلفه
فوق الحصان ، وحملي الى مكان ، كما وصفه ، من الحجر ،
على ضفة النيل ، تحيط به أشجار وأزهار . ودخلنا على رجل
ذي لحية ، يلبس جبة ، فقام وربت على رأسي ، وقال لي :
« لكن أين أبوك ؟ » فقلت له انت أبي ميت . فقال لي :
« من ولي امرك ؟ » قلت له : « أريد أن أدخل المدرسة » .
نظر اليّ الرجل بعطف ، ثم قيدوا اسمي في سجل ، وسألوني
كم عمري فقلت لهم لا أدري . وفجأة دق الجرس . فررت
منهم ، ودخلت إحدى الحجرات فجاء الرجلان وساقاني الى
حجرة أخرى واجلساني في مقعد بين صبية آخرين .
عدت الى أمي في الظهر فسألتني أين كنت ، فحكيت
لها القصة . نظرت اليّ برهة نظرة غامضة ، كأنها
أرادت أن تضمني الى صدرها . فقد رأيت وجهها
يصفو برهة ، وعينيهما تلمعان ، وشفتيها تفتران كأنها تريد أن
تبتسم ، أو تقول شيئاً . لكنها لم تقل شيئاً . وكانت تلك
نقطة تحول في حياتي . كان ذلك أول قرار اتخذته ،
بمحض إرادتي .

إنني لا أطلب منك أن تصدق ما أقوله لك . لك أن
تعجب وأن تشك . أنت حر . هذه وقائع مضى عليها وقت
طويل ، وهي كما ترى الآن ، لا قيمة لها . أقولها لك لأنها
تخبرني ، لأن الحوادث بعضها يذكر بالبعض الآخر .

المهم انني انصرفت بكل طاقاتي لتلك الحياة الجديدة .
وسرعان ما اكتشفت في عقلي مقدرة عجيبة على الحفظ
والاستيعاب والفهم . أقرأ الكتاب فيرسخ جملة في ذهني .
ما ألبث أن أركز عقلي في مشكلة الحساب حتى تتفتح لي
مغالقها ، تذوب بين يدي كأنها قطعة ملح وضعتها في الماء .
تعلمت الكتابة في أسبوعين ، وانطلقت بعد ذلك لا أروي
على شيء . عقلي كأنه مدية حادة ، تقطع في برود وفعالية .
لم أبال بدهشة المعلمين وإعجاب رفقائي أو حسد هم . كان
المعلمون ينظرون إليّ كأنني معجزة ، وبدأ التلاميذ يطلبون
وادي . لكنني كنت مشغولاً بهذه الآلة العجيبة التي أتيت لي .
وكنت بارداً كحقل جليد ، لا يوجد في العالم شيء يهزني .
طويت المرحلة الأولى في عامين ، وفي المدرسة الوسطى
اكتشفت ألغازاً أخرى ، منها اللغة الانكليزية . ففضى عقلي
بعض ويقطع كأسنان محراث . الكلمات والجل تتراهى لي
كأنها معادلات رياضية ، والجبر والهندسة كأنها أبيات شعر .
العالم الواسع أراه في دروس الجغرافيا ، كأنه رقعة شطرنج .
كانت المرحلة الوسطى أقصى غاية يصل إليها المرء في التعليم
تلك الأيام . وبعد ثلاثة أعوام ، قال لي ناظر المدرسة ، وكان
انكليزياً : « هذه البلد لا تتسع لذهنك ، فساfer . إذذهب إلى
مصر أو لبنان أو انكلترا . ليس عندنا شيء نعطيك إياه
بعد الآن » . قلت له على الفور : « أريد أن أذهب إلى
القاهرة » . فسهل لي ، فيما بعد ، السفر ، والدخول مجاناً

في مدرسة ثانوية في القاهرة ، ومنحة دراسية من الحكومة .
وهذه حقيقة في حياتي ، كيف قبضت الصدف لي قوماً
ساعدوني وأخذوا بيدي في كل مرحلة ، قوماً لم أكن أحس
تجاههم بأي إحساس بالجميل . كنت أقبل مساعداتهم ،
كانها واجب يقومون به نحوي .

حين أخبرني ناظر المدرسة بأن كل شيء أعد لسفري
للقاهرة ، ذهبت إلى أمي وحدثتها . نظرت إلى مرة أخرى ،
تلك النظرة الغريبة . افترت شفتاها لحظة كأنها تريد أن
تبتسم ، ثم أطبقتهما ، وعاد وجهها كمهده ، قناعاً كثيفاً ،
بل مجموعة أقنعة . ثم غابت قليلاً ، وجاءت بصرة وضعتها
في يدي ، وقالت لي :

« لو أن أباك عاش ، لما اختار لك غير ما اخترته
لنفسك . افعل ما تشاء . سافر . أو ابقَ ، انت وشأنك .
انها حياتك ، وأنت حرة فيها . في هذه الصرة ما تسمعين به .
كان ذلك وداعنا . لا دموع ولا قبل ولا ضواء . مخلوقان
سارا شطراً من الطريق معاً ، ثم سلك كل منهما سبيله .
وكان ذلك في الواقع آخر ما قالته لي ، فلأنني لم أرها بعد
ذلك . بعد سنوات طويلة ، وتجارب عدة ، تذكرت تلك
اللحظة ، وبكيت . أما الآن ، فلأنني لم أشعر بشيء
على الإطلاق . جمعت متاعي في حقيبة صغيرة ، وركبت
القطار . لم يلوّح لي أحد بيده ولم تنهمر دموعي لفراق أحد .

وضرب القطار في الصحراء ، ففكرت قليلا في البلد الذي خلفته ورائي ، فكان مثل جبل ضربت خيمتي عنده ، وفي الصباح قلعت الأوتاد وأمرجت بعيري ، وواصلت رحلتي . وفكرت في القاهرة ونحن في وادي حلفا ، فتخليها عقلي جبلا آخر ، أكبر حجما ، سأبيت عنده ليلة أو ليلتين ، ثم أواصل الرحلة إلى غاية أخرى .

أذكر أنني جلست في القطار قبالة رجل في مسوح وعلى رقبته صليب كبير أصفر . ابتسم الرجل في وجهي وتحدث معي باللغة الانكليزية ، فأجبته . أذكر تماما أن الدهشة بدت على وجهه واتسعت حدقتا عينيه أول ما سمع صوتي . دقق النظر في وجهي وقال لي : « كم سنك؟ » فقلت له خمسة عشر . كنت في الواقع في الثانية عشرة ، لكنني خفت أن يستخف بي . فقال الرجل : « إلى أين تقصد ؟ » فقلت له : « إنني ذاهب للالتحاق بمدرسة ثانوية في القاهرة » . فقال : « وحدك ؟ » قلت نعم . نظر إلي مرة أخرى نظرة طويلة فاحصة ، فقلت له قبل أن يتكلم : « إنني أحب السفر وحدي . مم أخاف؟ » حينئذ قال لي جملة لم أحفل بها كثيرا وقتذاك . وأضاءت وجهه ابتسامة كبيرة وأردف : « إنك تتحدث اللغة الانكليزية بطلاقة مذهلة » .

وصلت القاهرة ، فوجدت مستر روبنسن وزوجته في انتظارني ، فقد أخبرهما مستر ستكول بقدومي . صافحني

الرجل وقال لي : « كيف أنت يا مستر سعيد ؟ » فقلت له :
« أنا بخير يا مستر روبنسن » . ثم قدمني إلى زوجته . وفجأة
أحسست بذراعي المرأة تطوقانني ، وبشفتيها على خدي .
في تلك اللحظة ، وأنا واقف على رصيف المحطة ، وسط
دوامة من الأصوات والأحاسيس ، وزندا المرأة ملتفان حول
عنقي ، وفها على خدي ، ورائحة جسمها ، رائحة أوربية
غريبة ، تدغدغ أنفي ، وصدرها يلامس صدري ، شعرت
وأنا الصبي ابن الاثني عشر عاماً بشهوة جنسية مبهمة لم أعرفها
من قبل في حياتي ، وأحسست كأن القاهرة ، ذلك الجبل
الكبير الذي حملني اليه بعيري ، امرأة أوربية ، مثل مسز
روبنسن تماماً ، تطوقني ذراعاها ، يملأ عطرها ورائحة
جسدها أنفي . كان لون عينيها كلون القاهرة في ذهني ،
رمادياً ، أخضر ، يتحول بالليل إلى وميض كوميض اليراعة .
كانت مسز روبنسن تقول لي : « أنت يا مستر سعيد
إنسان خال تماماً من المرح » . صحيح انني لم أكن أضحك .
وتضحك مسز روبنسن وتقول لي : « ألا تستطيع أن تنسى
عقلك أبداً ؟ » . ويوم حكموا عليّ في الأولد بيلي بالسجن سبع
سنوات ، لم أجد صدرأ غير صدرها أسند رأسي اليه . ربت
على رأسي وقالت : « لا تبك يا طفلي العزيز » . لم يكن لها
أطفال . كان مستر روبنسن يحسن اللغة العربية ، ويعنى
بالفكر الإسلامي والعمارة الإسلامية ، فزرت معها جوامع
القاهرة ، ومتاحفها وآثارها . وكانت أحب مناطق القاهرة

اليها ، منطقة الأزهر . كنا حين تكلل أقدامنا من الطواف ،
نلوذ بمقهى يجوار جامع الأزهر ، ونشرب عصير التمر هندي ،
ويقرأ مستر روبنسن شعر المعري . كنت وقتها مشغولاً
بنفسي ، فلم أحفل بالحب الذي أسبغاه علي . كانت مسز
روبنسن ممتلئة الجسم ، بروتزية اللون ، منسجمة مع القاهرة ،
كانها صورة منتقاة بذوق ، لتناسب لون الجدران في غرفة .
و كنت أنظر إلى شعر ابطيها وأحس بالذعر . . لعلها كانت
تعلم أنني أشتبهها ، لكها كانت عذبة ، أعذب امرأة عرفتها .
تضحك بمرح ، وتحنو علي كما تحنو أم علي لإنها .

وكانا على الرصيف حين أقلمت بي الباخرة من الاسكندرية .
ورأيتها من بعيد وهي تلوح لي بمنديلها ، ثم تجفف به الدمع
من عينيها ، وإلى جوارها زوجها ، واضعاً يديه على خصره ،
وأكاد أرى ، حتى من ذاك البعد ، صفاء عينيهِ
الزرقاوين . إلا أنني لم أكن حزينا ، كان كل هي أن أصل
لندن ، جبلاً آخر أكبر من القاهرة ، لا أدري كم ليلة أمكث
عنده . كنت في الخامسة عشرة ، يظنني من يراني في العشرين ،
متماسكاً على نفسي ، كأنني قرية منفوخة . ورائي قصة نجاح
فد في المدرسة ، كل سلاحي هذه المدية الحادة في حجمتي ،
وفي صدري إحساس بارد جامد ، كأن جوف صدري مصبوب
بالصخر ولما ابتلعت اللبحة الساحل ، وهاج الموج تحت
السفينة ، وإستدار الأفق الأزرق حوالينا ، أحسست قواً

بالفة غامرة للبحر. انني أعرف هذا الصلاق الأخضر اللامنتهي ،
كأنه يمور بين ضلوعي . واستمرت طيلة الرحلة ذلك الاحساس
في أني في لا مكان ، وحدي ، أمامي وخلفي الأبد أو لا شيء
وصفحة البحر حين يهدأ سراب آخر ، دائم التبدل والتحول ،
مثل القناع الذي على وجه أمي . هنا أيضاً صحراء مخضرة
مزرقة ممتدة ، تناديني ، تناديني . وقادني النداء الغريب إلى
ساحل دوفر ، وإلى لندن ، وإلى المأساة . لقد سلكت ذلك
الطريق بعد ذلك عائداً . وكنت أسائل نفسي طوال الرحلة ،
هل كان من الممكن تلافي شيء مما وقع ؟ وتر القوس مشدود ،
ولا بد أن ينطلق السهم . وأنظر إلى اليسار واليمين ، إلى
الحضرة الداكنة ، والقرى السكسونية القائمة على حوافي التلال .
سحوف البيوت حمراء ، محدودة كظهور البقر ، وثمة غلالة
شفافة من الضباب ، منشورة فوق الوديان . ما أكثر الماء هنا
وما أرحب الحضرة . وكل تلك الألوان . ورائحة المكاث
غريبة ، كرائحة جسد مسز روبنسن . والأصوات لها وقع
نظيف في أذني ، مثل حفيف أجنحة الطير . هذا عالم منظم ،
بيوته وحقوقه وأشجاره مرسومة وفقاً لحطة . القدران كذلك ،
لا تتعرج ، بل تسيل بين شطآن صناعية . ويقف القطار في
الحطة ، يضع دقائق . يخرج الناس مسرعين ، ويدخلون
مسرعين ، ثم يتحرك القطار . لا ضوضاء . وفكرت في حياتي
في القاهرة . لم يحدث شيء ليس في الحسبان . زادت معلوماتي .
وحدثت لي أحداث صغيرة ، وأحبتي زميلة لي ثم كرهتني

وقالت لي : « أنت لست انساناً . أنت آلة صماء » . تسكمت في شوارع القاهرة ، وزرت الأوبرا ، ودخلت المسرح ، وقطعت النيل ساجماً ذات مرة . لم يحدث شيء اطلاقاً ، سوى أن القربة زادت انتفاخاً ، وتوتر وتر القوس . سينطلق السهم نحو آفاق أخرى مجهولة . وانظر إلى دخان القطار ، يتلاشى ، حيث تهب به الريح ، في غلالة الضباب المنتشرة في الوديان . وأخذتني سنة من النوم . وحملت أنني أصلي وحدي في جامع القلعة . كان المسجد مضاء بآلاف الشمعدانات ، والرخام الأحمر يتوهج ، وأنا وحدي أصلي . واستيقظت وفي أنفي رائحة البخور ، فاذا القطار يقترب من لندن . القاهرة مدينة ضاحكة ، وكذلك مسز روبنسن . كانت تريدني أن أناديها باسمها الأول ، اليزابيت ، لكنني كنت أناديها باسم زوجها . تعلمت منها حب موسيقى باخ ، وشعر كيتس ، وسمعت عن مارك توين لأول مرة منها . لكنني لم أكن أستمتع بشيء . وتضحك مسز روبنسن وتقول لي : « ألا تستطيع أن تنسى عقلك أبداً ؟ » هل كان من الممكن تلافي شيء مما حدث ؟ كنت عائداً حينذاك وتذكرت ما قاله لي القسيس ، وأنا في طريقي إلى القاهرة : « كلنا يا بني نساfer وحدنا في نهاية الأمر » . كانت يده تتحسس الصليب على صدره . وأضاءت وجهه ابتسامة كبيرة وأردف : « أنك تتحدث اللغة الانكليزية بطلاقة مذهلة » . اللغة التي أسمعها الآن ليست كاللغة التي تعلمتها في المدرسة . هذه أصوات حية ، لها جرس آخر .

كان عقلي كأنه مدية حادة . لكن اللغة ليست لغتي . تعلمت فصاحتها بالممارسة . وحلني القطار إلى محطة فكتوريا ، وإلى عالم جين مورس .

كل شيء حدث قبل لغائي إياها ، كانت ارهاصاً . وكل شيء فعلته بعد أن قتلتها كان اعتذاراً ، لا لقتلها ، بل لاذوبة حياتي . كنت في الخامسة والعشرين حين لقيتها ، وفي حفل في تشلسي . الباب ، وممر طويل يؤدي إلى القاعة . فتحت الباب ، وتريثت ، وبدت لعيني تحت ضوء المصباح الباهت كأنها سراب لمع في صحراء . كنت نخبوراً ، كأسى بقي ثلثها ، وحوالي فتاتان ، أتفحش معها ، وتضحكان . وجاءت تسعى نحونا بخطوات واسعة ، تضع ثقل جسمها على قدمها اليمنى ، فيميل كفلها إلى اليسار . وكانت تنظر إلي وهي قادمة . وقفت قبالي ونظرت إلي بصلف وبرود... وشيء آخر . وفتحت فمي لا تكلم ، لكنها ذهبت . وقلت لصاحبي « من هذه الانثى ؟ » .

كانت لندن خارجة من الحرب ومن وطأة المهدالفكتوري . عرفت حانات تشلسي ، وأندية هامبستد ، ومنتديات بلومزبري . أقرأ الشعر ، واتحدث في الدين والفلسفة ، وانقد الرسم ، وأقول كلاماً عن روحانيات الشرق . أفعل كل شيء حتى أدخل المرأة في فراشي . ثم أسير إلى صيد آخر . لم يكن في نفسي قطرة من المرح ، كما قالت مسز روبنسن . جذبت

النساء الى فراشي من بين فتيات جيش الخلاص ، وجميعات الكويكرز ، ومجتمعات الفابيانيين . حين يجتمع حزب الاحرار او العمال او المحافظين أو الشيوعيين ، أصرح بعيري واذهب . وفي المرة الثانية ، قالت لي جين مورس : « أنت بشع . لم أر في حياتي وجهاً بشعاً كوجهك » . وفتحت فمي لأتكلم لكنها ذهبت . وحلفت في تلك اللحظة ، وأنا سكران انني سأقتاضها الثمن في يوم من الايام . وصحوت وآن همد الى جواربي في الفراش . أي شيء جذب آن همد اليّ ؟ ابوها ضابط في سلاح المهندسين ، وامها من العوائل الثرية في لفربول كانت صيداً سهلاً ، لقيتها وهي دون العشرين ، تدرس اللغات الشرقية في اكسفورد . كانت حية ، وجهها ذكي مرح وعيناها تبرقان بحب الاستطلاع . رأني فرأت شفقا داكناً كفجر كاذب . كانت عكسي تعن الى مناخات استوائية ، وشموس قاسية ، وآفاق أرجوانية . كنت في عينها رمزاً لكل هذا الخبز . وأنا جنوب يحن الى الشمال والصقيع . آن همد قضت طفولتها في مدرسة راهبات . عمتها زوجة نائب في البرلمان . حولتها في فراشي الى عاهرة . غرفة نومي مقبرة تطل على حديقة ، ستائرهما وردية منتقاة بعناية ، وسجاد سندسي داقيء والسرير رحب مخداته من ريش النعام . وأضواء كهربائية صغيرة ، حمراء ، وزرقاء ، وبنفسجية ، موضوعة في زوايا معينة . وعلى الجدران مرايا كبيرة ، حتى اذا ضاجعت امرأة ، بدا كأنني اضاجع حريماً كاملاً في آن واحد . تعبق

في الغرفة رائحة الصندل المحروق والند ، وفي الحمام عطور شرقية نفاذة ، وعقاقير كياوية ، ودهون ، ومساحيق ، وجبوب . غرفة نومي كانت مثل غرفة عمليات في مستشفى . ثمة بركة ساكنة في اعماق كل امرأة . كنت أعرف كيف أحركها . وذات يوم وجدوها ميتة انتحاراً بالغاز ووجدوا ورقة صغيرة باسمي . ليس فيها سوى هذه العبارة : مسر سعيد . لعنة الله عليك . كان عقلي كأنه مدية حادة . وحلني القطار الى محطة فكتوريا . والى عالم جين مورس

في قاعة المحكمة الكبرى في لندن ، جلست أسابيع أستمع إلى المحامين يتحدثون عني ، كأنهم يتحدثون عن شخص لا يهمني أمره . كان المدعي العمومي سير آرثر هفنز عقل مريع ، أعرفه تمام المعرفة ، علمني القانون في أكسفورد ، ورأيت من قبل ، في هذه المحكمة نفسها وفي هذه القاعة ، يعتصر المتهمين في قفص الاتهام اعتصاراً . نادراً ما كان يفلت منهم من يده . ورأيت متهمين يبكون ويفمى عليهم ، بعد أن يفرغ من استجوابهم . لكنه هذه المرة كان يصارع جثة .

« هل تسببت في انتحار آن همد ؟ »

« لا أدري »

« وشيلا غرينود ؟ »

« لا أدري »

« وإيزابيلا سيمور ؟ »

« لا أدري »

« هل قتلت جين مورس ؟ »

« نعم »

« قتلتها عمدا ؟ »

« نعم »

كان صوته كأنما يصلني من عالم آخر . ومضى الرجل يرسم
بجذق صورة مريخة لرجل ذئب ، تسبب في انتحار فتاتين ،
وحطم امرأة متزوجة ، وقتل زوجته ، رجل أثافي ،
انصبت حياته كلها على طلب اللذة . ومرة خطر لي في
غيبوبي ، وأنا جالس هناك أستمع إلى أستاذي ، برفسور
ماكسول فستر كين ، يحاول أن يخلصني من المشقة ، أن أقف
وأصرخ في المحكمة : « هذا المصطفى سعيد لا وجود له .
انه وهم ، أكذوبة . واني أطلب منكم أن تحكموا بقتل
الأكذوبة » . لكنني كنت هامداً مثل كومة رماد .
ومضى برفسور ماكسول فستر كين يرسم صورة لعقل عبقرى
دفعته الظروف إلى القتل ، في لحظة غيرة وجنون . روى
لهم كيف انني عينت محاضراً للاقتصاد في جامعة لندن ،
وأنا في الرابعة والعشرين . قال لهم أن « آن همد » و « شىلا
غرينود » كانتا فتاتين تبحثن عن الموت بكل سبيل ،
وانها كانتا ستنتحران سواء قابلتا مصطفى سعيد أو لم
تقابلاه . « مصطفى سعيد يا حضرات المحلفين إنسان نبيل ،
استوعب عقله حضارة الغرب ، لكنها حطمت قلبه . هاتان
الفتاتان لم يقتلها مصطفى سعيد ولكن قتلها جرثوم مرض

عضال أصابها منذ ألف عام . وخطر لي أن أقف وأقول لهم : « هذا زور وتلفيق . قتلتها أنا . أنا صحراء الظمأ . أنا لست عطيلاً . أنا أكذوبة . لماذا لا تحكمون بشنقي فتقتلون الأكذوبة ! » لكن برفسور فستر كين حوّل الحكمة إلى صراع بين عالمين ، كنت أنا إحدى ضحاياه . وحملني القطار إلى محطة فكتوريا ، وإلى عالم جين مورس .

لبثت أطاردها ثلاثة أعوام . كل يوم يزداد وتر القوس توتراً ، قربي مملوء هواء ، وقوافلي ظمأى ، والسراب يلعب أمامي في مناهة الشوق ، وقد تحدد مرمى السهم ، ولا مفر من وقوع المأساة . وذات يوم قالت لي : « أنت ثور هيجي لا يكل من الطراد . إنني تعبت من مطاردتك لي ، ومن جريبي أمامك . تزوجني » . وتزوجتها . غرفة نومي صارت ساحة حرب . فراشي كان قطعة من الجحيم . أمسكها فكأنني أمسك سحابة ، كأنني أضاجع شهاباً ، كأنني أمتطي صهوة نشيد عسكري بروسى . وتفتأ تلك الابتسامة المريرة على فمها . أقضي الليل ساهراً ، أخوض المعركة بالقوس والسيف والرمح والنشاب ، وفي الصباح أرى الابتسامة ما فتئت على حالها ، فاعلم انني خسرت الحرب مرة أخرى . كأنني شهريار رقيق ، تشتريه في السوق بدينار ، صادف شهرزاد متسولة في أنقاض مدينة قتلها الطاعون . كنت أعيش مع نظريات كينز وتوني بالنهار ، وبالليل أواصل الحرب بالقوس والسيف والرمح والنشاب . رأيت الجنود يعودون ، يملؤم

الذعر ، من حرب الخنادق والقمل والوباء . رأيتهم يزرعون
بذور الحرب القادمة في معاهدة فرساي ، ورأيت لويد
جورج يضع أسس دولة الرفاهية العامة . وانقلبت
المدينة إلى امرأة عجيبة ، لها رموز ونداءات غامضة ،
ضربت اليها أكباد الابل ، وكاد يقتلني في طلابها الشوق ،
غرفة نومي ينبوع حزن ، جرثوم مرض فتاك . العدوى
أصابته منذ ألف عام ، لكنني هيجت كوامن الداء حتى
استفعل وقتل . وكان المغنون يرددون أهازيج الحب الحقيقي
والمرح في مسارح لستر سكوير ، فلم يخفق لها قلبي . من كان
يظن أن شيلا غرينود تقدم على الانتحار ؟ خادمة في مطعم
في سوهو . بسيطة حلوة البسم ، حلوة الحديث . أهلها
قرويون من ضواحي هل . أغريتها بالهدايا والكلام المعسول ،
والنظرة التي ترى الشيء فلا تخطئه . جذبها عالمي الجديد
عليها . دوختها رائحة الصندل المحروق والند ، ووقفت وقتاً
تضعك لحياتها في المرأة ، وتعبث بعقد العاج الذي وضعته
كانشوطة حول جيدها الجميل . دخلت غرفة نومي بتولاً
بكراً ، وخرجت منها تحمل جرثوم المرض في دمها . ماتت
دون أن تنبس ببنت شفة . ذخيرتي من الأمثال لا تنفد .
ألبس لكل حالة لبوسها ، شئ يعرف متى يلاقي طبقه .
« أليس صحيحاً أنك في الفترة ما بين أكتوبر ١٩٢٢
وفبراير ١٩٢٣ ، في هذه الفترة وحدها على سبيل المثال ،
كنت تعيش مع خمس نساء في آن واحد ؟ » .

« بلى ، .

« وانك كنت توم كلاً منهم بالزواج ؟ »

« بلى ، .

« وانك انتحلت إسماء مختلفاً مع كل منهم ؟ »

« بلى ، .

« انك كنت حسن ، وتشارلز ، وأمين ، ومصطفى ،

ورتشارد ؟ »

« بلى ، .

« ومع ذلك كنت تكتب وتحاضر عن الاقتصاد المبنى على الحب لا على الأرقام ؟ أليس صحيحاً انك أقمت شهرتك بدعوتك الانسانية في الاقتصاد ؟ »

« بلى ، .

ثلاثون عاماً . كان شجر الصفصاف يبيض ويخضر ويصفر في الحدائق ، وطير الوقوق يغني للربيع كل عام . ثلاثون عاماً وقاعة البرت تفص كل ليلة بمشاق بيتهوفن وباخ ، والمطابع تخرج آلاف الكتب في الفن والفكر . مسرحيات برنارد شو تمثل في الرويال كورت والهيباركت . كانت ايدث ستول تغرد بالشعر ، ومسرح البرنس اف ويلز يفيض بالشباب واللقى . البحر في مده وجزره في بورتسموث وبرايثن ، ومنطقة البحيرات تزدهي عاماً بعد عام . الجزيرة مثل لحن عذب ، سعيد حزين ، في تحول سراي مع تحول الفصول . ثلاثون عاماً

وأنا جزء من كل هذا ، أعيش فيه ، ولا أحس جماله الحقيقي ،
ولا يعنيني منه إلا ما يملأ فراشي كل ليلة .
نعم . في الصيف . قالوا ان صيفاً مثله لم يأتهم منذ مائة
عام . وخرجت من داري يوم سبت اشمشم الهواء ، وأحس
بانني مقبل على صيد عظيم . وصلت ركن الخطباء في حديقة
هايد بارك . كان غاصاً بالخلق . وقفت عن بعد أستمع إلى
خطيب من جزر الهند الغربية يتحدث عن مشكلة الملونين .
استقرت عيني فجأة على امرأة تشرئب بعنقها لرؤية الخطيب ،
فيرتقع ثوبها إلى ما فوق الركبتين ، مظهرأ ساقين ملتفتين من
البرونز . نعم هذه فريسي . وسرت اليها ، كالقارب يسير
إلى الشلال . ووقفت وراءها ، والتصقت حتى أحسست
بجاراتها تسري إلي . وشممت رائحة جسدها ، تلك الرائحة
التي استقبلتني بها مسز روبنسون على رصيف محطة القاهرة .
واقتربت منها حتى أحست بي ، فالتفتت إلي فجأة ، فابتسمت
في وجهها ابتسامة لم أكن أعلم مصيرها ، لكنني عزمت على
ألا تضيع هباء . وضحكت أيضاً ، حتى لا تنقلب الدهشة
في وجهها إلى عدااء فابتسمت . ووقفت إلى جانبها نحواً من
ربع الساعة ، أضحك حين يضحكها قول الخطيب ، وأضحك
بصوت مرتفع لكي تسري فيها عدوى الضحك ، حتى
جاءت لحظة ، أحسست فيها انني وهي صرنا كفرس ومهرة ،
يركضان في تناسق ، جنباً إلى جنب . وهنا خرج الصوت
من حلقي ، كأنه ليس صوتي : « ما رأيك في شراب ،

بمبدأ عن هذا الزحام والحر ؟ ، أدارت رأسها بدهشة ، فابتسمت هذه المرة ابتسامة عريضة بريئة ، حتى أحول الدهشة إلى حب استطلاع على الأقل . وفي أثناء ذلك تفرست في وجهها ، فوجدت كل سمة من سماته يزيدني اقتناعاً بأن هذه فريسي . كنت أعلم ، بطبيعة المقامر ، ان تلك اللحظة حاسمة . كل شيء في هذه اللحظة محتمل . وتحولت ابتسامتي إلى سرور كاد يفلت زمامه من يدي حين قالت : « نعم . ولم لا ؟ » وسرنا معاً ، أحسن بها إلى جانبي وهجاً من البرونز تحت شمس يوليو ، أحسن بها مدينة من الأسرار والنعم . وسرني انها تضحك بسهولة . هذه السيدة ، نوعها كثير في أوروبا ، نساء لا يعرفن الخوف ، يقبلن على الحياة بمرح وحب استطلاع . وأنا صحراء الظما ، متاهة الرغائب الجنونية . وسألتنني ونحن نشرب الشاي عن بلدي . رويت لها حكايات ملفقة عن صحاري ذهبية الرمال ، وأدغال تنصايح فيها حيوانات لا وجود لها . قلت لها ان شوارع عاصمة بلادي تمج بالأفيال والأسود ، وتزحف عليها التماسيح عند القيلولة . وكانت تستمع إلى بين مصدقة ومكذبة . تضحك ، وتغمض عينيها ، وتحمّر وجنتاها . وأحياناً تصفي إلي في صمت ، وفي عينيها عطف مسيحي . وجاءت لحظة أحسست فيها انني انقلبت في نظرها مخلوقاً بدائياً غريباً ، يملك بيده رحماً ، وبالأخرى شاباً ، يصيد الفيلة والأسود في الأدغال . هذا حسن . لقد تحول حب الاستطلاع إلى مرح ، وتحول

المرح إلى عطف ، وحين أحرك البركة الساكنة في الأعماق ،
يستحيل العطف إلى رغبة أعزف على أوتارها المشدودة كما
يحلولي . وسألتني : « ما جنسك ؟ هل أنت أفريقي أم
آسيوي ؟ »

قلت لها : « أنا مثل عطيل . عربي أفريقي » .
نظرت إلى وجهي وقالت : « نعم . أنفك مثل أنوف
العرب في الصور . لكن شعرك ليس فاحماً ناعماً مثل شعر
العرب » .

« نعم . هذا أنا . وجهي عربي كصحراء الربع الخالي ،
ورأسي أفريقي يور بطفولة شريرة » .

ضحكت وقالت : « أنت تصور الأشياء بشكل غريب » .
وقادنا الحديث إلى أهلي ، فقلت لها ، غير كاذب هذه
المرّة ، انني يتيم وليس لي أهل . ثم عدت إلى الكذب ،
فوصفت لها وصفاً مهولاً كيف فقدت والدي ، حتى رأيت
الدمع يطفر إلى عينيها . قلت لها انني كنت في السادسة من
عمرّي ، حين غرق والداي مع ثلاثين آخرين في مركب كان
يعبر بهم النيل من شاطيء إلى شاطيء . وهنا حدث شيء كان
أفضل من الرثاء . الرثاء في مثل هذه الأمور عاطفة غير
مضمونة المواقب . لمعت عيناها ، وصاحت في نشوة :

« تأيل ؟ »

« نعم النيل » .

أنتم إذن تسكنون على ضفاف النيل ؟ »

« أجل ، بيتنا على ضفة النيل تماماً بحيث انني كنت ،
إذا استيقظت على فراشي ليلاً ، أخرج يدي من النافذة
وأداعب ماء النيل حتى يغلبني النوم » .

الطائر يا مستر مصطفى قد وقع في الشرك . النيل ،
ذلك الإله الأفعى ، قد فاز بضحية جديدة . المدينة قد
تحولت إلى امرأة . وما هو إلاّ يوم أو أسبوع ، حتى أضرب
خيمتي ، وأغرس وتدي في قمة الجبل . أنت يا سيدتي قد
لا تعلمين ، ولكنك ، مثل « كارنافون » حين دخل قبر
توت عنخ آمون ، قد أصابك داء فتاك لا تدرين من أين أتى ،
سيودي بك إن عاجلاً وان أجلاً . ذخيرتي من الأمثال لا
تنفد . شئ يعرف متى يلاقي طبقه . وأحسست بزمام الحديث
في يدي ، كفنان مهره مطواع ، اشدّه فتقف ، اهزه فتمشي ،
احركه فتمحرك وفقاً لإرادتي ، إن يميناً وإن شمالاً .
وقلت لها :

« مضت ساعتان دون أن أحس بها . لم أحس بمثل هذه
السعادة منذ زمن بعيد . وبقي كثيراً أقوله لك وتقولينه لي .
ما رأيك في ان تتمشى معاً ، ونواصل الحديث ؟ »

صمتت برهة ، فلم أقلق ، لأنني احسست بذلك الدفء
الشيطاني ، تحت الحجاب الحاجز حين احسه أعلم انني مسيطر
على زمام الموقف . لا ، انها لن تقول لا . وقالت : « هذا
لقاء عجيب . رجل غريب لا اعرفه يدعوني . هذا لا يجوز ،

لكن .. ، وصمتت ثم قالت : « نعم . لم لا ؟ هيثك لا تدل على انك من آكلة لحوم البشر » .

قلت لها ، وموجة الفرح تتحرك في ، جذور قلبي :
« ستجدين انني تمسح عجوز سقطت اسنانه . لن أقوى على أكلك حتى لو أردت » . قدرت انني اصفرها بخمسة عشر عاماً على الأقل ، امرأة في حدود الأربعين ، مها حدثت لها من التجارب فإن الزمن قد عامل جسدها بجنو . التجاعيد الدقيقة على جبهتها وعلى اركان فيها لا تقول لك انها شاخت ، بل تقول انها نضجت .

حينئذ فقط سألتها عن اسمها فقالت : « إيزابيلا سيمور » .
رددته مرتين ، وأنا أملأ به فهي ، كأنني آكل ثمرة كمثرى .

« و انت ما اسمك ؟ »

« أنا .. أمين . امين حسن » .

« سأسميك حسن » .

ومع الشواء والنبيذ ، انفرجت اساريرها ، وقدفق حب تحس به نحو العالم بأسره ، عليّ انا . وانا لا يعنيني حبها للعالم . ولا سحابة الحزن التي تعبر وجهها من آن لآن ، بقدر ما تمنيني حمرة لسانها حين تضحك ، واكتناز شفيتها ، والأسرار الكامنة في قاع فها . وتحيلتها عارية ، وافحشت التخيل وهي تقول لي : « الحياة مليئة بالألم . لكن يجب علينا أن نتفاهل ، ونواجه الحياة بشجاعة » .

نعم أنا اعلم الآن ان الحكمة القريبة المنال ، تخرج من افواه البسطاء ، هي كل املنا في الخلاص . الشجرة تنمو ببساطة ، وجدك عاش وسيموت ببساطة . ذلك هو السر . صدقت يا سيدتي ، الشجاعة والتفاؤل . ولكن إلى ان يرث المستضعفون الأرض ، وتسرح الجيوش ، ويرعى الحمل آمناً يحوار الذئب ، ويلعب الصبي كرة الماء مع التمساح في النهر ، إلى ان يأتي زمان السعادة والحب هذا ، سأظل انا اعبر عن نفسي بهذه الطريقة الملتوية . وحين اصل لاهناً قمة الجبل ، وأغرس البيرق ، ثم ألتقط أنفاسي وأستجم - تلك يا سيدتي نشوة اعظم عندي من الحب ، ومن السعادة . ولهذا ، فأنا لا أنوي بك شراً ، إلا بقدر ما يكون البحر شريراً ، حين تتحطم السفن على صخوره ، ويقدر ما تكون الصاعقة شريرة حين تشق الشجرة نصفين . وتركزت الفكرة الأخيرة في رأسي ، بشعيرات على ذراعها الأيمن ، قريباً من الرسغ ، ولاحظت أن شعر ذراعها أكتف مما هو عند النساء عادة ، وقادني هذا إلى شعر آخر . لا بد انه ناعم غزير مثل نبات السعدة على حافة الجدول . وكأنما سرت الفكرة من ذهني إليها ، فاعتدلت في جلستها وقالت : « ما بالك تبدو حزيناً ؟ »

« هل أبدو حزيناً ؟ أنا على العكس ، سعيد جداً . »

وعادت النظرة الحانية إلى عينيها، ومدت يدها فأمسكت

يدي وقالت . « هل تدري أن أمي اسبانية ؟ »

« هذا إذن يفسر كل شيء . يفسر لقاءنا صدفة ، وتفاهمانا تلقائياً ، كأننا تعارفنا منذ قرون . لا بد أن جدي كان جندياً في جيش طارق ابن زياد . ولا بد أنه قابل جدتك ، وهي تحبني العنب في بستان في أشيلية . ولا بد أنه أحبها من أول نظرة ، وهي أيضاً أحبته . وعاش معها فترة ثم تركها وذهب إلى افريقيا . وهناك تزوج . وخرجت أنا من سلالة في أفريقيا ، وأنت جئت من سلالة في اسبانيا . »

هذا الكلام ، والضوء الخافت أيضاً والنيذ ، أسعدها ، ففرقت لهاها بالضحك وقالت :
« يا لك من شيطان . »

وتخيلت برهة لقاء الجنود العرب لأسبانيا . مثلي في هذه اللحظة ، اجلس قبالة ايزابيلا سيمور ، ظمأ جنوني تبدد في شعاب التاريخ في الشمال . انما أنا لا أطلب المجد ، فمثلي لا يطلب المجد .

وأدرت مفتاح الباب بعد شهر من حمى الرغبة ، وهي إلى جانبي ، أندلس خصب ، وقدتها بعد ذلك عبر الممر القصير إلى غرفة النوم ، ولفعتها رائحة الصندل المحروق والند ، فلأت رثتيها بعبير لم تكن تعلم أنه عبير قاتل . كنت تلك الأيام ، حين تصبح القمة مني على مد الذراع ، يعتريني هدوء تراجيدي . كل الحمى والوجيب في القلب ، والتوتر في العصب ،

يتحول إلى هدوء جراح وهو يشق بطن المريض . وكنت أعلم أن الطريق القصير الذي سرتاه معاً إلى غرفة النوم ، كان بالنسبة لها طريقاً مضيئاً ، يعبق بعبير التسامح والمحبة ، وكان بالنسبة لي الخطوة الأخيرة ، قبل الوصول إلى قمة الأثانية . وترىثت عند حافة الفراش ، كأني الخص تلك اللحظة في ذهني ، وألقيت نظرة موضوعية على الستائر الوردية والمرايات الكبيرة ، والأضواء الحذرة في أركان الحجرة ، ثم على تمثال البرونز المكتمل التكوين أمامي . ونحن في قمة المأساة صرخت بصوت ضعيف : « لا . لا » . هذا لا يجديك نفعا الآن . لقد ضاعت اللحظة الخطيرة حين كان بوسعك الامتناع عن إتخاذ الخطوة الأولى . انني أخذتك على غرة ، وكان بوسعك حينئذ أن تقولي « لا » . أما الآن فقد جرفك تيار الأحداث ، كما يحرف كل انسان ، ولم يعد في مقدورك فعل شيء . لو أن كل انسان عرف متى يمتنع عن اتخاذ الخطوة الأولى ، لتغيرت أشياء كثيرة . مل الشمس شريرة حين تحيل قلوب ملايين البشر إلى صحاري تتعارك رمالها ويحف فيها حلق العندليب؟ وترىث وأنا أمسح براحة يدي ظاهر عنقها ، وأقبلها في منابع الإحساس . ومع كل لمسة ، مع كل قبلة ، أحس أن عضلة في جسدها ترتجفي ، وتألئ وجهها ولمعت عيناها ببريق خاطف ، واستطالت نظراتها كأنها تنظر إلي فتراني رمزاً ليس حقيقة . وسمعتها تقول لي بصوت متضرع مستسلم : « أحبك » ، فجواب صوتها هتاف ضعيف في أعماق

وعيني يدعو في أن أقف . لكن القمة صارت على بعد خطوة ،
وبعد ذلك التقط أنفاسي وأستجم . ونحن في قمة الألم عبرت
برأسي سحائب ذكريات بعيدة قديمة كبخار يصعد من بحيرة
مالحة وسط الصحراء . وانفجرت هي ببكاء ممض محرق ،
واستسلمت أنا إلى نوم متوتر محموم .



كانت ليلة فائظة من ليالي شهر يوليو ، وكان النيل قد فاض ذلك العام احد فيضاناته تلك ، التي تحدث مرة كل عشرين او ثلاثين سنة ، وتصبح اساطير يحدث بها الآباء ابناءهم . وغمر الماء اغلب الأرض الممتدة بين الشاطيء وطرف الصحراء حيث تقوم البيوت ، وبقيت الحقول كجزيرة وسط الماء . وكان الرجال يتنقلون بين البيوت والحقول في قوارب صغيرة ، أو يقطعون المسافة سباحة ، وكان مصطفى سعيد حسب علمي يجيد السباحة . حدثني أبي ، فقد كنت في الخرطوم وقتها ، انهم سمعوا بعد صلاة العشاء صراخ نسوة في الحي ، فهرعوا الى مصدر الصوت فاذا الصراخ في دار مصطفى سعيد . كان من عادته ان يعود من حقله مع مغيب الشمس ، ولكن زوجته انتظرت دون جدوى . وذهبت تسأل عنه هنا وهناك ، فاخبروها انهم رأوه في حقله والبعض ظن انه عاد الى بيته مع بقية الرجال . وانكبت البلد كلها على الشاطيء . الرجال في ايديهم المصابيح وبعضهم في القوارب . وظلوا

يبحثون الليل كله دون جدوى . وارسلوا اشارات تليفونية الى مركز البوليس على امتداد النيل حتى كرمه . ولكن الجثث التي حملها الموج الى الشاطئ ذلك الاسبوع لم تكن بينها جثة مصطفى سعيد . وفي النهاية اخلدوا الى الرأي انه لا بد قد مات غرقاً ، وان جثمانه قد استقر في بطون التاسيح التي ينص بها الماء في تلك المنطقة .

أما أنا ، فانه يخامرني ذلك الاحساس الذي اعتراني ليلة سمعته ، فجأة وعلى غير استعداد مني ، يقرأ شعراً انكليزياً ، وهو ممسك كأس الخمر بيده ، دافئاً قامته في الكرسي ، ممدداً رجليه ، ضوء المصباح ينعكس على وجهه ، وعيناه سارحتان كما خيل لي في آفاق داخل نفسه . والظلام حولنا في الخارج كأنه قوى شيطانية تتضافر على خنق ضوء المصباح . احياناً تخطر لي فجأة تلك الفكرة المزعجة ان مصطفى سعيد لم يحدث اطلاقاً ، وانه فعلاً اكدوبة ، أو طيف أو حلم ، أو كابوس ، ألم بأهل القرية تلك ، ذات ليلة داكنة خائفة ، ولما فتحو اعينهم مع ضوء الشمس لم يروه .

كان الليل قد بقي اقله حين قمت من عند مصطفى سعيد ، وخرجت وأنا أشعر بالتعب - ربما من طول الجلوس - ومع ذلك لم أكن أرغب في النوم ، فمضيت اتسكع في شوارع البلد الضيقة المتعرجة ، تلامس وجهي نسمات الليل الباردة التي تهب من الشمال محملة بالندى ، محملة برائحة زهور الطلح وروث البهاثم ، ورائحة الأرض التي رويت لتوها بالماء بعد ظمأ أيام ، ورائحة

قناديل الذرة في منتصف نضجها ، وعبير اشجار الليمون ،
كان البلد كعادته صامتاً في تلك الساعة . من الليل ، الا من
طققة مكنته الماء على الشاطيء ونباح كلب من حين لآخر ،
وصباح ديك منفرد احس بالفجر قبل الاوان ، يحاربه صباح
ديك آخر ، ثم يخيم الصمت . ومررت ببیت ود الرئيس
الوطيء عند منعطف الدرب ، فرأيت من الطاقة الصغيرة ضوءاً
خافتاً ، وسمعت زوجة ود الرئيس تصرخ باللذة . واحست بالخبجل
لانني اطلعت على أمر لم يكن من حقي ان أطلع عليه . لم يكن
يحق لي ان اظل يقظاً اتسكع في شوارع البلد ، وبقية الناس في
أسرتهم ، انني اعرف هذه القرية شارعاً شارعاً ، وبيتاً بيتاً ، واعرف
أيضاً القباب العشر وسط المقبرة في طرف الصحراء اعلى البلد .
والقبور ايضاً ، اعرفها واحداً واحداً ، زرتها مع ابي وزرتها مع امي
وزرتها مع جدي ، وأعرف ساكنيها الذين ماتوا قبل أن يولد
أبي والذين ماتوا بعد ولادتي . وقد شيعت مع المشيعين منهم
أكثر من مائة ، أساعد في حفر التربة ، واقف على حافة القبر
في زحام الناس ريثما يوسد الميت بمجاريته ، واهيل التراب .
فعلت ذلك مع أهل البلد في الصباح ، وفي حمارة القيظ أشهر
الصيف ، وبالليل في أيدينا المصابيح . والحقول ايضاً أعرفها ،
منذ كانت سواقي ، وأيام القحط حين هجرها الرجال ونحوات
الأرض الخصبه أرضاً بلقماً تسفوها الريح . ثم جاءت مكنتات
الماء وجاءت الجمعيات التعاونية ، وعاد من نزح من الرجال ،
وعادت الأرض كما كانت ، تنتج الذرة في الصيف والقمح في

الشتاء . كل هذا رأيته منذ فتحت عيني على الحياة ، ولكنني
أبدأ لم أرَ القرية في مثل هذه الساعة في أواخر الليل . لا بد
ان تلك النجمة الكبيرة الزرقاء المتوهجة هي نجمة الصباح . السماء
تبدو أقرب إلى الأرض في مثل هذه الساعة ، قبيل الفجر ،
والبلد يلفها ضوء باهت يجعلها كأنها معلقة بين السماء والأرض .
وتذكرت وأنا أعبر رقعة الرمل التي تفصل بين بيت ودالريس
وبيت جدي ، تلك الصورة التي رسمها مصطفى سعيد ،
تذكرتها بنفس إحساس الخجل الذي اعتراني حين سمعت
مناغاة ودالريس مع زوجته . فخذان بيضاوان مفتوحتان .
ووصلت عند بيت جدي فسمعت يتلو أوراده استعداداً لصلاة
الصبح . ألا ينام أبداً ؟ صوت جدي يصل ، كان آخر صوت
أسمعه قبل أن أنام وأول صوت أسمعه حين أستيقظ . وهو
على هذه الحال لا أدري كم من السنين كأنه شيء ثابت وسط
عالم متحرك . وأحسست فجأة بروحي تنتعش كما يحدث
أحياناً أثر إرهاق طويل ، وصفا ذهني ، وتبخرت الأفكار
السوداء التي أثارها حديث مصطفى سعيد . البلد الآن ليس
معلقاً بين السماء والأرض ، ولكنه ثابت ، البيوت ثابتة ؟
والشجر ، شجر ، والسماء صافية ولكنها بعيدة . هل كان من
المحتمل أن يحدث لي ما حدث لمصطفى سعيد ؟ قال انه
أكذوبة؟ فهل أنا أيضاً أكذوبة؟ انني من هنا . أليست هذه حقيقة
كافية؟ لقد عشت أيضاً معهم ، ولكنني عشت معهم على السطح ، لا
أحبهم ولا أكرهم . كنت أطوي ضلوعي على هذه القرية الصغيرة ،

أراها بعين خيالي ابناً التفت . أحياناً في أشهر الصيف في لندن ، أفر هطلة مطر ، كنت أشم رائحتها . في لحظات خاطفة قبيل مغيب الشمس ، كنت أراها . في أخريات الليل ، كانت الأصوات الأجنبية تصل إلى أذني كأنها أصوات أهلي هنا . أنا ، لا بد ، من هذه الطيور التي لا تعيش إلا في بقعة واحدة من العالم . صحيح أنني درست الشعر ، بيد أن هذا لا يعني شيئاً . كان من الممكن أن أدرس الهندسة أو الزراعة أو الطب . كلها وسائل لكسب العيش . الوجوه هناك ، كنت أتخيلها ، قمحية أو سوداء ، فتبدو وجوهاً لقوم أعرفهم . هناك مثل هنا ، ليس أحسن ولا أسوأ . ولكنني من هنا ، كما أن النخلة القائمة في فناء دارنا ، نبتت في دارنا ولم تنبت في دار غيرها . وكونهم جاءوا إلى ديارنا ، لا أدري لماذا ، هل معنى ذلك أننا نسهم حاضراً ومستقبلاً أنهم سيخرجون من بلادنا إن عاجلاً أو آجلاً ، كما خرج قوم كثيرون عبر التاريخ من بلاد كثيرة . سكك الحديد ، والبواخر ، والمستشفيات والمصانع ، والمدارس ، ستكون لنا ، وستحدث لغتهم ، دون إحساس بالذنب ولا إحساس بالجليل . سنكون كما نحن ، قوم عاديون ، وإذا كنا أكاذيب ، فنحن أكاذيب من صنع أنفسنا .

مثل هذه الأفكار أوصلتني إلى فراشي ، وصاحبتي بعد ذلك إلى الخرطوم حيث تسلمت عملي في مصلحة المعارف . مات مصطفى سعيد منذ عامين ولكنني ما أفنأ أقابله من حين

لآخر . لقد عشت خمسة وعشرين عاماً ، وأنا لم أسمع به ولم أره . ثم ، هكذا فجأة أجده في مكان لا يوجد فيه أمثاله . وإذا بمصطفى سعيد ، رغم ارادتي ، جزء من عالمي ، فكرة في ذهني ، طيف لا يريد أن يمضي في حال سبيله . وإذا إحساس بعيد بالخوف ، بأنه من الجائز الا تكون البساطة هي كل شيء . مصطفى سعيد قال ان جدي يعرف السر . الشجرة تنمو ببساطة ، وجدك عاش وسموت ببساطة . هكذا . لكن هب انه كان يسخر من بساطتي ؟ في رحلة بالقطار بين الخرطوم والأبيض ، كانت معي في نفس القمرة موظف متقاعد . حين تحرك القطار من كوستي كان الحديث قد وصل بنا إلى أيام دراسته . وعلمت منه ان عدداً من رؤسائي في وزارة المعارف كانوا معاصريه في المدرسة ، وبعضهم كان يزامله في نفس الفصل . ومضى الرجل يذكر ان فلاناً في وزارة الزراعة كان زميله ، والمهندس فلاناً كان في الفصل الذي أمامه ، وفلاناً ، التاجر الذي اغتنى أيام الحرب ، كان من أبلد خلق الله في فصلهم ، والجراح الشهير فلاناً كان أحسن جناح أيمن في المدرسة كلها أيامهم . وفجأة رأيت وجه الرجل يضيء ، وعينه تلمعان ، وقال في صوت متحمس منفعِل : « غريبة . تصور انني نسيت أنبغ تلميذ في فصلنا ، ولم يخطر على بالي منذ ترك المدرسة . الآن فقط تذكرته . نعم ، مصطفى سعيد » .

مرة أخرى ذلك الإحساس ، بأن الأشياء العادية أمام

عينيك تصبح غير عادية . رأيت نافذة القمرة وبابها يلتقيان ،
وخيل لي أن الضوء المنعكس على نظارة الرجل ، في لحظة
لا تزيد عن طرفة العين ، يتوهج توهجاً خاطفاً كأنه شمس في
رابعة النهار . ولا بد ان الدنيا في تلك اللحظة بدت مختلفة
بالنسبة للأمور المتقاعد أيضاً ، إذ أن تجربة كاملة كانت
خارج وعيه أصبحت فجأة في متناول اليد . حين رأيت وجهه
أول مرة ، قدرت انه في منتصف الستين . وأنظر اليه الآن
وهو يستطرد في سرد ذكرياته البعيدة ، فأرى رجلاً لا يزيد
يوماً واحداً عن الأربعين .

« نعم ، مصطفى سعيد كان أنبع تلميذ في أيامنا . كنا
في فصل واحد . كان يجلس في الصف الذي أمام صفنا
مباشرة . ناحية اليسار . يا للغرابة ، كيف لم يخطر على بالي
قبل الآن مع انه كان معجزة في ذلك الوقت ؟ كان أشهر
طالب في كلية غردون ، أشهر من أعضاء التيم لكرة القدم ،
ورؤساء الداخليات ، والخطباء في الليالي الأدبية ، والكتاب
في جرائد الحائط ، والممثلين الدائمي الصيت في فرق الدراما .
لم يكن له نشاط من هذا القبيل إطلاقاً . كان منعزلاً ومتعالياً ،
يقضي أوقات فراغه وحده ، إما في القراءة أو في المشي
مسافات طويلة . كنا جميعاً داخلين تلك الأيام ، في كلية
غردون حتى أبناء العاصمة المثلثة . كان نابغة في كل شيء ،
لم يوجد شيء يستعصي على ذهنه العجيب . كانت المدرسون
يكلموننا بلهجة ويكلمونه هو بلهجة أخرى . خصوصاً مدرسو

اللغة الانجليزية ، كانوا كأنما يلقون الدرس له وحده دون بقية التلاميذ .

وصمت الرجل برهة ، فأحسست برغبة شديدة أن أقول انسي أعرف مصطفى سعيد ، وإن الظروف ألفت بي في طريقه ، فقص علي ، ذات ليلة مظلمة قائظة ، قصة حياته ، وإنه قضى آخر أيامه في قرية مغفورة الذكر عند منحني النيل ، وإنه مات غرقاً ، وربما انتحاراً ، وجعلني أنا دون سائر الناس وصياً على ولديه . لكنني لم أقل شيئاً ، إنما المأمور المتقاعد هو الذي استطرد :

قطع مصطفى سعيد مرحلة التعليم في السودان قفزاً - كان بالفعل كأنه يسابق الزمن. وبينما ظللنا نحن بعده في كلية غردون ، ارسل هو في بعثة الى القاهرة وبعدها الى لندن . كان اول سوداني يرسل في بعثة الى الخارج . كان ابن الانكليز المدلل . وكنا جميعاً نحسده ، ونتوقع ان يصير له شأن عظيم . نحن كنا ننطق الكلمات الانكليزية كأنها كلمات عربية . لا نستطيع ان نسكن حرفين متتاليين . أما مصطفى سعيد فقد كان يعوج فمه ، ويمط شففيه ، وتخرج الكلمات من فمه كما تخرج من أفواه أهلها . كان ذلك يملؤنا غيظاً واعجاباً في الوقت نفسه . وكنا نطلق عليه ، بخليط من الاعجاب والحقد « الانكليزي الأسود » . وعلى ايامنا ، كانت اللغة الانكليزية هي مفتاح المستقبل - لا تقوم لأحد قائمة بدونها . كلية غردون كانت مدرسة ابتدائية . كانوا يعطونها من العلم ما يكفي فقط للماء

الوظائف الحكومية الصغرى - أول ما تخرجت ، اشتغلت بحاسباً في مركز الفائر . وبعد جهد جهيد قبلوا أن اجلس لامتحان الادارة . وقضيت ثلاثين عاماً نائب مأمور . تصور . وقبل أن احال على المعاش بعامين اثنين فقط رقيت مأموراً . كان مفتش المركز الانكليزي الهما يتصرف في رقعة اكبر من الجزر البريطانية كلها ، يسكن في قصر طويل عريض مملوء بالخدم ومحاط بالجند . وكانوا يتصرفون كالآلهة . يسخروننا نحن الموظفين الصغار أولاد البلد لجلب العوائد ، ويتذمر الناس منا ويشكون الى المفتش الانكليزي . وكان المفتش الانكليزي طبعاً هو الذي يغفر ويرحم . هكذا غرسوا في قلوب الناس بغضنا ، نحن أبناء البلد ، وحبهم هم المستعمرون الدخلاء . وتأكد من كلامي هذا يا بني . ألم تستقل البلد الآن ؟ ألم تصبح احراراً في بلادنا ؟ تأكد انهم احتضنوا أرذال الناس . ارذال الناس هم الذين تبوأوا المراكز الضخمة ايام الانكليز . كنا واثقين ان مصطفى سعيد سيصير له شأن يذكر . كان ابوه من العبايدة ، القبيلة التي تعيش بين مصر والسودان . انهم الذين هربوا سلاطين باشا من اسر الخليفة عبد الله التعايشي ، ثم بعد ذلك عملوا رواداً لجيش كتشنر حين استعاد فتح السودان . ويقال ان امه كانت رقيقاً من الجنوب . من قبائل الزاندي أو الباريا ، الله أعلم . الناس الذين ليس لهم أصل ، هم الذين تبوأوا اعلى المراتب ايام الانكليز .

وكان المأمور المتقاعد يغط في نوم مريح ، حين مر القطار

على خزان سنار ، الخزان الذي بناه الانكليز عام ١٩٢٦ ، متجهاً غرباً الى الأبيض ، على خط حديدي وحيد ، تمتد عبر الصحراء ، كأنه جسر من الحبال بين جبلين شرسين ، بينها هوة سحيقة ليس لها قرار . مسكين مصطفى سعيد . كان مفروضاً أن يكون له شأن بمقاييس المفتشين والمأمير . ولكنه لم يجد حتى قبراً يريح جسده ، في هذا القطر الممتد مليون ميل مربع . وتذكرت ما قاله ان القاضي قبل ان يصدر عليه الحكم في الاولد ببلي قال له : « انك يا مستر مصطفى سعيد ، رغم تفوقك العلمي ، رجل غبي . ان في تكوينك الروحي بقعة مظلمة ، لذلك فانك قد بددت انبل طاقة يمنحها الله للناس : طاقة الحب » . وتذكرت أيضاً انني حين خرجت من بيت مصطفى سعيد تلك الليلة ، كان القمر الماحق قد ارتفع مقدار قامة الرجل في الافق الشرقي ، وانني قلت في نفسي أن القمر مقلم الاظافر . لا ادري لماذا خيل لي ان القمر مقلم الاظافر ؟ .

وفي الخرطوم ايضاً ، عرض لي طيف مصطفى سعيد ، بعد محادثتي مع المأمور المتقاعد باقل من شهر ، كأنه جن اطلق من سجنه ، سيظل بعد ذلك يوسوس في آذان البشر ، ليقول ماذا ؟ لا ادري . كنا في بيت شاب سوداني يحاضر في الجامعة ، كنا انا وهو زملاء دراسة في انكلترا . وكان بين الحاضرين رجل انكليزي يعمل في وزارة المالية . وصل بنا الحديث الى موضوع الزواج المختلط . وتحول الحديث من نقاش

عمومي الى كلام عن حالات محددة . ثم من هم المتزوجون من
أوربيات؟ ثم من انكليزيات؟ من هو اول سوداني تزوج انكليزية؟
فلان ؟ لا. فلان ؟ لا . وفجأة... مصطفى سعيد . قالها الشاب
الحاضر في الجامعة ، وعلى وجهه احساس الفرح ذاته الذي لمحت
على وجه الأمور المتقاعد . ومضى الشاب يقول ، تحت سماء الخرطوم
المرصعة بالنجوم في اوائل فصل الشتاء : « مصطفى سعيد كان
اول سوداني تزوج انكليزية ، بل انه كان أول سوداني تزوج
أوروبية اطلاقاً . أظن انكم لم تسمعوا به ، فقد نزع من زمن .
تزوج في انكلترا وتجنس بالجنسية الانكليزية . غريب ان احداً
هنا لا يذكره ، مع انه قام بدور خطير في مؤامرات الانكليز
في السودان في اواخر الثلاثينات . انه من اخلص اعوانهم .
وقد استخدمته وزارة الخارجية البريطانية في سفارات مريبة
في الشرق الاوسط . وكان من سكرتيري المؤتمر الذي انعقد
في لندن سنة ١٩٣٦ . أنه الآن مليونير ، ويعيش كاللوردات
في الريف الانكليزي » .

« وسمعت نفسي أقول دون وعي ، بصوت مسموع :
مصطفى سعيد ترك ، بعد موته ، ستة أفدنة ، وثلاث بقرات
وثوراً ، وحمارين ، واحدى عشرة عنزا ، وخمس نعجات ،
وثلاثين نخلة ، وثلاثة وعشرين شجرة بين سنط وطلح وحرّاز ،
وخمسا وعشرين شجرة ليمون ومثلها برتقال ، وتسعة أراذب
قمح وتسعة ذرة ، وبيتاً مكوناً من خمس غرف ، وديوان ،
وغرفة واحدة من الطوب الاحمر ، مستطيلة الشكل ، ذات

نوافذ خضراء ، سقفها ليس مسطحاً كبقية الغرف ولكنه
مثلث كظهر الثور ، وتسعماية وسبعة وثلاثين جنبها وثلاثة قروش
 وخمسة ملائم نقداً .

في لحظة لا تزيد عن مقدار ما يشيل البرق ثم يختفي ،
رأيت في عيني الشاب الجالس قبالي شعوراً واضحاً حياً
ملحوساً ، بالذعر رأيت في اتساع حدق العينين ، وارتعاش الجفن
وارتخاء الفك الاسفل . اذا لم يكن خائفاً فلماذا سألتني هذا
السؤال : « هل أنت أبنه ؟ » .

سألني هكذا دون ان يدري هو الآخر لماذا نطق بهذه
الكلمات الثلاث ، وهو يعلم تمام العلم من أنا . انه لم يكن
زميلي في الدراسة ، لكننا كنا في المجلثا في وقت واحد ،
وقد جمعنا مناسبات عدة وشربنا البيرة اكثر من مرة معاً ،
في حانات نايتسبرج . هكذا في لحظة خارج حدود الزمان
والمكان ، تبدو له الاشياء هو الآخر ، غير حقيقية . يبدو له
كل شيء محتملاً . هو ايضاً قد يكون ابن مصطفى سعيد ، او
أخاه او ابن عمه . العالم في تلك اللحظة القصيرة ، بمقدار ما
يطرف جفن العين ، احتمالات لا حصر لها ، كأن آدم وحواء
سقطا لتوما من الجنة .

كل تلك الاحتمالات استقرت على حال واحد حين ضحكت
وعاد العالم كما كان ، اشخاصاً ذوي وجوه معروفة واسماء
معروفة ومنهم معروفة ، تحت سماء الخرطوم المرصعة بالنجوم
اوائل فصل الشتاء . ضحك هو الآخر وقال : « يا لي من

يجنون ! طبعاً انت لست ابن مصطفى سعيد ولا قريبه وانت
لم تسمع به من قبل في حياتك انني نسيت انكم معشر
الشعراء ، لكم سرحات وشطحات .

وفكرت في شيء من المرارة ، انني في زعم الناس شاعر
- سواء أردت او لم أرد ، لأنني قضيت ثلاثة اعوام انقب في
حياة شاعر مغمور من شعراء الانكليز ، وعدت لادرس الأدب
الجاهلي في المدارس الثانوية قبل ان يرقوني مفتشاً للتعليم
الابتدائي .

وهنا تدخل الرجل الانكليزي وقال انه لا يدري صحة
ما قيل عن الدور الذي لعبه مصطفى سعيد في مؤامرات
السياسة الانكليزية في السودان . الذي يعلله ان مصطفى سعيد
لم يكن اقتصادياً يركن اليه : « انني قرأت بعض ما كتب
عما اسماه اقتصاد الاستعمار » . الصفة الغالبة على كتاباته ان
احصائياته لم يكن يوثق بها . كان ينتمي الى مدرسة الاقتصاديين
الفابيانين الذين يخنفون وراء ستار التعميم هروباً من مواجهة
الحقائق المدعمة بالارقام . العدالة ، المساواة ، الاشتراكية ..
بمجرد كلمات . رجل الاقتصاد ليس كاتباً كتشارلز دكنز ، ولا
سياً كروزفلت . انه اداة ، آلة ، لا قيمة لها بدون
الحقائق والارقام والاحصائيات . أقصى ما يستطيع ان يفعله
هو ان يحدد العلاقة بين حقيقة واخرى ، بين رقم وآخر . اما
ان تجعل الارقام تقول شيئاً دون آخر ، فذلك شأن الحكام
ورجال السياسة . الدنيا ليست في حاجة الى مزيد من رجال

السياسة . لا . مصطفى سعيد هذا لم يكن اقتصادياً يوثق به .
وسألته ان كان قد قابل مصطفى سعيد .

« لا . انني لم اقبله . كان قد ترك اكسفورد قبلي بمدة
لكنني سمعت تتفا هنا وهناك . يظهر أنه كان زير نساء . خلق
لنفسه اسطورة من نوع ما . الرجل الأسود الوسيم ، المدلل في
الأوساط البوهيمية . كان كما يبدو واجهة يمرضها افراد الطبقة
الارستقراطية الذين كانوا في العشرينات واوائل الثلاثينات
يتظاهرون بالتححرر . ويقال أنه كان صديقاً للورد فلان ولورد
علان . وكان أيضاً من الاثريين عند اليسار الانكليزي . ذلك
من سوء حظي ، لأنه يقال أنه كان ذكياً . لا يوجد على وجه
الأرض أسوأ من الاقتصاديين اليساريين ، حتى منصبه الاكاديمي
- لا أدري تماماً ماذا كان - يخيل إلي أنه حصل عليه لأسباب
من هذا النوع . كأنهم أرادوا أن يقولوا : أنظروا كم نحن
متمسحون ومتحررون ! هذا الرجل الافريقي كأنه واحد
منا ! أنه تزوج أبنتنا ويعمل معنا على قدم المساواة ، هذا
النوع من الاوربيين لا يقل شراً ، لو تدرون ، عن المجانين
الذين يؤمنون بتفوق الرجل الابيض في جنوبي افريقيا وفي
الولايات الجنوبية في الولايات المتحدة . نفس الطاقة العاطفية
المطرقة ، تتجه الى أقصى اليمين أو أقصى اليسار ، لو انه
فقط تفرغ للعلم لوجد أصدقاء حقيقيين من جميع الأجناس ،
ولكنكم قد سمعتم به هنا . كان قطعاً سيعود وينفع بعلمه هذا
البلد الذي تتحكم فيه الخرافات . ها أنتم الآن تؤمنون بخرافات

من نوع جديد. خرافة التصنيع ، خرافة التأميم الوحدة العربية
خرافة الوحدة الافريقية . انكم كالأطفال تؤمنون ان في
جوف الأرض كنزاً ستحصلون عليه بمعجزة ، وستحلون جميع
مشاكلكم ، وتقيمون فردوساً . أوهام . أحلام يقظة . عن
طريق الحقائق والارقام والاحصائيات ، يمكن ان تقبلوا
واقعكم وتعيشوا معه وتحاولوا التغيير في حدود طاقاتكم .
وقد كان بوسع رجل مثل مصطفى سعيد ان يلعب دوراً لا بأس
به في هذا السبيل ، ولو انه لم يتحول إلى مهرج بين يدي
حفنة من الانكليز المعتوهين .

وبينما انبرى منصور يفند آراء رتشارد ، أخذت أنا إلى
أفكاري ما جدوى النقاش ؟ هذا الرجل - رتشارد - هو
الآخر متعصب . كل أحد متعصب بطريقة أو بأخرى . لعلنا
نؤمن بالخرافات التي ذكرها ، ولكنه يؤمن بخرافة جديدة ،
خرافة عصرية ، هي خرافة الاحصائيات . ما دمنا سنؤمن
بأله ، فليكن إلهاً قادراً على كل شيء . أما الإحصائيات !
الرجل الأبيض ، مجرد انه حكماً في حقبة من تاريخنا ،
سيظل أمداً طويلاً يحس نحونا باحساس الاحتقار الذي يحسه
القوي تجاه الضعيف . مصطفى سعيد قال لهم : « انني
جشتم غازياً . عبارة ميلودرامية ولا شك . لكن مجيئهم ،
هم أيضاً ، لم يكن مأساة كما تصور نحن ، ولا نعمة كما يصورون
هم . كان عملاً ميلودرامياً سيتحول مع مرور الزمن إلى خرافة
عظمى وسمعت منصور يقول لرتشارد : « لقد نقلتم إلينا مرض

اقتصادكم الرأسمالي . ماذا أعطيتمونا غير حفنة من الشركات
الاستعمارية نزفت دماءنا وما تزال ؟ ، وقال له رتشارد :
« كل هذا يدل على أنكم لا تستطيعون الحياة بدوننا . كنتم
تشكون من الاستعمار ، ولما خرجنا خلقتم أسطورة الاستعمار
المستتر . يبدو أن وجودنا ، بشكل واضح أو مستتر ،
ضروري لكم كالماء والهواء . ولم يكوونا غاضبين . كنا يقولان
كلاماً مثل هذا ويضحكان على مرمى حجر من خط الاستواء ،
تفصل بينهما هوة تاريخية ليس لها قرار .

لكن أرجو ألا يتبادر الى اذهانكم ، يا سادتي ، ان مصطفى
سعيد أصبح هوساً يلزمني في حلي وترحالي . كانت أحياناً تمر
أشهر دون ان يخطر على بالي انه مات على ابي حال ، غرقاً ،
أو انتحاراً ، الله وحده يعلم . آلاف الناس يموتون كل يوم .
ولو وقفنا نتمعن لماذا مات كل منهم ، وكيف مات - ماذا
يحدث لنا نحن الاحياء ؟ الدنيا تسير ، باختيارنا أو رغم
انوفنا . وأنا كملايين البشر ، اسير ، اتحرك بحكم العادة في
الغالب ، في قافلة طويلة ، تصعد وتنزل ، تحط وترحل .
والحياة في هذه القافلة ليست كلها شراً . انتم ولا شك تدركون
ذلك . قد يكون السير شاقاً بالنهار ، البوادي قترامى امامنا
كبحور ليس لها ساحل . نتصبب عرقاً . ونجف حلوقنا من
الظما . ونبلع الحد الذي نظن ان ليس بعده متقدم . ثم تغيب
الشمس . ويبرد الهواء . وتألق ملايين النجوم في السماء . نطم
ونشرب حينئذ . ويغني مغني الركب . بعضنا يصلي جماعة
وراء الشيخ ، وبعضنا يتحلق حلقات يرقصون ويفنون

ويصفقون . وفوقنا سماء دافئة رخيصة . واحياناً نسري بالليل
ما طاب لنا السري ، وحين يبين الحيط الأبيض من الحيط
الاسود نقول : « عند انبلاج الصبح يحمد القوم السري » .
واذا كان السراب احياناً يخدعنا ، واذا كانت رسومنا المحمومة
بفعل الحر والعطش تغور احياناً بأفكار لا اساس لها من الصحة
فلا جرم . اشباح الليل تتبخر مع الفجر ، وحمى النهار تبرد مع
نسيم الليل . هل ثمة وسيلة اخرى غير هذه ؟ هكذا كنت
اقضي شهرين كل سنة في تلك القرية الصغيرة عند منحى
النيل . النهر بعد أن كان يجري من الجنوب إلى الشمال ،
ينحني فجأة في زاوية تكاد تكون مستقيمة ، ويجري من
الغرب إلى الشرق . المجرى هنا متسع وعميق ، ووسط الماء
جزر صغيرة مخضرة ، تحوم عليها طيور بيضاء . وعلى الشاطئين
غابات كثيفة من النخل ، وسواقي دائرة ، ومكنة ماء من
حين لآخر . الرجال صدورهم عارية ، يلبسون سراويل طويلة ،
يةطعون أو يزرعون حين تمر بهم الباخرة كقلعة عائمة وسط
النيل يرفعون قاماتهم ويلتفتون إليهم برهة ثم يعودون إلى
ما كانوا فيه . انها تمر على هذا المكان وقت الضحى ، مرة في
الاسبوع ، وما تزال في ظلال النخل المنعكسة على الماء بقية
تتكسر حين يهزها المرج الذي تحدثه محركات الباخرة .
وتتطلق صفارة مبجوحة ، سيسمعا أهلي ولا شك في دورهم
وهم يشربون قهوة الضحى . من بعيد تبدو الحطة . رصيف
أبيض عليه طاوور من شجر الجميز . وتلمح على الشاطئين حركة

واضحة . بعض الناس على الحير وبعضهم على الأقدام ، وقوارب ومراكب شرعية تتحرك من الشاطئ المقابل للمحطة . تدور الباخرة حول نفسها ، لكي لا تكون المحركات في مجرى التيار ، ويكون في استقبالها جمهور متوسط من الرجال والنساء . ذلك أبي وأولئك أعمامي وأولاد أعمامي وقد ربطوا حيرهم في شجر الجميز . لا يفصل ضباب بيني وبينهم هذه المرة ، فأنا قادم من الخرطوم ، فقط ، بعد غيبة لم تدم أكثر من سبعة أشهر . انني أراهم بعين راقية . جلابيهم نظيفة ولكنها غير مكوية ، وعماهم أكثر بياضاً من جلابيهم ، شواربهم تتفاوت طولاً وقصرأ ، سواداً وبياضاً . بعضهم له لحى ، والذين ليست لهم لحى أهملوا حلاقتها . بين حيرهم حمارة سوداء لم أرها من قبل . ينظرون إلى الباخرة دون اكتراث إذ تلقي مراسيها ويزدحم الناس عند مدخلها . انهم ينتظرونني في الخارج ، لا يهرولون لملاقاتي . ويصافحونني ويصافحون زوجتي على عجل ، ولكنهم يطرون الطفلة قبلاً ، يتناوبون حملها على ايديهم ، ربما تحملنا الحير الى الحي . هذا حالي منذ كنت تلميذاً في المدرسة ، لم انقطع الا في غيبي الطويلة تلك سبق ان حدثتكم عنها . وفي الطريق الى الحي اسألهم عن الحمارة السوداء فيقول ابي : « اعرابي غش عمك واخذ منه حمارته البيضاء التي تعرفها وفوقها خمسة بنهيات ايضاً » . ولا ادري أي اعمامي غشه الاعرابي ، حتى اسمع صوت عمي عبد الكريم يقول : « عليّ الطلاق هذه اجمل حمارة في البلد

كلها . هذه جواد وليست حمارة . اذا شئت وجدت من يعطيني فيها ثلاثين جنيساً » . ويضحك عمي عبد الرحمن ويقول : « اذا كانت جواداً فهي جواد عاقر . لا خير في حمارة لا تلد » . واسألهم عن محصول التمر هذا العام وانا اعلم اجابتهم سلفاً : « لا خير فيه » . يقولون ذلك بصوت واحد وكل سنة الاجابة نفسها ، وأنا ادرك أن الامر خلاف ما يزعمون . ونمر ببناء من الطوب الاحمر على ضفة النيل في منتصف قمامه ، واسألهم عنه ، فيقول عمي عبد المنان « شفعانة . لهم حول لا يستطيعون بناءها . حكومة كلام فارغ » . واقول له انني كنت هنا منذ سبعة اشهر فقط ، ولم يكونوا قد بدأوا بناءها بعد . لكن هذا لا يثني عمي عبد المنان ، فيقول : « كل الذي يفلحون فيه يبحثون الينا مرة كل عامين أو ثلاثة يجماهيرهم ولواربيهم ولافتاتهم .. يعيش فلان ويسقط علان . كنا مرتاحين ايام الانكليز من هذه الدوشة » . وبالفعل يمر بنا جمع من الناس في لوري قديم وهم يهتفون : « عاش الحزب الوطني الديمقراطي الاشتراكي » . هل هؤلاء الناس الذين يطلق عليهم « الفلاحون » في الكتب ؟ لو قلت لجدي أن الثورات تصنع باسمه ، والحكومات تقوم وتقع من أجله ، لضحك . الفكرة تبدو شاذة فعلاً ، كما ان حياة مصطفى سعيد وموته في مكان مثل هذا يبدو شيئاً صعباً تصديقه . مصطفى سعيد كان يحضر الصلوات في المسجد بانتظام . لماذا كان يبالغ في تمثيل ذلك الدور المضحك ؟ هل جاء الى هذه القرية النائية

يطلب راحة البال ؟ لعل الاجابة في تلك الغرفة المستطيلة ذات النوافذ الخضراء . ماذا أتوقع ؟ هل أتوقع أن أجده جالساً على كرسي وحده في الظلام ؟ أم أتوقع ان اجده معلقاً من رقبته بجبل يتدلى من السقف ؟ والرسالة التي تركها في ظرف مختوم بالشمع الاحمر ، متى كتبها ؟

« انني اترك زوجتي وولدي وكل مالي من متاع الدنيا في ذمتك ، وأنا أعلم انك ستكون أميناً على كل شيء . زوجتي تعلم بكل مالي ، وهي حرة التصرف . اني واثق بحكمتها . ولكنني أطلب منك أن تؤدي هذه الخدمة لرجل لم يسعد بالتعرف اليك كما ينبغي - أن تشمل أهل بيتي برعايتك وأن تكون عوناً ومشيراً ونصيحاً لولدي ، وأن تجنبها ما استطعت مشقة السفر . جنبها مشقة السفر . وساعدها أن ينشأ نشأة عادية ويعملا عملاً مفيداً . وأنا أترك لك مفتاح غرفتي الخاصة ولعلك تجد فيها ما تبحث عنه . أنا اعلم انك تعاني من رغبة استطلاع مفرطة بشأني ، الامر الذي لا اجسد له مبرراً . فحياتي مهما كان من امرها ليس فيها عظة أو عبرة لاحد. ولولا ادراكى ان معرفة اهل القرية بماضي كان سيعوقني عن مواصلة الحياة التي اخترتها لنفسى بينهم ، لما كان ثمة مبرر للكتمان . وانت في حل من العهد الذي قطعتة على نفسك تلك الليلة . فتحدث ما شئت . واذا لم تستطع ان تقاوم رغبة الاستطلاع في نفسك ، فستجد في تلك الغرفة ، التي لم يدخلها أحد غيري من قبل ، قصاصات ورق وشذوراً متفرقة ومحاولات لكتابة

مذكرات وغير ذلك . أرجو على أي حال أن تساعدك على
ترجية الساعات التي لا تحجد وسيلة أفضل لقضائها . وأنا
أترك لك تقدير الوقت المناسب لتعطي ولدي مفتاح الغرفة
وتساعدهما على ادراك حقيقة أمري . انه يعني ان يعلما اي
نوع من الناس كان أبوما - اذا كان ذلك ممكناً أصلاً - وليس
هدفي ان يحسنا بي الظن ، حسن الظن هو آخر ما أرمي اليه -
ولكن لعل ذلك يساعدهما على معرفة حقيقتها ، ولكن في
وقت لا تكون المعرفة فيه خطراً . اذا نشأ مشبعين بهواء
هذا البلد وروائحته والوانه وتاريخه ووجوه أهله وذكريات
فيضائاته وحصاداته وزراعاته فان حياتي ستحتل مكانها
الصحيح كشيء له معنى الى جانب معان كثيرة اخرى اعنى
مدلولاً . لا أدري كيف يفكران في حينئذ . قد يحسان نحوى
بالراء . وقد يحولانني بخيالهما الى بطل . هذا ليس مهما . المهم
ان حياتي لن تجيء من وراء الجهول كروح شريرة تلحق بهما
الضرر . وكنت اتمنى أن أظل معها ، اراقبهما يكبران امام
عيني ويكونان على الأقل مبرراً لوجودي . انني لا أدري اي
العملين أكثر أمانة ، بقائي أم ذهابي . ومهما يكن فانه لا
حيلة لي ، ولعلك تدرك قصدي اذا عدت بذاكرتك الى ماقلت
لك تلك الليلة . لا جدوى من خداع النفس . ذلك النداء
البعيد لا يزال يتردد في أذني . وقد ظننت أن حياتي وزواجي
هنا سيسكتانه . ولكن لملي خلقت هكذا ، أو ان مصيري
هكذا ، مهما يكن معنى ذلك ، لا ادري . انني اعرف بعقلي

ما يجب فعله ، الامر الذي جربته في هذه القرية ، مع هؤلاء القوم السعداء . ولكن اشياء مبهمه في روحي وفي دمي تدفني الى مناطق بعيدة قترأى لي ولا يمكن تجاهلها . واحسرتي اذا نشأ ولدائي ، احدهما او كلاهما ، وفيها جرثومة هذه العدوى ، عدوى الرحيل . انني احملك الامانة لانني لمحت فيك صورة عن جدك . لا ادري متى اذهب يا صديقي ولكنني أحس أن ساعة الرحيل قد أزفت ، فوداعاً .

اذا كان مصطفى سعيد قد اختار النهاية ، فانه يكون قد قام بعظيم عمل ميلودرامي في رواية حياته. واذا كان الاحتمال الآخر هو الصحيح ، فان الطبيعة تكون قد مننت عليه بالنهاية التي كان يريد لها لنفسه . تصور . عز الصيف في شهر يوليو العتيذ . النهر اللامبالي فاض كما لم يفيض منذ ثلاثين عاماً . الظلام يصهر عناصر الطبيعة جميعاً في عنصر واحد محايد ، أقدم من النهر ذاته وأقل منه اكثرأثاً هكذا يجب ان تكون نهاية هذا البطل . انما هل هي فعلا النهاية التي كان يبحث عنها لعله كان يريد لها في الشمال ، الشمال الاقصى ، في ليلة جليدية عاصفة ، تحت سماء لا نجوم لها ، بين قوم لا يعنيه امره . نهاية الغزاة الفاتحين . ولكنهم ، كما قالوا ، تأمروا ضده ، المحلفون والشهود والمحامون والقضاة ليحرموه منها . هكذا قال : « رأى المحلفون أمامهم رجلاً لا يريد أن يدافع عن نفسه . رجلاً فقد الرغبة في الحياة . انني ترددت في تلك الليلة حين شئت جين في أذني . » تعال معي . تعال . كانت

حياتي قد اكتملت ليلتها ، ولم يكن ثمة مبرر للبقاء . ولكنني ترددت ، وخفت في اللحظة الحاسمة . وكنت أرجو أن تمنحني المحكمة ما عجزت أنا عن تحقيقه . وكأنا أدركوا قصدي ، فصمموا الا يعطوني آخر أمنية لي عندهم . حتى الكولونيل همد الذي كنت أتوسم فيه الخير ، ذكر زيارتي لهم في لفربول ، وانني تركت في نفسه أثراً حسناً . قال انه يعتبر نفسه انساناً متحرراً ليس عنده تحيز ضد أحد . ولكنه رجل واقفي ، وقد كان يرى أن زواجاً مثل ذلك لن ينجح . وقال أيضاً ان ابنته آن وقعت تحت تأثير الفلسفات الشرقية في اكسفورد ، وكانت مترددة بين اعتناق البوذية أو الاسلام . وهو لا يستطيع أن يجزم اذا كان انتحارها بسبب أزمة روحية انتابتها ، أو لانها اكتشفت خداع مستر مصطفى سعيد لها . كانت آن ابنته الوحيدة ، وقد عرفتها وهي دون العشرين ، فخدعتها وغررت بها وقلت لها نتزوج زواجاً يكون جسراً بين الشمال والجنوب ، وحولت جذوة التطلع في عينيها الخضراوين الى رماد . ومع ذلك يقف ابوها وسط المحكمة ويقول بصوت هاديء انه لا يستطيع أن يجزم . هذا هو المعدل واصول اللعب ، كقوانين الحرب والحياد في الحرب . هذه هي القوة التي تلبس قناع الرحمة ، المهم انهم حكموا عليه بالسجن ، سبع سنوات فقط ، ورفضوا أن يتخذوا القرار الذي كان عليه هو ان يتخذه بمحض ارادته . ويخرج من السجن ، ويتشرد في أصقاع الارض ؛ من باريس الى كوبنهاجن الى دلهي الى

بانكوك ، وهو يحاول التسويف . وتكون النهاية بعد ذلك في قرية مغمورة الذكر على النيل ، ولا يستطيع المراء ان يجزم هل كانت اعتباطاً أو انه أسدل الستار بحض ارادته . انما أنا لم أجيء الى هنا لافكر في مصطفى سعيد ، فها هي ذي بيوت القرية المتلاصقة من الطين والطوب الاخضر تشرئب بأعناقها أمامنا ؛ وحيرنا تحت السير لانها شمت بخياشيمها رائحة البرسيم والعلف والماء . هذه البيوت على حافة الصحراء ، كأن قوماً في عهد قديم أرادوا أن يستقروا ثم نفضوا أيديهم ورحلوا على عجل . هنا تبدأ أشياء . وتنتهي أشياء . ومنطقة صغيرة من هواء بارد رطب يأتي من ناحية النهر ، وسط هجير الصحراء ، كأنه نصف حقيقة وسط عالم مليء بالأكاذيب . أصوات الناس والطيور والحوانات تتناهى ضعيفة الى الاذن كأنها وساوس ، وطققة مكنة الماء المنتظم تقوي الاحساس بالمستحيل . والنهر ، النهر الذي لولاه لم تكن بداية ولا نهاية ، يجري نحو الشمال ، لا يلوي على شيء ، قد يعترضه جبل فيتجه شرقاً ، وقد تصادفه وهدة من الأرض فيتجه غرباً ، ولكنه أن عاجلاً أو آجلاً يستقر في مسيره الحتمي ناحية البحر في الشمال .

وقفت عند باب دار جدي في الصباح - باب ضخم عتيق
من خشب الحراز ، لا شك انه استوعب حطب شجرة كاملة ،
صنعه ود البصير ، مهندس القرية الذي لم يتعلم النجارة في
مدرسة ، كما كان يصنع عجلات السواقي وحلقاتها ، وأيضاً
يخبر العظام ، ويكوي ويحجم ، ويتخصص كذلك في نقد
الحمير ، قل أن يشتري أحد من أهل البلد حمارة دون مشورته .
ود البصير لا يزال حياً إلى يومنا هذا ، ولكنه لم يعد يصنع
مثل باب بيت جدي ، بعد أن أكتشفت الأجيال اللاحقة من
أهل البلد أبواب خشب الزان وأبواب الحديد ، يجلبونها من
ام درمان . والسواقي أيضاً . بار سوقها حين جاءت مكنتات
الماء . وسمعتهم يقهقهون ، فيزت ضحكة جدي النحيلة الحبيثة
المنطلقة حين يكون على سجيته ، وضحكة ود الرئيس التي
تخرج من كرش مملوء بالطعام دائماً ، وضحكة بكري التي
تأخذ لونها وطعمها من المجلس الذي يكون موجوداً فيه ،
وضحكة بنت مجذوب القوة المسترجلة . تخيلت جدي جالساً

على فروة صلاته وفي يده مسبحة من خشب الصندل ،
تدور في حركة دائبة كقواريس الساقية . وبنت مجذوب
وود الريس وبكري ، أصدقاؤه القدامى ، يجلسون على تلك
الأسرة الوطينة ، التي لا تملأ أرجلها عن الأرض أكثر من
شبرين . ارتفاع السرير عن الأرض ، في زعم جدي ، من
الغرور ، وقصره من التواضع .. بنت مجذوب متكئة على
كوعها ، وفي اليد الأخرى سيجارة . ود الريس كأنه يخرج
الحكايات الخبيثة من أطراف شاربيه . وبكري يجلس وحسب .
هذه الدار الكبيرة ليست من الحجر ولا الطوب الأحمر ،
ولكنها من الطين نفسه الذي يزرع فيه القمح ، قائمة على
أطراف الحقل تماماً ، تكون امتداداً له . وهذا واضح من
شجيرات الطلح والسنط النامية في فناء الدار والنباتات التي
نمت في الحيطان نفسها حيث تسرب إليها الماء من الأرض
المزروعة . وهي دار فوضى قائمة دون نظام ، اكتسبت
هيئتها هذه على مدى أعوام طويلة : غرف كثيرة مختلفة
الأحجام ، بنيت بعضها لصق بعض في أوقات مختلفة ،
أما حسب الحاجة إليها أو لأن جدي توفر له شيء من المال
لم يجد وسيلة أخرى ينفقه فيها . غرف يؤدي بعضها إلى
بعض ، بعضها لها أبواب وطينة لا بد أن تتحنى كي تدخلها
وبعضها ليست لها أبواب إطلاقاً ، بعضها لها نوافذ كثيرة ،
وبعضها ليست لها نوافذ . حيطانها ملساء مطلية بمادة هي
خليط من الرمل الحشن والطين الأسود وزبالة البهائم ،

وكذلك السطوح ، والأسقف من جذع النخيل وخشب السنط وجريد النخيل . دار متاهة ، باردة في الصيف ، دافئة في الشتاء . إذا نظرت إليها من الخارج ، دون عطف ، أحسست بها كمياناً هشاً لن يقوى على البقاء ، ولكنها تغالب الزمن بشيء كالمعجزة .

ودخلت من باب الحوش ، ونظرت إلى اليسار واليمين في الفناء الواسع . هنالك تمر تنشر على بروش ليجف . وهنالك بصل وشطة . وهنالك أكياس قمح وفول وبعضها خيطة أفواهه وبعضها مفتوح . وفي ركن عنز تأكل شعيراً وترضع مولوداً . هذه الدار مصيرها مرتبط بمصير الحقل ، إذا اخضر الحقل اخضرت ، وحين يحتاج القحط الحقول يحتاجها هي أيضاً . وأشم تلك الرائحة التي يمتاز بها بيت جدي ، خليط من روائح متناثرة ، رائحة البصل والشطة والتمر والقمح والفول واللوبة والحلبة ، أضف إليها رائحة البخور الذي يعبق دائماً في بجر الفخار الكبير . رائحة تذكرني بتقشف جدي في العيش ، وترفه في لوازم صلاته . الفروة التي يصلي عليها ، وحين يشتد البرد يستعملها غطاء ، عبارة عن جلود ثلاثة نمور مخيطة في جلد واسع . وabric الصلابة من النحاس عليه تصاوير ونقوش ، وله طشت من نحاس أيضاً . وهو يفتخر خاصة بمسبحته لأنها من خشب الصندل ، ويداعب حباتها ، ويمسح بها وجهه ويستنشق رائحتها . وكان إذا غضب من أحد أحفاده ، ضربه بها على رأسه ، يقول ان ذلك يطرد

الشیطان . وهذه الأشياء جميعاً ، مثل غرف داره ، والنخل في حقله ، لها تاریخ قصه علي جدي مراراً وتكراراً ، في كل مرة يحدف شيئاً ويضيف شيئاً .

وتعلمت عند باب الغرفة وأنا أستمرى ذلك الإحساس المذب الذي يسبق لحظة لقائي مع جدي كلما عدت من السفر . إحساس صاف بالمعجب من أن ذلك الكيان العتيق ما يزال موجوداً أصلاً على ظاهر الأرض . وحين أعانقه أستنشق رائحته الفريدة التي هي خليط من رائحة الضريح الكبير في المقبرة ورائحة الطفل الرضيع . وذلك الصوت النحيل المطمئن ، يقوم جسراً بيني وبين الساعة القلقة التي لم تتشكل بمد ، الساعات التي استوعبت أحداثها ومضت ، وأصبحت لبنات في صرح له مدلولات وأبعاد . نحن بمقاييس العالم الصناعي الأوروبي ، فلاحون فقراء ، ولكنني حين أعانق جدي أحس بالغنى ، كأنني نعمة من دقائق قلب الكون نفسه . انه ليس شجرة سنديان شائخة وارفة الفروع في أرض منت عليها الطبيعة بالماء والخصب ، ولكنه كشجيرات السيل في صحارى السودان ، سمكة اللحى حادة الأشواك ، تقهر الموت لأنها لا تسرف في الحياة . وهذا وجه المعجب . انه عاش أصلاً - رغم الطاعون والمجاعات والحروب وفساد الحكام . وما هو ذا الآن يقترب من عامه المائة ، أسنانه جميعاً في فمه ، عيناه صغيرتان باهتان تحسب أنها لا تريان ولكنه ينظر بهما في حلقة الليل ، جسمه الضئيل منكمش على ذاته ،

عظام وعروق وجلد وعضلات ، وليست فيه قطعة واحدة من الشحم ، يفقر فوق الحمار نشيطاً ، ويمشي في غبش الفجر من بيته إلى الجامع .

مسح جدي بطرف ثوبه الدمع الذي سال على وجهه من شدة الضحك ، وبعد أن أمهلوني ريثما أستقر في مجلسي معهم ، قال جدي : « والله حكايتك حكاية يا ود الرئيس » . وكان هذا إيذاناً لود الرئيس بأن يستمر في القصة التي قطعها دخولي عليهم . « وبعد ، يا حاج أحمد ، أركبت البنت أهامي على الحمار وهي تفلنص وتتلوى وبالقوة جردتها من جميع ثيابها حتى أصبحت عارية كما ولدتها أمها ، كانت فرخة عذيلة من جوارى بحري بلغت قوها - الهند يا حاج أحمد كأنه طبنجة والكفل إذا طوقته بذراعيك لا تصل حده . وكانت مدهنة ومدلكة جلدها يلمع في ضوء القمر وعطرها يدوخ العقل . ونزلت بها إلى منطقة رملية وسط الذرة . ولما قمت عليها سمعت حركة في الذرة وصوتاً يقول : من هناك؟ يا حاج أحمد ، جنون الشباب ليس مثله جنون . فكرت بسرعة . وعلمت انني عفريت . وأخذت أصرخ بأصوات شيطانية وأنثر الرمل وابرطع ، فذعر الرجل وهرب . إنما النكتة أن عمي عيسى كان قد تقفى أثري منذ خطفت الجارية من بيت العرس حتى وصلنا إلى بقعة الرمل . ولما رأى أنني علمت عفريت وقف يتفرج . وثاني يوم في الصباح الباكر ذهب إلى والدي رحمة الله عليه وقص عليه القصة كلها ، وقال له : ابنك هذا شيطان

رجيم ، وإذا لم نجد له زوجة في هذا النهار أفسد البلد وسبب لنا فضائح لا أول لها ولا آخر . وفعلوا عقدا لي في نفس اليوم على بنت عمي رجب . الله يرحمها ، ماتت في أول ولادة . . وقالت له بنت مجذوب وهي تضحك بصوتها الرجالي المبجوح من كثرة التدخين : « ومن يومها وأنت تركب وتنزل كأنك فعل الحمير » .

فقال لها ود الرئيس : « هل احد يعرف حلاوة هذا الشيء اكثر منك يا بنت مجذوب ؟ انك دفنت ثمانية ازواج ، والآن وانت عجوز كركبة لو وجدته لما قلت لا » . وقال جدي : « سمعنا أن غنج بنت مجذوب شيء لا يتصوره العقل »

واشعلت بنت مجذوب سيجاره وقالت : « عليّ الطلاق يا حاج احمد ، كنت حين يرقد زوجي بين فخدي أصرخ صراخاً تجفل منه البهائم المربوطة في مرايحها في الساقية » . وكان بكري قبل ذلك يضحك ولا يقول شيئاً ، فقال : « حدثينا يا بنت مجذوب . أي أزواجك كان احسن ؟ » فقالت بنت مجذوب على الفور : « ود البشير » . فقال بكري : « ود البشير الكحيان التعبان ؟ كانت العنز تأكل عشاءه » .

ونقضت بنت مجذوب رماد السجارة على الارض بحركة مسرحية بأصابعها وقالت : « عليّ الطلاق ، كان عنده شيء مثل الوند حين يدخله في احشائي لا اجد أرضاً تسعني . كان يرفع رجلي بعد صلاة العشاء ، واظل مشبوحة حتى يؤذن

آذان الفجر . وكان حين تأتبه الحالة يشخر كالثور حين يذبح
وكان دائماً حين يقوم من فوق يقول : هالله الله يا بنت
مجنوب . فقال لها جدي : « لا عجب انك قتلت في عز
الشباب » . فضحكت بنت مجنوب وقالت : « قتله اجله .
هذا الشيء لا يقتل احداً » .

كانت بنت مجنوب امرأة طويلة لونها فاحم مثل القطيفة
السوداء ، ما يزال فيها الى الآن وهي تقارب السبعين بقايا
جمال . وقد كانت مشهورة في البلد ، يتسابق الرجال والنساء
على السواء لسماع حديثها لما فيه من جرأة وعدم تحرج . وكانت
تدخن السجائر وتشرب الخمر وتحلف بالطلاق كأنها رجل .
ويقال ان امها كانت ابنة احد سلاطين الفور . وقد تزوجت
عدداً من خيرة رجال البلد ، ماتوا كلهم عنها وتركوا لها ثروة
ليست قليلة . وقد انجبت ولداً واحداً وعدداً لا يحصى من
البنات اشتهرن بجمالهن وعدم تحرجهن في الحديث ، مثل امهن .
ويروى ان احدى بنات بنت مجنوب تزوجت رجلاً لم
تكن أمها راضية عنه . وحملها وسافر بها . ولما عاد بعد نحو
من عام أراد أن يقيم وليمة يدعو اليها اقارب زوجته . فقالت
له الزوجة : « ان امي لا تتحرج في كلامها ومن الخير ان
ندعوها وحدها » . وفعلوا ذبحوا وأولوا لها . وبعد ان طعمت
وشربت قالت لابنتها وزوجها يسمع : « يا آمنة . هذا
الرجل لم يقصر في حقك . فممكنك حسن وملبسك حسن ؛
وقد ملأ بيدك ورقبتك ذهباً . ولكن لا يبدو على وجهه انه

يقدر على اشباعك في الفراش . فاذا أردت الشبع الصحيح
فأنا اعرف لك زوجاً اذا جاءك لا يتركك حتى تزهق روحك ،
ولما سمع الزوج هذا الكلام غضب غضباً شديداً وطلق زوجته
ثلاثاً في الحين .

وقالت بنت مجذوب لود الرئيس : « ما بالك ، لك عامان
وانت مكتف بزوجة واحدة ؟ هل ضعفت همتك ؟ » .

وتبادل ود الرئيس وجدي نظرات لم أفهما الا فيما بعد ،
وقال : « الوجه وجه شيخ والقلب قلب شاب . هل تعرفين
أرملة او ثيباً تصلح لي ؟ » .

وقال بكري : « النصيحة لله يا ود الرئيس . انت لم تعد
رجل زواج . انك الآن شيخ في السبعين وأحفادك صار لهم
أولاد . الا تستحي ، لك كل سنة عرس ؟ الآن يلزمك الوقار
والاستعداد لملاقاة الله سبحانه وتعالى » .

ضحكت بنت مجذوب وضحك جدي لهذا القول ، وقال
ود الرئيس في غضب مصطنع : « ماذا يفهمك انت في هذه
الامور ؟ انت وحاج احد كل واحد منكم اكتفى بامرأة
واحدة ولما ماتتا وتركنا كما لم تجدا الجرأة على الزواج .
حاج احدهما طول اليوم في صلاة وتسبيح كأن
الجنة خلقت له وحده . وأنت يا بكري مشغول في جمع المال
إلى أن يريحك منه الموت . الله سبحانه يحلل الزواج وحلل
الطلاق وقال ما معناه خذوهن باحسان أو فارقوهن باحسان .

وقال في كتابه العزيز : النسوان والبنون زينة الحياة الدنيا .
وقلت لود الرئيس ان القرآن لم يقل « النسوان والبنون »
ولكنه قال « المال والبنون » . فقال : « مها يكن ، لا
توجد لذة أعظم من لذة النكاح » .

وملس ود الرئيس شاربيه المقوسين بعناية إلى أعلى ،
طرفاهما كحد الإبرة ، ثم أخذ يمسح بيده اليسرى لحيته
الغزيرة البيضاء التي تلبس وجهه من الصدغ إلى الصدغ ،
ويتناثر لونها الأبيض الناصع من سمرة وجهه كلوث الجلد
المدبوغ ، فكان اللحية شيء صناعي ألصق بالوجه . ويختلط
بياض اللحية دون مشقة ببياض العمة الكبيرة ، مقيماً إطاراً
صارخاً يبرز أهم معالم الوجه : العينين الجليتين الذكيتين ،
والأنف المرهف الوسيم . وود الرئيس يستعمل الكحل متذرعاً
بان الكحل سنة ، لكنني اظن انه يفعل ذلك زهواً . كان في
مجموعه وجهاً جميلاً ، خاصة اذا قارنته بوجه جدي الذي ليس
فيه شيء يميزه ، ووجه بكري وهو كالبطيخة المكرمشة .
وواضح أن ود الرئيس يدرك ذلك ، وقد سمعت انه كان في
شبابه آية في الحسن ، وان قلوب الفتيات كانت تخفق بحبه
قبلي وبحري ، أعلى النهر وأسفله . كان كثير الزواج والطلاق
لا يعنيه في المرأة انها امرأة ، يأخذهن حيثما اتفق ، ويحجب
اذا سئل : « الفحل غير عواف » . راذكر من زوجاته
دنقلاوية من الخندق ، وهندندوية من الغضارف ، وأثيوبية

وجدوها تخدم عند ولده الاكبر في الخرطوم ، وامرأة من نيجيريا
عاد بها في حجته الرابعة . ولما سئل كيف تزوجها قال انه
اجتمع بها وبزوجها في السفينة بين بور سودان وجدة وتصادق
معهما . ولكن الرجل توفي في مكة يوم الوقوف على عرفات .
وقال له وهو يحتضر : « أوصيك بزواجي خيراً » . ولم يجد
خيراً من زواجها . عاشت معه ثلاثة أعوام ، وهو وقت
طويل بحساب ود الرئيس . وكان قرحاً بها ، وأعظم سروره
انها كانت عاقراً . وكان يحكي للناس خصائص أفعاله معها ،
ويقول : « من لم يتزوج فلاتية لم يعرف الزواج » . وأثناء
حياته معها تزوج بامرأة من الكبابيش ، عاد بها في زيارة له
الى حمرة الشيخ . لكن المرأتين لم تطيقا الحياة معاً ، فطلق
الفلاتية ارضاء للكباشية ، ولكن الكباشية ، بعد ذلك بقليل
هجرتة وهربت الى أهلها في حمرة الشيخ .

وضربني ود الرئيس بكوعه في جنبي وقال : « قالوا
نسوان النصارى شيء فوق التصور » . فقلت له : « لأأدري » .

فقال : « اي كلام هذا ؟ شاب مثلك في عز الشباب
يعيش سبع سنين في بلاد الهنك والرنك وتقول لا أدري » .

سكت ، فقال ود الرئيس : « قبيلتكم هذه لا خير فيها .
انتم رجال المرأة الواحدة - ليس فيكم غير عمك عبد الكريم
ذلك هو الرجل » .

كنا بالفعل معروفين في البلد بأننا لا نطلق زوجاتنا ولا

نتزوج عليهن ، وكان اهل البلد يتندرون علينا ويقولون اننا نخاف من زوجاتنا . إلا عمي عبد الكريم - كان مطلقاً مزواجاً ، وزانياً أيضاً .

وقالت بنت مجذوب : « حريم النصارى لا يعرفن لهذا الشيء كما تعرف له بنات البلد . نساء غلف ، الحكاية عندهن كشرب الماء . بنت البلد تعمل الدلكة والدخان والريحة وتلبس الفركة القرمصيص . وحين ترقد على البرش الاحمر بعد صلاة العشاء وتفتح فخذها ، يشعر الرجل كأنه ابو زيد الهلالي . الرجل الماعنده همة يصبح له همة » .

وضحك جدي وضحك بكري وقال ود الرئيس : « دعك من بنات البلد يا بنت مجذوب . النسوان البرانيات ، هؤلاء هن النساء » .

وقالت بنت مجذوب : « عقلك هو البراني » . وقال جدي : « ود الرئيس يحب النسوان الغير مطهرات » . وقال ود الرئيس : « علي اليمين يا حاج احمد ، لو ذقت نساء الحبش والفلاقة كنت رميت مسبحتك . وتركت صلاتك ما بين افخاذهن كأنه الصحن المكفى ، صاغ سليم ، بكامل خيره وشره . عندنا هنا يقطعونه ويتركونه مثل الارض الحلاء » .

وقال بكري : « الختانة من شروط الاسلام » . فقال ود الرئيس : « اي اسلام هذا ؟ اسلامك انت واملام حاج

احد ، لانكم لا تعرفون الذي يصلحكم من الذي يضركم . الفلانة
والمصريون وعرب الشام . اليسوا مسلمين مثلنا ؟ لكنهم ناس
يعرفون الاصول . يتركون نساءهم كما خلقهن الله . اما نحن
فنجزهن كما تجز البهيمة » .

وضحك جدي حتى اسقط ثلاث حبات من مسبحته مرة
واحدة دون وعي ، وقال : « المصريات ، مثلك لا يقدر
عليهن » . قال له ود الرئيس : « وما ادراك انت بالمصريات ؟ »
فقال بكري بالنيابة عن جدي : « هل نسيت ان حاج احمد
سافر الى مصر سنة ستة واقام فيها تسعة اشهر ؟ » .
وقال جدي : « مشيت على قدمي ؛ ليس معي غير المسبحة
والابريق » .

فقال ود الرئيس : « وماذا فعلت ؟ عدت كما ذهبت
بالمسبحة والابريق . علي اليمين ، لو كنت محلك لما عدت فارغ
اليدين » .

فقال جدي : « اظنك كنت رجعت ومعلك امرأة . هذا
هو كل همك . انا رجعت ومعني المال فاشتريت الأرض وعمرت
الساقية وطهرت اولادي » .

وقال ود الرئيس : « بالله يا حاج احمد ، هل ذقت الشيء
المصري ؟ » .

كانت حبات المسبحة طول الوقت تتفلت بين اصابع جدي
طالعة نازلة كأنها دولا ب الساقية . لكن الحركة توقفت فجأة

ورفع جدي وجهه الى السقف وفتح فمه . ولكن بكري كان
اسبق منه فقال : « انت يا ود الرئيس مجنون . رجل كبير
لكن ما عندك فهم . النسوان نسوان في مصر أو السودان
أو العراق أو واتي ، الواق . السوداء والبيضاء والحراء كلهن
سواسية » .

ولم يستطع ود الرئيس من شدة دهشته ان يقول شيئاً .
ونظر الى بنت مجذوب كأنه يستنجد بها . وقال جدي :
« الحق لله انني كدت اتزوج في مصر . المصريون ناس طيبون
ويحفظون العشرة . والمرأة المصرية تعرف قيمة الرجل . تعرفت
برجل تقي في بولاق كنا نلتقي دائماً في صلاة الفجر في مسجد
ابو العلاء . دخلت بيته وتعرفت على اهله كان ابو بنات
عنده ست بنات كل واحدة تقول للقمر قوم وانا اقمع محلك .
بعد مدة قال لي : يا سوداني انت رجل متدين وتحفظ العشرة
خليني ازوجك بنتاً من بناتي . الحق لله يا ود الرئيس نفسي
مالت الى البنت الكبيرة . لكن بعدها بقليل جاني تلفراف
بوقاة المرحومة امي فسافرت في الساعة والحين » . وقال
بكري : « رحمة الله عليها . كانت امرأة فاضلة » . وتنهى
ود الرئيس وقال : « يا خسارة . الدنيا هكذا . تعطي الذي
لا يريد ان يأخذ . علي اليمين لو كنت في محلك كنت عملت
عمائل . كنت تزوجت وقعدت هناك وذقت حلاوة الحياة مع
بنات الريف . ماذا أرجعك لهذا البلد الخلاء المقطوع ؟ » .

وقال بكري : « الغزال قالت بلدي شام » .

وكانت بنت مجذوب قد أوقدت سيجارة اخرى جذبت منها الدخان بسخاء وعكرت به سماء الغرفة ، فقالت لود الريس : « انت لم تعدم حلاوة الحياة حتى في هذا البلد الخلاء المقطوع . ها أنت سمين بدين لا تعجز ولا تكبر مع انك زدت على السبعين » .

فقال ود الريس : « علي اليمين ، سبعين سنة فقط لا تزيد يوماً واحداً . انما انت شرط اكبر من حاج احمد » .
فقال له جدي : « خاف الله يا ود الريس . بنت مجذوب لم تكن ولدت حين تزوجت أنا . وهي اصغر منك بسنتين أو ثلاث » .

فقال ود الريس : « على اي حال ، انا في يومنا هذا انشط واحد فيكم . وعلي اليمين ، بين فخذي المرأة انا انشط من حفيدك هذا » .

فقالت بنت مجذوب : « انت تفلح في الكلام . ولا بد انك تجري وراء النساء لان بضاعتك مثل عقلة الاصبع » .
فقال ود الريس : « لو كنت تزوجتني يا بنت مجذوب لوجدت شيئاً مثل مدافع الانكليز » . فقالت بنت مجذوب : « المدافع سكنت وقت مات ود البشير . انت يا ود الريس رجل مخرف ، عقلك كله في رأس ذكرك ، ورأس ذكرك صغير مثل عقلك » .

وارتفع ضحكهم جميعاً ، حتى بكري الذي كان من قبل
يضحك يهدوء . وتوقف جدي عن الطقطقة بمسبحته تماماً ،
وضحك ضحكته النحيلة الحبيثة المنطلقة . وضحكت بنت
مجدوب بصوتها الرجالي المبحوح . وضحك ود الريس ضحكاً
اقرب الى الشخير منه الى الضحك . ومسحوا الدموع من
اعينهم ، - وقال جدي : « أستغفر الله العظيم وأتوب اليه » .
وقالت بنت مجدوب : « استغفر الله . والله ضحكوتنا يا جماعة
اللهم اجمعنا ثانية في ساعة خير » .
وقال بكري : « استغفر الله . اللهم اغفر لنا وارزقنا
حسن الختام » .

وقال ود الريس : « استغفر الله العظيم . ايام نقضيها على
وجه الارض وبعدها ربنا يفعل فينا ما يشاء » .
وهبت بنت مجدوب واقفة دفعة واحدة ، كما يهب رجل
في الثلاثين ، وانتصبت بطولها ، معتدلة القامة ، لا انحناء في
الظهر ولا تقوس في الكتفين . وقام بكري متحاملاً على نفسه
وقام ود الريس يتكئ قليلاً على عصاه . وقام جدي من على
فروة الصلاة وجلس على سريره ذي الأرجل القصيرة . ونظرت
اليهم ، ثلاثة شيوخ وامرأة شبيخة ، ضحكوا برهة على حافة
القبر . وفي غد يرحلون . غداً يصير الحفيد أباً والأب جد ،
وتستمر القافلة .
ثم خرجوا . وقال لي ود الريس وهو يذهب : « باكر
يا افندي تتغدى معنا » .

وتتدد جدي على سريريه ، ثم ضحك ، وحده هذه المرة ،
كأنما يؤكد احساسه بالعزلة ، بعد ان ذهب الناس الذين
يضحكونه ويضحكهم . وبعد فترة قال : « هل تدري لماذا
دعاك ود الرئيس للغداء ؟ » فقلت له اننا اصدقاء وقد دعاني
من قبل . فقال جدي : « انه يريد منك خدمة » .

فقلت : « ماذا ينبغي ؟ » .

قال : « ينبغي الزواج » .

فتضاحكت وقلت لجدي : « ما شأني بزواج ود الرئيس ؟ »
فقال جدي : « انت وكيل المروس » .

لذت بالصمت . فقال جدي وهو يظن انني لم افهم :
« ود الرئيس يريد ان يتزوج أرملة مصطفى سعيد » .

مرة اخرى لذت بالصمت ، فقال جدي : « ود الرئيس لا
يزال شاباً ، وهو صاحب مال . وعلى اي حال المرأة يلزم لها
الستر . ثلاثة اعوام مرت على وفاة زوجها . الا تريد الزواج
أبدأ ؟ » .

قلت له انني لست مسؤولاً عنها . ابوها موجود واخوتها ،
فلماذا لا يطلبها ود الرئيس منهم ؟ فقال جدي : « البلد كلها
تعرف ان مصطفى سعيد جملك وصياً على زوجته وولديه » .
قلت له انني وصي على الولدين ولكن المرأة حرة التصرف
وأولياؤهم موجودون . فقال جدي : « انها تثق بكلامك » .
لو حدثتها فقد ترضى » .

احسست بنفيظ حقيقي ادهشني ، اذ ان هذه الاشياء
مألوفة في البلد . وقلت لجدي : « انها رفضت رجالاً اصغر
منه سناً ، انه يكبرها بأربعين عاماً » . ولكن جدي اصر
على ان ود الرئيس شاب وانه ميسور الحال وانه متأكد أن
أباها لن يمانع ولكن المرأة نفسها قد ترفض ولذلك ارادوا ان
يعملونني واسطة خير .

حبس الغضب لساني فلذت بالصمت . وقفزت الى ذهني
صرتان فاضحتان في آن واحد . ولشدة عجيبي ، اتحدث
الصوتان في ذهني ، وتخيلت حسنة بنت محمود ، أرملة مصطفى
سعيد ، هي المرأة نفسها في الحالتين — فخذان بيضاوان
مفتوحتان في لندن ، وامرأة تثن تحت ود الرئيس الكهل ،
قبيل طلوع الفجر في قرية مغمورة الذكر عند منحى النيل .
ان كان ذلك شراً فهذا ايضاً شر ، وان كان هذا ، مثل
الموت والولادة وفيضان النيل . وحصاد القمح ، جزءاً من
نظام الكون ، فقد كان ذلك أيضاً كذلك . وأتصور حسنة
بنت محمود ، أرملة مصطفى سعيد ، في الثلاثين من العمر ،
تبكي تحت ود الرئيس الذي بلغ السبعين ، ويتحول بكاءها الى
قصص من قصص ود الرئيس المشهورة عن نسائه الكثيرات ، يتندر
بها رجال البلد ، فيزداد الغيظ في صدري ضراوة . ولم استطع
البقاء فخرجت ، وسمعت جدي ينادي ورائي فلم التفت .
وفي بيتنا سأفني أبي عن سبب غضيبي فحكيت له القصة .
ضحك وقال : « هل هذا شيء يثير الغضب ؟ » .

قريباً من الساعة الرابعة بعد الظهر ذهبت إلى بيت مصطفى سعيد ، ودخلت من باب الحوش الكبير ، ونظرت برهة إلى اليسار إلى الغرفة المستطيلة من الطوب الأحمر . ساكنة ، لا كالمقبرة ، ولكن كسفينة ألقت مراسيها في عرض البحر . إنما الوقت لم يحن بعد . وأجلستني على كرسي في المصطبة أمام الديوان ، المكان عينه ، وجاءت لي بكوب من عصير الليمون . وجاء الولدان وسلموا علي ، الأكبر محمود اسم أبيها ، والأصغر سعيد اسم أبيه . طفلان عاديان ، أحدهما في الثامنة والثانيها في السابعة ، يركبان حمراً كل صباح إلى المدرسة على بعد ستة أميال . إنها أمانة في عنقي ، ومن الأسباب التي تحضرني هنا كل عام أن أتفقد أحوالهما . سنختنها هذه المرة ، وسنحضر المغنين والمداحين ونقيم احتفالاً يكون ذكرى مضيئة من ذكريات طفولتها . قال : « جنبها مشقة السفر » . انني لن أفعل شيئاً من هذا القبيل ، إذا أرادوا ، حين يكبران ، أن يسافروا فليسافروا . كل أحد يبدأ

من أول الطريق ، والعالم في طفولة لا تنتهي .

انصرف الولدان وظلت هي واقفة أمامي . قامه ممشوقة
تقرب من الطول ، ليست بدينة ولكنها ريانة ممتلئة كعود
تمصب السكر ، لا تضع حناء في قدميها ولا في يديها ، ولكن
عطراً خفيفاً يفوح منها . شفتاها لمساوان طبيعة ، وأسنانها
قوية بيضاء منتظمة . وجهها وسم ، والعينان السوداوان
الواسعتان يختلط فيها الحزن والحياء . حين سلمت عليها
أحسست بيدها ناعمة دافئة في يدي . امرأة نبيلة الرقفة ،
أجنبية الحسن ، أم انني أتخيل شيئاً ليس موجوداً حقيقة ؟
امرأة أحس حين ألقاها بالحرّج والخطر ، فأهرب منها أسرع
ما أستطيع . هذا هو القربان الذي يريد ود الرئيس أن
يذبحه على حافة القبر ، ويرشوي به الموت فيهمله عاماً أو عامين .

وظلت واقفة رغم الحاحي ، ولم تجلس إلا حين قلت لها :
« إذا لم تجلسي فسأذهب » . بدأت الحديث بطيئاً متعسراً ،
ومضى كذلك والشمس تنحدر نحو المغيب ، والهواء يبرد
قليلاً قليلاً ، وقليلًا قليلاً أيضاً أخذت عقدة لساني تنحل
وعقدة لساني . وقلت لها : « أضحكها وارتحف قلبي من
عدوبة ضحكها . وانشرب دم المغيب فجأة في الأفق الغربي
كدماء مائين ماقوا في حرب عارمة نشبت بين الأرض
والسواء . وانتهت الحرب فجأة بالهزيمة ، ونزل ظلام كامل
مستتب احتل الكون بأقطابه الأربعة ، وأضاع مني الحزن

والحياء الذي في عينيها . لم يبق إلا الصوت الذي دفأته الالفة
والعطر الخفيف كينبوع قد يحف في أي لحظة . وفجأة قلت
لها : « هل أحببت مصطفى سعيد ؟ »

لم تجب . وظللت برهة أنتظر ولكنها لم تجب . ثم
أدركت أن الظلام والعطر كادا يخرجاني عن طوري وان
ذلك سؤال لا يسأل في ذلك الزمان وذلك المكان . ولكن
الظلام ما لبث أن ثغر ثغرة نفذ منها صوتها إلى أذني :
« كان أباً لأولادي » .

إذا صدق ظني ، فإن الصوت لم يكن حزيناً ، بل كانت
فيه مناغات . وتركت الصمت يوسوس لها فلعلها تقول شيئاً .
نعم ، ذلك هو :
« كان زوجاً كريماً وأباً كريماً . طول حياته لم يقصر
معنا » .

فقلت لها وأنا أميل في الظلام تجاهها : « هل كنت تعرفين
من أين هو ؟ »

قالت : « من الخرطوم » .

قلت : « وماذا يعمل في الخرطوم ؟ »

قالت : « في التجارة » .

قلت : « ولماذا جاء إلى هنا ؟ »

قالت : « الله أعلم » .

وكدت أياأس . ثم هبت نسمة نشطة في اتجاهي حاملة

شحنة من العطر ، فوق ما كنت أطمع فيه . واستنشقت
العطر وأحسست بيامي يزداد حدة . وفجأة حدثت فجوة
كبيرة في الظلام ، نفذ منها صوت حزين هذه المرة ، حزناً
أعمق من غور النهر . قالت : « أظنه كان يخفي شيئاً »
لاحقتها بالسؤال : « لماذا ؟ »

قالت : « كان يقضي وقتاً طويلاً بالليل في تلك الغرفة »
وازدادت ملاحظة : « ماذا في تلك الغرفة ؟ »
قالت : « لا أدري . اني لم أدخلها قط . المفتاح عندك .
لماذا لا تتحقق بنفسك ؟ »

نعم ، هبنا قمنا أنا وهي الآن ، في هذه اللحظة ، وأوقدنا
المصباح ، ودخلنا ، هل نجده معلقاً من رقبتة في السقف ،
أم نجده جالساً القرفصاء على الأرض ؟
سألها مرة أخرى : « لماذا تظنين أنه كان يخفي شيئاً ؟ »
صوتها الآن ليس حزيناً وليست فيه مناغة ، ولكنه
مشرشر الأطراف كورقة الذرة :

« أحياناً بالليل في النوم كان يقول كلاماً .. بالبطانة »
ولاحقتها بالسؤال : « أي بطانة ؟ »
فقلت : « لا أدري . مثل الكلام الأفرنجي »
وظللت ماثلاً وجهتها في الظلام ، مترقباً ، منتظراً .
« كان يردد في نومه كلمات .. مثل جينا ، جيني ..
لا أدري ، » .

في هذا المكان نفسه ، في وقت مثل هذا ، في ظلام مثل هذا ، كان صوته يطفو كأحوات ميتة طافية على سطح البحر . « ظلت أطاردها ثلاثة أعوام . كل يوم يشتد قوتر وتر القوس . قوافلي ظمأى والسراب يتوهج قدامي في صحراء الشوق . في تلك الليلة حين همست جين في أذني : « تعال معي . تعال معي » ، كانت حياتي قد اكتملت ولم يكن يوجد سبب للبقاء .. ، وتناهت إلى أذني صرخة طفل من مكان ما في الحلي ، وقالت حسنه : « كأنه كان يحس بدنو أجله . قبل اليوم ، يوم .. قبيل موته بأسبوع رتب كل شؤونه . كانت له أطراف جمعها ، وديون دفعها . قبل موته بيوم دعاني وحدثني بما عنده . أوصاني كثيراً على الولدين . أعطاني الرسالة المختومة بالشمع . قال لي . أعطها له إذا حدث شيء . وقال لي إذا حدث شيء فأنت تكون وصياً على الأولاد . قال لي : استشيريه في كل ما تفعلين . بكيت وقلت له : إن شاء الله ما في عوج . فقال : فقط من باب الاحتياط والدنيا غير معروفة . في ذلك اليوم توصلت إليه ألا ينزل إلى الحقل والدنيا فيضان وغرق . كنت خائفة . لكنه قال لا داعي للخوف وإنه يجيد السباحة . كنت متوجسة طول اليوم وزاد خوفي حين تأخر عن ميعاده . وانتظرنا ، ثم كان ما كان »

وأحسست بها تبكي في صمت ، ثم ارتفع بكأوها ، وتحول إلى شهيق حاد ، ارتعش له الظلام القائم بيني وبينها . ضاع

الطر والصمت، ولم يعد في الكون إلا نجيب امرأة فكلت زوجاً لا تعرفه ، رجلاً أفرد أشرعه وضرب في عرض البحر وراء سراب أجنبي . وود الرئيس الشيخ في داره يحلم بليالي الفنج تحت فركة القرمصيص . وأنا ماذا أفعل الآن وسط هذه الفوضى ؟ هل أقوم إليها وأضمها إلى صدري وأجفف دموعها ببنديلي وأعيد الطمانينة إلى قلبها بكلماتي ؟ وقمت نصف قومة مستنداً إلى ذراعي ، ولكنني أحسست بالخطر ، وتذكرت شيئاً ، فلبثت واقفاً هكذا زمناً في حالة بين الاقدام والاحجام . وبغثة هبط علي عناء ثقيل تهالكت تحت وطأته على المقعد . الظلام كثيف وعميق وأساسي وليست حالة ينعدم فيها الضوء - الظلام الآن ثابت كأن الضوء لم يوجد أصلاً ، ونجوم السماء مجرد فتوق في ثوب قديم مهلهل . العطر أضغاث أحلام ، صوت لا يسمع مثل أصوات أرجل النمل في تل الرمل . ونبع من جوف الظلام صوت لم يكن صوتها ، صوت ليس غاضباً ولا حزيناً ولا خائفاً ، صوت مجرد ، يقول : « كان المحامون يتصارعون على جثتي . لم أكن أنا المهم بل كانت القضية هي المهمة ، بروفيسور ماكسول فستركين من المؤسسين لحركة التسلح الخلقي في أكسفورد ، وماسوني ، وعضو في اللجنة العليا لمؤتمر الجمعيات التبشيرية البروتستانتية في أفريقيا . لم يكن يخفي كراهيته لي . أيام تتلمذي عليه في أكسفورد كان يقول لي في تبرم واضح : « أنت يا مستر سعيد خير مثال على أن مهمتنا الحضارية في افريقيا عديمة الجدوى ،

فأنت بعد كل المجهودات التي بذلناها في تنقيفك كأنك تخرج
من الغابة لأول مرة ، . ومع ذلك فما هو ذا يستعمل كل
مهارته ليخلصني من حبل المشنقة . وسير آرثر هفتز ، تزوج
وطلق مرتين ، مغامراته الغرامية معروفة ، مشهور بصلاته
مع اليسار والأوساط البوهيمية . قضيت عبد الميلاد سنة ١٩٢٥
في بيته في سافرون ولدن . كان يقول لي : « أنت وغد
ولكنني لا أكره الأوغاد ، فأنا أيضاً وغد » . لكنه في هذه
الحكمة سيستعمل كل مهارته ليضع حبل المشنقة حول عنقي .
والخلفون أيضاً ، أشتات من الناس ، منهم العامل والطبيب
والمزارع والمعلم والتاجر والحائوتي ، لا تجمع صلة بيني وبينهم ،
لو انني طلبت استئجار غرفة في بيت أحدهم فأغلب الظن أنه
سيرفض ، وإذا جاءت ابنة أحدهم تقول له انني سأزوج هذا
الرجل الافريقي ، فيحس حتماً بأن العالم ينهار تحت رجله .
ولكن كل واحد منهم في هذه المحكمة سيسمو على نفسه لأول
مرة في حياته . وأنا أحس تجاههم بنوع من التفوق ، فالاحتفال
مقام أصلاً بسببي ، وأنا فوق كل شيء مستعمر ، انني الدخيل
الذي يجب أن يبت في أمره . حين جرى لككتشر بمحمود ود
أحمد وهو يرسف في الاغلال بعد أن هزمه في موقعة انبرا ،
قال له : « لماذا جئت بلدي تخرب وتتهب ؟ » الدخيل هو
الذي قال ذلك لصاحب الأرض ، وصاحب الأرض طأطأ
رأسه ولم يقل شيئاً . فليكن أيضاً ذلك شأني معهم . انني
أسمع في هذه المحكمة صليل سيوف الرومان في قرطاجة ،

وقعمة سنابك خيل النبي وهي تطأ أرض القدس . البواخر
مخرت عرض النيل أول مرة تحمل المدافع لا الحبز ، وسكك
الحديد انشئت أصلاً لنقل الجنود . وقد أنشأوا المدارس
ليعلمونا كيف نقول « نعم » بلغتهم . انهم جلبوا إلينا جرثومة
العنف الأوروبي الأكبر الذي لم يشهد العالم مثيله من قبل في
السوم وفي فردان ، جرثومة مرض فتاك أصابهم منذ أكثر
من ألف عام . نعم يا سادتي ، انني جئتكم غازياً في عقر
داركم . قطرة من السم الذي حقنتم به شرايين التاريخ . أنا
لست عطيلًا . عطيل كان أكذوبة ،

بينما كنت أفكر في قول مصطفى سعيد وهو يجلس في
هذا المكان عينه ، في ليلة مثل هذه ، كنت أسمع نشيجها
بالبكاء كأنه يصلني من بعد ، يختلط في خيالي بأصوات مبعثرة
لا بد انني سمعتها في أوقات متباعدة ، ولكنها تداخلت في ذهني
كأجراس كنيسة - صراخ طفل في مكان ما في الحي ،
وصباح ديك ، ونهيق حمار ، وأصوات عرس تأتي من الضفة
الأخرى للنهر . لكنني الآن أسمع صوتاً واحداً فقط ، صوت
بكائها المعض . ولم أفعل شيئاً . جلست حيث أنا بلا حراك
وتركتها تبكي وحدها الليل حتى سكنت . وكان لابد أن
أقول شيئاً ، فقلت : « التعلق بالماضي لا ينفع أحداً . عندك
الولدان ، وأنت مازلت شابة في مستقبل العمر . فكري في
المستقبل . ومن يدري ، لعلك تقبلين واحداً من الخطاب
العديدين الذين يطلبونك ،

أجابت فوراً ، بحزم و الأمر الذي أدهشني : « بعد مصطفى سعيد لا أدخل على رجل » .

ولم أكن أنوي أن أقول لها ذلك ، ولكنني قلت : « ود الرئيس يريد زواجك ، وأبوك وأهلك لا يمانون . كلفني أن أتوسط له عندك » .

وصمتت فترة طويلة حتى ظننت انها لن تقول شيئاً ، وفكرت أن أقوم وأذهب . وأخيراً أحسست بصوتها في الظلام كأنه نصل : « إذا أجبروني على الزواج ، فاني سأقتله وأقتل نفسي » .

وفكرت في عدة أشياء أقولها ، ولكنني ما لبثت ان سمعت المؤذن ينادي : « الله أكبر . الله أكبر » لصلاة العشاء ، فوقفت هي أيضاً ، وخرجت دون أن أقول شيئاً .

وأنا أشرب قهوة الصباح جاءني ود الرئيس . كنت أنوي الذهاب إلى داره ولكنه لم يمهليني . قال انه جاء ليذكّرني بدعوة البارحة ، ولكنني كنت أعلم أنه لم يستطع الصبر فجاء ليصرف مني نتيجة وساطتي . قلت له حالما جلس : « لا فائدة . انها لا تريد الزواج اطلاقاً . لو كنت منك لتركك هذا الموضوع البتة » .

لم أكن أحسب أن الخبر سيقع عليه كما وقع فعلاً . لكن ود الرئيس الذي يبدل النساء كما يبدل الحخير ، يجلس أمامي

الآن . وجهه مربرد وجفناه يرتعشان ، وقد عض شفته السفلى حتى كاد يقطعها . أخذ يتململ في مقعده وينقر الأرض في عصبية بالغة بعصاه . خلع حذاءه من رجله اليمنى ولبسه عدة مرات ، وكان يتأهب للقيام ثم يجلس ، ويفتح فمه كأنه يريد أن يتكلم ثم يسكت . يا للعجب هل معقول أن ود الرئيس عاشق ؟ وقلت له : « لن تعدم امرأة غيرها تتزوجها »

قال وعيناه الذكيتان لم تعودا ذكيتين ، أصبحتا كرتين من الجاج قد استقرتا على حالة واحدة جامدة : « لن أتزوج غيرها . ستقبلني وأنفها صاغر . هل تظن انها ملكة أو أميرة ؟ الأرامل في هذا البلد أكثر من جوع البطن . تحمد الله انها وجدت زوجاً مثلي » .

قلت له : « إن كانت امرأة كسائر النساء فلماذا الإصرار ؟ أنت تعلم انها رفضت رجالاً غيرك ، بعضهم أصغر منك سناً . إذا أرادت أن تتفرغ لتربية ولديها فلماذا لا تتركونها وشأنها ؟ »
بغثة تدفق من ود الرئيس غضب جنوني لم أكن أظن أنه من طبيعته . ثار ثورة عارمة ، وقال شيئاً أدهشني حقيقة ، « أسأل نفسك لماذا ترفض بنت محمود الزواج . انت السبب . لاشك أن بينك وبينها شيئاً . ما دخلك أنت ؟ أنت لست أباهـا ولا أخاها ولا ولي أمرها . انها ستتزوجني رغم انك وانفها . أبوها قبل واخواتها قبلوا . الكلام الفارغ الذي تتعلمونه في

المدارس لا يسير عندنا . هذا البلد فيه الرجال قوامون
على النساء .

ولا أعلم ماذا كان يحدث لولا أن أبي دخل في تلك اللحظة ،
وقمت فوراً وخرجت .

ورحت إلى محبوب في حقله . كان محبوب في مثل سني ،
قضينا طفولتنا معاً ، وكنا نجلس على درجين متلاصقين في
المدرسة الأولية . وكان أذكى مني . ولما انتهينا من مرحلة
التعليم الأولى . قال محبوب : هذا القدر من التعليم يكفي ،
القراءة والكتابة والحساب . نحن ناس مزارعون مثل آبائنا
وأجدادنا . كل ما يلزم المزارع من التعليم ، ما يمكنه من
كتابة الخطابات وقراءة الجرائد ومعرفة فروض الصلاة . وإذا
كانت لنا مشكلة نعرف نتفاهم مع الحكام . مضيت أنا في
ذلك السبيل ، وتحول محبوب إلى طاقة فعالة في البلد ، فهو
اليوم رئيس للجنة المشروع الزراعي ، والجمعية التعاونية ،
وهو عضو في لجنة الشفخانة التي كادت تتم ، وهو على رأس
كل وفد يقوم إلى مركز المديرية لرفع الظلامات . وحين جاء
الاستقلال أصبح محبوب من زعماء الحزب الوطني الاشتراكي
الديمقراطي في البلد . كنا أحياناً نتذاكر أيام طفولتنا في
القرية فيقول لي : « لكن انظر أين انت الآن وأين أنا . انت
صرت موظفاً كبيراً في الحكومة وأنا مزارع في هذه البلدة
المقطوعة » . وأقول له بأعجاب حقيقي : « انت الذي نجحت

لا أنا ، لأنك تؤثر على الحياة الحقيقية في القطر . أما نحن
فموظفون لا نقدم ولا نؤخر . الناس امثالك هم الورثة
الشرعيون للسلطة . أنتم عصب الحياة . أنتم ملح الأرض .
ويضحك محجوب ويقول : « إذا كنا نحن ملح الأرض فهي
أرض ماسخة » .

ضحك أيضاً بعد أن سمع قصتي مع ود الرئيس وقال :
ود الرئيس رجل غرّف لا يعني مايقول » .

قلت له : « انت تعلم أن علاقتي بها علاقة يملّحها الواجب
لا أكثر ولا أقل ؟ »

فقال محجوب : « لا تلتفت لتخريف ود الرئيس . سمعتك
في البلد لا تشوبها شائبة . اهل البلد كلهم يلهجون بحمدك
لأنك تقوم بالواجب نحو اولاد مصطفى سعيد ، رحمه الله ،
خير قيام . لقد كان على أي حال رجلاً غريباً لا تربطك به
رابطة » . وسكت قليلاً ثم قال : « إنما إذا كان ابو المرأة
واخوانها راضين فلا حيلة لأحد » .

قلت له : « ولكن إذا كانت لا تريد الزواج .. » وقاطعني
قائلاً : « انت تعرف نظام الحياة هنا . المرأة للرجل ، والرجل
رجل حتى لو بلغ ارذل العمر » .

قلت له : « ولكن إذا كانت لا تريد الزواج .. » وقاطعني
قائلاً : « في هذا العصر »

وقال محجوب : « الدنيا لم تتغير بالقدر الذي تظنه .
تغيرت أشياء . طلبات الماء بدل السواقي ، محارث من حديد
بدل محارث الخشب . أصبحنا نرسل بناتنا للمدارس .
راديوها . أوتومبيلات . تعلمنا شرب الويسكي والبيرة بدل
العرقى والمريسة . لكن كل شيء كما كان » . وضحك محجوب
وهو يقول : « الدنيا تتغير حقيقة حين يصير أمثالي وزراء في
الحكومة » . واضاف وهو ما يزال يضحك : « وهذا طبعاً
من رابع المستحيلات » .

قلت لمحجوب ، وقد سرى عني : « هل تظن أن ود
الريس وقع في غرام حسنه بذت محمود ؟ »

قال محجوب : « لا يستبعد . ود الريس رجل صباية .
وهو منذ سنتين يلهج بذكرها . وقد طلبها من قبل وأبوها
قبل ولكنها رفضت . وانتظروا لعلها تقبل مع مرور الزمن »

قلت لمحجوب : « لكن لماذا هذا الغرام الفجائي ؟ ود
الريس يعرف حسنه بذت محمود منذ كانت طفلة . هل تذكرها
وهي طفلة شرسة تتسلق الشجر وتصارع الأولاد؟ كانت وهي
فتاة تسبح معنا عارية في النهر . ماذا جد الآن ؟ »

وقال محجوب : « ود الريس كهؤلاء الناس المفرمين باقتناء
الحير ، الواحد منهم لا تعجبه الحمارة إلا إذا رأى رجلاً آخر
راكباً عليها . يراها حينئذ جميلة ويسمى جاهدأ لشرائها حتى

ولو دفع فيها أكثر مما تستحق . وصمت مدة يفكر ثم قال : « ولكن الحقيقة ان بنت محمود قد تغيرت بعد زواجها من مصطفى سعيد . كل النسوان يتغيرن بعد الزواج لكنها هي خصوصاً تغيرت تغيراً لا يوصف . كأنها شخص آخر . حق نحن أندادها الذين كنا نلعب معها في الحى ، ننظر اليها اليوم فنراها شيئاً جديداً . هل تعرف ؟ كنساء المدن »

وسألت محجوب عن مصطفى سعيد فقال : « رحمه الله . كان يحترمني وكنت أحترمه . لم تكن الصلة بيننا وثيقة أول الأمر . ولكن عملنا معاً في لجنة المشروع قرب بيننا . موته كان خسارة لا تعوض . هل تعلم ، لقد ساعدنا مساعدة قيمة في تنظيم المشروع . كان يتولى الحسابات . خبرته في التجارة أفادتنا كثيراً . وهو الذي أشار علينا باستغلال أرباح المشروع في إقامة طاحونة للدقيق . لقد وفرت علينا أتعاباً كثيرة ، وأصبح الناس اليوم يحيئونها من أطراف البلد . وهو الذي أشار علينا أيضاً بفتح دكان تعاوني . الأسعار الآن عندنا لا تزيد عن الأسعار في الخرطوم . زمان ، كما تعلم ، كانت البضائع تأتي مرة أو مرتين في الشهر بالباخرة . كان التجار يخزنونها حتى تنقطع كلية من السوق ، ثم يبيعونها بأضعاف مضاعفة . المشروع يملك اليوم عشرة لوارى تجلب لنا البضائع كل يوم والآخر مباشرة من الخرطوم وأم درمان . ورجوته أكثر من مرة أن يتولى الرئاسة ولكنه كان يرفض

ويقول انني أجدر منه . الممدة والتجار كانوا يكرهونه كراهية شديدة لأنه فتح عيون أهل البلد وأفسد عليهم أمرهم . بعد موته قامت إشاعات بأنهم دبروا قتله . مجرد كلام . لقد مات غرقاً . عشرات الرجال ماتوا غرقاً ذلك العام . كان عقلية واسعة . ذلك هو الرجل الذي كان يستحق أن يكون وزيراً في الحكومة لو كان يوجد عدل في الدنيا .

فقلت لمحبوب : « السياسة أفسدتك . أصبحت لا تفكر إلا في السلطة . دعك من الوزارات والحكومة وحدثني عنه كإنسان . أي نوع من الناس كان هو ؟ »

وظهرت الدهشة على وجهه وقال : « ماذا تقصد أي نوع من الناس ؟ إنه كان كما ذكرت لك » .

ولم أستطع أن أجد الكلمات المناسبة لأوضح لمحبوب قصدي . وقال هو : « مها يكن ... ايش السبب في اهتمامك بمصطفى سعيد ؟ لقد سألتني عنه كذا مرة من قبل ؟ » واستطرد محجوب قبل أن أرد على كلامه : « تعرف ؟ لا أفهم لماذا جعلك وصياً على ولديه . طبعاً أنت تستحق شرف الأمانة وقد قمت بها خير قيام . لكنك كنت أقلنا معرفة به . نحن معه هنا في البلد ، وأنت كنت تراه من العام إلى العام . كنت أتوقع أن يجعلني أو يجعل جدك وصياً . جدك كان صديقه الحميم . كان يحب الاستماع إلى حديثه . كان يقول

لي : تعرف يا محبوب ؟ حاج أحمد رجل فريد من نوعه .
وكنت أقول له : حاج أحمد رجل مخرف . فيزعل جد
ويقول : « لا ، لا تقل هذا . حاج أحمد جزء من التاريخ » .

قلت لمحبوب : « أنا على أي حال وصي إسمياً . الوصي
الحقيقي هو أنت . ولدان هنا معك . وأنا بعيد في الخرطوم »
فقال محبوب : « انها ولدان ذكيان مؤدبان . فيها
مخايل أبيهما . سيرهما في الدراسة أحسن ما يكون »

فقلت له : « ماذا يحدث لهما إذا تم موضوع الزواج
المضحك الذي يريده ود الرئيس ؟ »

فقال محبوب : « هون عليك . حتما ود الرئيس سينشغل
بامرأة أخرى . وعلى أسوأ الفروض تتزوجه . لا أظنه يعيش
أكثر من عام أو عامين . ويكون لها سهم في ارضه وزرعه
الكثير »

ثم ، مثل ضربة مفاجئة تنزل على أم الرأس ، نزل علي
قول محبوب : « لماذا لا تتزوجها انت ؟ » خفق قلبي بين
جنبي خفقانا كاد يفلت زمامه من يدي . ولم أجد الكلمات إلا
بعد مدة . قلت لمحبوب وصوتي يرتجف : « لا شك انك
تمزح »

فقال : « جد . لماذا لا تتزوجها ؟ أنا متأكد انها

ستقبل . انت وصي على الولدين ، وبالأحرى أن تتم الموضوع
وتصبح أبا ،

وأحسست بعطرها ليلة أمس ، وتذكرت الأفكار التي
نبئت في رأسي بشأنها في الظلام . وسمعت محجوب يضحك
ويقول « لا تقل لي انك زوج وأب ، الرجال يتزوجون على
زوجاتهم كل يوم . لن تكون أولهم ولا آخرهم ،

وقلت لمحجوب ، وقد استعدت سيطرتي على نفسي ، وأنا
أضحك ايضاً : « انت مجنون حقاً ،

وتركته وذهبت ، وان كنت قد ايقنت من حقيقة ستأخذ
كثيراً من راحة بالي فيما بعد . انني ، بشكل أو بآخر ، أحب
حسنة بنت محمود ، ارملة مصطفى سعيد . أنا ، مثله ومثل
ود الرئيس وملايين آخرين ، لست معصوماً من جرثومة
العدوى التي يتنذى بها جسم الكون .

احتفلنا بختان الولدين وعدت للخرطوم . تركت زوجتي وابنتي في البلد ، وسافرت في الطريق الصحراوي في سيارة من سيارات المشروع التي ذكرها محبوب . كنت أسافر عادة بالباخرة إلى ميناء كريمة النهرى ، ومن هناك آخذ القطار ماراً بأبي حمد وأتبرا إلى الخرطوم . لكنني هذه المرة كنت في عجلة من أمري دون سبب واضح ، ففضلت اختصار الطريق . وقامت السيارة في أول الصباح ، وسارت شرقاً حذاء النيل نحو ساعتين ، ثم اتجهت جنوباً في زاوية مستقيمة وضربت في الصحراء . لا يوجد مأوى من الشمس التي تصعد في السماء بخطوات بطيئة وتصب أشعتها على الأرض كأن بينها وبين أهل الأرض ثأراً قديماً . لا مأوى سوى الظل الساخن في جوف السيارة ، وهو ليس ظلاً . طريق يمل يصعد وهبط ، لا شيء يفري العين . شجيرات مبعثرة في الصحراء ، كلها أشواك ، ليست لها أوراق ، اشجار بائسة ليست حية ولا ميتة . تسير السيارة ساعات دون ان يعترض

طريقها انسان أو حيوان . ثم نمر بقطيع من الجبال هي
الأخرى عجفاء ضامرة . لا توجد سحابة واحدة تبشر بالأمم
في هذه السماء الحارة ، كأنها غطاء الجمجم . اليوم هنا شيء
لا قيمة له ، مجرد عذاب يتعذبه الكائن الحي في انتظار الليل .
الليل هو الخلاص . وفي حالة تقرب من الحمى طافت برأسي
نتف من أفكار ، كلمات من جل ، وصور لوجوه واصوات
نجي ، كلها يابسة كالأعاصير الصغيرة التي تهب في الحقول البور .
فيم العجلة ؟ سألتني : « فيم العجلة ؟ » قالت : « ولماذا
تمكث اسبوعاً آخر ؟ » قالت .. الحارة السوداء ، اعرابي
غش عمك وباعه الحمار السوداء . وقال أبي : « هل هذا
شيء يثير الغضب ؟ » عقل الإنسان ليس محفوظاً في ثلاجة .
انها هذه الشمس التي لا تطاق . تذوب الملح تشل التفكير .
ومصطفى سعيد ، وجهه ينبع واضحاً في خيالي كما رأيته أول
يوم ، ثم يضيع في أزيز محركات السيارة ، وصوت احتكاك
بجصى الصحراء ، واحاول جاهداً استعادته فلا استطع .
يوم الاحتفال بمختان الولدين ، خلعت حسنه الثوب عن رأسها
ورقصت كما تفعل الأم يوم ختان ولدها . يا لها من امرأة .
لماذا لا تتزوجها انت ؟ كيف كانت ايزابيلا سيمور تناجيه ؟
« اغتلي ايها القول الأفريقي . احرقني في نار معبدك أيها الإله
الاسود . دعني أتلوى في طقوس صلواتك العريضة المهيبة »
وها هنا منبع النار . ها هو المعبد . لاشيء . الشمس
والصحراء ونباقات يابسة وحيوانات عجفاء . وهتز كيان

السيارة حين تنحدر في واد صغير . وتمر بعظام جمل نفق من
المطش في هذا التيه . ويعود إلى خيالي وجه مصطفى سعيد
في وجه ابنه الأكبر . انه اكثر الولدين شبهاً به . يوم حفلة
الحقتان انا ومحجوب شربنا اكثر مما يجب . الناس في بلدنا
لرئاسة الحياة عندهم يجعلون من أي حدث سعيد مها صغر عذراً
لاقامة حفل كحفل العرس . جررت من يده في الليل ،
والمغنون يغنون والرجال يصفقون في قلب الدار . وقفنا
أمام باب الغرفة تلك . قلت له : « أنا وحدي عندي
المفتاح . باب من الحديد » . قال لي محجوب بصوته المخمور :
« هل تدري ما بداخلها ؟ » قلت له : « نعم » قال :
« ماذا ؟ » فقلت وأنا اضحك تحت وطأة الخمر :
« لا شيء . لا شيء إطلاقاً » . هذه الغرفة عبارة عن
نكتة كبيرة . كالحياء . تحسب فيها سرّاً وليس فيها
شيء . « لا شيء إطلاقاً » . وقال محجوب : « أنت
سكران ، هذه الغرفة مليئة من أرضها إلى سقفها بالكنوز .
ذهب ، وجواهر ، ودرر ولآلى . هل تعلم من هو مصطفى
سعيد ؟ » قلت له ان مصطفى سعيد كان أكذوبة ، وضحكت
مرة أخرى ضحكة غمורה وقلت له : « هل تريد أن تعرف
حقيقة مصطفى سعيد ؟ » فقال محجوب : « أنت لست
سكران بل مجنوناً أيضاً . مصطفى سعيد هو في الحقيقة نبي
الله الخضر . يظهر فجأة ويغيب فجأة . والكنوز التي في هذه
الغرفة هي كنوز الملك سليمان حملها الجان إلى هنا . وأنت

عندك مفتاح الكنز . « افتح يا سمسم ودعنا نفرق الذهب
والجواهر على الناس » . وكاد يحجوب يصرخ ويجمع الناس
لولا انني أغلقت فمه بيدي . وفي الصباح استيقظ كل واحد
منا في بيته لا ندري كيف وصلنا . والطريق لا ينتهي عند
حد ، والشمس لا تكل . لا غرو أن مصطفى سعيد هرب
إلى زمهرير الشمال . ايزابيلا سيمور قالت له : « المسيحيون
يقولون أن الههم صلب ليحمل وزر خطايهم . انه إذن مات
عبثاً . فما يسمونه الخطيئة ما هو إلا زفرة الاكتفاء بمعاقتك
يا إله وثنيي . أنت إلهي ، ولا إله غيرك » . لا بد أن هذا
هو سبب انتحارها ، وليس مرضها بالسرطان . كانت مؤمنة
حين قابلته . كفرت بدينها وعبدت إلهاً كعجل بني إسرائيل .
يا للغرابة . يا للسخرية . الانسان لمجرد انه خلق عند خط
الاستواء ، بعض المجانين يعتبرونه عبداً وبعضهم يعتبرونه
إلهاً . أين الاعتدال ؟ أين الاستواء ؟ وجدي بصوته النحيل
وضحكته الخبيثة حين يكون على سجيته ، أين وضعه في هذا
البساط الأحدي ؟ هل هو حقيقة كما أزعم أنا وكما يبدو هو ؟
هل هو فوق هذه الفوضى ؟ لا أدري . ولكنه بقي على أي
حال ، رغم الأوبئة وفساد الحكم وقسوة الطبيعة . وأنا موقن
أن الموت حين يبرز له سبتسم هو في وجه الموت . ألا يكفي
هذا ؟ هل ابن آدم مطالب بأكثر من هذا ؟ وبرز لنا من وراء
التل اعرابي جاء يهول نحونا ، وقطع الطريق على السيارة
فتوقفنا . بدنه وثيابه بلون الأرض . وسأله السائق ماذا

يريد ؟ قال : « أعطوني سيجارة أو تنباك لوجه الله . لي
يومان لم أذق طعم التنباك » . لم يكن عندنا تنباك فأعطيته
سيجارة . وقلنا بالمرّة نقف قليلا ونستريح من عناء الجلوس .
لم أرَ في حياتي انسانا يشرب السجائر بتلك اللفه . جلس
الاعرابي على مؤخرته وأخذ يشفط الدخان بنهم فوق الوصف .
بعد دقيقتين مد لي يده فأعطيته سيجارة أخرى . التهمها كما
فعل مع الأولى . ثم أخذ يتلوى على الأرض كأنه مصاب
بالصرع . وبعدها تمدد على الأرض وطوق رأسه بيديه ومهد
تماما كأنه ميت . وظل هكذا طول مكوثنا ، زهاء ثلث
ساعة . ولما دارت محركات السيارة ، هب واقفا ، إنسانا بعث إلى
الحياة ، وأخذ يحمدي ويدعو الله لي بطول العمر ، فرميت
له علبة السجائر بما بقي فيها . وثار القبار خلفنا ، وراقبت
الاعرابي يجري نحو خيام مهلهلة عند شجيرات ناحية الجنوب .
عندها غنيات وأطفال عراة . ابن الظل يا إلهي ؟ مثل هذه
الأرض لا تنبت ، لا الأنبياء . هذا القحط لا تدأويه إلا
السماء . والطريق لا ينتهي والشمس لا ترحم ، والسيارة الآن
تولول ولولة على أرض من الحصى مبسوطة كالمائدة . « إنا قوم
منقطع بنا فحدثونا أحاديث تتجمل بها » . من قال هذا ؟
ثم : « كالنبت لا أرضا قطع ولا ظهراً أبقى » . والسائق لا
يتكلم . امتداد للمكنة التي يديرها ، يلغنها أحيانا ويشتمها ،
والأرض حولنا دائرة غرقى في السراب . « وظل يرفطنا آل
ويخفضنا آل وتلفظنا بيد إلى بيد » . محمد سعيد العباسي ،

يا له من شاعر . وأبو نواس . « شربنا شرب قوم ظمئوا من
عهد عاد » . هذه أرض اليأس والشعر ولا أحد يغني .
ولقينا سيارة حكومية معطلة حولها خمسة عساكر وشاويش
متدربين البنادق . وقفنا . شربوا من مائنا وأكلوا من زادنا
وأعطيناهم البنزين . قالوا ان امرأة من قبيلة المريصاب قتلت
زوجها والحكومة ذاهبة لتقبض عليها . ما اسمها ؟ ما اسمه ؟
لماذا قتلته ؟ لا يعلمون — فقط انها من قبيلة المريصاب وأنها
قتلته وأنه زوجها . ولكنهم سيعرفونه . قبائل المريصاب
والهواوير والكبابيش . القضاة المقيم منهم والمتنقل . مفتش
شمالي كردفان ، مفتش جنوبي الشمالية ، مفتش شرقي الخرطوم .
الرعاة على مساقط الماء . المشايخ والنظار . البدو في خيام
الشعر ، في مفارق الوديان . كلهم سيعرفون اسمها ، فليس كل
يوم تقتل امرأة رجلا ، بله زوجها ، في هذه الأرض التي لم
تترك الشمس فيها قتلا لقاتل . وخطرت لي فكرة ، قلبتها في
ذهني ثم قررت أن أعبر عنها وأرى ما يحدث . قلت لهم انها
لم تقتله بل هو مات من ضربة الشمس ، كما ماتت ايزابيلا سيمور
وشيلا غرينود وآن هند وجين مورس . لم يحدث شيء .
وقال الشاويش : « كان عندنا قنندان بوليس ملعون اسمه
ماجور كوك » . لا فائدة . لا دهشة . وساروا وسرنا .
الشمس هي العدو . انها الآن في كبد السماء تماما ، كما يقول
العرب . يا للكبد الحرى . وستظل هكذا ساعات لا تتحرك ،
أو هكذا يخيل للكائن الحي ، حتى يثن الحجر ويبكي

الشجر ويستغيث الحديد . بكاء امرأة تحت رجل عند الفجر ،
وفخذان بيضاوان مفتوحتان . هما الآن كعظام الجبال الجافة
المتناثرة في الصحراء . لا طعم . لا رائحة . لا خير . لا شر .
عجلات السيارة تصدم الحصى بحقد . طريقه المعوج مرعات
ما يؤدي به إلى الكارثة . وفي الغالب تكون الكارثة واضحة
أمامه وضوح الشمس ، بحيث أننا نعجب كيف أن رجلاً
ذكياً كهذا ، هو في الحقيقة في غاية الغباء . انه منح قدراً
عظيماً من الذكاء ولكنه حرم الحكمة . انه أحق ذكي .
هذا ما قاله القاضي في « الأولد بيلي » قبل أن يصدر الحكم .
والطريق لا ينتهي والشمس واضحة وضوح الشمس . سأكتب
لمسر روبنسن . تعيش في شانكلن في آيل أوف وايت .
علق عنوانها بذاكرتي من حديث مصطفى سعيد تلك الليلة .
زوجها مات بالتيفويد ودفن في القاهرة في مقبرة الإمام
الشافعي . نعم ، اعتنق الإسلام . مصطفى سعيد قال انها
حضرت المحاكمة من أولها إلى آخرها . كان هادئاً طول المدة .
بعد أن صدر الحكم بكى على صدرها . مسحت رأسه وقبلته
على جبهته وقالت : « لا تبك يا طفلي العزيز » . لم تكن تحب
جين مورس . حذرته من زواجها . سأكتب لها فلعلها تلقي
الضوء ، لعلها تذكر أشياء هونسيها أو أمهل ذكرها .
وانتهت الحرب فجأة بالنصر . شفق المغيب ليس دماً ولكنه
حناء في قدم المرأة ، والنسيم الذي يلاحقنا من وادي النيل
يحمل عطرأ لن يضرب في خيالي ما دمت حياً . وكما تحط

قافلة رحالها حططنا رحلنا . بقي من الطريق أقله . طعمنا
رثربنا . صلى أناس صلاة العشاء ، والسواق ومساعدوه
أخرجوا من أضابير السيارة قناني الخمر ، وأنا استلقيت على
الرمل وأشعلت سيجارة وتمت في روعة السماء . والسيارة
أيضاً سقيت الماء والبنزين والزيت ، وهي الآن ساكنة راضية
كمهرة في مراحلها . انتهت الحرب بالنصر لنا جميعاً ،
الحجارة والأشجار والحيوانات والحديد ، وأنا الآن تحت هذه
السماء الجميلة الرحيمة أحس أننا جميعاً أخوة . الذي يسكر
والذي يصلي والذي يسرق والذي يزني والذي يقاتل والذي
يقتل . ينبوع نفسه . ولا أحد يعلم ماذا يدور في خلد الاله .
لعله لا يبالي . لعله ليس غاضباً . في ليلة مثل هذه تحس أنك
تستطيع أن ترقى إلى السماء على سلم من الحبال . هذه أرض
الشعر والممكن وابقي اسمها آمال . سنهدم وسنبني وسنخضع
الشمس ذاتها لارادتنا وسنهزم الفقر بأي وسيلة . السواق
الذي كان صامتاً طول اليوم ها قد ارتفعت عقيرته بالغناء .
صوت عذب سلسيل لا تحسب انه صوته . يغني لسيارته كما كان
الشعراء في الزمن القديم يغنون لجمالهم :

در كسونك مخرطة وقايم على بولاد
وغير ست النفور الليلة ما في رقاد

وارتفع صوت آخر يجاوبه :

ياوين السفر من دار كول والكمبو

هوزز راسه فرحان بالسفر يقنبه
أب دومات غرفن عرقه اتنادن به
ضرب الفجة وأصبح ناره تاكل الجنبه

ثم نبع صوت ثالث يجاوب الصوتين :

واوحيجي ووا وجع قلبي
من صيدة القنص الفترت كلي
القاري العلم من دينه بتسلي
والماشي الحجاز من جده بتقلي

نحن هكذا وكل سيارة تمر بنا طالعة أو نازلة ، تقف ،
حتى اجتمعت قافلة عظيمة ، أكثر من مائة رجل طعموا
وشربوا وصلوا وسكروا . ثم تحولقنا حلقة كبيرة ، ودخل
بعض الفتيان وسط الحلقة ورقصوا كما ترقص البنات .
وصفقنا وضربنا الأرض بأرجلنا وحممنا بملوقنا ، وأقمنا في
قلب الصحراء فرحاً للشيء . وجاء أحد بمذباغه الترانزستور ،
وضعناه وسط الدائرة ، وصفقنا ورقصنا على غنائمه .
وخطرت لأحد فكرة ، فصف السواقون سياراتهم على هيئة
دائرة وساطوا أضواءها على حلقة الرقص ، فاشتعلت شلة من
الضوء لا أحسب تلك البقعة رأت مثلها من قبل . وزغرد
الرجال كما تزغرد النساء وانطلقت أبواق السيارات جميعاً في
آن واحد . وجذب الضوء والضجة البدو من شعاب الوديان
وسفوح التلال المجاورة ، رجال ونساء ، قوم لا ترام بالنهار

كأنهم يذوبون تحت ضوء الشمس . اجتمع خلق عظيم ودخلت
الحلقة نساء حقيقيات ، لو رأيتن نهراً لما أعرتن نظرة ،
ولكنهن جميلات في هذا الزمان والمكان . وجاء اعرابي
بجروف وكأه وذبحه وشوى لحمه على نار أوقدها . وأخرج أحد
المسافرين من السيارة صندوقين من البيرة وزعها وهو يهتف :
« في صحة السودان . في صحة السودان » . ودارت صناديق
السجائر وعلب الحلوى ، وغنت الاعرابيات ورقصن ،
وردد الليل والصحراء أصداء عرس عظيم كأننا قبيل من الجن .
عرس بلامعنى ، مجرد عمل يائس نبع ارتجالاً كالأعاصير
الصغيرة التي تنبع في الصحراء ثم تموت . وعند الفجر تفرقنا .
عاد الاعراب أدراجهم إلى شعاب الأودية . تصايح الناس :
« مع السلامة . مع السلامة » . وركضوا كل إلى سيارته .
أزت المحركات ، وتحولت الأضواء من المكان الذي كان قبل
لحظات مسرح أنس ، فعاد إلى سابق عهده ، جزء من
الصحراء . واتجهت أضواء السيارات ، بعضها نحو الجنوب
صوب النيل ، وبعضها نحو الشمال صوب النيل . وثار الغبار
راختفى ثم ثار واختفى . وأدركنا الشمس على قمم جبال
كررى أعلى أم درمان .

دارت الباخرة حول نفسها حتى لا تكون المحركات في
مجرى التيار. كل شيء كما يحدث كل مرة . الصفارة المبحوحة ،
والقوارب من الشاطئ المقابل ، شجر الجيز واللغط على
رصيف المحطة . الا من فارق عظيم . وخرجت وصافحني
محجوب وهو يتجنبني بنظراته . كان وحده في استقبالي هذه
المرة . وكان خجلاً كأنه يحس بالذنب ، أو كأنه يحملني أنا
المسئولية . ولم أكد أصافحه حتى قلت له : « كيف تركتم
هذا يحدث ؟ » قال محجوب وهو يسوي سرج الحمارة
السوداء الطويلة ، حمارة عمي عبد الكريم : « الذي كان .
الولدان بخير وهما عندي » . انني لم أفكر في الولدين طوال
هذه الرحلة المشؤومة . كنت أفكر فيها . قلت لمحجوب
مرة أخرى : « ماذا حدث ؟ » لا يزال يتجنب وجهي .
ظل صامتاً . أصلح الفروة على السرج ، وربط البطان حول
بطن حماره . أزاح السرج إلى الأمام قليلاً وأمسك عنان
اللجام ثم قفز . ظلات واقفاً أنتظر الرد الذي لم يأت فقفزت

أنا أيضاً . قال وهو يلكر حماره : « كما أخبرتك في البرقية .
لا فائدة من الخوض في الموضوع . لم نكن نتوقع حضورك على
أي حال » . قلت له أشجعه على الكلام : « ليتني علمت
بنصيحتك وتزوجتها » . لم أستفد سوى أنني زدت صمته
عمقا . ولا بد أنه كان غاضبا ، فقد لكر الحماره لكثرة قوية
بكمبه والحماره لم تفعل شيئا . قلت له وأنا ألاحقه ولا ألقه :
« منذ وصلني برقيتك وأنا لم آكل ولم أنم ولم أتكلّم مع
إنسان . ثلاثة أيام من الخرطوم بالقطار والبأخرة وأنا أفكر
وأسال نفسي كيف حدث ما حدث ولا أجِد الجواب » .
وكأنما رثي لحالي فقال بعطف : « هذه أسرع مرة تعود فيها
إلى البلد » . قلت له : « نعم . اثنان وثلاثون يوماً بالضبط » .
قال : « هل من جديد في الخرطوم ؟ » قلت له : « كنا
مشغولين في مؤتمر » . بدا الاهتمام على وجهه . فأنه يجب
أخبار الخرطوم ، خاصة أخبار الفضائح والرشاوي وفساد
الحكام . قال باهتمام بالغ واضح ، وقد حز في نفسي أنه نسي
ما نحن فيه : « بماذا يأترون هذه المرة ؟ » قلت له باعياء ،
وقد فضلت اختصار الطريق : « وزارة المعارف نظمت
مؤتمراً دعت له مندوبين عن عشرين قطراً أفريقياً لمناقشة
سبل توحيد أساليب التعليم في القارة كلها . كنت أنا عضواً
في سكرتارية المؤتمر » . قال محجوب : « فليبنوا المدارس
أولاً ثم يناقشوا توحيد التعليم . كيف يفكر هؤلاء الناس ؟
يضيعون الوقت في المؤتمرات والكلام الفارغ ونحن هنا

أولادنا يسافرون كذا ميلا للمدرسة . ألسنا بشراً ؟ ألسنا
ندفع الضرائب ؟ أليس لنا حق في هذا البلد ؟ كل شيء في
الخرطوم . ميزانية الدولة كلها تصرف في الخرطوم . مستشفى
واحد في مروي نساfer له ثلاثة أيام ، النساء يمتن أثناء الوضع .
لا توجد داية واحدة متعلقة في هذا البلد . وأنت ماذا تصنع
في الخرطوم ؟ ما الفائدة أن يكون لنا ابن في الحكومة
ولا يفعل شيئاً ؟ ،

كانت حمارتي قد فاتته ، فجذبت لجامها حتى يلحق بي
وآثرت الصمت . لو كان الوقت غير هذا الوقت لصرخت في
وجهه ، فأنا وهو هكذا منذ طفولتنا ، يصرخ أحداً على
الأخر حين يغضب . ثم نرضى وننسى . ولكنني جائع ومتعب
وقلبي مثقل بهم عظيم . لو كان الزمان أحسن مما هو عليه
الآن ، لأضحكته وأغضبته بقصص ذلك المؤتمر . لن يصدق
أن سادة أفريقيا الجدد ، ملمس الوجوه ، أفواههم كأفواه
الذئاب ، تلمع في أيديهم ختم من الحجارة الثمينة ، وتفوح
نواصيهم برائحة العطر ، في أزياء بيضاء وزرقاء وسوداء
وخضراء من الموهير الفاخر والحرير الغالي تنزلق على أكتافهم
كجلود القطة السيامية ، والأحذية تعكس أضواء الشمعدانات ،
تصر صريراً على الرخام — لن يصدق محبوب أنهم تدارسوا
تسعة أيام في مصير التعليم في أفريقيا في « قاعة الاستقلال »
التي بنيت لهذا الغرض ، وكلفت أكثر من مليون جنيه ، صرح

من الحجر والاسمنت والرخام والزجاج ، مستديرة كاملة
الاستدارة ، وضع تصميمها في لندن ، ردهاتها من رخام أبيض
جلب من إيطاليا ، وزجاج النوافذ ملون ، قطع صغيرة مصفوفة
بمهارة في شبكة من خشب التيك ، أرضية القاعة مفروشة
بسجاجيد عجمية فاخرة ، والسقف على شكل قبة مطلية بـ
الذهب ، تتدلى من جوانبها شمعدانات كل واحد منها بحجم
الجل العظم . المنصة حيث تعاقب وزراء التعليم في أفريقيا
طوال تسعة أيام من رخام أحمر كالذي في قبر نابليون في
الانفاليد ، وسطحها أملس لماع من خشب الابنوس . على
الحيطان لوحات زيتية ، وقبالة المدخل خريطة واسعة لأفريقيا
من المرمر الملون ، كل قطر بلون . كيف أقول لمحجوب أن
الوزير الذي قال في خطابه الضافي الذي قوبل بعاصفة من
التصفيق : « يجب ألا يحدث تناقض بين ما يتعلمه التلميذ في
المدرسة وبين واقع الشعب . كل من يتعلم اليوم يريد أن يجلس
على مكتب وثير تحت مروحة ويسكن في بيت محاط بحديقة
مكيف بالهواء يروح ويحيى في سيارة أمريكية بعرض
الشارع . اننا إذا لم نبحث هذا الداء من جذوره تكونت
عندنا طبقة برجوازية لا تمت إلى واقع حياتنا بصلة ، وهي
أشد خطراً على مستقبل أفريقيا من الاستعمار نفسه » - كيف
أقول لمحجوب أن هذا الرجل بعينه يهرب أشهر الصيف من
أفريقيا إلى فيلته على بحيرة لوكارنو ، وان زوجته تشتري
حاجياتها من هرودز في لندن ، تجيئها في طائرة خاصة ، وأن

أعضاء وفده أنفسهم يجاهرون بأنه فاسد مرتش ، ضيع الضياع وأقام تجارة وعمارة ، وكون ثروة فادحة من قطرات العرق التي تنضح على جباه المستضعفين أنصاف العراة في الغابات ؟ هؤلاء قوم لاهم لهم إلا بطونهم وفروجهم . لا يوجد عدل في الدنيا ولا اعتدال . وقد قال مصطفى سعيد : « إنما أنا لا أطلب المجد ، فمثلي لا يطلب المجد » . لو انه عاد عودة طبيعية لأنضم إلى قطيع الذئاب هذا . كلهم يشبهونه ، وجوه وسمتها النعمة . وقد قال أحد الوزراء أولئك في حنة اختتام المؤتمر انه كان استاذة . أول ما قدموني له هتف : « انك تذكرني بصديق عزيز كنت على صلة وثيقة به في لندن . الدكتور مصطفى سعيد . كان أستاذي عام ١٩٢٨ . كان هو رئيساً لجمعية الكفاح لتحرير أفريقيا وكنت أنا عضواً في اللجنة . يا له من رجل . انه من أعظم الأفريقيين الذين عرفتهم . كانت له صلات واسعة . يا إلهي ، ذلك الرجل . كاذت النساء تنساقط عليه كالذباب . كان يقول سأحرر أفريقيا بـ ... ي » وضعك حق بانك مؤخرة حلقه . وأردت أن أسأله ، لكنه اختفى في زحمة الرؤساء والوزراء . مصطفى سعيد لم يعد يعنيني الآن ، فقد شغلت عنه بنفسه . برقية محبوب غيرت كل شيء . حين قرأت رد مسز روبنسن على رسالتي أول مرة أحسست بفرح عظيم . وفي القطار قرأتها للمرة الثانية ، محاولاً أن أبعد أفكارني عن تلك النقطة التي صارت محور دورانها . ولكن دون جدوى .

ومضت الحير تتقاذف الحجارة بأظلافها ، وقال محبوب :
« لماذا صمت كأنك أبكم ؟ لماذا لا تقول شيئاً ؟ » قلت له :
« الموظفون أمثالي لا يستطيعون أن يغيروا شيئاً . إذا قال
سادتنا افعلوا كذا فعلنا . أنت رئيس الحزب الوطني الاشتراكي
الديموقراطي هنا . انه الحزب الحاكم . لماذا لا تصب غضبك
عليهم ؟ »

وقال محبوب كالمعتذر : « لولا ... لولا أن هذه الكارثة
قد ... يوم الحادث كنا نتأهب للسفر في وفد للمطالبة ببناء
مستشفى كبير ومدرسة وسطى للبنين ومدرسة أولية للبنات
ومدرسة زراعة و ... » وقطع خطبته فجأة ولاذ بصمته
الغاضب . ونظرت أنا إلى النهر إلى يسارنا يلمع بالخطر وبدوي
بأصوات مبهمه . ثم أمامنا القباب العشر وسط المقبرة .
وحزت الذكرى في قلبي ، وقال محبوب : « دفناها أول
الصباح دون ضوضاء . أمرنا النساء ألا يبكين . لم نقم مأتماً
ولم نخبر أحداً . كان سيجيئنا البوليس . وتحقيق فضائح » .
قلت له بدعز : « لماذا البوليس ؟ » نظر إلي برهة ثم سكت ،
وبعد مدة طويلة قال : « بعد أسبوع أو عشرة أيام من سفرك ،
أبوها قال انه أعطى ود الرئيس وعداً . عقدوا له عليها .
أبوها شتمها وضربها وقال لها : تتزوجينه رغم أنك . أنا لم
أحضر العقد . لم يحضر أحد العقد غير بكري وجدك وبنت
محبوب . أصدقاؤه . أنا شخصياً حاولت أن أنفي ود الرئيس

عن عزمه ، ولكنه أصر . كأنما أصابه هوس . وكلمت أباها فقال انه لا يصبح اضحوكا ، يقول الناس ابنته لا تسمع كلامه . بعد الزواج قلت لود الرئيس يأخذها بالسياسة . أقامت عنده اسبوعين لا تكلمه ولا يكلمها . كانت ... كان في حالة لا توصف . كالمجنون . اشتكى لطوب الأرض . يقول كيف تكون في بيته امرأة تزوجها بسنة الله ورسوله ولا يكون بينها مايكون بين الزوج وزوجته . كنا نقول له : اصبر . ثم ... ،

الحمار والحماره نهقا بغتة في آن واحد حتى كدت أسقط من على السرج . ولبثت أسأل يومين بطولها ولا أحد يقول لي . كلهم كانوا يتجنبونني بنظراتهم كأنهم شركاء في إثم عظيم . وقالت أُمي : « لماذا تركت عملك وجئت ؟ » قلت لها : « الولدان » . نظرت إلي برمة نظرة فاحصة وقالت : « الأولاد ، أم ، أم الأولاد ؟ ماذا بينك وبينها ؟ جاءت لأبيك وقالت له بلسانها : قولوا له يتزوجني . يا للجرأة وفراغة العين . « نساء آخر زمن » . وكله كوم والفعل القبيح الذي فعلته كوم ،

وجدني أيضاً لم يسمفني بشيء وجدته راقداً على سريره في حالة من الإعياء لم أعرفها فيه . كان كأنما ينبوع الحياة عنده قد نضب فجأة . ظلت جالسا وظل هو لا يتكلم . فقط يتأوه من آن لآخر ، ويتقلب على سريره ويستعبد بالله من الشيطان الرجيم . كلما فعل ذلك أحس بوخز ، كأن بيني

وبين الشيطان سبباً . وبعد انتظار طويل قال يخاطب سقف
الغرفة : « لعنة الله على النسوان . النسوان اخوات الشيطان .
ود الرئيس ، ود الرئيس » . واندفجر جدي يبكي . انني لم
أره يبكي في حياتي . بكى طويلاً ثم مسح دموعه بطرف
ثوبه وصمت حتى ظننته قد نام . بعد زمن قال : « رحمة
الله عليك يا ود الرئيس . اللهم أغفر له وتغمده برحمتك » .
وتتم بدعوات وقال : « كان رجلاً عديم النظير ، دائماً
يضحك ، دائماً تجده وقت الشدة . لم يطلب منه أحد حاجة
وقال لا . لبتة سمع كلامي . ينتهي هذه النهاية . لا حول
ولا قوة إلا بالله . أول مرة يحصل شيء مثل ذلك في هذا
البلد منذ خلقه الله . نحن آخر الزمن » . تشجعت وسألته :
« ماذا حدث ؟ »

لم يحفل بسؤالني وتشاغل زمناً بمسبحته ثم قال : « تلك
القبيلة لا يحییء من ورائها إلا الشر . قلت لود الرئيس : هذه
المرأة شؤم . أبعد عنها . انما الأجل ... »

في صبيحة اليوم الثالث حملت زجاجة الوسكي في جبي
وذهبت إلى بنت مجذوب . إذا لم تقل لي بنت مجذوب فلن
يقول لي أحد . وصبت بنت مجذوب من الزجاجة في إناء كبير
من الالمون ، وقالت : « لا بد انك تريد شيئاً . نحن لا نعرف
هنا مثل خر المدن هذه » .

قلت لها : « أريد أن أعرف ما حدث . لا أحد يريد أن يخبرني » .

شربت جرعة كبيرة من الإثاء وقطبت وجهها وقالت :
« الفعل الذي فعلته بنت محمود لا يحري به اللسان . شيء ما رأينا ولا سمعنا بمثله لا في الزمن السابق ولا اللاحق » .

وتماسكت ، ولبثت أنتظر صابراً حتى مضى ثلث الزجاجة والحمر لا تؤثر فيها ، إلا من بهجة وجهها ترداد وضوحاً مع الشراب . أغلقت بنت مجذوب الزجاجة وقالت : « هذا يكفي . خمر النصارى هذه جبارة ، ليست كعرق التمر »

نظرت إليها بضراعة فقالت : « الكلام الذي سأقوله لك لن تسمعه من إنسان في البلد . دفنوه مع بنت محمود ومع ود الرئيس المسكين . كلام عيب صعب أن يقال » . ثم نظرت إليّ نظرة فاحصة بعينها الجريشتين وقالت :

« هذا كلام لن يعجبك . خصوصاً إذا ... » وأطرقت برهة فقلت لها : « أريد أن أعرف ما حدث كبقية الناس . لماذا أنا الوحيد الذي لا يصح له أن يعرف ؟ »

أعطيتها سيجارة جذبت منها نفساً وقالت : « بعد صلاة العشاء بزمان استيقظت على صراخ حسنة بنت محمود في دار ود الرئيس . كان البلد ساكناً لا تسمع فيه حساً . الحق لله انني ظننت أن ود الرئيس أخيراً نال حقه منها . الرجل

المسكين أشرف على الجنون . أسبوعين مع المرأة لا تكلمه ولا تدعه يقربها . وفتحت أذني مرة وهي تصرخ وتولول . اللهم يا رب اغفر لي . ضحكت وأنا أسمع صراخها . قلت في نفسي : ود الرئيس ما تزال فيه بقية . واشتد الصراخ . وسمعت حركة في بيت بكري لصق بيت ود الرئيس . وسمعت بكري يصيح : يا راجل اخلشي على دمك . لازم تعمل لك فضيحة وهلولة . ثم سمعت سعيدة امرأة بكري تقول : يا بت احفظي شرفك ، ما هذه الفضائح ؟ العروس البكر لا تعمل هذا العمل . كأنك لم تجري الرجال من قبل . وأخذ صراخ بنت محمود يشتد ، ثم سمعت ود الرئيس يصرخ بأعلى صوته : يا بكري . يا حاج أحمد . يا بت الرئيس . يا جماعة . بت محمود قتلني . قفزت وثوبي يخرج رائي لا يكاد يسترني ، وخطبت باب بكري وباب محبوب ، وجريت إلى باب ود الرئيس فوجدت باب الحوش مغلقاً . ولوات بأعلى صوتي وجاء محبوب ثم بكري ثم اجتمع علينا الناس . ونحن نكسر باب الحوش سمعنا صرخة . صرخة واحدة تهد الجبال من ود الرئيس . ثم صرخة مثلها من بنت محمود . ودخلت أنا محبوب وبكري . قلت لمحبوب : احبس الناس من دخول البيت . لا تدع امرأة تدخل البيت . وخرج محبوب وصرخ في الناس ، وعاد ومعه عمك عبد الكريم وسعيد الطاهر الرواسي وحق جددك المسكين جاء من بيته .

أخذ العرق يتصبب بغزارة من وجه بنت مجذوب .
وجف حلقها وأشارت إلى الماء فحبتها به . شربت ومسحت
العرق من وجهها وقالت : « أستغفر الله العظيم وأتوب إليه .
وجدناهما في غرفة ود الرئيس القصيرة المطلة على الشارع . كان
المصباح موقداً . ود الرئيس غارياً كما ولدته أمه . وبنت محمود
ثوبها ممزق ومراويلها . هي الأخرى غارية . كان البرش
الأحمر يعوم في الدم . ورفعت المصباح . وجدت بنت محمود
معضوضة ومخدشة في كل شبر من جسمها . بطنها . أوراكها .
رقبتها . عض حلة نهدا حتى قطعها . الدم يسيل من شفتها
السفلى . لا حول ولا قوة إلا بالله . وود الرئيس مطعون أكثر
من عشرة طعنات . طعنته في بطنه وفي صدره وفي محسنه .
ولم تستطع بنت مجذوب أن تستمر . بلعت ريقها
بصعوبة وارتعش حلقومها ثم قالت : « اللهم لا اعتراض على
حكمك . وجدناها على ظهرها والسكين مغروز في قلبها .
فها مفتوح ، وعيناها تبجلقان كأنها حية . وود الرئيس
لسانه مدلدل بين فكليه ، وذراعا مرفوعتان في الهواء »

وغطت بنت مجذوب وجهها بيدها والعرق يتصبب من
بين أصابعها وقد أخذ صدرها يعلو ويهبط بسرعة وتتابع .
قالت بصعوبة : « استغفر الله العظيم . كنا قد ماتا لساعتها .
كان الدم حاراً يبقب من قلب بنت محمود وبين فخذي ود
الرئيس . الدم ملأ البرش والسرير وجرى جداول في أرض

الغرفة . محبوب أطال الله عمره كان رابط الجأش . حين سمع صوت محمود قفز خارجاً وقال لأبيك : اياك أن تدعه يدخل . محبوب ، وبقية الرجال حملوا ود الرئيس ، وأنا وزوجة بكري والنساء الكبار أخذنا بنت محمود . كفنهما في ليلتهما . وحملهما قبل طلوع الشمس . ودفنوهما ، هي يجوار أمها وهو يجوار زوجته الأولى بنت رجب . بعض النساء بدأت مائتاً . ولكن محبوب بارك الله فيه جاء ونهرن وقال : التي تفتح فيها سأقطع رقبتها . أي مائت يا ولدي يقام في هذه الحالة ؟ هذه مصيبة كبيرة حصلت في البلد . طول حياتنا تحت ستر الله . آخر الزمن يحصل علينا مثل هذا . أستغفرك وأتوب إليك يا رب »

وبكت هي أيضاً كما بكى جدي . بكت طويلاً وبجرفة ، ثم ابتسمت من خلال دموعها وقالت : « العجيب في الأمر أن زوجته الكبيرة مبروكة لم تصح من نومها طول هذه المدة ، مع أن الصباح جذب الناس من طرف المحلة . رحت إليها وهزرتها فرفعت رأسها وقالت : « بنت مجذوب ، ماذا جاء بك في هذا الوقت ؟ » قلت لها : « قومي . حصلت قتلة في بيتكم » . فقالت : « قتلة من ؟ » قلت لها : « بنت محمود قتلت ود الرئيس وقتلت نفسها » . فقالت : « في ستين داهية » وواصلت نومها . وكنا ونحن نجهز بنت محمود نسمع شخيرها . ولما عاد الناس من الدفن وجدناها جالسة تشرب قهوتها .

بعض النساء أردن أن يكن معها فصرخت فيهن : « يانساء . كل واحدة تروح في حالها . ود الرئيس حفر قبره بيده . وبنت محمود بارك الله فيها ، خلصت منه القديم والجديد » . ثم زغردت . أي والله يا ولدي ، زغردت . وقالت للنساء : « نكاية فيكن . التي لا يعجبها تشرب من البحر » . أستغفر الله العظيم . أبوها .. محمود في تلك الليلة كاد يهلك من البكاء . يخور كالثور . وجدك شتم وضرب بعصا وزعق وبكى . عمك عبد الكريم اشتبك مع بكري دون سبب . قال له : يحصل ذبح يحوارك وأنت نائم ؟ البلد كلها كأنما حل عليه الشياطين في تلك الليلة . محجوب وحده كان رابط الجأش . جهز كل شيء . أحضر الأكفان لا ندري من أين . أولاد ود الرئيس عمالوا دوشة فأسكتهم . منظر لا أراك الله مثله يا ولدي ، يفطر القلب ، يشيب الوليد . وكله بلا سبب ولا طلب . انها قبلت الرجل الغريب ، لماذا لم تقبل ود الرئيس ؟ ،

الحقول نيران ودخان . هذا أوان الاستعداد لزراعة القمح . ينظفون الأرض ويجمعون أعواد الذرة والجنود الصغيرة ، ذكريات الموسم الذي انتهى ، ويكومونها أكواماً وسط الحقول ويحرقونها . الأرض سوداء مبسطة تستعد للحدث القادم . الرجال قاماتهم منحنية على المعاول وبعضهم خلف المحارث . قم النخل ترتعش للهواء الخفيف وتسكن ،

وبخار حار يتصاعد من حقول البرسيم المروية ، تحت وطأة الشمس في منتصف النهار . ومع كل هبة ريح يفوح أريج الليمون والبرتقال واليوسفندي . خوار ثور أو نهيق حمار أو صوت فأس في الخطب . ولكن الدنيا قد تغيرت .

ووجدت محبوباً ملطخاً بالطين ، يندى العرق من جسمه العاري إلا من خرقه حول وسطه ، يحاول أن يفصل شتلة عن النخلة الأم . لم أحبه ولم يلتفت إلي وظل يحفر حول الشتلة . لبثت واقفاً أراقبه ، ثم اشعلت سيجارة ومددت له الصندوق ، فرفض بإشارة من رأسه . حلت هي إلى جذع نخلة قريبة أسندت رأسي إليه . لا مكان لي هنا . لماذا لا أحزم حقيبتي وأرحل ؟ هؤلاء القوم لا يدهشهم شيء . حسبوا لكل شيء حسابه . لا يفرحون لمولد ولا يحزنون لموت . حين يضحكون يقولون : « أستغفر الله » وحين يبكون يقولون : « أستغفر الله » . لا يقولون : وأنا ماذا تعلمت ؟ تعلموا الصمت والصبر من النهر والشجر . وأنا ماذا تعلمت ؟ ولاحظت محبوباً عاضاً شفته السفلى كعادته حين يكون مصمماً على عمل . كنت أغلبه في المصارعة والجري ، ويفلبنى في سباحة النهر إلى الشاطئ الآخر وتسلق النخل . لا تستعصي نخلة عليه . بيني وبينه من الود كأنه أخ شقيق . ولعن محبوب النخلة الصغيرة حين نجح أخيراً في فصلها عن جذع أمها دون أن يكسر جذورها . ردم بالتراب الجرح الكبير الذي بقي في الجذع

حيث كانت ، وقص جريد الشتلة ، وأزال عنها التراب ،
ورماها لتجف في الشمس . قلت في نفسي انه سيكون اكثر
استعداداً للكلام الآن . جاء إلى الظل حيث أنا وجلس ومدد
رجليه . ظل صامتاً برهة ثم تنهد وقال : « أستغفر الله » .
مد يده فأعطيته سيجارة . لا يدخن إلا حين أكون أنا في
البلد ، يقول : « نحرق فلوس الحكومة » . رمى السيجارة
قبل أن يكملها وقال : « أنت تبدو مريضاً . لا بد أن
الراحة قد أرهقتك . لم يكن يلزم حضورك . حين أرسلت
لك البرقية لم أكن أتوقع أن تحضر » .

قلت كأنني أحدث نفسي : « انها قتلتني وقتلت نفسها .
طعنته أكثر من عشر طعنات و .. يا للبشاعة » .

إلتفت إلي بدهشة وقال : « من أخبرك ؟ »

مضيت غير مكترث لسؤاله : « عض حمة نهدها حتى
قطعها وعضها وخدشها في كل شبر في جسمها . يا للبشاعة » .

صاح محجوب بغضب : « لا بد ان بنت مجذوب هي التي
أخبرتكم . لعنها الله . لا تمسك لسانها هذا كلام لا يصح أن
يقال » .

قلت له : « يقال أو لا يقال ، انه حدث . حدث أمام
أعينكم ولم تفعلوا شيئاً . وأنت . أنت زعيم ورئيس في
البلد ولم تفعل شيئاً » .

وقال محبوب : « ماذا نفعل ؟ لماذا لم تفعل أنت ؟ لماذا لم تتزوجها ؟ فقط تفلح في الكلام . المرأة هي التي تجرأت وقالت . عشنا ورأينا النساء تخطب الرجال . »

قلت له : « ماذا قالت ؟ »

قال : « الذي كان قد كان . ما فائدة الكلام ؟ احمد الله انك لم تتزوجها . الفعل الذي فعلته ليس فعل بني آدم . فعل شياطين . »

قلت له وأنا أضغط على أسناني : « ماذا قالت ؟ »

نظر إلي دون عطف وقال : « حين راح لها أبوها وشتمها جاءني في البيت مع شروق الشمس . قالت تخلصها من ود الرئيس وزحة الخطاب . فقط تعقد عليها . لا تريد منك شيئاً . قالت يتركني مع ولدي ، لا أريد منه قليلاً ولا كثيراً قلت لها : لا تدخلك في المشاكل . نصحتها ان تقبل الأمر الواقع . ابوها ولي امرها وهو حر التصرف . وقلت لها : ود الرئيس لن يعيش إلى الأبد . رجل مجنون وامرأة مجنونة . ما ذنبنا نحن ؟ ماذا كان بوسعنا أن نفعل ؟ مسكين أبوها . منذ ذلك اليوم المشنوم وهو طريح الفراش . لا يخرج ولا يقابل أحداً . ماذا أفعل أنا أو غيري إذا كان العالم قد أصيب بالخل ؟ واتضح أن جنون بنت محمود ليس مثله في الأولين ولا الآخرين . »

قلت له وأنا أبذل جهداً كبيراً حتى لا أبكي : « حسنة لم تكن مجنونة . كانت أعقل امرأة في البلد . أنتم الجهانين . »

كانت أعقل امرأة في البلد . وأجل امرأة في البلد . حسنة لم تكن مجنونة .

ضحك محبوب . قهقه بالضحك . سمعته يقول ويضحك :
« يا للمعجب . يا بني آدم أصح لنفسك . عند لصوابك .
أصبحت عاشقاً آخر الزمن . جننت مثل ود الرئيس .
المدارس والتعليم رهفت قلبك . تبكي كالنساء . أما والله
عجائب . حب ومرض وبكاء . إنها لم تكن تساوي ملياً .
لولا الحياء ما كانت تستاهل الدفن . كنا نزميها في البحر أو
نترك جثتها للصقور . »

الذي حدث بعد ذلك ليس واضحاً تماماً في ذهني .
ولكنني أذكر .. يدي مطبقتين على حلق محبوب ، وأذكر
جحوظ عينيه وأذكر ضربة قوية في بطني ، وأذكر محبوباً
جائئاً على صدري . وأذكر محبوباً ملقى على الأرض وأنا
أركله بقدمي . وأذكر صوته يصرخ : « مجنون . مجنون . »
وأذكر لفظاً وصباحاً وأنا أضغط بيدي على حلق محبوب ،
وأسمع قرقرة ، ويداً قوية تجذبني من رقبي ، ثم وقعت عصا
ثقيلة على رأسي .

العالم فجأة انقلب رأساً على عقب . الحب ؟ الحب لا يفعل
هذا . إنه الحقد . أنا حاقد وطالب ثأر وغريمي في الداخل
ولا بد من مواجهته . ومع ذلك ما تزال في عقلي بقية تدرك
سخرية الموقف . انني أبتدىء من حيث انتهى مصطفى سعيد ،
إلا أنه على الأقل قد اختار وأنا لم أختار شيئاً . قرص الشمس
ظل ساكناً فوق الأفق الغربي زمناً ثم اختفى على عجل .
وجيوش الظلام المعسكرة أبداً غير بعيد وثبتت في لحظة
واحتلت الدنيا . لو أنني قلت لها الحقيقة لعلها لم تكن تفعل
ما فعلت . خسرت الحرب لأنني لم أعلم ولم أختار . ووقفت
زمناً طويلاً أمام باب الحديد . أنا الآن وحدي ، لا مهرب
لا ملاذ ، لا ضمان . عالمي كان عريضاً في الخارج ، الآن قد
تقلص وارقد على أعقابيه حتى صرت العالم أنا ولا عالم غيري .
أين إذن الجذور الضاربة في القدم ؟ أين ذكريات الموت
والحياة ؟ ماذا حدث للقافلة والقبيلة ؟ أين راحت زغاريد
عشرات الأعراس وفيضانات النيل وهبوب الريح صيفاً وشتاء

من الشمال والجنوب ؟ الحب ؟ الحب لا يفعل هذا . إنه
الحقد . ها أنذا أقف الآن في دار مصطفى سعيد أمام « باب
الحديد » ، باب الغرفة المستطيلة المثلثة السقف الخضراء
النوافذ . المفتاح في جيبى وغريمي في الداخل على وجهه سعادة
شيطانية لا شك ؟ أنا الوصي والعاشق والغريم .

أدركت المفتاح في الباب فانفتح دون مشقة . استقبلتني
رطوبة من الداخل ورائحة مثل ذكرى قديمة . انني أعرف
هذه الرائحة . رائحة الصندل والند . وتحسست الطريق
بأطراف أصابعي على الحيطان . اصطدمت بزجاج نافذة .
فتحت مصاريع الزجاج وفتحت مصاريع الخشب . فتحت
نافذة وأخرى وثالثة . ولكن لم يدخل من الخارج سوى
مزيد من الظلام . أوقدت ثقاباً . وقع الضوء على عيني كوقع
الانفجار . وخرج من الظلام وجه عابس زاماً شفتيه أعرفه
ولكنني لم أعد أذكره . وخطوت نحوه في حقد . انه
غريمي ، مصطفى سعيد . صار للوجه رقبة ، وللرقبة كتفان
وصدر ثم قامه وساقان . ووجدتني أقف أمام نفسي وجهاً
لوجه . هذا ليس مصطفى سعيد . انها صورتي تعبس في
وجهي من مرآة . اختفت الصورة فجأة وجلست في الظلام
زمناً لا أدري حسابه أرهف السمع ولا أسمع شيئاً . اشعلت
ثقاباً آخر فابترمت امرأة ابتساماً مريرة . وجلست في
واحة الضوء ونظرت حولي فاذا مصباح قديم على المنضدة

أكاد ألمسه بيدي . هزرتـه فاذا فيه زيت . يـاللعجب .
أوقدت المصباح فتباعدت الظلال وتباعدت الحيطان وارتفع
السقف . أوقدت المصباح وأغلقت النوافذ . يجب أن تظل
الرائحة حبيسة هنا . رائحة الطوب والخشب والنـد الحريق
والصندل .. والكتب . يا إلهي . الحيطان الأربعة من الأرض
حقى السقف . رفوف ، رفوف ، كتب ، كتب كتب . أشعلت
سيجارة وملأت رئتي بالرائحة الغريبة . يا له من مغفل . هل
هذا فعل انسان أراد أن يبدأ صفحة جديدة ؟ سأفوضها على
رأسه . سأحرقها . وأشعلت النار في البساط الناعم تحت
قدمي ولبثت أراقبها وهي تلتهم ملكاً فارسياً على جواد
يسدد رمحـه نحو غزال يعدو مبتعداً . ورفعت المصباح فاذا
ارضية الغرفة كلها مغطاة بأبسطة فارسية . ورأيت أن
الحائط المقابل للباب ينتهي بفراغ . ذهبت إليه والمصباح في
يدي فاذا هو ... يا للحقاقة ، مدفأة . تصوروا ، مدفأة
انكليزية بكامل هيئتها وعدتها، فوقها مظلة من النحاس وأمامها
مربع مبلط بالرخام الأخضر ورف المدفأة من رخام أزرق
وعلى جانبي المدفأة كرسيان فكتوريان مكسوان بقماش من
الحرير المشجر بينهما منضدة مستديرة عليها كتب ودفاتر .
ورأيت وجه المرأة التي ابتسمت لي قبل لحظات . لوحة زيتية
كبيرة في إطار مذهب على رف المدفأة والتوقيع في الركن
الأيمن (م . سعيد) . وانتبهت إلى النار في وسط الحجرة
تكاد تكون حريقاً . خطوط نحوها ثمانى عشرة خطوة عدتها

وأنا أخطو ودستها بجذائي حتى انطفأت . أنا طالب ثار
ولكنني لا أستطيع أن أقاوم حب الاستطلاع ، سأرى أولاً
وأسمع ثم أحرقها فكأنها لم تكن . والكتب .. على ضوء
المصباح أراها مصنفة مرتبة . كتب الاقتصاد والتاريخ والأدب
علم الحيوان . جيولوجيا . رياضيات . فلك . دائرة المعارف
البريطانية ، غبون . ماكولي . طويني . أعمال برناردشو
كلها . كينز . توني . سميث . روبنسن ، اقتصاد المنافسة
الغير كاملة . هبسن ، الامبريالية . روبنسن ، مقالة .. عن
الاقتصاد الماركسي . علم الاجتماع . علم الأجناس . علم النفس
طوماس هاردي . طوماس مان . أي جي مور ، طوماس
مور ، فرجينيا وولف . وتفنشتاين . أينشتاين . برايري .
نامير . كتب سمعت بها وكتب لم أسمع بها . دواوين لشعراء
لا أعلم بوجودهم . يوميات غردون . رحلات غلفر كلينغ .
هوسمان . تاريخ الثورة الفرنسية ، طوماسي كارلايل .
محاضرات عن الثورة الفرنسية ، لورد أكتن . كتب مجلدة
بالجلد . كتب في أغلفة من الورق . كتب قديمة مهلهلة .
كتب كأنها خرجت من المطبعة لتوها . مجلدات ضخمة في
حجم شواهد القبور . كتب صغيرة مذهبة الحوافي في حجم
ورقة الكشينة . توقيعات . اهداءات . كتب في صناديق
كتب على الكراسي . كتب على الأرض . أية دعاية هذه ؟
ماذا يقصد ؟ اوون . فورد . ستيفان زفاينج . أي جي براون
لاسكي . هازلت . أليس في أرض المعائب . رتشاردز . القرآن
بالانكليزية . الانجيل بالانكليزية ، غلبرت مري . افلاطون . اقتصاد

الاستعمار ، مصطفى سعيد . الاستعمار والاحتكار ، مصطفى
سعيد . الصليب والبارود ، مصطفى سعيد . اغتصاب أفريقيا
مصطفى سعيد . بروسبرو وكالبان . الطوطم والتابو . داوتي
لا يوجد كتاب عربي واحد . مقبرة . ضريح . فكرة مجنونة .
سجن . نكتة كبيرة . كنز . افتح يا سمسم ودعنا نفرق
الجواهر على الناس . السقف من خشب البلوط وفي الوسط
قوس يفصل الحجرة نصفين ، يسنده عمودان رخاميان لونها
أصفر ضارب إلى الحمرة . والقوس عليه قشرة من القيشاني
مزركش الحواف . وأنا أتصدر مائدة مستديرة لا أدري من
أي خشب هي ولكن سطحها داكن يلسع . وعلى كل من
الجانبين خمس كرامي مبطنة بالجلد . وإلى اليمين كنبه ذات
مسند واحد ، مكسوة بمخمل أزرق ، وسائد من ... لمستها
بيدي ، نعم من ريش النعام . ورأيت على يمين المدفأة وعلى
يسارها أشياء لم ألاحظها من قبل . على اليمين منضدة طويلة
عليها شمعدان من الفضة فيه عشر شموع لم تمسها النار قبل ،
وكذلك على اليسار . أوقدتها شمعة شمعة ، فأضاءت أول
ما أضاءت اللوحة الزيتية على رف المدفأة . وجه مستطيل
لامرأة واسعة العينين حاجبها ينمقدان فوقهما . الأنف
أكبر قليلاً مما يجب والفم يميل إلى الاتساع . وأدركت أن
رفوف الكتب الزجاجية في الحائط المقابل للباب لا تصل
إلى الأرض ولكنها تنتهي على جانبي المدفأة بدواليب مدهونة
بطلاء أبيض بارزة عن رفوف الكتب مقدار قدمين أو ثلاثة .

وكذلك على امتداد الضلع الآخر إلى اليسار . وذهبت
إلى الصور المصنوفة على الرف . مصطفى سعيد يضعك ،
مصطفى سعيد يكتب ، مصطفى سعيد يسبح ، مصطفى
سعيد في مكان ما في الريف ، مصطفى سعيد في الزي
الجامعي ، مصطفى سعيد يحذف في السيربنتان ، مصطفى
سعيد في تمثيلية الميلاد ، على رأسه تاج ، أحد الملوك الثلاثة
الذين جلبوا المطور والمر للمسيح ، مصطفى سعيد يتوسط
رجلا وامرأة ، مصطفى سعيد لم يترك لحظة تمر إلا وسجلها
لذكرى والتاريخ . وأمسكت صورة امرأة وتمنعت فيها ،
وقرأت الإهداء بخط منمق : « من شيلا مع كل حي » .
شيلا غرينود بلا شك . قروية من ضواحي هل ، أغراها
بأهدايا والكلام المعسول والنظرة التي ترى الشيء فلا تخطئه .
دوختها رائحة الصندل المحروق والند . حلوة الوجه فعلا ،
تبسم في الصورة وفي جيدها عقد ، من العاج بلا شك .
ذراعاها مكشوفتان وصدرها بارز . كانت تعمل خادمة في
مطعم بالنهار وبالليل تواصل الدراسة في البوليتكنيك . كانت
ذكية تؤمن بأن المستقبل للطبقة العاملة ، وأنه سيجيء يوم
تتعدم فيه الفروق ويصير الناس كلهم أخوة . كانت تقول له :
« أمي ستجن وأبي سيقتلني إذا علما أنني أحب رجلا أسود
ولكنني لا أبالي » . قال : « كانت تغني لي أغاني ماري لويد
ونحن عراة . كنت أقضي معها أمسيات الخميس في غرفتها
في كامدن تاون وأحيانا تقضي الليل معي في شقتي . كانت

تلحس وجهي بلسانها وتقول لي : لسانك قرمزي بلون
الغروب في المناطق الاستوائية . كنت لا أشبع منها ولا
تشبع مني . تتأملني كل مرة كأنها تكتشف شيئاً جديداً .
تقول لي : ما أروع لونك الأسود ، لون السحر والغموض
والأعمال الفاضحة ، لقد انتحرت . لماذا انتحرت شيلا
غرينود يا مستر مصطفى سعيد ؟ أنا أعلم أنك تختبئ في
مكان ما من هذه المقبرة الفرعونية التي سأحرقها على رأسك .
لماذا قتلت حسنه بنت محمود ود الرئيس الشيخ وقتلت نفسها
في هذه القرية التي لا يقتل أحد فيها أحداً ؟
والتقطت صورة أخرى وقرأت الإهداء بخط عريض يميل
إلى الأمام : « لك حتى الممات - إيزابيلا » . مسكينة
إيزابيلا سيمور . انني أحس بعطف خاص نحو إيزابيلا سيمور .
مستديرة الوجه ، تميل إلى البدانة ، تلبس رداء قصيراً بمقاييس
ذلك الوقت . ليست تماماً تماثلاً من البرونز كما وصفها ولكن
في الوجه طيبة واضحة وتفاؤلاً بالحياة . تبسم . هي أيضاً
تبسم . قال انها كانت زوجة لجراح ناجح ، أما لبنتين وابن .
قضت أحد عشر عاماً في حياة زوجية سعيدة ، تذهب
للكنيسة صباح كل أحد بانتظام ، وتساهم في جمعيات البر .
ثم قابلته واكتشفت في أعماقها مناطق مظلمة كانت مغلقة
من قبل . وبالرغم من كل شيء تركت له رسالة تقول فيها :
« إذا كان في السماء إله ، فأنا متأكدة انه سينظر بعين العطف
إلى طيش امرأة مسكينة لم تستطع أن تمنع السعادة من دخول
قلبها ، ولو كان في ذلك إخلال بالعرف وجرح لكبرياء زوج .

ليسأخني الله ويمنعك من السعادة مثل ما منحتني ، .
إنني أسمع صوته في تلك الليلة ، دأكنأ ، يعلو ويمخف ،
ليس فيه حزن ولا ندم ، إن كان في الصوت شيء فقد كانت
فيه رنة فرح . « وسمعتها تقول لي بصوت متضرع مستسلم :
أحبك . فجاوب صوتها هتاف ضعيف في أعماق وعيي
يدعوني أن أقف . لكن القمة صارت على بعد خطوة ،
وبعد ذلك ألتقط أنفاسي وأستجم . ونحن في قمة الألم عبرت
برأسي سحاب ذكريات بعيدة قديمة كبخار يصعد من بحيرة
مالحة وسط الصحراء . حين خطأ زوجها إلى منصة الشهادة
في المحكمة ، تعلقت به الأبصار . كان رجلا نبيل اللامح
والخطو ، رأسه الأشيب يكلله الوقار ، وتجلس على سمته مهابة
لا مرأ فيها . كان رجلا لو وضعت معه على ميزان ، فإن كفته
ترجح كفتي أضعاف أضعاف . وكان شاهد دفاع لا اتهام .
قال في الصمت الذي خيم على المحكمة . الانصاف يحتم علي أن
أقول أن إيزابيلا زوجتي كانت تعلم بأنها مريضة بالسرطان .
كانت في الآونة الأخيرة ، قبل موتها ، تعاني من حالات
انقباض حادة . قبل موتها بأيام اعترفت لي بعلاقتها بالمتهم .
قالت انها أحبته وانه لا حيلة لها . كانت طول حياتها معي
مثال الزوجة الوفية المخلصة . وأنا بالرغم من كل شيء لا أحس
بأي مرارة في نفسي ، لا لنحوها ولا لنحو المتهم . انني فقط
أحس بحزن عميق لفقدائها .
لا يوجد عدل في الدنيا ولا اعتدال . وأنا أحس بالمرارة
والحقد ، فبعد هؤلاء الضحايا جميعاً ، توج حياته بضحية

أخرى ، حسنه بنت محمود ، المرأة الوحيدة التي أحببتها ،
قتلت ود الرئيس المسكين وقتلت نفسها من أجل مصطفى
سميد . وقطعت ... يا للبشاعة . والتقطت صورة في إطار
من الجلد . هذه آن همد بلا شك ، بالرغم من انها تلبس عباءة
عربية وعقالا ، والإهداء أسفل الصورة بخط عربي مهتز :
« من جاريتك سوسن » . وجه حي يتفجر صحة لا تكاد الصورة
تحتويه . في كل خد غبازتان ، والشفتان ممتلئتان منفرجتان ، والعينان
تتواعدان بحب الاستطلاع . واضح كل هذا في الصورة على تقادم
المهد بها . « كانت عكسي تحن إلى مناخات استوائية ،
وشموس قاسية ، وآفاق أرجوانية . كنت في عينيها رمزاً
لكل هذا الحنين . وأنا جنوب يحن إلى الشمال والصقيع .
كانت تملك شقة في هامستد تطل على هامستد حيث تجيئها من
أكسفورد آخر الأسبوع . كنا نقضي ليلة السبت عندي وليلة
الأحد عندها . وأحياناً تمكث الاثنين وأحياناً الأسبوع كله .
ثم أخذت تتغيب عن الجامعة شهراً وشهرين حتى فصلت .
كانت تدفن وجهها تحت إبطي وتستنشقي كأنها تستنشق
دخاناً مخدراً . وجهها يتقلص باللذة . تقول كأنها تردد طقوساً
في معبد : « أحب عرقك . أريد رائحتك كاملة . رائحة
الأوراق المتعفنة في غابات افريقيا . رائحة المنجى والباباي
والتوابل الإستوائية . رائحة الأمطار في صحارى بلاد
المرب » . كانت صيداً سهلاً . قابلتها أثر محاضرة ألقيتها في

أكسفورد عن أبي نواس . قلت لهم أن عمر الحيام لا يساوي شيئاً إلى جانب أبي نواس ، وقرأت لهم من شعر أبي النواس في الخمر بطريقة خطابية مضحكة ، زاعماً لهم أن تلك هي الطريقة التي كان الشعر العربي يلقي بها في العصر العباسي . وقلت في المحاضرة أن أبا نواس كان متصوفاً ، وإنه جعل من الخمر رمزاً حمله جميع أشواقه الروحية ، وإن توفقه إلى الخمر في شعره كان في الواقع توقفاً إلى الفناء في ذات الله .. كلام ملفق لا أساس له من الصحة ، لكنني كنت ملهماً في تلك الليلة ، أحس بالأكاذيب تتدفق على لساني كأنها معان سامية . وكنت أحس بالنشوة تسري مني إلى الجمهور ، فأمضي في الكذب . وبعد المحاضرة التفوا حولي . موظفون عملوا في الشرق ، ونساء طاعنات في السن مات أزواجهن في مصر والعراق والسودان ، ورجال حاربوا مع كتشنر والنيبي ، ومستشرقون ، وموظفون في وزارة المستعمرات ، وموظفون في قسم الشرق الأوسط في وزارة الخارجية . وفجأة رأيت فتاة في الثامنة أو التاسعة عشرة تثب نحوي وثباً غثرة الصفوف . وطوقتني بذراعيها وقبلتني وقالت باللغة العربية : أنت جميل تجل عن الوصف . وأنا أحبك جداً يحل عن الوصف . قلت لها بعاطفة أخافتني حديثها : وأخيراً وجدتك يا سوسن . إنني أبحث عنك في كل مكان ، وخفت ألا أجدك أبداً . هل تذكرين ؟ قالت بعاطفة لا تقل

عن عاطفتي حدة : كيف أنسى دارنا في الكرخ في بغداد على
ضفة نهر دجلة أيام المأمون ؟ أنا أيضاً تقفيت أمرك عبر القرون
ولكنني كنت واثقة اننا سنلتقي. وهائنذا يا حبيبي مصطفى ،
لم تتغير منذ افترقنا . كأنني وهي على مسرح وحولنا ممثلون
يؤدون أدواراً صغيرة . أنا بطل وهي بطة . أطفئت الأنوار
وساد الظلام حولنا وبقينا أنا وهي وحدنا وسط المسرح
ينصب علينا ضوء وحيد . ورغم إدراكي انني أكذب ، فقد
كنت أحسن انني بطريقة ما أعني ما أقول ، وانها هي أيضاً
رغم كذبتها فان ما قالته هو الحقيقة . كانت تلك لحظة من
لحظات النشوة النادرة التي أبيع بها عمري كله . لحظة تتحول
فيها الأكاذيب أمام عينك إلى حقائق ، ويصير التاريخ قواداً ،
ويتحول المهرج إلى سلطان . وفي غمرة الحلم ذاك حملتني
بسيارتها إلى لندن . كانت تسوق بسرعة رهيبة ، وبين الحين
والحين تترك عجلة القيادة وتطوقني بذراعيها وتصرخ : ما
أسعدني إذ وجدتك أخيراً . انني سعيدة سعادة لو مت في
هذه اللحظة فأنني لن أبالي . وكنا نقف على الحانات في
الطريق ، ونشرب خمر التفاح أحياناً والبيرة أحياناً ، والنبيد
الأحمر والنبيد الأبيض ، وأحياناً نشرب الوسكي . ومع كل
كأس أقرأ لها من شعر أبي نواس . قرأت لها :

أما يسرك أن الأرض زهراء والحجر ممكنة شمطاء عذراء

ما في قعودك عذر عن معتقة كالليل والدها والأم خضراء
بأدر فإن جناح الكرخ موفقة لم تلتقفها يد للحرب عسراء

وقرأت لها :

وكأس كمصباح السماء شربتها على قبلة أو موعد للقاء
أنت دونها الأيام حق كأنها تساقط نور من فتوق سماء

وقرأت لها :

إذا عبأ أبو الهيجاء للهيجاء فرسانا
وسارت راية الموت أمام الشيخ اعلانا
وشبت حربيها واشتعلت تلهب نيرانا
جملنا القوس أبدينا ونبل القوس سوسانا
فعادت حربنا انسا وعدنا نحن خلانا
إذا ما ضربوا الطبل ضربنا نحن عيدانا
لفتيان يرون القتل في اللذة قربانا
ومنشا حربنا ساق سبا خمرنا فسقانا
يحس الكأس كي تلحق اخرانا بأولانا
تري هناك مصروعاً وذا بنجر سكرانا
فهذي الحرب لا حرب تغم الناس عدوانا
بها نقتلهم ثم بها ننشر قتلاتنا

نحن هكذا وهي تطرب للشعر وتطرب للشراب ، تسقيني
لذاذات الأكاذيب العذبة وانسج لها خيوطا دقيقة مريعة من
الأوهام . تقول لي انها ترى في عيني ملح السراب في الصحاري
الحارة . وتسمع في صوتي صرخات الوحوش الكامرة في
الغابات ، وأقول لها انني أرى في زرقة عينيهما بحور الشمال البعيدة
التي ليس لها سواحل . وفي لندن أدخلتها بيتي ، وكر
الأكاذيب الفادحة ، التي بنيتها عن عمد ، اكذوبة اكذوبة .
الصندل والند وريش النعام وتمائيل العاج والأبنوس والصور
والرسوم لغابات النخل على شطآن النيل ، وقوارب على
صفحة الماء أشرعتها كأجنحة الحمام ، وشموس تقرب على
جبال البحر الأحمر ، وقوافل من الجمال تحب السير على كثبان
الرمل على حدود اليمن ، أشجار التبليدي في كردفان ، وفتيات
عاريات من قبائل الزاندي والنوير والشلك ، حقول الموز
والبن في خط الإستواء ، والمعابد القديمة في منطقة النوبة ،
الكتب العربية المزخرفة لأغلفة مكتوبة بالخط الكوفي المنمق
السجاجيد العجمية والستائر الوردية ، والمرايا الكبيرة على
الجدران ، والأضواء الملونة في الأركان . ركعت وقبلت
قدمي وقالت : انت مصطفى مولاي وسيدي وأنا سوسن
جاريتك . هكذا كل واحد منا اختار دوره في صمت ، هي
تمثل دور الجارية وأنا أمثل دور السيد . حضرت الحمام ثم
غسلتني بالماء الذي صبت فيه ماء الورد . أوقدت عيدان

الند ، وأوقدت الصندل في مجمر النحاس المغربي المعلق في المدخل . لبست عباءة وعقالاً وتمددت أنا على السرير فجاءت ودلكت صدري وساقى ورقبتي وكنتفي . قلت لها بصوت آمر : تعالي ، فأجابتنى بصوت خفيض : سمعاً وطاعة يا مولاي . في غمرة الوم والسكر والجنون أخذتها فقبلت لأن الذي قد كان بيننا كان منذ ألف عام . وجدوها في شقتها في هامستد ميتة انتحاراً بالفاز ورسالة تقول فيها : مستر سعيد لعنة الله عليك ،

وضعت صورة آن همد في مكانها إلى يسار صورة مصطفى سعيد وهو يقف بين مسز روبنسن وزوجها . الاهداء في أسفل الصورة : « الى موزي العزيز - القاهرة ١٧/٤/١٩١٣ » يبدو انها كانت تدلله بهذا الاسم ، فهي في رسالتها أيضاً تشير إليه باسم « موزي » . مصطفى سعيد يبدو مجرد طفل ، ولكن وجهه عابس في الصورة . مسز روبنسن تقف إلى يساره وتضع ذراعها حول كتفه وزوجها يطوقها الاثنتين بذراعه وهو وزوجته يبتسمان ابتسامة طبيعية سعيدة . وجههما وجها شابين لم يصلا الثلاثين . رغم كل شيء فان حب مسز روبنسن له لم يتزعزع . انها حضرت المحاكمة من أولها إلى آخرها ، وسمعت كل شيء ، ومع ذلك فانها تقول في رسالتها إلي : « لا أستطيع أن أعبر لك عن مدى امتناني لأنك كتبت لي عن موزي العزيز . لقد كان موزي أعز

شخص بالنسبة لي ولزوجي . مسكين موزي . انه كان طفلاً معذباً . ولكنه أدخل على قلبي وقلب زوجي سعادة لا حد لها . بعد تلك المسألة المؤلمة وتركه لندن ، انقطعت أخباره عني ، وقد حاولت جهدي أن أعيد الاتصال به ولكنني لم أفلح . مسكين موزي ، ولكن ما يخفف عني قليلاً ألم فقدته أن أعلم أنه قضى السنوات الأخيرة من حياته سعيداً بينكم وأنه تزوج زوجة طيبة وأنجب ولدين . بلغ حبي لمسز سعيد . أنها تستطيع أن تعتبرني أما . وإذا كان ثمة عمل أستطيع أن أؤديه لها وللطفلين العزيزين فقل لها . لا تتردد في الكتابة إلي . وكما أكون سعيدة لو أنهم جميعاً جاءوا وقضوا معي عطلة الصيف القادم . انني أعيش هنا وحيدة في آيل أف وايت . وقد سافرت إلى القاهرة في يناير الماضي وزرت قبر زوجي . كان ركي يحب القاهرة حباً عظيماً وقد شاء القدر أن يدفن في المدينة التي أحبها أكثر من أي مدينة أخرى في العالم .

« انني أشغل نفسي بتأليف كتاب عن حياتنا - ركي وموزي وأنا - كنا رجلين عظيمين ، كل بطريقته . كانت عظمة ركي في قدرته على جلب السعادة للآخرين . كان سعيداً بمعنى الكلمة ، تفيض السعادة منه إلى كل من يتصل به . وكان لموزي عقل عبقرى ، ولكنه كان متهوراً . كان غير قادر على تقبل السعادة أو إعطاؤها ، إلا لمن أحبههم

وأحبوه حباً حقيقياً مثلي ومثل ركي . وأنا أحس أن
الحب والواجب يحتم علي أن أعرف الناس بقصة هذين
الرجلين العظيمين سيكون الكتاب في الواقع عن ركي
وموزي ، فأنا لم أفعل شيئاً يستحق الذكر . سأكتب عن
الخدمات الجليلة التي أداها ركي للثقافة العربية ،
مثل اكتشافه لكثير من المخطوطات النادرة وشرحها
والإشراف على طبعها . وسأكتب عن الدور العظيم الذي لعبه
موزي في لفت الأنظار هنا إلى البؤس الذي يعيش فيه أبناء
قومه تحت وصايتنا كستعميرين . وسأكتب بالتفصيل عن
المحاكمة وأزيل ما علق باسمه من غبار . انني أكون شاكرة
إذا أرسلت لي أي شيء خلفه موزي قد يعينني على كتابة
هذا الكتاب . ولعل موزي أخبرك انه جعلني وصية على
شئونه في لندن . وقد تجمع شيء من المال من حقوق الطبع
لبعض كتبه وترجمة بعضها سأحولها فوراً حين تخبرني بعنوان
البنك الذي تريدني أن أحولها له . وبهذه المناسبة اسمح لي
أن أشكرك شكراً عظيماً على الإشراف على عائلة موزي
العزیز . أرجو أن تراسلني بانتظام وتكتب لي عن أخبارهم
بالتفصيل وأن ترسل لي صورتهم في رسالتك القادمة .

« مخلصتك اليزابيث »

وضعت الرسالة في جيبتي وجلست على الكرسي إلى يمين

المدفأة . وقع بصري على عدد من صحيفة « التايمز » بتاريخ
الاثنين ٢٦ - ٩ - ١٩٢٧ . الموالي ، الزيجات ، الوفيات .
وقع مراسيم الزواج القسيس سامسن ماجستير في الآداب .
تقام مراسيم الجنازة في كنيسة ستغني الساعة الثانية بعد الظهر ،
الأربعاء . الرسائل الشخصية . أيتها المحبوبة دائماً ، إلى متى
نظل مفترقين ؟ - القلب العزيز . مستعمرة كينيا -
مستر ... مساح قانوني - يعود إلى نيروبي في الخامس من
أكتوبر ، حتى ذلك التاريخ أية مراسلات تتعلق بتقارير عن
عقارات في المستعمرة ، يجب أن ترسل بواسطة ... اعلانات
عن دروس في ركوب الخيل . قطط سيامية زرقاء للبيع .
فتاة (١٧ سنة) مهيبة ، من عائلة محترمة ، تبحث عن عمل .
سيدة ورثت لقب ليدي (٣٠ سنة) ترغب في وظيفة في
الخارج . أخبار الرياضة . وست هل يهزم بير هل .
وست هام يفوز . جين تني يغلب جاك دمبسي . رسالة من
ظفر الله خان يفند فيها آراء سير شمانلال ستالفاد بشأن النزاع
بين المسلمين والهندوك في البنجاب . رسالة تقول : « الجاز
موسيقى مريحة في عالم مظلم » . فيلان وصلا من رانفون
أمس ، وسارا على الأقدام من مرسي تلبري إلى حديقة الحيوان .
مربي أبقار هجم عليه ثور في مزرعته وبقر بطنه . رجل
سرق أربع موزات حكم عليه بالسجن ثلاث سنوات .
الأخبار الإمبراطورية والخارجية . عرض جديد من موسكو

لتسديد الدين الروسي لفرنسا . فيضانات في سويسرا .
الدسكفري سفينة كابتن سكت عادت من البحار الجنوبية .
هر سترسمان ألقى خطاباً عن نزع السلاح في جنيف يوم السبت .
وأيضاً أدلى هر سترسمان بتصريح لصحيفة « ماثان » أبد فيه
خطاب الرئيس فون هندنبورغ في تانبرج الذي رفض فيه أن
ألمانيا مسئولة عن نشوب الحرب . المقالة الافتتاحية عن
معاهدة جدة التي وقعها سير غلبرت كليتن بالنيابة عن بريطانيا
العظمى والأمير فيصل عبد العزيز آل سعود نيابة عن أبيه
ملك الحجاز ونجد ومحبياتها . الحالة الجوية في انكلترا وويلز ،
الرياح في الغالب بين الغربي والشمال الغربي ، قوية أحياناً في
الأماكن المكشوفة ، فترات طويلة من الهدوء ولكن مع
فترات من العواصف الممطرة وأحياناً أمطار محلية .

انها الصحيفة الوحيدة فيما يبدو . هل وجودها هنا له أي
مدلول ؟ أم انها محض الصدفة ؟ وفتحت كراسة وقرأت على
الصفحة الأولى : « قصة حياتي - بقلم مصطفى سعيد » .
وفي الصفحة التالية الإهداء : « إلى الذين يرون بعين واحدة
ويتكلمون بلسان واحد ويرون الأشياء اما سوداء أو بيضاء ،
اما شرقية أو غربية » . وقلبت بقية الصفحات فلم أجد شيئاً ،
ولا سطوراً واحداً ولا كلمة واحدة . هل هذا أيضاً له
مدلول أم انه صدفة محضة ؟ وفتحت ملفاً فوجدت أوراقاً
كثيرة وسككشات ورسومات . كان إذن يعالج الرسم

والكتابة الرسوم جيدة تم عن موهبة . رسوم بالألوان
لناظر في الريف الانكليزي تتكرر فيها أشجار البلوط
والغدران والاوز . وسكتشات بالقلم الرصاص لمناظر واشخاص
من قريتنا . بالرغم من كل شيء لا يسعني إلا أن أعترف
بهارته الفائقة . بكري ومحجوب وجدي وود الرئيس وحسنة
وعمي عبد الكريم وغيرهم . وجوهم تظالفي بتعبيرات عميقة
طالما أحسستها ولكنني لم أكن قادراً على تحديد ما .
وقد رسمهم مصطفى سعيد بوضوح رؤية وبعطف يقرب من
الحب . ووجه ود الرئيس يتردد أكثر من الباقين . ثمانية رسوم
لود الرئيس في تماثيل مختلفة . لماذا اهتم بود الرئيس كل هذا
الاهتمام ؟

ونظرت في قصاصات الورق وقرأت : « نعلم الناس لنفتح
أذهانهم ونطلق طاقاتهم المحبوسة . ولكننا لا نستطيع أن
نتنبأ بالنتيجة - الحرية . محرر العقول من الحرافات .
نعطي الشعب مفاتيح المستقبل ليتصرف فيه كما يشاء » .
« تركت لندن وقد بدأت أوروبا تحشد جيوشها مرة أخرى
لعنف أكثر ضراوة » . « لم تكن كراهية . كان حباً عجز
أن يعبر عن نفسه . أحببتها بطريقة معوجة . وهي أيضاً » .
« أسقف البيوت بلها رذاذ المطر . البقر والضأن في الحقول
وكأنها حصوات بيضاء وسوداء . الليل الخفيف في شهر يونيو .
اسمعي لي يا سيدتي . هذه الرحلات بالقطار مملة . كيف

حالك ؟ من برمنغهام . إلى لندن . كيف تصف المناظر ؟
شجر وحشائش . أكوام القش اليابس وسط الحقول .
الأشجار والحشائش هي هي في كل مكان . كتاب لنغاير
مارش . ترددت . لم تقل لا أرنعم . هل كان يصف
حوادث حقيقية أم انه كان يعالج قصة ؟ « انني يا مولاي
يجب أن أعترض على لجوء الاتهام إلى حيلة منطقية مكشوفة .
ذلك انه يريد أن يؤكد مسؤولية المتهم في حوادث لم يكن
مسئولاً عنها ، بناء على عمل حدث فعلاً ، ثم يعود ويؤكد
افتراضاً فيما حدث فعلاً بناء على الافتراضات السابقة .
ان المتهم معترف بأنه قتل زوجته ولكن هذا لا يجعله مسؤولاً
عن جميع حوادث انتحار النساء اللاتي انتحرن في الجزر
البريطانية في خلال السنوات العشر الأخيرة . » من ولد الخير
ولد له فراخاً تطير بالسرور . ومن ولد الشر أنبت له شجراً
أشواكه الحسرة وثمره الندم . فرحم الله امرأ أغضى عن
الأخطاء واستمتع بالظاهر .

ووجدت قصيدة بخط يده . إذن كان يعالج الشعر أيضاً ،
وواضح من كثرة ما شطب فيها وبدل وغير في كلماتها انه هو
الآخر كان يحس برهبة أمام الفن . ها هي ذي :

عريدت في الصدر آهات الحزين
ودموع القلب فاضت من تباريح السنين
ورياح عصفت بالحب والحق الدفين

وبقايا صلوات ضمها الصمت العميق
هينأت ودعاء ونواح وزعيق
وغبار ودخان غم للساري الطريق
ونفوس مطمئنات وأخرى هلعة
وجباه صاغرات وأخرى . . .

ولا بد ان مصطفى سعيد قضى ساعات طويلة يبحث عن
الكلمة التي يستقيم بها الوزن . استهوئني المعضلة ففكرت بضع
دقائق . ولم يطل تفكيري . انها قصيدة ركيكة على اي حال
قائمة على الطباق والمقارنات . ليس فيها احساس صادق ولا
انفعال حقيقي . وهذا البيت ليس أسوأ من بقية الابيات .
شطب البيت الاخير وكتبت محله :

« وخذود صاغرات وجباه خاشعة » .

ومضيت في تقليب الاوراق فوجدت ارقاماً وقصاصات
ورق فيها عبارات مثل : « ثلاثة براميل زيت » ، « تناقش
اللجنة موضوع تقوية قاعدة المكنة » ، « فائض الاسمنت يمكن
بيعه فوراً » . ثم وجدت هذه الفقرة : « وقد كان حتماً ان
يصطدم طالعي بطالعي وان اقضي في السجن اعواماً واضرب
في الارض اعواماً ، اطارد خيالها ويطاردني . وذلك هو
الاحساس بأنني في لحظة خارج حدود الزمن قد ناسجت الهة
الموت واطللت من كوة عينها على الجحيم . انه شعور لا يمكن

لإنسان أن يتصوره . وقد ظل مذاق تلك اللبلة في فمي يمنعني من أي مذاق سواه ، .

سُمت قراءة الاوراق . لا شك أن ثمة اوراقاً كثيرة اخرى دفينة في هذه الغرفة ، كاجزاء في لغز حسابي ، يريد مصطفى سعيد مني أن أكتشفها وأضعها جنباً الى جنب ، وأخرج منها صورة متكاملة تكون في صالحه . انه يريد أن يكتشف كآثر تاريخي له قيمته . لا شك في ذلك . وأنا أعلم الآن انه اختارني أنا لهذا الدور . لم تكن صدفة انه أثار حب الاستطلاع عندي ، ثم قص علي قصة حياته غير كاملة لكي أكتشف أنا بقية القصة . لم تكن صدفة أنه ترك لي رسالة مختومة بالشمع الاحمر ، أمعانا منه في شحذ خيالي ، وانه جعلني وصياً على ولديه ليلزميني الزاماً لا فكاك منه ، وانه ترك لي مفتاح متحف الشمع هذا . لا حد لاذنابته وغروره ، فهو رغم كل شيء يريد أن يخلده التاريخ . انما أنا لا أملك متسعاً من الوقت للضي في هذه المهزلة . يجب أن انهي هذه المهزلة قبل طلوع الفجر ، والساعة الآن جاوزت الثانية صباحاً عند طلوع الفجر ستأكل السنة النار كل هذه الاكاذيب .

هبيت واقفاً ، ورفعت ضوء الشموع على اللوحة الزيتية على رف المدفأة . كل شيء في الغرفة منظم مرتب موضوع في مكانه . الا صورة جين مورس . كأنه لم يدر ماذا يفعل بها . كل النساء الأخريات احتفظ بصورهن الفوتوغرافية ، ولكن

جين مورس هذه كما رآها هو لا كما رأتها آلة التصوير . نظرت الى اللوحة باعجاب . وجه مستطيل لامرأة واسعه العينين حاجباها ينمقدان فوقها . الانف يميل الى الكبر والغم يميل الى الاتساع والتعبير على الوجه شيء يصعب وصفه في كلمات . تعبیر رهيب ، محير . الشفتان الرقيقتان مطبقتان كأنها تمض أسنانها والفك مائل الى الامام بكبرياء . هل التعبير في العينين غضب أم ابتسام ؟ وثمة شيء شهواني يرف على الوجه كله . هذه اذن هي العنقاء التي افترست الغول ؟ كان صوته في تلك الليلة جريحا حزينا نادما . ألأنه فقدما ؟ أم لأنها جرعت المهانات ؟ .

« كنت اجدها في كل حفل أذهب اليه . كأنها تعتمد أن تكون حيث أكون لتهينني . أردت أن أراقصها فقالت لي : لا أرقص معك ولو كنت الرجل الوحيد في العالم . صفتها على خدها فركلتنى بساقها وعضتني في ذراعي بأسنان كأنها أسنان لبوة . لم تكن تعمل عملا ولا اعلم كيف كانت تعيش . أهلها من ليدز ، لم اقابلهم حتى بعد زواجي بها . كان ابوها تاجرا لا ادري في اية بضاعة ، وكان لها ، حسب قولها ، خمسة أخوة وكانت هي البنت الوحيدة . كانت تكذب حتى في ابسط الاشياء . تعود الى البيت بقصص غريبة عن أشياء حدثت لها واناس قابلتهم لا يمكن أن يصدقها العقل . ولا استبعد انها كانت عديمة الأهل ، كأنها شهرزاد متسولة .

ولكنها كانت مفرطة في الذكاء ومفرطة في الظرف حين
تشاء ، يحيط بها حيث تكون لفيف من المعجبين يرفون حولها
كالذباب . وكنت أحس احساساً داخلياً انها رغم تظاهرها
بكراهيتي ، كانت مهتمة بأمرى ، حين يجمعني وإياها مجلس
تراقبني بطرف عينها ، وتحصي جميع حركاتي وسكناتي ، وإذا
رأت مني اهتماماً بفتاة ما سارعت الى اساءتها والقسوة عليها
كانت ماحنة بالقول والفعل ، لا تتورع عن فعل اي شيء ،
تسرق وتكذب وتغش ، ولكنني رغم ارادتي أحببتها ولم
أعد استطيع ان اسيطر على مجرى الاحداث . كانت حين
اتجنبها تغريني وحين اطاردها تهرب مني . كبحت مرة جماع
نفسي وتجنبتها أسبوعين . اخذت ابتعد عن الاماكن التي
ترتاها وإذا دعيت الى حفل اتأكد انها لن تكون موجودة
فيه . ولكنها وجدت طريقها الى بيتي فجاءتني آخر ليلة
سبت وآن همد معي . شتمت آن همد شتائم مقذعة فانتهرتها
وضربتها فلم ترتدع . خرجت آن همد باكية وظلت واقفة
امامي كشيطان رجيم ، في عينيها تحد ونداء أثار أشواقاً
بعيدة في قلبي . لم أكلها ولم تكلمني ولكنها خلعت ثيابها
ووقفت امامي عارية . نيران الجحيم كلها تأججت في صدري
كان لا بد من اطفاء النار في جبل الثلج المعترض طريقي .
تقدمت نحوها مرتعش الاوصال ، فأشارت الى زهرية ثمينة من
الموجودة على الرف . قالت : تعطيني هذه وتأخذني . لو طلبت

مني حياتي في تلك اللحظة ثمناً لقايضتها أياها . أشرت برأسي موافقاً . أخذت الزهرية وهشمتها على الارض واخذت قدوس الشطايا بقدميها حتى حولتها الى فتات . أشارت الى مخطوط عربي نادر على المنضدة . قالت : تعطيني هذا أيضاً . حلقي جاف . انا ظمآن يكاد يقتلني الظمأ . لا بد من جرعة ماء مثلجة . اشرت برأسي موافقاً . اخذت المخطوط القديم النادر ومزقته وملأت فيها بقطع الورق ومضفتها وبصفتها . كأنها مضغت كبدي ، ولكنني لا ابالي . أشارت الى مصلاة من حرير أصفهان أهدتني اياها مسز روبنسن عند رحيلي من القاهرة . أتمن شيء عندي وأعز هدية على قلبي . قالت : تعطيني هذه أيضاً ثم تأخذني . ترددت برهة ولكنني نظرت اليها منتصبه متحفزة أمامي ، عينها تلمعان ببريق الخطر وشفاتها مثل فاكهة محرمة لا بد من أكلها . وهززت رأسي موافقاً ، فأخذت المصلاة ورمتها في نار المدفأة ووقفت تنظر متلذذة الى النار تلتهمها فانمكست ألسنة النار على وجهها . هذه المرأة هي طلبتني وسألاحقها حتى الجحيم . مشيت اليها ووضعت ذراعي حول خصرها وملت عليها لاقبلها . وفجأة أحسست بركلة عنيفة بركبتيها بين فخذي . ولما افقت من غيبوبي وجدتها قد اختفت .

« لبثت اطاردها ثلاثة أعوام ، قوافلي ظمأى والسراب يلعب امامي في متاهة الشوق . وذات يوم قالت لي : انت ثور

متوحش لا يفتر من الطراد . انني تعبت من مطاردتك لي ومن
جريبي أمامك . تزوجني . تزوجتها في مكتب التسجيل في
فولام . لم يحضر العقد غير صديقة لها وصديق لي . حين قالت
امام المسجل : انا جين ونفرد مورس أقبل هذا الرجل مصطفى
سميد عثمان زوجي الشرعي في السراء والضراء في الفقر والغنى
في الصحة والمرض - فجأة أجهشت بالبكاء وأخذت تبكي
بحرق . دهشت انا لهذه العاطفة منها وكف المسجل عن
اجراء المراسم وقال لها بعطف : هوني عليك . أنا أقدر
شعورك . ما هي اللحظات وينتهي كل شيء . وظلت بعد
ذلك تنهه بالبكاء ، ولما انتهى العقد أجهشت بالبكاء مرة
اخرى . وجاء المسجل وربت على كتفها ثم صافحني قائلاً :
زوجتك تبكي من شدة السعادة . انني رأيت نساء كثيرات
يبكين في زواجهن ولكنني لم أر بكاء بهذه الحرق .
يبدو انها تحبك حباً عظيماً . اعتن بها . أنا متأكد ستكونان
سعيدين . وظلت تبكي الى ان خرجنا من مكتب التسجيل .
وفجأة انقلب بكاؤها الى ضحك . قالت وهي تقهقه بالضحك :
يا لها من مهزلة .

(وقضينا بقية اليوم في سكر . لا حفل ولا مدعوين ،
أنا وهي والآخر . ولما ضمننا الفراش ليلاً أردتها فأدارت لي
ظهرها وقالت : ليس الآن . أنا متعبة . وظلت شهرين لا
تدعني أقرئها ، كل ليلة تقول : أنا متعبة . أو تقول : أنا

مريضة . لم اعد احتمل اكثر مما احتملت . وقفت فوقها ذات ليلة والسكين في يدي . قلت لها : سأقتلك . نظرت الى السكين نظرة بدت لي كأن فيها لهفة ، وقالت : ها هو صدري مكشوف امامك اغرس السكين في صدري . نظرت الى جسمها العاري في متناول يدي ولا أناله . جلست على حافة السرير ونكست رأسي بذلة . وضعت يدها على خدي وقالت بلهجة لم تخل من رقة : انت يا حلوي لست من طينة الرجال الذين يقتلون . أحسست بالذلة والوحدة والضياح . وفجأة تذكرت أمي . رأيت وجهها واضعاً في غيظي وسمعتها تقول لي : انها حياتك وانت حر فيها . وتذكرت نبأ وفاة امي حين وصلني قبل تسعة اشهر ، وجدوني سكران في أحضان امرأة . لا أذكر الآن أية امرأة كانت . ولكنني تذكرت بوضوح انني لم أشعر بأي حزن ، كان الأمر لا يعنيني في كثير ولا قليل . تذكرت هذا وبكيت من أعماق قلبي . بكيت حتى ظننت انني لن أكف عن البكاء أبداً . وأحسست بحين تطوقني بذراعيها وتقول كلاماً لم أميزه ولكن صوتها وقع على أذني وقعاً منفراً اقشعر له بدني . دفعته عني بعنف وصرخت فيها : أنا أكرهك . أقسم انني سأقتلك يوماً ما . وفي غمرة حزني لم يغب عني التعبير في عينيها . تألقت عيناها ونظرت إلي نظرة غريبة . هل هي دهشة ؟ هل هي خوف ؟

هل هي رغبة ؟ ثم قالت بصوت فيه مناغات مصطنعة : أنا
أيضاً أكرهك حتى الموت .

« ولكن لم تكن لي حيلة . كنت صياداً فأصبحت
فريسة . وكنت أتعذب وبطريقة لم أفهمها كنت أستعذب
هذابي . بعد ذلك الحادث بأحد عشر يوماً تماماً ، أذكرها
لأنني تجرعت غصصها كما يتجرع الصائم غصص شهر صوم
قائظ ، كنا في حديقة رتشمند قبيل الغروب . لم تكن
الحديقة خالية تماماً من الناس . كنا نسمع الأصوات ونرى
أشخاصاً يتحركون في ضوء الشفق . لم نتحدث إلا قليلاً ولم
تبادل عبارات حب ولا غزل . دون سبب وضعت ذراعيها
حول عنقي وقبلتني قبلة طويلة . أحسست بصدرها يضغط
على صدري . وضعت ذراعي حول خصرها وجذبتها إلي فتأوهت
آهات مزقت نياط قلبي وأنستني كل شيء . لم أعد أذكر شيئاً .
لم أعد أرى أو أعي إلا هذه المصيبة الفادحة التي رماني بها القدر .
هذه المرأة هي قدرتي وفيها هلاكي ، ولكن الدنيا كلها لا
تساوي عندي حبة خردل في سبيلها . أنا الغازي الذي جاء
من الجنوب ، وهذا هو ميدان المعركة الجليدي الذي لن أعود
منه تاجياً . أنا السلاح القرصان وجين مورس هي ساحل
الهلاك . ولكنني لا أبالي . أخذتها هنالك في العراء ، لا يهمني
إن كان ذلك على مرأى ومسمع من الناس . هذه اللحظة من
النشوة تساوي عندي العمر كله .

« وقد كانت لحظات النشوة نادرة بالفعل ، وبقيّة الوقت
نفضيه في حرب ضروس لا هوادة فيها ولا رحمة . كانت
الحرب تنتهي بهزيمتي دائماً . أصفعها فتصفعني وتنشب أظافرها
في وجهي ويتفجر في كيائها بركان من العنف فتكسر كل ما
تساله يدها من أوان وتمزق الكتب والأوراق . كان هذا أخطر
سلاح عندها . كل معركة تنتهي بتمزيق كتاب مهم أو حرق
بحث أضعت فيه أسابيع كاملة . وأحياناً يستبد بي الغضب
حتى أبلغ حافة الجنون والقتل ، فأشدد قبضتي على عنقها
فتسكن فجأة وتنظر إلي تلك النظرة المبهمة ، الخليط من
الدهشة والخوف والرغبة . لو انني ضفطت قيد أنملة أكثر مما
ضفطت لوضعت حداً للحرب . وكانت الحرب تتقلل معنا
إلى الخارج . ونحمن في حانة صرخت فجأة : ابن العاهرة
يغازلني . وثبت على الرجل وأخذت بخناقه وأخذ بخناقي
واجتمع علينا الناس ، وفجأة سمعتها تقهقه بالضحك وراء
ظهري . وقال لي أحد الرجال الذين جاءوا يفصلون بيننا :
يوسفني أن أقول لك أن هذه المرأة إذا كانت زوجتك فانك
متزوج من مومس . هذا الرجل لم يكلمها بكلمة . يبدو أن
هذه المرأة تحب منظر العنف . وتحول غضبي اليها ، فذهبت
اليها وهي ماتزال تقهقه فصفعتها فأنشبت أظافرها في وجهي .
ولم أستطع جرجرتها إلى البيت إلا بعد مجهود وألم عظيمين .

« وكان يخلو لها أن تغازل كل من هب ودب حين تخرج معاً . كانت تغازل غرسونات المطاعم وسواقي الباصات وعابري السبيل وكان بعضهم يتشجع ويستجيب ويرد بعضهم بعبارات بذينة فأتشاجر مع الناس وأضر بها وتضربني في عرض الطريق . وما أكثر ما سألت نفسي ما الذي يربطني بها . لماذا لا أتركها وأنجو بنفسي ؟ ولكنني كنت أعلم أن لا حيلة لي وان لا مفر من وقوع المأساة . وكنت أعلم أنها تخونني . كان البيت كله يفوح بريح الخيانة . وجدت مرة منديل رجل ، لم يكن منديلي . سألتها فقالت : انه منديلك . قلت لها : هذا المنديل ليس منديلي ، قالت : هبه ليس منديلك . ماذا أنت فاعل ؟ ومرة وجدت علبة سجائر ومرة وجدت قلم حبر ، قلت لها : انت تخونيني . قالت : افرض انني اخونك . صرخت فيها : اقسم انني سأقتلك . ابتسمت ساخرة وقالت : انت فقط تقول هذا . ما الذي يمنعك من قتلي ؟ ماذا تنتظر ؟ لعلك تنتظر حتى تجسد رجلاً فوقى .. وحتى حينئذ لا اظنك تفعل شيئاً . ستجلس على السرير وتبكي .

« ذات مساء داكن في شهر فبراير . درجة الحرارة عشر درجات تحت الصفر . المساء مثل الصباح ، مثل الليل داكن مكفر ، لم تشرق الشمس طيلة اثنين وعشرين يوماً . المدينة كلها حقل جليد ، الجليد في الشوارع في الحدائق عندمداخل

البيوت . الماء تجمد في اثابيه والنفس يخرج بخاراً من الافواه .
الاشجار عالية تنوء اغصانها تحت وطأة الثلج . وانا دمي يغلي
وفي رأسي حمى . في ليلة مثل هذه تحدث الاعمال الجسيمة .
هذه ليلة الحساب . مشيت من المحطة الى الدار احمل المعطف
على ساعدي ، جسمي ساخن والعرق يتصبب من جبتي . كان
الجليد يقرقع تحت حذائي وانا أطلب البرد . اين البرد ؟
وجدتها عارية مستلقية على السرير ، فعذاها بيضاوان
مفتوحتان ، ابتسامتها مفعمة وعلى وجهها شيء مثل الحزن ،
في حالة تأهب عظيم للاخذ والعطاء . حن قلبي اليها اول ما
رايتها ، واحسست بالدفع الشيطاني تحت الحجاب الحاجز .
حين احسه اعلم انني مسيطر على زمام الموقف . اين كان هذا
الدفع كل هذه الاعوام ؟ قلت لها بصوت واثق كدت انساه
من طول ما فقدته : هل كان معك أحد ؟ أجابتنى بصوت
أثر فيه وقع صوتي : لم يكن معي أحد . هذه الليلة لك انت
وحبك . انا انتظرك منذ وقت طويل .

« احسست انها تصدقني لأول مرة . هذه الليلة ليلة
الصدق والمأسة . اخرجت السكين من غمده . جلست على
حافة السرير وقتاً انظر اليها . كنت ارى وقع نظراتها حياً
ملوساً على وجهها . نظرت في عينيها فنظرت في عيني
ونماست نظراتنا واشتبكت ، فكأنا فلكان في السماء
اشتباكاً في ساعة نحس . وطففت نظراتي عليها فعولت وجهها

عني ، ولكن الاثر ظهر في وسطها فزحزحته يمنة ويسرة
ورفعته قليلا عن السرير ثم استقرت به ورمت ذراعيها في
تراخ . وعادت تنظر الى نظرت الى صدرها ، فنظرت هي
ايضا الى حيث وقع بصري على صدرها كأنها أصبحت
مسلوبة الارادة تتحرك حسب مشيتي . نظرت الى بطنها
فتابعني وبدأ الم خفيف على وجهها .. كنت ابطيء فتبطنيء
وأعجل فتعجل . أطلت النظر الى فخذها اليبضاوين المفتوحتين ،
ادلکها بعيني وينزلق نظري على السطح الناعم الاملس الى
ان يستقر هنالك في مستودع الاسرار ، حيث يولد الخير
والشر . ورأيت وجهها تعلوه حمرة ، وجفنيها ينكسران
كأنها أصبحت غير قادرة على السيطرة عليها . رفعت الخنجر
ببطء فتابعته حده بعينيها . واتسعت حدقتا العينين فجأة
واضاء وجهها بنور خاطف كأنه لمع برق . لبثت تنظر الى
حد الخنجر بخليط من الدهشة والخوف والشبق . ثم امسكت
الخنجر وقبلته بلهفة . وفجأة اغمضت عينيها وتمطت في السرير
رافعة وسطها قليلا فاتحة فخذها اكثر . وتأوهت وقالت :
ارجوك يا حلوي هيا . انا مستعدة الآن . لم استجب لندائها
فتأوهت آهة اكثر الما . وانتظرت . بككت . خرج صوتها
خافتا لا يكاد يسمع : أرجوك يا حبيبي .

« ها هي ذي سفني يا حبيبي تبهر نحو شواطئ الهلاك .
ملت عليها وقبلتها . وضعت حد الخنجر بين نهديها ، وشبكت

هي رجليها حول ظهري . ضغطت ببطء . ببطء . فتحت
عينها . اي نشوة في هذه الميون . وبدأت لي اجل من كل
شيء في الوجود . قالت بآلم : يا حبيبي . ظننت انك لن
تفعل هذا ابداً . كدت اياأس منك . وضغطت الخنجور
بصدري حتى غاب كله في صدرها بين النهدين . واحسست
بدمها الحار يتفجر من صدرها . واخذت ادعك صدرها
بصدري وهي تصرخ متوسلة : تعال معي . تعال . لاتدعني
اذهب وحدي .

« وقالت لي : احبك - فصدقتها . وقلت لها : احبك
وكننت صادقاً . ونحن شعلة من اللهب ، حواف الفراش السنة
من نيران الجحيم ورائحة الدخان اشبه بانفي وهي تقول لي :
احبك يا حبيبي ، وانا اقول لها احبك يا حبيبي . والكون
بماضيه وحاضره ومستقبله اجتمع في نقطة واحدة ليس قبلها
ولا بعدها شيء . »

دخلت الماء عارياً تماماً كما ولدتني امي . احسست برجفة
اول ما لامست الماء البارد ، ثم تحولت الرجفة الى يقظه .
النهر ليس ممتلئاً كأيام الفيضان ولا صغير المجرى كأيام التعاريق
لقد اطفأت الشموع واغلقت باب الفرقة واغلقت باب الحوش
دون ان افعل شيئاً . حريق آخر لا يقدم ولا يؤخر . تركته
يتحدث وخرجت لم أدعه يكمل القصة . فكرت ان اذهب
وأقف على قبرها . فكرت ان ارمي المفتاح حيث لا يجده
احد . ثم عدلت . اعمال لا معنى لها ومع ذلك لا بد من
القيام بعمل ما . وقادتني قدماي الى الشاطيء وقد لاحت
تبشير الفجر في الشرق . سأنفس عن غيظي بالسباحة . كانت
الاشياء على الشاطئ نصف واضحة ، تبين وتختفي ، بين النور
والظلام . كان النهر يدوي بصوته القديم المألوف ، متحركاً
كأنه ساكن لا صوت غير دوي النهر وطققة مكناات الماء
غير بعيد . واخذت اسبح نحو الشاطيء الشمالي . وظللت أسبح
واسبح حتى استقرت حركات جسمي مع قوى الماء الى تناسق

مريح . لم اعد افكر وانا اتحرك الى الامام على سطح الماء
وقع ضربات ذراعي في الماء . وحركه ساقي ، وصوت زفيري
بالنفس ، ودوي النهر ، وصوت المكنة تطقطع على الشاطيء
لا اصوات غير ذلك . ومضيت اسبح واسبح وقد استقر
عزمي على بلوغ الشاطيء الشمالي . هذا هو الهدف . كان
الشاطيء امامي يعلو ويهبط ، والاصوات تنقطع كلية ثم
تضج . وقليلًا قليلًا لم اعد اسمع سوى دوي النهر . ثم اصبحت
كأنني في بهو واسع تتجاوب اصداؤه . والشاطيء يعلو ويهبط
ودوي النهر يغور ويطفو . كنت ارى امامي نصف دائرة .
ثم اصبحت بين العمى والبصر . كنت اعني ولا اعني . هل انا
نائم ام يقظان ؟ هل انا حي ام ميت ؟ ومع ذلك كنت ما
ازال ممسكًا بخيط رفيع واهن: الاحساس بان الهدف امامي
لا تحتي ، وانني يجب ان اتحرك الى امام لا الى اسفل . لكن
الخيط وهن حتى كاد ينقطع ، ووصلت الى نقطة احسست
فيها ان قوى النهر في القاع تشدني اليها . سرى الخدر في ساقي
وفي ذراعي ، اتسع البهو وتسارع تجاوب الاصداء . الآن .
وفجأة ، وبقوة لا ادري من اين جاءتني ، رفمت قامتي في
الماء . سمعت دوي النهر وطققة مكنة الماء . تلفت يمنة
ويسرة فاذا انا في منتصف الطريق بين الشمال والجنوب . لن
استطيع المضي ولن استطيع العودة . انقلبت على ظهري وظللت
ساكنًا احرك ذراعي وساقى بصعوبة بالقدر الذي يبقيني طافيًا

على السطح . كنت احس بقوى النهر الهدامة تشدني الى اسفل
وبالتيار يدفعني الى الشاطئء الجنوبي في زاوية منحنية . لن
استطيع ان احفظ توازني مدة طويلة . ان عاجلاً او آجلاً
ستشدني قوى النهر الى القاع . وفي حالة بين الحياة والموت
رأيت اسراباً من القطى متجهة شمالاً . هل نحن في موسم
الشتاء أو الصيف ؟ هل هي رحلة ام هجرة ؟ واحسست انني
استسلم لقوى النهر الهدامة . احسست بساقي تجران بقية
جسمي الى اسفل . في لحظة لا ادري هل طالت ام قصرت
تحول دوي النهر الى ضوضاء مجلجلة ، وفي اللحظة عينها لمع
ضوء حاد كأنه لمع برق . ثم ساد السكون والظلام فترة لا
اعلم طولها ، بعدها لمحت السماء تبعد وتقرّب والشاطيء يعلو
ويهبط . واحسست فجأة برغبة جارفة الى سيجارة . لم تكن
مجرد رغبة . كانت جوعاً . كانت ظمأ . وقد كانت تلك
لحظة اليقظة من الكابوس استقرت السماء واستقر الشاطئء
وسمعت طقطقة مكنة الماء ، واحسست ببرودة الماء في
جسمي . كان ذهني قد صفا حينئذ ، وتحددت علاقتي بالنهر
انني طاف فوق الماء ولكنني لست جزءاً منه فكرت انني
اذا مت في تلك اللحظة فانني اكون قد مت كما ولدت ، دون
ارادتي . طول حياتي لم اختر ولم اقرر . انني اقرر الآن انني
اختر الحياة . سأحيا لان ثمة اناس قليلين احب ان ابقى
معهم اطول وقت ممكن ولأن علي واجبات يجب ان اؤديها

لا يعنيني ان كان للحياة معنى او لم يكن لها معنى . واذا
كنت لا استطيع ان اغفر فسأحاول ان انسى . سأحيا بالقوة
والمكر . وحركت قدمي وذراعي بصعوبة وعنف حتى
صارَت قامتي كلها فوق الماء . وبكل ما بقيت لي من طاقة
صرخت ، وكأنتي ممثل هزلي يصبح في مسرح : « النجدة » .
النجدة » .

التهت

عُرسُ الزَّين

قالت حليلة بائنة اللبن لآمنة - وقد جاءت كمادتها قبل
شروق الشمس - وهي تكيل لها لبناً بقرش :

«سمعت الخبر ؟ الزين مو داير يمرّس» .

وكاد الوعاء يسقط من يدي آمنة. واستغلت حليلة انشغالها
بالنبا ففشتها اللبن .

كان فناء المدرسة «الوسطى» ساكناً خاوياً وقت الضحى،
فقد اوى التلاميذ الى فصولهم. وبدأ من بعيد صبي يهرول لاهث
النفس، وقد وضع طرف رداءه تحت ابطه حتى وقف امام باب
«السنة الثانية» وكانت حصة الناظر .

«يا ولد يا حمار . ايه اخّرك ؟»

ولم المكر في عيني الطريفي :

«يا فندي سمعت الخبر ؟»

«خبر بتاع ايه يا ولد يا بهم ؟»

ولم يزعزع غضب الناظر من رباطة جأش الصبي، فقال وهو
يكم ضحكته :

«الزينة ماشي بمقدور له يمد باسكر» .

وسقط حنك للتناظر من القنشة وبخا الطرمي .

وفي السوق اقبل عبد الصمد على دكان شيخ علي ، محتلم الوجه ، ليس ثمة ادنى شك في انه غضبان . كان له على شيخ علي ، ثاجر المماري ، دين ما طله عليه شهراً كاملاً - وقد قرر ان يخلصه منه ذلك اليوم ، بالخير او بالشر .

« علي . أنت يعني قابل انا ما بخلص قروشي منك ، ولا فكري شنو ؟ »

« حاج عبد الصمد . كدى قول بسم الله واقعد نجيب لك فنجان جبنة » .

« يا زول جبنتك طايره عليك ، قوم افتح الخزانة دي ادني قروشي ، ولا كان ان بقيت ما بي ضمة كان فهمي » .

وبصق شيخ علي « السنة » من فمه .

« كدى اقعد الحمد لك بالخبر دا » .

« يا زول انا مو فاضي لك ولا فاضي لي خيرائك . باقي انا عارفك مستهبل داير تطربش علي قروشي » .

« بين قروشك حاضرات . كدى اقعد انحكبك حكاية عرس الزين »

« قست عرس منو ؟ »

« عرس الزين » .

وجلس عبد الصمد ووضع يديه على رأسه وظل صامتا
برهة، وشيخ علي ينظر اليه مفتبطاً بالآثر الذي أحدثه. وأخيراً
وجد عبد الصمد ما يقول :

هـاي لا اله لا اله محمدأ رسول الله. عليك الرسول يا شيخ
علي دار حديث شئودا ؟ ،

ولم يخاص عبد الصمد دينه في ذلك اليوم .



ولما انتصف النهار كان الخبر على فم كل واحد . وكان
الزين على البئر في وسط البلد يلاً اوعية النساء بالماء ويضاحكن
كمادته . فتجهر حوله الاطفال ، وأخذوا ينشدون «الزين
عرس ... الزين عرس » . فكان يرميهم بالحجارة ، ويمر فوب
فتاة مرة ، ومرة يهز امرأة في وسطها ، ومرة يقرس اخرى
في فخذها ، والاطفال يضحكون ، والنساء يتصارخن ويضحكن
وتعلو فوق ضحكهم جميعاً الضحكة التي اصبحت جزءاً من
البلد منذ ان ولد الزين .

يولد الاطفال فيستقبلون الحياة بالصريخ ، هذا هو المعروف
ولكن يروى ان الزين ، والمهدة على امه والنساء اللاتي حضرن
ولادتها ، اول ما مس الارض ، انفجر ضاحكا . وظل هكذا
طول حياته . كبر وليس في فمه غير سنتين ، واحدة في فكه
الاعلى والاخرى في فكه الاسفل . وامه تقول ان فمه كان مليئا
بأسنان بيضاء كاللؤلؤ . ولما كان في السادسة ذهبت به يوما
لزيرة قريبات لها ، فمرا عند مغيب الشمس على خراية يشاع
انها مسكونة . وفجأة تسر الزين مكانه واخذ يرتجف كمن
حس ، ثم صرخ . وبعدها لزم الفراش اباما . ولما قام من مرضه
كانت اسنانه جميعا قد سقطت ، الا واحدة في فكه الاعلى ،
واخرى في فكه الاسفل .

كان وجه الزين مستطيلاً ، فأتىء عظام الوجنتين والفكين
وتحت العينين . جبهته بارزة مستديرة ، عيناه صغيرتان محمردان
دائماً ، محجراهما غائران مثل كهفين في وجهه . ولم يكن على
وجهه شعر إطلاقاً . لم تكن له حواجب ولا اجفان ، وقد بلغ
مبلغ الرجال وليست له لحية أو شارب .

تحت هذا الوجه رقبة طويلة . (من بين الألقاب التي أطلقها
للصبيان على الزين «الزرافة») . والرقبة تكف على كفتين
قويتين تنهدلان على بقية الجسم في شكل مثلث . الذراعان
طويلتان كذراعي القرد . اليدان غليظتان عليها أصابع
مسحوبة تنتهي بأظافر مستطبة حادة (فالزین لا يقلم أظافره
أبداً) . الصدر مجوف ، والظهر محدودب قليلاً ، والساقان
رقيقتان طويلتان كساقى الكركي . أما القدمان فقد كانتا
مفرطحتين عليها آثار ندوب قديمة (فالزین لا يحب لبس الأحذية
والزین يذكر قصة كل جرح من هذه الجروح . مثلاً هذا الشلخ
الطويل على القدم اليمنى ؛ الممتد من الرسغ على ظاهر القدم
إلى الفرجة بين الأصبع الأولى والثانية . يحكي الزين قصته
فيقول : « الجرح دا يا جماعة ليه حكاية » ويستفزه محبوب
قائلاً : « حكاية شنو يا عوير ؟ يا مشيت تسرق ضربوك بي
غصن شوك » . ويقع هذا موقعاً حسناً في نفس الزين ،
فيستلقي على قفاه ضاحكاً ، ثم يضرب الأرض ببديه ويرفع

رجليه في الهواء ويظل يضحك بطريقته الفذة ، ذلك الضحك
الغريب الذي يشبه نقيق الحمار . وكان ضحكه قد أعدى
الحاضرين جميعاً ، فتحول المجلس إلى قهقهة مدوية . ويثالك
الزين نفسه ، ويمسح بكم ثوبه الدمع الذي سال على وجهه من
الضحك ، ويقول : أي ... أي ... مشيت أسرق .
ويستغزه محبوب من جديد : « شنّ مشيت تسرق آمر تمد ؟
يمكن قتّ داير لك شيتين فاكله » . ويمسح الزين وجهه بيديه
ويعود للضحك من جديد . ويرجع الحاضرون أن الزين دخل
بيتاً ليسرق طعاماً ، إذ أنه كان معروفاً بالنهم ، إذا أكل
لا يشبع . وفي الأعراس حين تأتي « سُفر » الطعام ويتحلق
الناس حلقات يأكلون ، يتحاشى كل فريق أن يجلس الزين
معه ، إذ أنه حينئذ يأتي في لمح البصر على كل ما في الآنية ،
ولا يترك أكلًا لا كل . وقال له عبد الحفيظ : « ماكّ طاري
العملة المملتها وقت عرس سعيد ؟ » وأجاب الزين وهويقهقه :
« أيّ طاري ... عليك أمان الله الأكل وكتّ أكلته عدمته
الحبّة إن كان موجني اسماعيل مقطوع الطاري لحقي » . كان
الزين قد أوكل بنقل الطعام في عرس سعيد فكان يمشي جيئة
وذهاباً بين « الديوان » حيث اجتمع الرجال و « التُكل »
في داخل البيت حيث تقوم النسوة بالطهي . وفي الطريق من
التُكل إلى الديوان كان الزين يتمهل قليلاً ويأكل ما طاب له
الأكل من الرعاء الذي يحمله ، وحين يصل به إلى الناس يكاد

يكون خالياً . وفعل ذلك ثلاث مرات حتى لفت إنتباه أحد اسماعيل ، فتابعه حتى وقف في نصف الطريق ، ورفع النطاء عن صينية مملوءة بالدجاج المحمر . وما أن أمسك الزين بدجاجة منها وقربها إلى له ، حتى هجم عليه احد اسماعيل وأشبعه ضرباً . وسأله محبوب مرة أخرى : « ما تقول لنا يا فخر مشيت تسرق شنو ؟ » . ولما لاحظ الزين ان الناس حوله قد أرهفوا آذانهم ، اعتدل في قعدته ووضع ذراعيه بين ركبتيه وقال « الصيف الفات وقت حسن المريق ... كنت متأخر في الساقية ، الدنيا بازول كان القمر يلجلج . وميت قوبي فوق كنفني وجيت سادر للبيوت . أقول لك وكنت وصلة الرمة المندطرف الحلة ، اسمع لك حسن زغاريت ... » وقاطعه محبوب : « اي صدق . دا كان عرس بكري » . واستمر الزين : « أقول لك يا زول قت امشي اشوف الحكاية شنو . ألهري ناس غسريق الطلحة سارين العرس . مشيت لقيت القيامة قايمه . الزويطة والزمبليطه والدلايلك والزغاريت . أول شي مشيت أهيش ان كان ألقى لي شيتن آكله .. »

وانفجر المجلس بالضحك ، فقد كان ما قدروا .. « الحريم في التنكل أدني لحيات أكلتها ، وأدني شيتن عر شريته » .

وقال محبوب : « يبقى دا عرقى آ مسجّم » .

وقال الزين : « لا . مسو عرقى قال لك أنا العرقى ما
بعرغوا.. اقول لك آزول الشى الثربتة دا طار لي في راسي.
بمدين مر تحت من التكل . دخلت بيت ، القالك كشة حريم
والارباح والعلكه والمحب ما يدريك الدرب .. علي بالطلاق
آزول الريحه سكرتني »

وضحك عبد الحفيظ: «وين المره البطلقها مع الرجال؟» لم
يعبأ الزين بهذا، ولكنه استمر يحكي في القصة وقد اخذته الفسوة
« وفي الوسط القالك العروس. بنيتن سميحة مكبرنة ومدخنة
وملبستها فركا ترمصيص . وهنا صمت الزين وادار عينيه
للصغيرتين في وجوه الحاضرين، وفمه مفتوح وقد برز سنائه. ولم
يقو محبوب على الصبر ، فأخذ يستعنه ان يكمل القصة :
« بمدين شن سويت ؟ »

١ « بمدين نطيب على العروس » .

وحين قال هذا قفز من مكانه كالضفدعة. وضع الحاضرون
وانفجر الزين في الضحك واستلقى على بطنه وراح يضرب
برجليه في الهواء. ثم انقلب على ظهره وقال وهو ما يزال يشق
بالضحك : « مسكت الشافعة عضيتها في خشمها » . وتشهد

محجوب واستغفر. « اقول لك يا زول الخريم طلقن الكواريك
والبيت فار والشاقة العروس بقت تصرخ. وما القا لك الا زول
ضرب كرامي بي سكين. اقول لك قت يا مين مسكتها فريت
جربه لا من وصلت اهلي. » وفجأة استوى الزين جالساً وظهر
على وجهه جد بالغ ، وقال بوجه حديته لمحجوب : « اسمع يا
زول . انت داير تعرّس لي بتك علوية ولا عندك كلام ؟ »
فأجابه محجوب بحذر وحزم كأنه يعني ما يقول : « البت انا
مضيتها ليك . مدحين قدام الناس الحاضرين ديل بعد تحش
قمحك وتلم تمرك وتبيعه وتحضر القروش يحيي نعتد لك . هذا
الوعد ارضى الزين، وصمت برهة وقد قطب حاجبيه وزم شفتيه
وكانه قد اخذ يفكر في مستقبل حياته مع علوية ومسؤولية
القيام باعباء زوجة واطفال. وقال : « خلاص. اشهدوا يا
خوانا . الرجل دا مرقت منه كلمة ، باكر بعد باكر ما يحيي
يفكر ، وقال الحاضرون جميعاً ، احمد اسماعيل ، والطاهر
الرواسي ، وعبد الحفيظ ، وحمد ود الرئيس ، وسعيد صاحب
الدكان، قالوا انهم شهود على الوعد الذي قطعه محجوب وان
الزواج سيتم بأذن الله .

قصة حب الزين لعلوية ابنة محجوب كانت آخر قصة حب
له . بعد شهر او شهرين سيسأماها ويبدأ قصة جديدة .
لكنه في الوقت الحاضر مشغول بها ، يصحو وينام على ذكرها
تجده في الحقل في منتصف النهار، عنياً على «طوريته» والعرق

يتصبب من وجهه ، وفجأة يكف عن الحفر ويقول بأعلى صوته :
« انا مكتول في حوش محجوب » . وفي الحقول المجاورة يكف
عشرات الناس عن حفر الأرض برهة حين يسمعون نداء الزين .
الشبان يضحكون ، وبعض الشيوخ الذين يضيّقون أحياناً بعبت
الزين يهمهمون بتبرم : « الولد المطرطش دا يرغي يقول شنو؟ »
وحين ينتهي العمل في الحقل عند المغيّب ويتراوح القوم إلى بيوتهم
يمشي الزين من الحقل إلى البيت وسط زفة كبيرة من الشبان
والصبيان والفتيات الصغار ، يتضاحكون من حوله ، وهو يختال
مزهوا بينهم ، يضرب هذا على كتفه ، ويقرص هذه في خدها
ويقفز في الهواء قفزات ، وكلما رأى شجيرة طلع على قارعة
الطريق نط فوقها ، وبين الحين والحين يصيح بأعلى صوته ،
صياحاً يتردد في أرجاء القرية التي غربت عليها الشمس :
« ارروك ... يا ناس الفريق ... يا اهل الحلة ... انا مكتول
في حوش محجوب ... »



قتل الحب الزين اول مرة وهو حدث لم يبلغ مبلغ الرجال
كان في الثالثة عشرة او الرابعة عشرة ، نحيلاً هزيلاً كأنه عود يابس .
ومها قال الناس عن الزين ، فأنهم يعترفون بسلامة ذوقه ، فهو
لا يحب الا اروع فتيات البلد جمالاً واحسنهن ادباً واحلاهن
كلاما . كانت عزة ابنة العمدة في الخامسة عشرة من عمرها
وقد تفتح جمالها فجأة كما تتفتح النخلة الصبية حين يأتيها الماء
بعد الظمأ . كانت ذهبية اللون مثل حقل الحنطة
قبيل الحصاد ، وكانت عيناها واسعتين سوداوين في
وجه صافي الحسن ، دقيقتي الملامح ، ورموش عينيها طويلة
سوداء ، ترفعها ببطء فيحس الناظر اليها بوخز في قلبه . وكان
الزین أول من نبه شبان البلد إلى جمال عزة . ارتفع صوته فجأة
ذات يوم في جمع عظيم من الرجال نفرم العمدة لأصلاح حقله .

ارتفع صوته المبحوح الحاد ، كما يرتفع صوت الديك عند طلوع
الفجر : « عوك' يا أهل الحلة . يا ناس البلد . عزه بنت العمدة
كاتلاها كتيل . الزين مكتول في حوش العمدة . » وفوجيء
الناس بتلك الجرأة ، والتفت العمدة بعنف ناحية الزين وقد تحرك
غضب غريزي في صدره . وفجأة كأنما الناس كلهم ، في آن
واحد ، أدركوا التباين المضحك بين هيئة الزين ، وهو واقف
هنالك كأنه جلد معزة جاف ، وبين عزه بنت العمدة ، فأنقجعروا
ضاحكين كلهم في آن واحد . ومات الغضب في صدر العمدة .
كان جالساً على مقعد تحت ظل نخلة ، يحمر العينين ، منتفض
الشاربين ، يحث القوم على العمل . كان رجلاً مهيباً جاداً قل أن
يضعك ، بيد ان هذه المرة قد ضحكك من قول الزين ، ضحكته
الحشنة المفرقة ، وصاح به : « الزين .. ان بقيت اشتغلت
شديد الليلة ، نعرس لك عزة . » وضحك القوم مرة اخرى
بجارية للعمدة ، ولكن الزين ظل صامتاً . وعلى وجهه جد
واهتمام ، ودون ان يشعر وجد ضربات معوله في الارض تزداد
قوة وتتابعاً .

ومضى شهر بعد ذلك والزين لا حديث له إلا حبه لعزة
وان اباه وعدة بزواجها . وقد عرف العمدة كيف يستغل
هذه العاطفة ، فسخر الزين في أعمال كثيرة شاقة يعجز عنها
الجن . كنت ترى الزين العاشق يحمل جوز الماء على ظهره في

عز الظهر، في حر تثن منه الحجارة، مهرولاً هنا وهناك، يستقي
جنيئة العمدة. وتراه ماسكاً بفأس أضخم منه يقطع شجرة أو
يكسر حطباً . وتراه منهمكاً يجمع العلف لخمير العمدة وخيله
وعجوله. وحين تضعك له عزة مرة في الاسبوع، لاتكاد الدنيا
تسمه من الفرح . وما ان مضى شهر ، حتى شاع في البلد ان
عزه خطبت لابن خالها الذي يعمل مساعداً طيباً في ابر عشر
ولم يثر الزين ولم يقل شيئاً . ولكنه بدأ قصة جديدة.

استيقظت البلد يوماً على صياح الزين : انا مكتول في
فريق القوز ،: وكانت ليلاه هذه المرة فتاة من البدو الذين
يقيمون على اطراف النيل في شمال السودان، يفدون من أرض
الكبابيش ودار حر ومضارب الهوادر والمريصاب في كردفان
يشح الماء في اراضيهم في بعض المواسم ، فيفدون على النيل
بأبلهم وأغنامهم طلباً للري . واحياناً تلم بهم سنوات قحط حين
تضن السماء بالمطر ، فيتساقطون على المناهل في ديار الشايقية
والبديرية المقيمين على النيل . اغلبهم لا يلبثون حتى تنكشف
الغمة ثم يعودون من حيث أتوا . ولكن بعضاً منهم كانت
تستودعهم حياة الاستقرار على وادي النيل، فيبقون. ومن هؤلاء
عرب القوز. ظل هؤلاء البدو سنوات طويلة يرابطون على طرف
الأرض المزروعة ، يبيعون اللبن ، ويرعون الغنم ، ويحلبون
حطب الوقود، وفي موسم حصاد التمر يجمعونه لأصحابه مقابل
أجر قليل . لا يتزوجون مع السكان الأصليين ، فهم يعتبرون

أنفسهم عرباً خلصاً، وأهل البلد يعتبرونهم بدواً اجلافاً. ولكن
الزّين كسر هذا الحاجز . كان لا يستقر في مكان ، ما يزال
سحابة نهاره سائحاً في البلد من اقصاها إلى اقصاها . وحلته
قدماه يوماً إلى فريق القوز لغير سبب . فصام حول البيوت
كأنه يبحث عن شيء ضاع منه . وخرجت فتاة راع الزّين
جالها فتسمر في مكانه. وكالت الفتاة قد سمعت به، فإن شهرته
وصلت حتى عرب القوز . فضحكت له وقالت تمسّبت به :
« الزّين ، بتعرّسي ؟ » وتبكم برهة ، فقد فتنه جمال الفتاة
وأخذته حلاوة حديثها، لكنه ما لبث ان صاح بأعلى صوته :
« واكتلتي ياناس » . وامتدث رؤوس كثيرة من ابواب البيوت
وبين فرجات الخيام . وصاحت ام الفتاة : « حليمه الموقفك
شنو مع الدرويش دا ؟ » وهب اخوان الفتاة على الزّين ، ففر
منهم . ولكن حليمه ، حسناء القوز ، اصبحت فيما بعد هوسا
عنده ، لم يفارقه الى أن تزوجت الفتاة. فقد تسمع الناس بها
وجاء كثيرون من اثرياء البلد وشبانها المرموقين ووجهائها
يخطبونها من ابوها . وتزوجها آخر الامر ابن القاضي .



كان زواج بنت العمدة وزواج حليلة نقطة تحول في حياة الزين . فقد فطنت امهات البنات الى خطورته ، كبوق يدعين به لبناتهن . فيجتمع محافظ ، تحجب فيه البنات عن الفتيان ، اصبح الزين رسولا للحب ، ينقل عطره من مكان الى مكان . كان الحب يصيب قلبه اول ما يصيب ، ثم ما يلبث ان ينتقل منه الى قلب غيره ، فكأنه سمسار او دلال او ساعي بريد . ينظر الزين بعينيه الصغيرتين كميني الفار ، القابعتين في محجرين غائرين ، الى الفتاة الجميلة ، فيصيبه منها شيء - لعله حب ؟ وينوء قلبه الابلم بهذا الحب ، فتحمله قدماه النحيلتان الى اركان البلد ، يجري ها هنا وها هنا كأنه كلبة فقدت جراءها ، ويلهج لسانه بذكر الفتاة ويصبح باسمها حينما كان ، فلا تلبث الاذان ان ترهف ، وما تلبث العيون ان تنتبه . وما تلبث يد فارس من بينهم ان تمتد فتأخذ يد الفتاة . وحين يقام العرس ، تفتش عن الزين ، فتجده اما مسخرا يملأ القلل والازيار بالماء او واقفاً في منتصف الساحة عاري الصدر ، في يده فأس يكسر به الحطب او بين النساء في المطبخ يماشنهن ، ويعطينه من آن لآخر قطعة من الطعام يملأ بها فمه ، وما يفتأ يضحك ضحكته التي تشبه نهيق الحمار . وتبدأ قصة حب أخرى ... وكان الزين يخرج من كل قصة حب كما دخل ، لا يبدو عليه تغيير ما . ضحكته هي هي لا تتغير ، وعشه لا يقل بحال ، وساقاه لا تكلان عن حمل جسمه الى اطراف البلد .

ووفدت على الزين سنوات خصب ، مفعمة بالحب . فقد
اصبحت امهات البنات يخطبن وده ويستدرجنه الى البيوت
فيقدمن له الطعام ، ويسقينه الشاي والقهوة . يدخل الزين الدار
من تلك الدور ، فيفرش له السرير ، ويقدم له الفطور او الغداء
صينية واوان ، ويؤتى بعد ذلك بالشاي السادة بالنعناع اذا كان
الوقت ضحى ، والشاي الثقيل باللبن اذا كان الوقت عصراً . وبعد
الشاي يؤتى بالقهوة بالقرفة والحبهان والجوزبيل ، سواء كان
الوقت ضحى او عصراً . وما يسمع النساء أن الزين في دار قريبة
حتى يتقاطرن عليه . فهن يستلطفن عبثه . وتحث الامهات
بناتهن ان يحثن ويسلمن عليه . والسعيدة منهن من تقع في قلبه
موقماً ، والتي يخرج واسمها على فمه . تلك الفتاة تضمن زوجها في
خلال شهر او شهرين . ولعل الزين ، بفطرة فيه ، ادرك خطورة
مركزه الجديد ، فاصبح يتدلل على امهات البنات ويتردد قبل
ان يجيب دعوة احدهن للافطار او للغداء .

كل هذا وفي الحى فتاة واحدة لا يتحدث الزين عنها ، ولا
يعتب معها . فتاة تراقبه من بعد بعيون حلوة غاضبة ، كلما
راها مقبلة يصمت ويترك عبثه ومزاحه ، واذا رآها من بعد فرّ
من بين يدها وترك لها الطريق .



وروجت أم الزين أن ابنها ولي من أولياء الله . وقوتى
هذا الاعتقاد صداقة الزين مع الحنين . كان رجلاً صالحاً منقطعاً
للمعاشة . يقيم في البلد ستة أشهر في صلاة وصوم ، ثم يحمل أبقه
ومصلاته ويضرب مصعداً في الصحراء ، ويغيب ستة أشهر ،
ثم يعود ، ولا يدري أحد أين ذهب . ولكن الناس يتناقلون
قصصاً غريبة عنه . يحلف أحدهم أنه رآه في مروي في وقت
معين ، بينما يقسم آخر أنه شاهده في كرمه في ذلك الوقت نفسه
- وبين البلدين مسيرة ستة أيام . ويزعم أناس أن الحنين يجتمع
برفقة من الأولياء السائحين الذين يضربون في الأرض يتعبدون
والحنين قلماً يتحدث مع أحد من أهل البلد ، وإن سئل أين
يذهب ستة أشهر كل عام ، لا يجيب . ولا أحد يدري ماذا
يأكل وماذا يشرب ، فهو لا يحمل زاداً في أسفاره الطويلة .

ولكن في البلد انساناً واحداً يأنس اليه الحنين وهش له ويتحدث معه -ذلك هو الزين. كان إذا قابله في الطريق عاتقه وقبلة على رأسه ، وكان يناديه « المبروك » . وكان الزين ايضاً إذا رأى الحنين مقبلاً، ترك عبته وهذره وأصرع اليه وعاتقه. ولم يكن الحنين يأكل طعاماً في بيت أحد، إلا دار اهل الزين يسوقه الزين معه إلى أمه ويأمرها بصنع الغداء أو الشاي أو القهوة. ويظل الزين والحنين ساعات في ضحك وكلام. ويحاول أهل البلد ان يعرفوا من الزين سر الصداقة التي بينه وبين الحنين فلا يزيد على قوله : « الحنين راجل مبروك » .

كانت للزين صداقات عديدة من هذا النوع ، مع اشخاص يعتبرهم أهل البلد من الشواذ ، مثل عشانة الطرشاء ، وموسى الاعرج، وبخيت الذي ولد مشوهاً، ليست له شفة عليا ،جنبه الايسر مشلول . كان الزين يحنو على هؤلاء القوم ، إذا رأى عشانة قادمة من الحقل وعلى رأسها حمل ثقيل من الحطب حمله عنها، وهش لها وداعبها . كانت فتاة تخاف من كل أحد ، إذا صادفت امرأة أو رجلاً في طريقها أرتمت وفزعته ، كأنهم وحوش مفترسة ، ولكنها كانت تأنس للزين وتضحك له ضحكتها البكماء المحزنة التي تشبه صياح الدجاج . وموسى الذي لا يذكر الناس ائمه ولكنهم يسمونه الاعرج ، رجل طاعن في السن، حين تراه مقبلاً يتفطر قلبك من كثرة ما يعاني في مشيه، الحياة بالنسبة له طريق متعب شاق كان عبدأرقيقاً

لرجل موسر في البلد ، ولما منحت الحكومة الرقيق حريتهم ،
آثر موسى أن يبقى مع مولاه . كان مولاه شغوفاً به يحبه ويبره
ويعامله معاملة الابن . ولما توفي آلت الثروة الى ابن سفيه ، فبددها
وطرد موسى . وأدركته الشيخوخة وهو معدم لا أهل له ، ولا
احد يعنيه أمره . فعاش على حافة الحياة في البلد ، كما تعيش
بعض الكلاب المجوزة الضالة ، التي تأوي الى الخرابات في الليل .
وقبعت عن القوت نهاراً في فجوات الحبي ، يتعشر بها الصبيان .
عطف الزين على هذا الرجل ، وبني له بيتاً من جريد النخل
وأعطاه معزة ملبنة . كان يأتيه في الصباح فيسأله كيف بات
ليه ، ويأتيه بعد غروب الشمس ، مائلاً جيوبه بالتمر ، وثوبه
منتفخ بالطعام ، فيلقيه بين يديه . وأحياناً يحىء ومعه وقية
شاي أو رطل سكر أو شيء من البن . وتسال موسى الاعرج
عن الصداقة التي بينه وبين الزين فيقول لك وفي عينيه غشاوة من
الدمع : « الزين حبابه عشرة ، الزين ود حلال » . ويرى اهل
البلد هذه الاعمال من الزين فيزداد عجبهم . لعله نبي الله الخضر
لعله ملاك انزله الله في هيكل آدمي زري ، ليزكر عباده ان
القلب الكبير قد يخفق حتى في الصدر المحوف والسمت المضحك
كصدر الزين وسمنه . وبعضهم يقول : « يضع سره في اضعف
خلقه » . ولكن صوت الزين لا يلبث ان يرقع منادياً : « يا
أهل الفريق ... يا ناس الحلة انا مكتول » . فتتحطم هذه
الصورة ، وتعود صورة الزين التي يألفها الناس ويؤثرونها .

كل هذا وفي الحى صبية حلوة ، وقسورة الحيا ، غاضبة
المينين ، راقب الزين في عبث ومزاحه ومزاره . وجدته يوماً
في مجموعة من النساء يضاحكن كعاده ، فانتهرته قائلة : « ما
تخلي الطرطش والكلام الفارغ تمشي تشوف أشغالك؟ » وحدجت
النساء بعينيها الجملتين . سكت الزين عن الضحك وطأ طأ رأسه
حياء ثم انسل بين النساء ومضى في سبيله .



لم تصدق آمنه أذنيها . وسألت حليلة بائعة اللبن ، للمرة العاشرة : « فتى داير يمرّس منو ؟ » وللمرة العاشرة قالت حليلة : « نعمة » . مستعيل . لا بد ان الفتاة فقدت عقلها . نعمة تزوج الزين ؟ واختلطت الدهشة في صدر آمنة بالغضب وتذكرت بوضوح ذلك اليوم قبل شهرين حين بلعت كرامتها وتحاملت على نفسها وذهبت إلى أم نعمة . كانت قد حلفت ألا تكلم سعدية بمدد ذلك في حياتها ، فقد توفيت أم آمنة وجاء نساء البلد جميعاً يعزينها إلا سعدية . ولم تهتم آمنة ان سعدية كانت غائبة عن البلد في الوقت الذي توفيت فيه أمها . كانت مريضة في المستشفى في مروي حيث ظلت طريحة الفراش شهراً كاملاً وحين عادت من مروي جاءت النساء جميعاً يستفسرن عن صحتها ، إلا آمنة . وانقسم النساء فريقين ، فريق يخطيء سعدية

ويقلن ان الواجب كان يحتم عليها ان تبدأ آمنة بالزيارة، فالموت أكبر من المرض . وفريق من النساء يتحزب لسعدية، ويقلن ان أم آمنة بلغت أُرذل العمر على أي حال، والحلي خير من الميت وزاد اللفظ وتعقدت المشكلة ، وأصرت كل من المراتين على رأيها ، واصبحت آمنة لا تكلم سعدية وسعدية لا تكلم آمنة . حتى قبل شهرين ، حين أصر ابن آمنة عليها ان تذهب وتخطب نعمة . وبلغت المرأة كرامتها وتحاملت على نفسها ودخلت على سعدية في دارها، وقت الضحى ، وعلى النار قهوة تفلي ، وعلى المائدة فناجين وسكر وأشياء استقبلتها سعدية استقبالا فاترا، وعرضت عليها القهوة بصوت بارد ، فرفضت آمنة ، ولم ترد سعدية . لم تحلفها ولم تخصصها . لم تقل لها : « الرسول يتعرض لك الذي عليك . الله يهديك تشربي القهوة » . لم ترد على جملة واحدة . وتطلبت آمنة شجاعة كبيرة، لكي تحدث سعدية في موضوع ابنها احمد، ونعمة إننة سعدية . عرقت وجفت وبلغت ريقها، واخيراً قالت في صوت مرتعش، وهي في داخلها تلعن ابنها الذي عرضها لكل هذا الاحتقار : « سعدية اخي . انا كنت حالفه ثاني الحياة ولا المات ما يحبيني ليكي . بحال انت من دون الناس كلهم ابيني تجي تعزيني في امي . لكن برضه المؤمن سامح ... دحيني يا خني انا عاقلالك . الغرض الجاني ليكي حصح ، الشيء الجيتك من شانه ، احمد ولدي . ابو احمد وانا عندنا رغبة في نعمة لي احمد » . ولما فرغت من حديثها، شعرت بلسانها كقطعة من الخشب في فمها وأحست بملقها قد تقلص

فتنحنت مرتين وارتعشت يداها . ولم تقل سعدية شيئاً . لو
أنها فاهت بكلمة واحدة لهذا روع آمنة قليلاً . حدة دائماً
تشعرها بأنها أقل منها شأنًا . أنها امرأة جميلة نبيلة الملامح
والسلوك ، تحس وأنت تنظر الى وجهها الوقور السمح بثروة
أخوانها السبعة ، وأملاك أبيها الواسعة ، ونخل زوجها وشجره
وبقره ومواشيه التي لا يحصيها العد . هذه المرأة لها أولاد ثلاثة
تعملوا في المدارس واشتغلوا في الحكومة . ولها بنت جميلة بتطلع
اليها الفتيان ، والناس يذكرونها بالخير . هذه المرأة التي تجاوزت
الاربعين وهي تبدو كفتاة عذراء ، هذه المرأة القليلة الكلام ،
لماذا لا تقول شيئاً ؟ واخيراً رفعت سعدية أهداب عينيها الطويلة ،
ونظرت إلى آمنة نظرة لم تفهما . لم يكن فيها غضب أو حقد
أو عتاب أو ود . وقالت بصوتها الهادئ الذي لا يهتز ولا
يثور : « إن شاء الله خير . طبعاً الشورى عند ابو البت . وقت
يحي نكله » . تذكرت آمنة كل هذا ، وتذكرت كيف انهم
رفضوا بعد ذلك ، متذرعين بأن نعمة ما تزال قاصراً لم تصر
للزواج بعد . والآن يزوجونها للزین- هذا الرجل الهبل الفشم
يزوجونها للزین دون سائر الناس . وشعرت آمنة كأن في الأمر
إساءة موجهة اليها شخصياً ، عن عمد . وارتفعت حليلة بائمة

اللبن حين لاحظت عيني آمنة لتسمان بالغضب . وحسبت ان
آمنة أدركت انها غشتها اللبن . فزادته وقالت لآمنة : دكان
ماكي ما زيادة عشان ما توهلي ، .

تتابع العوام ، عام يتلو عاماً ، ينتفخ صدر النيل ، كما
يمتلئ صدر الرجل بالغبط . ويسيل الماء على الضفتين ، فيغطي
الأرض المزروعة حتى يصل إلى حافة الصحراء عند أسفل البيوت
تنق الضفادع بالليل ، وتهب من الشمال ريح رطبة مغمسة بالندى
تحمل رائحة هي مزيج من أريج زهر الطلح ورائحة الخطيب
المبتل ورائحة الأرض الخصبة الظمأى حين ترتوي بالماء ورائحة
الأسماك الميتة التي يلقيها الموج على الرمل . وفي الليالي المقمرة
حين يستدير وجه القمر ، يتحول الماء إلى مرآة ضخمة مضئنة
تتحرك فوق صفحتها ظلال النخل وأغصان الشجر . والماء يحمل
الأصوات إلى أبعاد كبيرة ، فإذا أقيم حفل عرس على بعد ميلين
تسمع زغاريد و دق طبوله وعزف طنايبه ومزاميره كأنه إلى

يمين دلرك . ويقتبس النيل الصعداء ، وتسليق ذات يوم فإذا
صدر النيل قد هبط وإذا الماء قد انحسر عن الجانبين، يستقر في
مجرى واحد كبير يمتد شرقاً وغرباً، تطلع منه الشمس في الصباح
وتغسل فيه عند المغيب . وتنظر فإذا أرض ممتدة ريانة ملساء
ترك عليها الماء دروباً رشيقة مصقولة في هروبه إلى مجراء الطبيعي .
رائحة الأرض الآن تملأ أنفك ، فتذكرك برائحة النخل حين
يتبهاً القحاح . الأرض ساكنة مبتلة، ولكنك تحس أن بطنها
ينطوي على سر عظيم . كأنها امرأة عارمة الشهوة تستمد
للاقاء بعطها . الأرض ساكنة ولكن احشائها تضج بماء دافق، هو
ماء الحياة والخصب . الأرض مبتلة متوثبة، تنبهاً للعطاء . ويطمئن
شيء حاد احشائها الأرض . لحظة نشوة والموعطاء . وفي المكان
الذي طمن في احشائها الأرض، تتدفق البذور . وكما يضم رحم
الأنثى الجنين في حنان ودفء وحب، كذلك ينطوي باطن
الأرض على حب القمح والذرة واللوبياء . وتتشقق الأرض
عن نبات وثمر .

تذكر نعمة وهي طفلة ان النساء كن اذا جئن لزيارة امها
كن يجلسنها على حجورهن ، ويمسحن بايديهن على شعرها الخيزر
المتهدل على كتفها ، ويقبلنها على خدها وشفتها ويدغدغنها ،
ويضممنها الى صدورهن . وكانت تمقت ذلك ، وتتلوى في
اذرعهن ، ومرة ضجرت من عبث امرأة بدينة بها ، وشعرت
بذراعي المرأة الفليظتين تنطبقان عليها ، كأنها فكا حيوان
مفترس ، وبرد في المرأة المثقلة وعطرها القوي ، كأنها تحنقها .
وتلملت نعمة وحاولت ان تتخلص من قبضة المرأة . ولكن المرأة
ضمتها الى صدرها بقوة وانقضت على وجهها بشفتيها المكتنزتين
تقبلها على رقبتها وعلى خدها ، وتشمها . صفعتها نعمة على وجهها

صفعة قاسية . وذعرت المرأة وانفك ذراعاها وأنفلتت نعمة
وتركت الغرفة . ولما كبرت ولم تعد طفلة ، أصبحت
رؤوس النساء والرجال على السواء تلتفت إليها ، حين تمر بهم في
الطريق . لكنها لم تكن تأبه بلهاها . وتذكر ايضاً كيف
ارغمت اباهان يدخلها في الكتاب لتتلم القرآن . كانت الطفلة
الوحيدة بين الصبيان . وبعد شهر واحد تعلمت الكتابة ، وكانت
تستمع الى صبيان يكبرونها يقرأون سوراً من القرآن ، فاستقر
في ذهنها . واقبلت على القرآن ، تحفظه بنهم ، وتستلذ بتلاوته
وكانت تعجبها آيات معينة منه ، تنزل على قلبها كالخبر السار
كانت تؤثر مما حفظته سورة الرحمن وسورة مريم وسورة
القصص ، وتشعر بقلبها يمتصره الحزن وهي تقرأ عن أيوب
وتشعر بنشوة عظيمة حين تصل الى الآية « واتيناها اهلهم ومثلهم
معهم رحمة من عندنا » . وتتخيل رحمة امرأة رائحة الحسن متفانية
في خدمة زوجها ، وتتمنى لو أن اهلها اسموها رحمة . كانت
تحلم بتضحية عظيمة لا تدري نوعها . تضحية ضخمة تؤديها في
يوم من الايام ، فيها ذلك الاحساس الغريب الذي تحسه حين
تقرأ سورة مريم ونشأت نعمة ، طفلة وقورة ، محور شخصيتها
الشعور بالمسؤولية . تشارك امها في اعباء البيت ، وتناقشها في كل
شيء ، وتتحدث الى ابيها حديثاً فاضحاً جريئاً يذهله في بعض
الاحيان . كان اخوها الذي يكبرها بعامين يحثها على مواصلة
التعليم في المدارس ويقول لها : (يمكن تبقي دكتورة ولا
محامية) . ولكنها لم تكن تؤمن بذلك النوع من التعليم . تقول

لاخيا وعلى وجهها ذلك القناع الكثيف من الوقار : (التعلیم
في المدارس كله طرطشة . كفاية القراءة والكتابة ومعرفة
القرآن وفرايض الصلاة) . ويضحك اخوها ويقول : (باكر
يحي ود حلال يعمرسك وتنفك من حججك) . افراد اسرتها
يقولون لها هذا مع احساس بالخوف، فهم يدركون ان هذه الفتاة
الغاضبة اليمينين الوقورة الحياء، تضم صدرها على امر تخفيه عنهم .
ولما بلغت السادسة عشرة بدأت امها تتحدث عن الفتيان الذين
يصلحون ازواجاً لها، الغني والمتعلم والوسيم والذي امه وابوه
يصلحان اصهاراً . ولكن نعمة تهز كنفها ولا تقول شيئاً . ولما
جاءت آمنة الى سمعية تحدثها في امر زواج نعمة من احمدها وقالت
لها سمعية : (الشورى عند ابو البت) كاذت تعلم في قرارة
نفسها ان (الرأي) لا لأحد غير نعمة نفسها . وكان لا بد من
خيارها . فهزت كنفها وقالت : انا لي الليلة ما بقيت للعرس
وكان من العبث مناقشتها، خاصة وأن سمعية لم تكن متحمسة
لأن تصبح حاة لآمنة . لم يمض بعد ذلك وقت طويل حتى ظهر
خطيب آخر: ادريس . فتيات كثيرات في البلد كن يتمنين أن
يصبحن زوجات له، فقد كان متعلماً، يعمل مدرسا في مدرسة
ابتدائية . وكان دمث الأخلاق ، حسن السيرة بين اهل البلد
ومع أن عائلته لم تكن من العوائل ذوات الأصل، التي يشار اليها
في البلد، إلا أن أباه كون لنفسه مكانة بين الناس بحجده وحسن
عشرته . كانت اسرة طيبة ميسورة الحال . وكان حاج ابراهيم
والد نعمة ، وامها سمعية ، واخوانها الثلاثة ، يميلون إلى قبول

ادريس . بيد أن نعمة كان لها رأي غير ذلك . هزت كتفها وقالت : (ما بدوره) . واحتد حاج ابراهيم في كلامه معها وهم بصنمها . ولكنه توقف فجأة . شيء ما في محيا تلك الفتاة العنيدة قتل الغضب في صدره . لعله تعب عينيها ، لعله التصميم الرزين على وجهها . وكأنما أحس الرجل بأن هذه الفتاة ليست عاقبة ولا متمرده . ولكنها مدفوعة بإيعاز داخلي إلى الإقدام على أمر لا يستطيع أحد ردها عنه . ومن يومها لم يكلمها أحد في أمر الزواج .

وكانت نعمه حين تفرغ إلى نفسها وأفكارها ، وتحظر على ذهنها خواطن الزواج ، تحس أن الزواج سيجيئها من حيث لا تحتسب . كما يقع قضاء الله على عباده . مثل ما يولد الناس ويموتون ويمرضون . مثل ما يبيض النيل ، وتهب العواصف ، ويثمر النخل كل عام ، كما ينبت القمح ويطل المطر وتبديل الفصول كذلك سيكون زراجه ، قسمة قسمها الله لها في لوح محفوظ قبل أن تولد ، وقبل أن يجري النيل ، وقبل أن يخلق الله الأرض وما عليها . لم تكن تحس بفرح أو خوف أو اسى حين تفكر في هذا ، ولكنها كانت تشمر بمؤولية كبيرة ستوضع على كتفها في وقت ما ، قد يكون قريباً ، وقد يكون بعيداً . صاحباتها في الحي ، كل فتاة تشب وفي ذهنها صورة معينة عن الفارس الذي يربط فرسه ذات مساء ساجي الضوء خارج الدار ، ويدخل ويختطفها من بين أهلها ، ويهرب بها بعيداً إلى عوالم سحرية من

السعادة ورغد العيش. أما نعمة فلم ترتسم في ذهنها صورته محدده. كبرت، وكبر معها حب فياض ستسبغه يوماً ما على رجل ما قد يكون الرجل متزوجاً له أبناء، يتزوجها على زوجته الأولى قد يكون شاباً وسيفاً متعلماً، أو مزارعاً من عامة أهل البلد مشفق الكفين والرجلين، من كثرة ما خاض الوحل وضرب بالعمول. قد يكون الزين... وحين يخطر الزين على بال نعمة تحس إحساساً دافئاً في قلبها، من فصيلة الشعور الذي تحسه الأم نحو أبنائها. ويمتزج بهذا الإحساس شعور آخر، بالشفقة. يخطر الزين على بالها كطفل بنم عديم الأهل، في حاجة إلى الرعاية انه ابن عمها على كل حال، وما في شفقتها عليه شيء غريب.



لم تكن أم الزين تبالي أين يقضي الزين ليله، فقد كان كروح
قلقى ليس له مستقر . حيثما أقسم عرس تجدد الزين : في فريق
الطلحة أو عند عرب القوز ، في قبلي أو بحري ، لا يجبه
برد، ولا عاصفة تهب بالليل ، ولا النيل الطامي في موسم
فيضانة . تلتقط أذنه بحساسية نادره زغاريد النساء على بعد
أميال، فيضع ثوبه على كتفه ويهرول كأن شيئاً يجذبه إلى
مصدر الصوت . وأحياناً يسطم النور فجأة من وراء كتمان
الرمل ، حين تعدو السيارات آتية من أمدردمان، فإذا شخص
تحيل يبحث في الرمل يميل يحسمه إلى الأمام قليلاً وعينه تنظران
إلى الأرض ، بحث الخطى متجهاً شرقاً . يرى الركاب الزين
فيعلمون ان ثمة حفل عرس في طرف الحي، فاما صاحوا به حين

يمرون عليه ، واما اوقفوا السيارة وحرشوا به . واحيانا يسير ووراءه كوكبة منهم . وتلتوب زغاريد النساء وتتضح معالمها ويستطيع الزين أن يميز النساء ، أية امرأة زغردت . ثم تبدو الانوار وتبدو اشباح مجتمعة تصعد وتهبط كأنها شياطين في وادي الجن . ثم يظهر الغبار الذي تثيره ارجل الناس في رقصها ، يتشبث بخيوط الضوء . وفجأة يذشق الليل عن نداء يعرفه كل احد : « عوك يا أهل العرس ، ياناس الرقيص ، الزين جا كم » . وإذا الزين قد قفز كالقضاء واستقر في حلقة الرقص . ويفور المكان فجأة ، فقد نفت فيه الزين طاقة جديدة . ومن بعيد يسمع المرء صيحاتهم يرحبون به : « ابشر . ابشر . حبابك عشرة » . وحين تموت أصوات النساء في حلقهن ، وتطفأ الأنوار ، ويتراوح الناس الى دورهم قبيل طلوع الفجر ، يسند الزين رأسه الى حجر أو إلى جذع شجره ، وينام برهة نوماً خفيفاً كنوم الطير . وحين يؤذن المؤذن لصلاة الفجر ، يقفل عائداً إلى أهله ، فيوقظ أمه لتصنع الشاي .

بيد ان المؤذن قد أذن ذات صباح ، ولم يعد الزين . واحمر الأفق الشرقي قبيل طلوع الشمس ، ثم ارتفعت الشمس قدرقامة الرجل ولم يعد الزين . وأحست أم الزين برجفة خفيفة في جنبها الأيسر فلم تستبشر خيراً . إنها تعتقد أن جنبها الأيسر إذا رجف فإن شراً سيلم بها أو بأحد ذويها لا محالة . وممت ان تذهب لمع الزين . ولكنها سمعت حركة عند باب الحوش وسمعت باب

الحوش الكبير بصر، ثم سمعت خبطة قوية، وفجأة رأيت امامها شيئاً مريعاً . فصرخت صرخة سمعها حاج ابراهيم ابو نعمة في رابع بيت وهو جالس على مصلاته يشرب قهوة الصباح امتلأت الدار بالناس رجالاً ونساء وحلوا أم الزين فاقدة الوعي وانشق الناس نصفين ، نصفاً راح مع الأم ، ونصفاً اغلبهم من الرجال التفوا حول الزين . كان على رأسه جرح كبير يصل إلى قريب من عينه اليمنى ، وصدره وثوبه وسرواله ملطخة بالدم . وفقد الناس رشدهم ، واخذ عبد الحفيظ يصيح في الزين وقد احمرت عيناه من الغضب : « كلمنا من عمل فيك العملة دي ؟ مين الكلب المجرم الضربك ؟ » وتصارخت النساء وبعضهن أخذن في البكاء وكانت نعمة تقف عن بعد ، صامتة ، وعيناها مركزتان على وجه الزين ، وقد حل محل الغضب فيها حنو عظيم . وقال حاج ابراهيم : « الحكيم » . وكان للكلمة وقع الماء على النار ، فهدأ عويل النساء ، وصاح محبوب : « الحكيم » ، وصاح عبد الحفيظ : « الحكيم » وانطلق احمد اسماعيل على حماره ليحضره . ولما عاد الزين من المستشفى . في مروي حيث ظل اسبوعين كان وجهه نظيفاً يلمع ، وثيابه بيضاء ناصعة . وضحك فلم ير الناس كما عهدوا سنين صفراوين في فمه ، ولكنهم رأوا صفاً من الأسنان اللامعة في فكه الأعلى ، وصفاً من أسنان كأنها من صدف البحر في فكه الأسفل . وكأنما الزين تحول إلى شخص آخر . وخطر لنعمة وهي واقفة بين صفوف المستقبلين أن الزين في الواقع لا يخلو من وسامة .

وخال الزين بعد ذلك زمناً طويلاً ولا حديث له إلا رحلته
لمروى. كان يلذ له ان يجتمع حوله رفاقه القدامى ، محبوب ،
وعبد الحفيظ ، واحمد اسماعيل ، وحمد ود الرئيس ، والطاهر
الراسي ، وسعيد التاجر ، فيحكى لهم ما جرى له .

« اول ما وصلت يا زول قلعوني هدومي ولبسوني هدوماً
نظاف .. السرير يرقش. الملايات بيض زي اللبن . والبطاطين
والبلاط يزلق الكـراع ... » وقاطمه محبوب متعرجاً :
« خلّك من البطاطين والبلاط . كرشك الكبيرة دي ملوها
ليك بي شنو ؟ » وارتحف فم الزين كأنه مقبل على وليمة :
« هلاّ هلاّ . الأكل في استبالية مروى ولا بلاش . هو عاد
جنس اكل . شيتن سمك شيتن بيض شيتن لحم شيتن دجاج . . .
وقاطمه محبوب مرة اخرى : « الاكل في الاستباليات ماقلوا
شوية؟ كيفن كت بتشبع ؟ » وابتمم الزين ابتسامه كبيرة
مدبرة ، حتى يظهر اسنانه الجديدة : « بحال النمرجية كان
صاحبتي قعد قدام الاكل » . وصاح عبد الحفيظ : « اي لا اله
الا الله .. آمنوح . كان مشيت تتلبس على التمرجيات ؟ »
وارتج جسم الزين بضحك مكثوم : « اي ... اي ... امانة يا
زول مي شافعتن سميحة » . وتدخل ود الرواسي بعد ان كان
يستمع ويضحك دون ان يقول شيئاً : « عليك الرسول ! الزين
كدي وصفها لنا » . والتفت الزين خلفه كأنه يخاف أن يسمعه
أحد ، وخفض صوته : « عليك أمان الله يا زول عليها كبر »

جلّس . . وانقطع حبّس الحديث وقتاً ، فقد ضج المجلس
بالضحك . وحين استجمع حمد ود الرئيس أنفاسه قال ، وما
يزال في صدره بقية من ضحك : « شن سويت معاها آمقطوع
الطاري ؟ » واصل الزين حديثه كأنه لم يسمع هذا السؤال
الأخير : « بليتين سميحة من أمدرمان . مرّها . ماها مشلخه » .
وزحف ود الرواسي قريباً من الزين وأعاد سؤاله بطريقة
أخرى : (أنت شن أوراك كبر صلبها ؟) وقال الزين على
الفور : (قالوا لك أنا عميان ؟ الشي وقت يبقى قدامي ما
بشوفه ؟) وكان محبوب سر من هذا الرد فقال وهو ينظر
إلى ود الرئيس : (الدا هي نجبيض . ساكت قايلنه عويد) .
ووضع الزين يديه خلف رأسه ومال إلى الوراء قليلاً ، ثم قال
ببطء وعلى وجهه ابتسامة خبيثة : (دايرين يا جماعة تعرفو
شن سويت لها ؟) وقال ود الرئيس بلهفة : (الرسول آ الزين
حدثنا شن سويت لها) . واتسعت ابتسامة الزين ، ثم فتح
فه ليتكلم ، فانعكس شيء من ضوء المصباح الكبير المعلق في
دكان سعيد على أسنانه . وفجأة ، وفي وقت واحد ، قفز
الزين واقفاً كأن عقرباً لدغته ، وقفز أحمد اسماعيل ، وقفز
محبوب والطاهر الرواسي ، وحمد ود الرئيس . وصاح عبد
الحفيظ : (امسكوه) . لكنه كان أسرع منهم . في لمح
البصر كان الزين قد أمسك بالرجل ورفع في الهواء بعنف
ثم رماه في الأرض . ثم شده من رقبته . وانكبوا كلهم عليه ،

أحد اسماعيل أمك بذراعه اليمنى ، وعبد الحفيظ أمك
بذراعه اليسرى ، والطاهر الرواسي أمك به من وسطه ،
وحدود الرئيس أمك بساقيه ، وكان سعيد يزن شيئاً في
دكانه ، فخرج مشرعاً وأمك بساقي الزين أيضاً ، لكنهم
لم يفلحوا .

تدفقت في جسم الزين التحيل قوة مريمة جبارة لا طاقة
لأحد بها . أهل البلد جميعاً يعرفون هذه القوة الرهيبة ويهابونها ،
وأهل الزين يبدلون جهنم حق لا يستعملها الزين ضد أحد .
انهم يرتعدون روعاً كلما ذكروا أن الزين أمك مرة بقربي نور
جامح استغزه في الحقل ، أمك به من قرنيه . ورفعته عن
الأرض كأن حزمة قش وطرح به ثم القاه أرضاً مهشم العظام ،
وكيف انه مرة في فورة من فورات حماسه قلع شجرة سنط
من جذورها وكأنها عود ذرة . كلهم يعلم أن في هذا الجسم
الضاري قوة خارقة ليست في مقدور بشر ؛ وسيف الدين ،
هذه الفريسة التي انقض عليها الزين الآن ، انه لا محالة هالك .
واختلطت اصواتهم برهة . كان الزين يردد في غضب : (الحمار
الذكر لازم أكله) - والحمار الذكر أقصى ذم يلحقه الزين
برجل . وأرتفع صوت عبد الحفيظ في نور وخوف : (الرسول
الزین . عليك الله خليه) . وأخذ محبوب يشتم في يأس .
وكان أحد اسماعيل أصفرم سناً وأقوام ، ولما أعيتته الحيلة
عض الزين في ظهره . وكان الطاهر الرواسي رجلاً مشهوراً

بقوته . كان في مجئه عن السمك في الليل يعوم النيل ذهاباً
وجيئة وينطس في الماء نصف الساعة فلا ينقطع نفسه . لكن
قوته لم تكن شيئاً يحانب الزين . وفي ضوضائهم سمعوا شخيراً
يصدر من حلق سيف الدين ، ورأوه يضرب برجليه الطويلتين
في الهواء . وصاح محبوب : (مات . كله) .

لكن صوت الحنين أرتفع هادئاً وقوراً فوق الضجة :
(الزين . المبروك . الله يرضى عليك) وأنفكت قبضة الزين
ووقع سيف الدين على الأرض ، هامداً ساكناً . ووقع الرجال
السته دفعة واحدة ، فقد فاجأهم صوت الحنين وباغتهم الزين
بسكوته المفاجيء ، فكان حائطاً أمامهم كانوا يدفعونه ،
أنهد بفتة . ومضت برهة قصيرة جداً ، مقدار طرفة العين
ساد فيها صمت كامل ، لا بد أنه كان صمتاً مزيحاً من رعب
وحيرة وأمل . بعد ذلك جاشت الحياة فيهم مرة أخرى
وتذكروا سيف الدين . أنكبت رؤوسهم عليه ، ثم صاح
محبوب بصوت فرح مرتمش (الحمد لله . الحمد لله) . وحلوا
سيف الدين ووضعوه على كتبه أمام دكان سعيد . وفي أصوات
متوترة خافتة أخذوا يعيدونه إلى الحياة . حينئذ فقط
تذكروا الزين ، فرأوا جالساً على مؤخرته ويداه بين ركبتيه
مطاطناً رأسه . وكان الحنين قد وضع يده على كتف الزين في
حنان بالغ . كان يتحدث إليه في صوت حازم لكنه مليء
بالحب : (الزين المبروك . ليه عملت كده ؟)

وجاء محبوب وأنتهر الزين ، لكن الحنين نظر اليه نظرة
أسكتته . وبعد برهة قال محبوب للحنين : لو ما كت جيت
يا شيخنا كان كتله . وأنضم اليهم أحمد اسماعيل والطاهر
الرواسي . وبقي عبد الحفيظ وسعيد التاجر وحيد ودريس مع
سيف الدين . وبعد برهة قال الزين وهو ما يزال مطأطيء
الرأس ، مردداً كلام محبوب : « ان كت ما جيت يا شيخنا
كت كتله . الحمار الذكر . وقت ضربني في راسي بالفاس قايل
ماش اسكت له ، .

لم يكن في صوته غضب . كان صوته أقرب الى مرحة الطبعي
منه الى الغضب . وسرت في الحاضرين رعشة مرج خفيفة ،
لكنهم ظلوا صامتين . وقال الحنين : (لكن انت ما كت
غلطان ؟)

وظل الزين صامتاً . فقال الحنين مواصلاً كلامه (متين
سيف الدين ضربك بالفاس في رأسك ؟ فأجاب الزين ضاحكاً
ووجهه ممشبع بالمرح : (وقت عرس أخته) . واستمر الحنين
وفي صوته هو الآخر رنة مرج : (شن سويت لي أخته يوم
عرسها ؟)

(اخته كانت دايراني انا . مشو عرسوها للراجل الباطل داك)
وضحك أحمد اسماعيل بالرغم منه . وقال الحنين في صوت
أكثر رقة وحناناً : (كل البنات دايراتك يا لبروك . باكر

نمرّس احسن بت في البلد دي). واحسن محبوب بخفقة خفية
في قلبه . كان فيه رهبة دفينة من اهل الدين ، خاصة اللساك
منهم أمثال الحنين. كان يتأبهم ويبتعد عن طريقهم ولا يتعامل
مهم . وكان يحاذر نبوءاتهم ويحس بالرغم من عدم اهتمامه
الظاهري ، بأن لها اثرأ غامضاً . (نبوءات هؤلاء اللساك
لا تذهب هدرأ) ، يقول في سره . لعل هذا هو الذي جعله
يقول بصوت مرتفع فيه رنة واحتقار : (منو البتمرّس البهم دا؟
كان على العلية ، داير يحيب لنا جنيته). ونظر الحنين الى
محبوب نظرة صارمة ، ارتعدت لها فرائص محبوب لولا انه
تشجع ، وقال : (الزين مو بهم . الزين مبروك . باكر يعمرّس
احسن بت في البلد) . وفجأة ضحك الزين ضحكة بريئة ،
ضحكة طفل ، وقال : (كت داير أموته . الحمار الدكور .
يفلقني بالفاس عشان اخته دايراني انا ؟) فقال الحنين بحزم :
(دحين دايرنك تصالحه . خلاص الفات مات . هو ضربك .
وأنت ضربته) . ونادى سيف الدين ، فجاء بقامته الطويلة
وحوله سميد وعبد الحفيظ وحمد ود الرئيس . فقال الحنين للزين
(قوم سلم فوق رأسه). فقام الزين دون أي اعتراض وامسك
برأس سيف الدين وقبله . ثم أهوى على رأس الحنين واشبعها
قبلاً وهو يقول : (شيخنا الحنين. ابونا المبروك). وكانت لحظة
مؤثرة اثارت الصمت في نفوس اولئك الرجال . ودمعت عينا
سيف الدين وقال للزين : (انا غلطان في حقك . سامحني)
وقام وقبل رأس الزين ثم امسك بيد الحنين وقبلها . وجاء

الرجال كلهم ، محبوب ، وعبد الحفيظ ، وحمد ود الرئيس ،
والطاهر الرواسي ، واحد اسماعيل ، وسعيد التاجر ، كل واحد
منهم امسك بيد الحنين في صمت وقبلها . وقال الحنين بصوته
الرقيق الوديع : (ربنا يبارك فيكم . ربنا يحمل البركة فيكم)
ووقف وامسك ابريقه في يده . فسارع محبوب يستضيفه :
(لازم تتعشى معنا الليلة) . لكن الحنين رفض بلطف وقال
وهو يمسك بيده الاخرى كتف الزين : (العشا في بيت
المبروك) . وغابا معاً في الظلام . رف على رأسها برهة قبس
من ضوء المصباح المعلق في دكان سعيد ، ثم انزلق الضوء عنها
كما ينزلق الرداء الحريري الأبيض عن منكب الرجل . ونظر
محبوب الى عبد الحفيظ ونظر سعيد الى سيف الدين ، ونظروا
كلهم بعضهم الى بعض وهزوا رؤوسهم .



بعد هذا الحادث بأعوام طويلة ، حين أصبح محبوب جداً
لاحفاد كثيرين ، كذلك أصبح عبد الحفيظ والطاهر الزواسي
والباقون ، وحين أصبح احمد اسماعيل ابا وصارت بناته للزواج ،
كان اهل البلد - وبينهم هؤلاء - يعودون بذاكرتهم الى ذلك
العام ، والى حادث الزين والحنين وسيف الذي وقع امام دكان
سعيد. الذين اشتركوا في ذلك الحادث يذكرونه برهة
وخشوع ، بما فيهم محبوب الذي لم يكن يأبه لشيء من قبل.
لقد تأثرت حياة كل واحد من اولئك الرجال الثمانية ، ابطال
الحادث ، بطريقة أو بأخرى . وفي مستقبل أيامهم ، يستعيد
هؤلاء الرجال الثمانية ، يستعيدون فيما بينهم ، آلاف المرات ،
تفاصيل الحادث . وفي كل مرة ، كانت الحقائق تتخذ وقفاً اكثر
سحراً. يذكرون في عجب كيف ان الحنين هل عليهم من حيث
لا يعلمون ، في اللحظة ، عين اللحظة ليس قبل ولا بعد ، حين
ضاعت قبضة الزين على خناق سيف الدين وكادت تودي به ،
بل أن بعضهم يحزم ان سيف الدين قد مات بالفعل : لفظ نفسه
الاخير ، ووقع على الارض جثة هامدة . وسيف الدين نفسه
يؤكد هذا الزعم . يقول انه مات بالفعل . وفي اللحظة التي

ضاقت فيها قبضة الزين على حلقه ، يقول انه غاب عن الدنيا البتة ، ورأى تمساحاً ضخماً في حجم الثور الكبير فالتحماً فمه . وانطبق فكا التمساح عليه ، وجاءت موجة كبيرة كأنها الجبل . فحطمت التمساح في هوة سحيقة ليس لها قرار . في هذا الوقت ، يقول سيف الدين انه رأى الموت وجهاً لوجه . ويحزم عبد الحفيظ ، وقد كان اقرب الناس الى سيف الدين حين عاد الى رعيه ، ان اول كلمات فاه بها ، حين جاش النفس في رثيته من جديد ، اول شيء تفوه به حين فتح عينيه ، انه قال : - اشهد الا اله الا الله واشهد ان محمداً رسول الله .

ومها يكن فيما لا شك فيه ان حياة سيف الدين ، منذ تلك اللحظة ، تغيرت تغيراً لم يكن يحلم به أحد . كان سيف الدين الابن الوحيد للبدوي الصائغ - سمي الصائغ لان تلك كانت حرفته في بداية حياته ، ولما ائرى ولم يعد صائغاً ، لصق به الاسم فلم يفارقه . كان البدوي رجلاً موسراً ، ولعله ائرى رجل في البلد . جمع بعض ثروته بعرق جبينه ، ومن الصباغة والتجارة والسفر ، وبعضها آل اليه عن طريق زوجته . كان كما يقول اهل البلد ، رجلاً (اخضر الذراع) ، لا يمس شيئاً الا تحول بين يديه الى مال . في اقل من عشرين عاماً ، كون من المدم ، ثروة بعضها ارض وضياع ، وبعضها تجارة منتشرة على طول النيل من كرمة الى كرمة ، وبعضها مراكب موسقة بالتمر والبضائع تجوب النهر طولاً وعرضاً ، وبعضها ذهب كثير . تلبسه زوجته وبناته في شكل حلي يملأ رقابهن وايديهن .

ونشأ سيف الدين ولداً واحداً بين خمس بنات ، تدله امه ،
ويدله أبوه ، وتدله اخواته الخمس . فكان لا بد ان يفسد . او
كما يقول اهل البلد ، كان لا بد ان ينشأ هشا رخوا ، كالشجيرة
التي تنمو في ظل شجرة اكبر منها ، لا تتعرض للريح ولا ترمي
ضوء الشمس . مات البدوي وفي حلقه غصة مريرة من أبنه ،
انفق عليه مالا كثيراً لكي يتعلم ، فلم يفلح . وانشأ له متجراً في
البلد فأفلس في شهر . ثم الحقه بورشة ليتعلم الصناعة فهرب .
وبعد لأي ، ووساطة وتشفع ، نجح في تعيينه موظفاً صغيراً في
الحكومة لعله يتعلم كيف يعتمد على نفسه . لكن لم تمضي أشهر
حتى جاءت له الأنباء تترى ، من أفواه الأعداء والأصدقاء ، من
الشامتين والمشفقين على السواء ، أن أبنه يبيت ليله كله في خماره
ولا يرى المكتب إلا مرة أو مرتين في الأسبوع ، وأن رؤساءه
انذروه مراراً وهددوا بفصله من العمل . فسافر الرجل الى
المدينة وعاد يسوق أبنه كالسجين . وحلف ليسجنه طول حياته
في الحقل - كالعبد الرقيق ، هكذا قال .

ومضى عام على سيف الدين وهو يجمع العلف للبقر ويرعى
الماشية على أطراف الحقل سحابة نهاره ، يزرع ويحصد ويقطع
ويتأوه . ومع ذلك فلم يعدم تسلياً بالليل . كان يعرف أماكن
صنع الخمر ، ويصادق الجوارى اللاتي يصنعنها - (الخدم) ؛
كما يقول أهل البلد . كن رقيقاً أعطي حريته ،
بعضهن هاجرن من البلد ، وتزوجن بعيداً عن موطن
رقهن . وبعضهن تزوجن الرقيق المعتقد في البلد وعشن

حياة كريمة، بينهن وبين سادتهن السابقين ود وتواصل وبعضهن لم تستهوهن حياة الاستقرار ، فبقين على حافة الحياة في البلد ، محطاً لطالب الهوى واللذة. والحق ان مجتمع الجوارى هذا كان شيئاً غريباً، فيه روح المغامرة والتمرد والخروج على المألوف. هنالك في طرف الصحراء، بعيداً عن الحى، تقبع بيوتهن المصنوعة من القش . بالليل ، حين ينام الناس ، ترتعش من فرجاتها أضواء المصابيح وتسمع منها ضحكات مخمورة نشوى. ضاق بها أهل البلد فأحرقوها، لكنها عادت الى الحياة مثل نبات الحلفاء، لا يموت . وطردها سكانها وعذبوهم بشتى السبل ، لكنهم لم يلبثوا ان يجمعوا من جديد ، كالذباب الذي يحط على بقرة ميتة. وكمن شاب مراهم، خفق قلبه في جنح الظلام حين حمل اليه الليل ضحكات الجوارى وصياح الخمورين . في تلك (الراحة) على حافة الصحراء ، شيء مخيف ، لذيذ رهيب ، يغري بالاستكشاف . ولم يكن عسيراً على سيف الدين ان يجد طريقة اليها . هنالك كان يقضي ليلاته ، وكانت له من بينهن خلية . كل هذا تحمله ابوه في صبر. كانت الأخبار تأتيه، فكان يتفاضى احياناً، وأحياناً يثور . لكن صبره نفذ حين جاءه سيف الدين ذات ليلة، وهو على سجاده بعد صلاة العشاء. كانت تفوح من فمه رائحة الخمر. وقال له، بصوت أجش من فعل الشراب والسمر ، انه يحب الساره (احدى الجوارى) ويريد ان يتزوجها . اسودت الدنيا في وجه الرجل وفقد صوابه . ابنه الوحيد سكران ، فاسق ، يقول له ، وهو على مصلاته ، انه

« يجب ، - الكلمة التي تثير في عقول الآباء في البلد كل معاني البطالة والحول وعدم الرجولة - وانه يريد أن يتزوج جارية ماجة فارغة العين... قام الأب وضرب ابنه ضرباً قاسياً مبرحاً . وجاءت الأم تولول ، واجتمع الناس ، وأخيراً خلصوا الابن من يد الأب وهو بين الحياة والموت . وحلف الأب أن الولد الفاسق - هكذا قال - لا يبيت ليلة واحدة تحت سقف بيته ، وانه ليس ابنه وانه براء منه . قضي سيف الدين ليلته في بيت خاله ، وفي الصباح اختفى . وعاش البدوي الصائغ بقية حياته مثل رجل به عاهة . كان الألم يحز في قلبه ، ووجهه نحيل معروق كوجوه المرضى بالسل . كان يقول ان ابنه مات ، وكان أحياناً إذا خانه لسانه وذكر ابنه ، يذكره كأنه مات بالفعل .

وكانت تترى على البلد أخبار مريعة عن سيف الدين ، كيف أنه سجن في الخرطوم بتهمة السرقة ، وكيف انه اتهم مرة بقتل رجل في بور سودان وكاد يشنق لولا انهم وجدوا القاتل الفعلي في النهاية . وكيف أنه يعيش « صائماً » سفيهاً فاسقاً مع العاهرات في كل مدينة يحل فيها . يقولون مرة انه يعمل حملاً يحمل بالات القطن على ظهره في الميناء . ومرة يقولون انه يعمل سواقاً لسيارة شاحنة بين الفاشر والأبيض وأحياناً يقولون انه يزرع القطن في طوكر . وحاول أعمامه وأخواله إقناع أبيه بأن يكتب وصية يترك فيها ثروته كلها لزوجته وبناته . كل الرجال العقلاء في البلد أمنوا أيضاً على صواب

هذا الرأي لكن الأب كان يتهرب دائماً ويتعلل بأنه سيفعل ذلك حين يحس بدنو أجله ، وأنه ما زال قوياً لا حاجة به إلى كتابة وصية . لكن الرجال المقلاء كانوا في مجالسهم يهزون رؤوسهم حسرة ، ويقولون ان البدوي ما زال يأمل ان ابنه سيعود إلى صوابه . شيء ما ؛ لم يفهمه أهل البلد ، منع الرجل من اتخاذ الخطوة الحاسمة : حرمان ابنه من الميراث .

وفي ليلة من ليالي شهر رمضان ، مات البدوي على مصلاته بعد أن صلى التراويح . كان رجلاً طيباً فمات ميتة كل الرجال الطيبين : في شهر رمضان ، في الثلث الأخير منه ، وهو الثلث الأكثر بركة ، على مصلاته ، بعد أن صلى التراويح . وهز أهل البلد رؤوسهم وقالوا « يرحم الله البدوي . كان رجلاً طيباً . كان يستأهل ابناً خيراً من ابنه الفاسق ذاك » . وذات يوم ، والناس ما زالوا على (فراش البكاء) وقد فرغوا لتوهم من إقامة (الصدقة) دخل عليهم سيف الدين . كان يحمل في يده عصا غليظة من النوع الذي يستعمل في شرق السودان . ولم يكن معه متاع على الإطلاق . كان شعره منفوشاً كأنه شجيرة سيال ، ولحيته كثة متسخة ، ووجهه وجه رجل عاد من الجحيم . لم يسلم على أحد ، وتجنبته كل العيون . لكن عمه الأكبر قام وبصق على وجهه . ولما وصل النبأ بقدومه إلى أمه في الجناح الآخر من البيت وهي وسط الحرم على (فراش البكاء) ولولت من جديد كأن زوجها مات لتوه ، وولولت أخوات سيف الدين ، وعماته

وخالاته ، وفار جناح الحريم في البيت وماج . إلا أن العم
قام اليهن وأتتهن فسكنن .

كل هذا لم يمنع سيف الدين ان يضع يده على أموال أبيه ،
كل ما استطاع عمله أعمامه وأخواله أنهم خلصوا نصيب أمه
وأخواته ، وبقي أغلب الثروة في يده . هنا أيضاً تبدأ حياة
العذاب لموسى صديق الزين - موسى الاعرج - كما يسميه أهل
البلد . طرده سيف الدين بحجة أنه لم يعد رقيقاً ، وأنه ليس
مسؤولاً عنه . وعاش سيف الدين بعد هذا حياة مستهترة ،
زاد في استهتارها توفر المال في يده . كان في سفر متواصل ،
مرة في الشرق ومرة في الغرب ، يقضي شهراً في الخرطوم
وشهراً في القاهرة وشهراً في اسمرأ ، ولا يحيى البلد إلا ليبيع
أرضاً أو يتخلص من ثمر . كانت نوعاً من الناس لم يعرفه
أهل البلد في حياتهم ، يخافونه كما يخافى المريض بالجدام . حتى
أقرب الناس اليه ، عمومه وأخواله ، لم يكونوا يأمنونه في
بيوتهم ، فسدوا الباب في وجهه مخافة أن يفسد أبناءهم أو
يفسق ببناتهم . وفي إحدى زياراته المتقطعة للبلد وجد عرس
اخته - فإن أهله كانوا يتجنبون حضوره لأفراحهم ولم يكن
هو بطبعه يحضر مأتماً . وكاد ذلك العرس ينقلب بسببه إلى
مأساة . أولاً حادثة الزين . جاء الزين كعادته في مرحه
وهذره ولم يكن أحد يأبه له . لكن سيف الدين لم يعجبه
ذلك فضربه بفأس على رأسه . وكادت المسألة تنتهي بالسجن ،
لولا تدخل العقلاء من أهل البلد الذين قالوا أن سيف الدين
لا يستحق الوقت الذي ينفقونه عليه في المحاكم : ثانياً كاد

العريس يغير رأيه في آخر لحظة لأنه تشاجر مع سيف الدين أخيه العروس ومرة أخرى تجمع العقلاء من أهل البلد ، بما فيهم أبو العريس ، وقالوا ان سيف الدين ليس منهم ، وان حضوره العرس شر لا يستطيعون رده . ثالثاً ، في الأسبوع الأخير من حفل الزواج انهم على الدار عشرات من الناس الغرباء الذين لم يرم أحد من قبل . نساء ماجنات ورجال زائفو النظرات ، وصعاليك ، وسفهاء ، جاؤوا من حيث لا يدري أحد . كلهم أصدقاء سيف الدين دعاهم لحفل زواج أخته . وهنا لم يجد أهل البلد بداً من القيام بعمل . قبل أن يستمر هؤلاء الضيوف في جلساتهم إذا بصف من رجال البلد ، يتقدمهم أحمد اسماعيل ، ثم محبوب ، ثم عبد الحفيظ ، فالطاهر الرواسي ، فحمد ود الرئيس ، وأعمام سيف الدين وأخواله ، نحو من ثلاثين رجلاً في أيديهم عصي غليظة وفؤوس . أغلقوا الأبواب عليهم وأشبعوهم ضرباً ، وأكثر من ضربوا منهم سيف الدين . ثم ألقوا بهم في الطريق . وبينما البلد بأسرها تضح من ذلك البلاء الذي اسمه سيف الدين ، إذا به فجأة بعد (حادث الحنين) يتغير كأنه ولد من جديد .

لم يصدق الناس عيونهم بادیء الأمر ، ولكن سيف الدين أخذ كل يوم يأتي مجديداً . سمعوا أولاً انه ذهب من صباحه إلى أمه وقبل رأسها وبكى طويلاً بين يديها . وما كادوا يستجمعون أنفاسهم حتى سمعوا انه جمع أعمامه وأخواله وانه تاب واستغفر أمامهم . وأنه تأكيداً لتوبته أخرج ما تبقى من ثروة أبيه من

ذمته ، وجعل عمه الأكبر وصياً عليها حتى يصير هو صالحاً
تماماً لمباشرة مسؤوليته . كاد أهل البلد يعمدون آذانهم على
ذلك ، حتى رأوا لمحبهم سيف الدين يؤم المسجد لصلاة
الجمعة . كان حليق اللحية ، مهذب الشارب ، ونظيف الثياب .
ويقول الذين حضروا الصلاة انه لما سمع خطبة الامام ، وكان
موضوعها البر بالوالدين ، أجهش طويلاً بالبكاء حتى أغشى
عليه ، وتجمع حوله الناس يطيبون خاطره . ولما خرج من
المسجد ، ذهب من فوره إلى موسى الأعرج وقال له أنه أخطأ
في حقه وطلب صفحه وقال له أنه سيبره كما بره أبوه . وعاشت
البلد شهراً أو قرابة شهر وهي تلهث كل يوم من عمل جديد
قام به سيف الدين . عزوفه عن الحمر ، ابتعاده عن اصدقاء
السوء ، مواظبته على الصلاة ، انصرافه إلى اصلاح ما فسد
من تجارة أبيه ، بره بامه ، خطوبته لبنت عمه . وأخيراً عزمه
على تأدية الحج ذلك العام . وكان عبد الحفيظ ، وكان من
أكثر الناس إيماناً بمعجزة الحنين ، كما تجلت في سيف الدين ،
كلما سمع نبأ جديداً يسرع به إلى محبوب ، وكان معروفاً
بجفافه لأهل الدين والنسك منهم بوجه خاص بمعجزة يا زول ،
ما في اثنين تلاته (. وبصمت محبوب وهو يحس في جوفه
بذلك القلق الغامض الذي يساوره إزاء هذه الحالات . (سيف
الدين عزم على الحج . تصدق بالله يا زول ؟ تأمن والا ما
تأمن ؟ معجزة يا زول دون أدنى شك (. كان محبوب يقول
لمبد الحفيظ لما بدأت القصة ان سيف الدين شبع من السفامة ،

أو على قوله (وصل السفاهة حدتها) ، وكان لا بد أن يتغير
في يوم من الأيام . لكنه وهو يسمع كل يوم شيئاً جديداً
مذهلاً لم يعد قادراً حتى على الجدال ، فلذا بالصمت .

كانت معجزة سيف الدين بداية لأشياء غريبة تواردت على
البلد في ذلك العام . ولم يعد ثمة شك في ذهن أحد ، حتى
محبوب ، وهم يرون المعجزة تلو المعجزة ، ان مرد ذلك كله
ان الحنين قال لاولئك الرجال الثمانية أمام متجر سعيد ذات
ليلة : (ربنا يبارك فيكم . ربنا يحمل البركة فيكم) كان الوقت
قيل صلاة العشاء بقليل ، وهو وقت يستجاب فيه الدعاء ،
خاصة من أولياء الله الصالحين أمثال الحنين . كانت البلد هادئة
ساكنة ، إلا من ريح خفيفة منعشة تلعب بحريد النخيل .
إنهم جميعاً ، الرجال الثمانية الذين شهدوا الحادث وبقية الناس
في بيوتهم وحقولهم ، يذكرون تلك الليلة بوضوح كأنها كانت
ليلة البارحة ، وكان الظلام الخمي الكثيف يربض على اركان
البلد ، هذا أضواء مصابيح خافتة تسربت من نوافذ البيوت ،
والضوء الساطع من المصباح الكبير في متجر سعيد . كان
الوقت وقت تحول الفصول ، من الصيف إلى الخريف . يذكر
سعيد صاحب الدكان ان الليلة لم تكن قاتلة كسابقتها وانه
لم يكن رطب الوجه من العرق وهو يزن سكر لسيف الدين ،
وانه لما (وقمت الوقعة) كما يسميها ، وترك ميزانه وخرج
من دكانه ليحول بين الزين وسيف الدين ، يذكر أن نسما

بارداً هب على وجهه ا ويذكر الناس الذين لم يسعدهم الحظ بحضور الحادث لأنهم كانوا يتهبأون لصلاة العشاء في المسجد ، ان الامام تلا في تلك الليلة ، حين صلى بهم ، جزءاً من سورة مريم . وحاج ابراهيم ، هم الزين ووالد نعمة ، وهو رجل مشهود له بالصدق ، يذكر تماماً ان الامام قرأ الآية (وهزي اليك يحدح النخلة تساقط عليك رطباً جنياً) من سورة مريم ، وهي آية فيها الخير والبركة . ويضيف حمد ود الرئيس ، وهو مشهور في البلد بسعة الخيال والجنوح الى المبالغة ، بأن نجماً له ذنب سطع تلك الليلة في الافق الغربي فوق المقابر . لكن أحداً غيره لا يذكر نجماً له ذنب سطع في تلك الليلة . على اي حال ، لا شك في ان الحنين ، ذلك الرجل الصالح ، قال على مسمع من ثمانية رجال ، في تلك الليلة المباركة بين الصيف والخريف ، قبيل صلاة العشاء بقليل : (ربنا يبارك فيكم ربنا يحمل البركة فيكم) وكأنما قوى خارقة في السماء قالت بصوت واحد : (آمين) .

بعد ذلك توالى الحوارق معجزة تلو معجزة ، بشكل يأخذ باللب . لم تمرّ البلد في حياتها عاماً رخياً مباركاً مثل (عام الحنين) كما اخذوا يسمونه . صحيح ان اسعار القطن ارتفعت ارتفاعاً منقطع النظير في ذلك العام ، وان الحكومة لاول مرة في التاريخ سمحت لهم بزراعته بعد ان كان ذلك وقفا على مناطق معينة في القطر . (محجوب وحده ، وباعتراف منه ، ربح اكثر من الف جنيه من قطنه) . وصحيح ايضا ان الحكومة لغير ما سبب اولسبب خفي لا يعلمونه ، بنت معسكراً كبيراً للجيش في الصحراء على

بعد ميلين من بلدهم . والجنود يأكلون ويشربون ، فانتعشت
البلد من توريد الخضروات واللحوم والفواكه واللبن للجيش . حتى
اسعار التمر ارتفعت ارتفاعاً ليس له نظير في ذلك العام .
وصحيح أيضاً ان الحكومة ، هذا المخلوق الذي يشبهونه في
نواذرهم بالحمار الحرون ، قررت لغير ما سبب ظاهر ايضاً ان
تبنى في بلدهم - دون سائر بلدان الجزء الشمالي من القطر ، وم
قوم لا حول لهم ولا طول ، ولا نفوذ ولا صوت يتحدث باسمهم
في محافل الحكام - قررت الحكومة ان تبني في بلدهم ، دفعة
واحدة ، مستشفى كبيراً يتسع لمئتي مريض ، ومدرسة ثانوية
ومدرسة للزراعة ومرة اخرى عادت الفائدة على البلد ، في
الايدي العاملة ، ومواد البناء وتوريد الغذاء تاهيك بان مرضاهم
سيضمنون العلاج ، وان أبناءهم سينالون حقهم من التعليم . واذا
كانت كل هذه الادلة لا تكفي ، فكيف تفسر بان الحكومة
هذا (الحمار الحرون) في اعتقادهم ، قررت ايضاً في العام ذاته
ولم يمضِ على وفاة الحنين أكثر من شهرين ، ان تنظم اراضيهم
كلها في مشروع زراعي كبير تشرف عليه الحكومة نفسها بما
لها من قوة وسلطان ؟ وجدوا بلدهم فجأة تمتع بالمساحين
والمهندسين والمفتشين . والحكومة اذا عزمت على أمر فانها
قادرة على تنفيذه فما هو الا يوم في أثر يوم وشهر يعقبه شهر ،
حتى قام على ضفة النيل في بلدهم بناء شامخ من الطوب الاحمر
مثل المعبد يلقي ظلاله على النيل وبعد ذلك بقليل ، بين لفظ
العاملين وقرعة الحديد إذا بمجالات ذلك المارد تدور ، واذا

بمصاصاته تشفط من ماء النيل ، كما يشمط الرجل الشامي ،
في لمح البصر ، كميات لا تقوى عليها عشرات من سواقيهم في
عشرات الايام . وإذا بالأرض على اتساعها من ضفة النيل إلى طرف
الصحراء يغمرها الماء ، بعضها اراض لم ترّ الماء منذ اقدم السنين ،
وإذا بها بعد قليل تموج بالحياة . كيف تفسر هذا؟ عبد الحفيظ
يعلم السر ، فهو يقول للحجوب ، وهو يجمع بين عينيه الحقل
الواسع الذي هو حقله ، والريح تلعب بالقمح فتثني صفوفه
فكانه حوريات رشيقة تجفف شعرها في الهواء : (معجزة
يا زول ، ما في أدنى شك) .

جلس الطريفي خلسة في مقعده ، بعد أن حدث الناظر
بخبير عرس الزين ، جلس خلسة على طرف مؤخرته كأنه
ينتهي للهروب في أية لحظة ، فقد كان في سمته وطبعه شيء من
سمت الضبع وطبعه . ونظر حوله بعينه الماكرتين . وممس
في أذن جاره من اليمين : (نجنا الليلة من الجرافيا ، أشارطك
الناظر ما يتم الحصة) . وكما تنبأ الطريفي أعلن الناظر في
صوت فاتر غير مكثرت انه خارج لأمر عاجل : (راجعوا
الدرس بتباع منطقة زراعة القمح في كندا) . وخرج في
خطوات متوترة . وراقبه الطريفي ، وهو يحاول ألا يهرول
حتى وصل باب فناء المدرسة . وضحك الطريفي بخبث حين
رأى الناظر يمسك بذيل عباءته في يده ، ويهرول مكباً على
وجهه في الرمل .

ووصل الناظر إلى دكان شيخ علي في السوق، لاهت النفس، جاف الحلق، إذ أن المدرسة لم تكن قريبة كل القرب من السوق وبينها وبينه رمل تفرس فيه القدم، والناظر قد جاوز الحسين. كان دكان شيخ علي في السوق مقره المفضل. سر لما رأى عبد الصمد أيضاً، فقد كانت بينه وبينه صداقة مريرة، لا يطيب له المجلس أو لعب الطاولة بدونه. وكان بينه وبين المتجر مقدار عشرة أمتار لكنه لم يطق صبراً، فبدأ يتحدث وهو مقبل عليها: (شيخ علي، حاج عبد الصمد، السنة دي سنة المجايب دا كلام ايه دا؟) وأوصلته الجملة عندهم، فأجلسوه على مقعده المفضل، مقعد وطيء من خشب وحبال عليه مسند وله متكآت على جانبيه.

وكانت القهوة ما تزال ساخنة، تفوح منها رائحة القرفة والحبان والجنزبيل. أمسك بالفنجان وقربه إلى فمه، لكنه لم يلبث أن رده وقال: (الخبير دا صحيح؟)

وضحك عبد الصمد وقال للناظر: (كدي اشرب القهوة قبل تبرد. الكلام صحيح).

وقال الشيخ علي وهو يحرك التبغ المضغ من الجانب الأيمن إلى الجانب الأيسر في فمه (حكاية عرس الزين موكدى؟ صحيح وأبوه صحيح كان).

وشفط الناظر شفقة كبيرة من الفنجان، ثم وضعه على منضدة صغيرة أمامه وأشعل لنفسه سيجارة شد منها نفساً عميقاً

(يا رجل دي سنة غريبة جداً ، والا انا غلطان ؟) . لم يكن الناظر يستعمل عبارة (زول) ، أي (شخص) كعبية أهل البلد ، بل كان يقول (رجل) في بداية جملة .

وقال عبد الصمد : (كلامك صحيح جناب الناظر . سنة عجبية فعلاً . اللسان القنمن من الولادة ولدن . البقر والغنم جابت الاتين والثلاثة) . وواصل حاج علي تعداد المعجزات التي حدثت ذلك العام : (تمر النخيل كثير لا من غلبنا من الشوالات النشبة فيها . الثلج نزل . دا كلام ا الثلج ينزل من السما في بلد صحراء زي دي ؟) وهزّ الناظر رأسه . وهمهم عبد الصمد كلمات في حلقه ، فقد كان نزول الثلج في ذلك العام شيئاً حيرم جليماً . ولم يستطع الناظر مع طول بآعه في علم الجغرافيا ان يحدد له تعليلاً . وقال الناظر : (لكن المعجزة الكبرى موضوع زواج الزين) - هذه كانت عادته ، يزوج الكلمات الفصحى في حديثه .

وقال شيخ علي : (الولد ما يكاد يصدق) كان الناظر يعبده هو وعبد الصمد بكلماته الفصحى ، فيحاولان مجاراته . وقال عبد الصمد : (كلام الحنين ما وقع النبحر . قال له باكر تمرس أحسن بت في البلد) .

وقال الناظر : (أي نعم والله . أحسن بليت في البلد إطلاقاً . أي جمال ا أي أدب ا أي حشمة ا)

وقال عبد الصمد مستفزاً : (أي فلوس ا انا عارفك كت

خات حينك عليها عشان مال أبوها). واحتد الناظر وهو يرد
التهمة عن نفسه : (أنا؟ خاف الله يا رجل . هذه في عمر بناتي)
وقال شيخ علي يسري عنه : (عمر بناتك ايه يا شيخ ؟
الراجل راجل حق في أرزل العمر. والبتت من سن أرميتاشر
قابه للزواج من أي راجل ولو كان زي جنابك في الستين) .
(خاف الله يا رجل . انا في الحسين . اصفر منك ومن
عبد الصمد قطع شك) .

وقعه عبد الصمد قهقهته المشهورة من جوف صدره وقال :
(طيب بلاش موضوع العمر، ايه رأيك في حكاية عرس الزين؟)
وقال الناظر : يا رجل دا موضوع مدهش . ازي حاج
ابراهيم يقبل ؟ الزين رجل درويش ماله ومال الزواج ؟) .
وقال عبد الصمد باقتناع عميق : (حاسب جنابك من ذكر
الزين. دا راجل بركة صديق الراجل الصالح الحنين الله يرحمه).
واضاف شيخ علي ايضاً : (رحمة الله عليه. جاب لنا الخير
في البلد) .

وقال عبد الصمد : (وكله عشان خاطر الزين) .
وقال الناظر : (يا رجل ما دخلنا في موضوع الكرامات؟
لكن برضه ...)
وقاطعه شيخ علي : (مهما يكون ، الراجل راجل والمره
مره) .
واضاف عبد الصمد : (والبتت بت عمه على كل حال) .

صمت الناظر ، فانه لم يجد ما به على كلامها - من الناحية
الشكلية على الأقل : فكون بنت العم لابن العم حجة ليس
بعدها حجة في عرف أهل البلد . انه تقليد قديم عندهم ، في
قدم غريزة الحياة نفسها ، غريزة للبقاء وحفظ النوع . لكنه في
قرارة نفسه كان مثل آمنه ، يحس بلطمة شخصية موجهة له .
وأحسن برهة بارتياح : ان علي وعبد الصمد لا يعلمان بانه
فاتح حاج ابراهيم في أمر نعمة لو علما اذا لما استطاع ان ينجو
من لسانها السليطين . وسأل نفسه وهو يشرب الفنجان الخامس
من قهوة شيخ علي ، لماذا طلب يدها ؟ فتاة صغيرة في سن بناته
انه لا يدري تماماً . لكنه رآها ذات يوم خارجة من الدار ،
ترتدي ثوباً أبيض . صادفها وجهاً لوجه . راعه جمالها . سلم
عليها بصوت مرتعش فردت سلامه بصوت هاديء رزين . قال
لها : (انت نعمة بنت حاج ابراهيم ؟) فقالت دون تردد او
وجل : (نعم) . وبسرعة بحث في ذهنه عن سؤال آخر
يستبطنها به قبل أن تذهب فلم يجد خيراً : (أخوك احمد كيف
حاله ؟) - كان هذا أخاها الأصغر الذي كان من تلاميذه .
فقالت له ووجهها الجريء قبالة وجهه : (طيب) ثم ذهبت ...
وعاش الناظر بعد ذلك ليالي وصورتها لا تفارق ذهنه . لعلها
أيقظت في قلبه احساساً دفيناً ، لم يذكره منذ عشرين عاماً .
واخيراً لم يقوَ على الصبر ، فانتهر وعكة خفيفة ألتمت بأبيها
فذهب اليه بحجة عيادته . وجده وحده لحسن حظه . وبعد
حديث سطحي عن أسعار القمح وحال المدرسة ، دخل الناظر

في الموضوع . وبسرعة طلب يد نعمة من أبيها . لم يفهم حاج ابراهيم شيئاً أول الأمر ، أو لعله تغابي ، فاستوضح الناظر في جملة أوجلتين حزناً في نفسه . قال له أولاً : (داير نعمة لي منو؟) فقال الناظر بشيء من العجرفة : (لي منو؟ أنا طبعاً) . وكأنما حاج ابراهيم غرس خنجراً ثم ضغط على مقبضه ليثبتته أكثر في قلبه حين قال له : (ليك أنت ؟) خلاصة القول ان زيارته كانت خطأ فادحاً . وحاول حاج ابراهيم أن يخفف عنه الوقع فألقى خطبة طويلة عن الشرف الذي أسبغه عليه الناظر بطلبه وانه خير صهر له وو ... لكن ، وهذا هو المهم ، لكن الفرق بين سنه وسن البنت يجعله لا يستطيع أن يقبل ، فهو بهذا لا يرضي ضميره . ثم ان أخوانها سيعترضون . وأخيراً حاول الناظر ملافاة الضرر ، فاستحلف حاج ابراهيم الا يذكر شيئاً مما دار بينها مخلوق ، وان يعتبر الأمر كأن لم يكن . (نحفر حفرة وندفنه في محله دا) .

وكان حاج ابراهيم عند حسن ظنه . لكن الناظر في قرارة نفسه ، على الرغم من اقتناعه بخطئه ، لم يستطع ان يتخلص من الطعم المر في حلقه . ولما سمع بانها ستزف للزین دون سائر الناس احس الخنجر ينغرس اكثر في قلبه . وذعر الناظر قليلاً حين سمع عبد الصمد يقول له : (جنابك ما تزعل ابدأ . اذا كنت عاوز تعمّس ، البلد مليانة نسوان عزبات ، المطلقة والراجلها مات اجل نسوان علي باليمين) .

وهنا ثار الناظر فعلاً . انصب حنقه الداخلي كله على

عبد الصمد : (يا رجل انت مجنون؟ انت ما تعرف تفرق بين
الجد والمزار ؟ اما انت راجل اونطه صحيح) .

وقهه عبد الصمد بلذة عميقة ، فقد نجح في استثارة الناظر
انه يتصيد هذه الفرص . لعل الذي آلمه في الموضوع ذكر النساء
الثيبات ! وقال شيخ علي يزيد النار اشتعالا : (يعني جناب
الناظر لما يحب يتزوج فوق أم أولاده ، يتزوج نسوان سكندهاندا؟
اما فعلا يا حاج عبد الصمد انت راجل اونطه صحيح) .

وتسك عبد الصمد بكلمة (سكندهاندا) يفيظ بها علي هذه
المرّة : ('قت شنو آشيخ علي ؟ سَكَن دِهان؟ والله عجائب !
عشنا وشفنا علي ود الشايب يتكلم الافرنجي) .

وضحك الناظر بافراط ، محاولاً قدر المستطاع تحويل الهجوم
عن شخصه الى شخص شيخ علي . لكن شيخ علي كان عليا
بنزوات عبد الصمد وحركات الناظر ، فتجاهل هجوم عبد الصمد
وعاد بالحديث إلى موضوع زواج الزين : (المهم زي قلنا .
العرس مو قاسي . والراجل راجل وأن كان بي ريال ، والمره
مره وأن كانت شجرة الدر) .

تعجب الناظر في مره كيف عرف شيخ علي اسم شجرة الدر .
ورقع الاسم موقعا حسنا على أذن عبد الصمد وكان جاهلا به
لكنه تخرج من السؤال مخافة ان يفضح جهله . ومضى شيخ علي
يعدد لها اسماء الرجال الذين لم يكن لهم شأن يذكر ومع ذلك
تزوجوا نساء بارعات الذكاء مفرطات الحسن . استحوذ على

اهتمام خصميه مدة غير قليلة من الزمن . وغمرته السعادة وهو
رى الدهشة والاعجاب يبدوان على وجهيهما . ذكرهما بقصة
كثير الذي أحبه عزة على قصره وبشاعة هيئته ، وقصة
الأعرابية التي سألوها كيف تزوجت رجلاً جلفاً قميئاً فقالت لهم
(وأله لو ... الخ) . وكاد الناظر وعيد الصمد يستلقيان على
ظهرهما من الضحك حين سمعا ما قالت الأعرابية . ثم أشار الى
قبيلة الإبراهيميات الذين التحدروا جميعاً من صلب رجل درويش
يدعى إبراهيم أبو جبّة ، وكيف أنه... لكن عبد الصمد ضاق
ذرعاً بطلاوة لسان شيخ علي ، فقاطعه بشيء من الحدة قائلاً :
(انت رابح بعيد ليه لي كثير عزة وقبيلة الإبراهيميات ؟ عند
سميد البوم .. ماك طاري حكاية عرسه ؟) ابتسم الناظر ،
فقد كانت بينه وبين سميد البوم مودة خاصة ، أم لعله كان
يستغل سميد في جلب الخطب والماء لبنته ؟ وكان سميد يبيع
حطب الوقود ويخدم في البيوت ، ويدخر ماله عند الناظر . ولما
أراد الزواج جاء للناظر واستشاره ، وتباهى بعد ذلك أن الناظر
في جلالة قدره شهد عقد زواجه . كل أحد في البلد يعرف قصة
زواج سميد ، وأنه عاش مع زوجته قريباً من الحلول لا يمساها
وكادت المرأة تياس وتطلقه . وكان سميد يقول إذا سألوه عن
سبب أبطائه : (الترن بالملة) . لكنه فيما بعد على أي حال
أولدها أولاداً وبناً .

وفجأة لمح الناظر في خياله وجه نعمة ، ومرة أخرى بالحنجر
يتحرك في قلبه ، فقال وكأنه لم يسمع كل القصص التي قصها

عليه شيخ علي وحاج عبد الصمد : (لكن تزوج الزين ؟ دا اسمه كلام يا رجل ؟ والله عجائب !) .

ثأر أمام المسجد بالحوادث المجيبة التي شهدتها القرية ذلك العام . كان رجلاً ملحاحاً متزمتاً كثير الكلام ، في رأي أهل البلد . كانوا في دخیلتهم يحتفرونه ، لأنه كان الوحيد بينهم الذي لا يعمل عملاً واضحاً - في زعمهم . لم يكن له حقل يزرعه ولا تجارة يهتم بها ، ولكنه كان يعيش من تعليم الصبيان ، له في كل بيت ضريبة مفروضة ، يدفعها الناس عن غير طيب خاطر . وكان يرتبط في أذهانهم بأمور يحلو لهم أحياناً أن ينسوها : الموت ، والآخرة ، والصلاة . فطلق على شخصه في أذهانهم شيء قديم كئيب مثل نسيج المنكبوت . إذا ذكر اسمه خطر على بالهم تلقائياً موت عزيز لديهم ، أو تذكروا صلاة الفجر في عز الشتاء ، وما يرتبط بذلك من وضوء بالماء البارد يشقق الرجلين ، وخروج من الفراش الدفيء الى لفتح الصقيع ، وسير في غبش الفجر الى المسجد . هذا إذا كان الواحد منهم يذهب بالفعل الى الصلاة . أما إذا كان مثل محبوب ، وعبد الحفيظ ، واحمد اسماعيل ، والطاهر الرواسي ، وحمد ود الرئيس ، من النفر « العصاة » الذين لا يصلون ، فانه يحس كل صباح باحساس غامض يشير القلق ، من نوع الاحساس الذي يحسه الواحد منهم إذا نظر خلعة الى امرأة جاره . ويقول لك محبوب إذا سأله عن امام المسجد انه « راجل صعب . لا يأخذ ولا يدي » . معنى ذلك انه لم يكن يسايرهم او

يخوض معهم في احاديثهم - لم يكن يعنيه ، كما يعنيهم ،
اوان زراعة القمح وسبل ربه ومحماده وقطعه او حصاده . لم
يكن همه هل موسم الذرة في حقل عبدالحفيظ نجح ام فسد ،
وهل البطيخ في حقل ود الرئيس كبر ام صغر ؟ كم سعر اردب
الفول في السوق ؟ هل هبط سعر البصل ؟ لماذا تأخر لقاح
النخل ؟ كانت تلك امور ينفر منها بطبعه ويحتقرها بسبب
جهله بها . ومن ناحية أخرى ، كان هو يتم بأمر لا يابه لها
إلا انقليلون في البلد . كان يتتبع الاخبار من الاذاعة والصحف
ويحب ان يناقش هل ستقوم الحرب ام لا ؟ هل الروس أقوى
أم الأمريكان ؟ ماذا قال نهرو وماذا قال تيتو ؟ وكل من
أهل البلد مشغولين بمخزنيات الحياة ، لا تعنيهم عوميائتها .
وهكذا نشأت الهوة بينه وبينهم . لكنهم ان لم يحبوه ، فقد
كلوا يعترفون بحاجتهم اليه . يعترفون مثلاً بعله ، فقد قضى
عشر سنوات في الأزهر . يقول الواحد منهم : « الامام ما
عنده شغلة » . ثم يضيف : « لكن الحق لله لانه فصيح
كلام » . كان يلهب ظهورهم في خطبه ، وكأنه ينتقم لنفسه
منهم ، بكلام متدفق فصيح عن الحساب والعقاب ، والجنة
والنار ، ومعصية الله والتوبة اليه ، كلام ينزل في حلوقهم
كالمسحوق . يخرج الرجل من المسجد بعد صلاة الجمعة زانغ العينين
ويحس وهمة كأن سير الحياة قد توقف . ينظر الى حقله بما فيه
من نخل وزرع وشجر ، فلا يحس بأي غبطة في نفسه . يحس
أنها جميعاً عرض زائل ، وان الحياة التي يحياها بما فيها من فرح

وحزن ، ما هي إلا جسر إلى عالم آخر . ويقف برهة يسأل نفسه ماذا أعد لذلك العالم الآخر ؟ لكن جزئيات الحياة ما تلبث ان تشغل فكره ؛ وسريعاً أسرع مما كان يتوقع ، تغيب صورة العالم الآخر البعيد ، وتأخذ الأشياء أوضاعها الطبيعية . وينظر إلى حقله فيحس مرة أخرى بذلك الفرح القديم الذي يعطيه مبررات وجوده . ومع ذلك فأكثرهم يعودون إليه في كل مرة ، ليجربوا نفس الصراع الفامض . يعودون إليه لأن صوته قوي واضح وهو يخاطب ، عذب رخيم وهو يرتل القرآن ، مهيب حين يصلي على الأموات ، حازم علم ببواطن الأمور وهو يقوم بعقود الزواج . وكانت في عينيه نظرة احتقار وترفع ، يحس الواحد منهم وقمها حين يفقد ثقته بنفسه . كان مثل الضريح الكبير وسط المقبرة .

وكانت البلد منقسمة الى معسكرات واضحة المعالم ازاء الإمام (لم يكونوا ابدأ ينادونه باسمه ، فكانه في أذهانهم ليس شخصاً بل مؤسسة) . معسكر أغلبه من الرجال الكبار العقلاء ، يتزعمه حاج ابراهيم ، ابو نعمة ، يعامل الإمام معاملة رد يشوبه تحفظ . هؤلاء كانوا يحضرون كل الصلوات في المسجد ، ويبدو على وجوههم على الأقل أنهم يفهمون ما يقول ، يدعونه إلى الغداء كل يوم جمعة بعد الصلاة ، كل واحد منهم يدعوه يوماً ، بالتناوب . كانوا يدفعون إليه بصدقة الفطر في عيد رمضان ، ويعطونه جلود النبايح في عيد الأضحي إذا تزوج أحد أبنائهم أو بناتهم ، أعطوه حقه تقدأ

ومعه رداء أو ثوب . شذ عن هذا الفريق رجل في السبعين
اسمه ابراهيم ود طه ، لا يصلي ولا يصوم ولا يزكي ولا
يعترف بوجود الإمام . والفريق الثاني ، واغلبه من الشبان
دون العشرين ، يعادي امام المسجد عدااء سافراً . بعضهم
تلاميذ في المدارس ، وبعضهم سافر وعاد ، وبعضهم يحس على
اي حال بفيض الحياة حاراً قوياً في دمه ، فلا يحفل برجل
صناعته تذكير الناس بالموت . هذا كان فريق المغامرين -
منهم من يشرب الخمر مرأً ولم خفية بالواحة في طرف
الصحراء - ، وفريق المتعلمين الذين قرأوا أو سمعوا بالمادية
الجدلية ، وفريق المتمردين ، وفريق الكسالى الذين يصعب
عليهم الضوء في الفجر في عز الشتاء . ومن عجب ان
زعيم هذه الفئة كان ابراهيم ود طه ، الرجل الذي جاوز
السبعين ، لكنه كان يقرض الشعر . والفريق الثالث ، وقد
كان اكثر المسكرات وزناً ، فريق محبوب وعبد الحفيظ
والطاهر الرواسي وعبد الصمد وحمد ودالريس واحمد أسماعيل
وسعيد . كانوا متقاربي الاعمار ، بين الخامسة والثلاثين
والخامسة والاربعين ، إلا احمد أسماعيل فقد كان في العشرين
لكنه بحكم مسؤوليته وطريقة تفكيره كان واحداً منهم .
هؤلاء كانوا الرجال أصحاب النفوذ الفعلي في البلد . كان
لكل واحد منهم حقل يزرعه ، في الغالب اكبر من حقول
بقية الناس ، وتجارة يخوض فيها . كان لكل واحد منهم
زوجة واولاد . كانوا الرجال الذين تلقاهم في كل امر جليل

يحل بالبلد . كل عرس هم القائمون عليه ، كل مأتم هم الذين يرتبون وينظّمونه . يفسلون الميت فيما بينهم ، ويتناوبون حمله إلى المقبرة . هم الذين يحفرون التربة ، ويحلبون الماء ، وينزلون الميت في قبره ، ويهيلون عليه التراب ، ثم تجدم بعد ذلك في (الفرائش) يستقبلون المعزين ، ويدفرون عليهم فناجين القهوة المرة . إذا فاض النيل أو انهر سيل ، فهم الذين يحفرون الهاري ، ويقيمون التروس ، ويطوفون على الحسي ليلاً وفي أيديهم المصابيح ، يتفقدون أحوال الناس ، ويحصرون التلف الذي أحدثه الفيضان أو التسيل . إذا قيل أن امرأة أو بنتاً نظرت نظرة فاجرة إلى أحد ، فهم الذين يكلمونها وأحياناً يضربونها . لا يعنيهم بنت من تكون . إذا علموا أن غريباً حام حول الحمي حول المغيّب فهم الذين يوقفونه عند حده . إذا جاء العمدة لجمع العوائد فهم الذين يتصدون له ، ويقولون هذا كثير على فلان ، وهذا معقول وهذا غير معقول . إذا ألم بالبلد أحد رسل الحكومة (وهم لا يأتون إلا لما) فهم الذين يستقبلونه ويضيفونه ، ويذبحون له الشاة أو الخروف ، وفي الصباح يناقشونه الحساب ، قبل أن يقابل أحداً من أهل البلد . والآن وقد قامت في البلد مدارس ، ومستشفى ، ومشروع زراعي ، فهم المتعهدون ، وهم المشرفون ، وهم اللجنة المسؤولة عن كل شيء . كان الإمام لا يحبهم ، ولكنه كان يعلم أنه سجين في قبضتهم ، إذ أنهم هم الذين كانوا يدفعون له مرقبه آخر كل شهر ، يجمعونه من أهل الحمي . كل موظف حكومة

يحل بالبلد ، وكل من له حاجة يريد أن يقضيها ، سرعان ما
يكشف هذا الفريق ، فلا تنجح له مهمة أو يتم له عمل إلا
إذا تقام معهم . لكنهم كانوا ، ككل صاحب سلطان ونفوذ
لا يظهرون نزعاتهم الشخصية . (إلا في مجالسهم الخاصة امام
متجر سعيد) . الإمام مثلاً ، كانوا يعتبرونه شراً لا بد منه
فيحبسون ألسنتهم عن ذمه ما استطاعوا ، ويقولون : بالواجب
والجماعة ، كما يقول محبوب . لم يكونوا يصلون ، ولكن
واحداً منهم على الأقل كان يحضر الصلاة مرة في الشهر ، إما
الظهر أو العشاء في الغالب ، فالفجر لا طاقة لهم به -
ويكون غرض الزيارة في الواقع شيئاً غير الاستماع لعظة الإمام
حينئذ يعطون الإمام مرتبه ، ويتفقدون بناء المسجد اذا كان
يحتاج إلى إصلاح .

وكان الزين فريقاً قائماً بذاته . كان يقضي أعظم أوقاته مع
شلة محبوب ، بل انه كان في الواقع إحدى المسؤوليات الكبيرة
الملقاة على عاتقهم . كانوا يحرصون على إبعاده عن المشاكل ،
وإذا وقع في ورطة أخرجوه منها . كانوا يعلمون عنه أكثر مما
تعلم أمه ، يشملونه بعنايتهم وحرصهم من بعيد . وكانوا
يحبهونه ويحبهم . لكن الزين في موضوع الإمام كان معسكراً
قائماً بذاته ، يعامله بفظاظة ، وإذا قابله قادماً من بعيد ترك له
الطريق . ولعل الإمام كان الشخص الوحيد الذي يكرمه الزين ،
كان مجرد وجوده في مجلس يكفي لإفارتة ، فيسب ويصرخ
ويتعكر مزاجه ويتحمل الإمام في وقار هيجان الزين ، ويقول

أحياناً ان الناس أفسدوه بمعاملتهم له كأنه شخص شاذ ، وان
كون الزين ولي صالح حديث خرافة ، وأنه لو ربي تربية حسنة
للسأ عادياً كبقية الناس . لكن من يدري ، لعله هو الآخر
أحس بقلتي في صدره حين حذبه الزين بإحدى نظراته ،
فكل أحد يعلم أن الزين أثير عند الحنين ، والحنين ولي صالح
وهو لا يصادق أحداً إلا إذا أحس فيه قبساً من نور .

إلا أن الأمور اختلطت اختلاطاً غير يسير في (عام
الحنين) فان (خيانة) سيف الدين ، أو (قوبته) (حسب
المسكر الذي انت فيه) ، اضعف فريقاً وقوى فريقاً . كان
سيف الدين بطل الواحة وفارسها وزعيمها . فلما تحول الى
ممسكر الاتقياء العقلاء سرى الرعب في قلوب أصدقائه
القدامى . كان من ناحية وارا ، فكان هو الذي بدفع ثمن
الشراب في أغلب الاحيان . وكان ستاراً مفيداً يخنفون وراءه
في مجونهم ، اذ كانت البلد مشغولة به عنهم . وكان بعضهم
يرى فيه رمزاً حقيقياً لروح الانطلاق والتمرد . وفجأة انهدت
الارض تحت ارجلهم . ثم ان سيف الدين استغل معرفته
بخبائهم ، فاصبح اخطر خصم لهم . واشتد ساعد الإمام
بسيف الدين . كانت الواحة دائماً شغله الشاغل ، وتقوم في
نظره رمزا للفساد والشر . وتادراً ما كانت تخلو خطبة من
خطبه من ذكرها . والآن وقد عاد سيف الدين الى
جادة الصواب ، فقد زادت خطب الإمام قوة ، وزادت

حلقته قوة . واصبح سيف الدين المثل الذي يضربه كل مرة
على ان الخير ينتصر في النهاية . لم يحفل الإمام بأن الحنين ،
وهو يمثل الجانب الخفي في عالم الروحانيات (وهو جانب لا
يعترف به الإمام) كان هو السبب المباشر في توبة سيف الدين .
ممسكراً (الوسط) ، جماعة محبوب ، لم يتأثر كثيراً ، فهم
يعتبرون الواحة ، كالإمام سواء بسواء ، شراً لا بد منه ، ولم
يكونوا يأبهون كثيراً إلى أن بعض شبان البلد يسكرون ،
ما دام ذلك لا يؤثر على سير الحياة الطبيعي . لا يتدخلون
الا اذا سمعوا ان شاباً سكراناً تهجم على انثى او رجل من
اهل الحي . حينئذ يلجأون الى اساليبهم الخاصة ، التي تختلف
عن اساليب الإمام . وفي تأييدهم لبقية الناس ، في محاولة
تهديم الواحة ، لم يكونوا ينظرون الى عملهم كما ينظره الإمام
محاولة لتفليب الخير على الشر . لا بل لان زوال الواحة
سينفيهم عن متاعب عملية ، لا حاجة لهم فيها .

المهم ان الإمام فرح بسيف الدين فرحاً عظيماً . اصبح
يذكره في خطبه . يتكلم وكأنه يتحدث اليه شخصياً . تراه
خارجاً داخلاً معه . وقال احمد اسماعيل المحبوب مرة وهو
يرى سيف الدين والإمام يمشيان معاً ذراعاً في ذراع : (ود
البدوي من الخدم للإمام) .

وكان للإمام رأي فسي امر زواج الزين من نعمة بلت
الحاج ابراهيم .



دخل محبوب دكان سعيد ، ووضع قطعة نقد على الطاولة
فأخذها سعيد في صمت وانزل من الرف علبة سجائر بحاربي ،
ووضعها في يد محبوب ومعها الباقي قطع معدنية صغيرة . بضعل
محبوب سيجارة ، شد منها نفسين او ثلاثة ، ثم رفع وجهه
إلى السماء وقمن فيها دون احساس ، كأنها قطعة ارض رملية
لا تصلح للزراعة . وقال بفتور : « الثريا طلعت . وقت
زراعة المَريّقي » . وظل سعيد مشغولاً بتفريغ علب من
صناديق ووضعها على الرف . بعد ذلك تحرك محبوب وجلس
قبالة الدكان . ليس على الكنية ولكن على الرمل مكانهم
المفضل ، حيث ضوء المصباح يمسهم بطرف لسانه ، فاذا ماجوا
في ضحكهم احياناً تراقص الضوء والظل على رؤوسهم ،
فكانهم غرقى في بحر ينطسون ويطفون . بعد ذلك جاء احمد
اسماعيل يجر جررجه كعادته ، واستلقى بظهره على الرمل
قريباً من محبوب دون ان يقول شيئاً . ثم جاء عبد الحفيظ
وحمد ود الرئيس ، اتا بضحكان . لم يسلموا على صديقيهما ،
وهذان لم يسألأهما عن سر ضحكهما ذلك شيء آخر في تلك
الفئة . كلوا يعلون ، بطريقة ما ، ما يدور في ذهن كل منهم
دون سؤال . وقال محبوب بعد ان بصق على الارض : « انتو
لسع في حكايات سعيد اليوم » ؟ كان احمد اسماعيل قد انقلب
على بطنه فقال وكأنه يحدث الرمل : « لازم المـرء عاوزة
تطلعه » . وقال عبد الحفيظ في مرج ، ان زوجة سعيد اليوم

جامعه في الحقل وقالت له وهي تبكي انها تريد ان تطلق من سعيد . ولما سألتها عن السبب قالت له ان سعيد كلها كلاماً قاسياً في اليلة الماضية وقال لها انها امرأة « جيفة » - هكذا لانها لا تتمطر ولا تترين كبقية النساء . ولما قارعتة الكلام ، صفعها على وجهها وقال لها : « امشي اخدي دروس من بنات الناظر » . وكان الطاهر الرواسي قد وصل اثناء ذلك وجلس في هدوء في المكان الذي لا يصله النور من بقعة الرمل. ضحك وقال : « المسنوح يمكن قايل للناظر بيمرس له واحد من بناته » . وقال عبد الحفيظ انه طيب خاطر المرأة وردھا الى بيتها وقال لها انه سيجيئهم ليكلم سعيد . وفعلًا غدا اليها وقت الظهيرة . لكنه تريت عند باب الدار ، فقد وجدته مفلقاً ، وسمع داخله ضحكات سعيد وزوجته ، ضحكات هنيئة منشرحة ، وسمع سعيد يقول لزوجته ، وكأنه يعض اذنها : « ابكي يا خيتي ابكي » . وضعكوا كلهم : كل واحد منهم على طريقته : احمد اسماعيل يكرر ضحك يزجر بين بطنه وصدره . ومحبوب يضحك في فمه ويحدث طقطقة بلسانه . وعبد الحفيظ يضحك كالطفل . وحمد ود الرئيس يضحك يحسمه كله ، وخاصة رجليه . والطاهر الرواسي يمسك رأسه يجماع يديه حين يضحك . وكان سعيد في دكانه ، فضحك ضحكته الخشنة التي تشبه صوت المنشار في الخشب . وقال محبوب : « المسنوح كيفن قدر في الحردا ؟ »

واستمر حديثهم هكذا . حديث منقطع تتخلله فترات صمت . لم يكن صمتهم ثغرات في الحديث ، بقدر ما كان امتداداً له . يقول احدهم جملة مبتورة : « ... ما عنده فهم ، ويقول الآخر : « ... الفاضي يعمل قاضي » ، ويضيف الآخر : « ... زمان قلنا لكم طلعوه من اللجنة قتلوا لا » ، ويقول الآخر : « ... باذن الله دي آخر سنة ليه » . ولا يدري الغريب عنهم عن يتكلمون . لكن ذلك شأنهم ، يتحدثون وكأنهم يفكرون جهاراً ، وكأن عقولهم تتحرك في تناسق ، وكأنهم بشكل أو بآخر عقل كبير واحد . يمضي الحديث قريباً مثل هذا ، ثم يذكر احدهم عرضاً جملة او حادثة تثير خيالهم جميعاً في وقت واحد ، وفجأة تسري فيهم الحياة فكأنهم كومة قش اشعلت فيها النار . يستوي جالساً الذي كان راقداً على ظهره . ويضم الآخر ذراعيه على ركبتيه ويقرب الذي كان جالساً بعيداً . ويخرج سعيد من دكانه . يقتربون بعضهم من بعض ، حينئذ ، كأنهم يتحركون نحو تلك النقطة ، ذلك الشيء في الوسط الذي يسعون اليه جميعاً . يميل محبوب الى الامام ، وتنفرس يدا احده اسماويل في الرمل ، ويضغط ود الرئيس بيديه على رقبته . هذه هي اللحظة التي تلهم فيها ، بين النور والظلام ، وكأنهم غرقى في بحر . وحياناً يتحدثون في كلامهم ، يتشاجرون ، تخرج الكلمات من افواههم كأنها قطع من الصخر ، تتقاطع جملهم ، يتحدثون في

آن واحد ، ترتفع اصواتهم . في مثل هذه الحالات يظن
الغريب عنهم انهم غلاظ الطبع . لهذا تختلف الآراء فيهم ،
حسب اللحظات التي يرام فيها الناس . بعض اهل البلد
يعتبرونهم صامتين قليلي الكلام ، لأنهم يصادفونهم في احدى
تلك الحالات ، حين يقف حديثهم عند « آ » و « او » و « لا »
و « نعم » . وبعض الناس يقولون عنهم انهم « ضحّاكون »
كالاطفال ، لأنهم صادف ان وجدوهم في احدى حالات غرقهم ،
ويحلف مومى البصير انه زامل محبوب الى السوق - مسافة
ساعتين بالحمار - فلم يقل له كلمة واحدة . كان الناس يتبعون
عن مجالسهم ، لأنهم حينئذ يحسون احساس الغريب ، وكانوا
هم يفضلون الا يكون بينهم غريب . كانوا كأنهم قوائم ، ولكن
اذا عاشرتهم مدة تدرك الاختلافات التي تجعل كل منهم فرد
قائماً بذاته . احمد اسماعيل ، بحكم سنه ، كان أميلهم الى المرح
ولم يكن يبالي اذا انتشى بالخمر في المناسبات . وكان احسنهم
رقصاً في الأعراس . وعبد الحفيظ كان اكثرهم مجاملة للناس
الذين لا يفكرون مثل تفكير « العصابة » ، كما كانوا يسمون
انفسهم ويسميهم الناس . كان هو الذي ينههم الى ان ابن فلان
تزوج ، وفلاناً مات ابوه ، وفلاناً عاد من السفر (من سكان
الاحياء البعيدة عن حيهم) فيذهبون جماعة جماعة في الغالب
للتهنئة او للتعزية . وكان احياناً يذهب للمسجد للصلاة ،
ويحاول الا يقول لهم . وكان للطاهر الرواسي اقربهم الى الغضب

واسرعهم الى امساك عصاه ، او سحب سكينه في اوقات
« الزنقة » . وكان سعيد احسنهم في معالجة الحكام ، يسمونه
« القانون » . وكان حمد ود الرئيس ذا اذن حساسة لاختبار
الفضائح ، يجمعها من اطراف البلد ، من الاحياء البعيدة ،
ويلقيها عليهم في اوقات معينة في مجالسهم . وكلوا يندبون في
الغالب لمعالجة مشاكل للنسوان في البلد . وكان محبوب احبهم
وانضجهم . كان مثل الصخرة المدفونة تحت الرمل ، تصطدم
بها اذا عمقت في حفرك . وكانت صلابته تظهر في الازمات
الحقيقية : حينئذ يصير « رئيس المركب » ، يأمر وهم ينظفون
جاءم مرة مفتش جديد للمركز ، اجتمعوا به مرة ومرتين .
تحدثوا اليه ، وتناقشوا معه . ثم قرروا فيما بينهم انه غير
صالح . وبعد شهر تأزمت الامور ، فقد قال المفتش لبعض
الناس ان « عصابة محبوب » تسيطر على كل شيء في البلد :
فهم اعضاء في لجنة المستشفى ، ولجان المدارس ، وهم وحدهم
لجنة المشروع الزراعي ووصل اليهم ان المفتش قال :
« ما فيش في البلد رجال غير الجماعه ديل ؟ » لما تشاوروا في
الامر بينهم ، كلوا اميل الى الرضوخ للامر الواقع ، وبعضهم
هرض ان يستقيل من عضوية اللجان التي هو فيها . ولكن
محبوب قال : « ما في انسان يتحرك من مكانه » ثم لم يلبث
المفتش غير شهر آخر حتى نقل . كيف تم ذلك ؟ لمحبوب
اساليبه الخاصة ، في الحالات القصوى .

كلنا يضحكون ، حين سمعوا الزين يشتم باعلى صوته :
« الرجل الباطل . الحمار الذكر » . ووصل عندهم ، فوقف
برهة فوقهم ، ساقاه منفرجتان ، ويداه على خصره . كان
نصفه الاعلى كله في الضوء ، ولاحظوا ان عينيه محمرتان اكثر
من احمرارهما الطبيعي . قال الطاهر الرواسي : « واقف فوقنا
مالك دابر تشرب دمنا ؟ يا تقعد يا تنور » . وقال احمد
اسماعيل : « لازم الزين سكران الليلة » . وقال عبد الحفيظ :
« اقعد خذ لك نفس » وقال حمد ود الرئيس : « قالوا الليلة كت في
حوش العمدة . شن مشيت تكوس ؟ البت وعرتسوها ، فاني
شن دابر ؟ » وامسك الزين السجارة من عبد الحفيظ وجلس
صامتاً واخذ ينفخ فيها بغيظ . ضحك الطاهر الرواسي وقال
له : « مو كدى يا مرمد . عامل نفسك كفتجري ومتعلمهم ،
السجارة ماك عارف تشربها . جرها لي ورا . اي كدى ،
زي كأنك تمص فيها » . ونجح الزين في جذب الدخان الى فمه
فنفث منه غمامة كبيرة ، وقفت ساكنة برهة ، ثم ذابت في
خيوط دقيقة ، بعضها نحو الضوء ، والآخر اختلط مع
سواد الليل في الجانب المظلم . وجاء بدوي من عرب القوز
يقصد الدكان فقام اليه سعيد . ومحموه يقول لسعيد : « خمسة
ارطال سكر ونص رطل شاي » . وقال احمد اسماعيل :
« العرب ديل كل قروشن مودرنها في السكر والشاي » .
وهنا صاح الزين بسعيد : « خلي المره تعمل شاي مضبوط

باللبن . يكون مضبوط . فقال له سعيد : « حاضر يا زعيم
نعمل لك شاي مضبوط باللبن » . ثم نادى من شباك يصل بين
المتجر والدار خلفه : « اعملوا قوام شاي ثقيل باللبن للزعيم »
وانتفش الزين ، فقال بمرح : « انا ارجل راجل في البلد دي
ولا ؟ » فقال له الطاهر : « طبعاً » . « طيب ليه الحمار
الذكر يروح لي عمي ويقول له الزين مش راجل بتاع عرس ؟ »
وقال محبوب : « الدا هي بقى افرنجي . وين عرفت الفصاحة
دي ؟ مش راجل بتاع عرس ؟ » وقال ود الرئيس : « الامام
غاير منك . داير المره لي رقبتة » .

فقال الزين : « بت عمي ولا ؟ يروح يشوف له
بت عم » .

قال له محبوب بحزم : « المقد يوم الخميس الجايي : بعد
دا ما فيش طرطشة ورقيص وكلام فاضي . سمعت
ولا ؟ »

سكت الزين :

وسأله الطاهر الرواسي : « منو القال لك ؟ » فقال الزين
« هي نفسها كلمتني » .

كان محبوب ممدداً رجله على الرمل ، متكئاً على ذراعيه
فلما سمع هذا ، تشنج جسمه كأن احداً قرصه ، واستوى
جالساً : « هي بنفسها كلمتك ؟ »

« اي » . جاتني الصباح بدري في بيتنا . وقالت لي قدام
امي : يوم الخميس يقدوا لك علي » . انا وانت نبقي راجل
ومره ، نسكن سوا ، ونعيش سوا » .

وارتفع صوت محبوب من فرط حماسه ، وقال في
اعجاب ليس له حد : « علي » باليمين مره تملا العين .
طلاق ، بت ما ليها اخت » . وجاء سعيد يحمل الشاي ،
فقال له محبوب : « سمعت الكلام دا ؟ البت مشت كلمته
بنفسها » . فقال سعيد : « بت عنيدة رأسها قوي
ربنا يستر » . صمت الباكون برهة ، ولكن محبوب
ضرب فخذه براحة يده عدة مرات ، وقال وهو يتلفت
يميناً وشمالاً ، بحماسة وانفعال : « بين الزين ماش يعرس
له بتا تشبه فوق المجين ما يلخبطه » .

وشرب الزين الشاي ، في صخب كمادته ، يمص الشاي
مصاً له زثير . وفجأة وضع الكوب من يده ثم ضحك .
وقال في سرور : « الحنين قال لي قدامكم كلكم : باكر نعرس
احسن بت في البلد » . ثم انفجر بزغرودة عظيمة ، كزغاريد
النساء في العرس ، وصاح بأعلى صوته : « أرروك يا ناس
الفريق ، يا اهل البلد ، الزين مكتول . كتلته نعمة بنت
الحاج ابراهيم » . وصمت بعد ذلك فلم يفه بكلمة . ولم
يلبثوا ان سمعوا صوت سيف الدين (انتصار آخر للامام)
يؤذن لصلاة العشاء ، فمرت فيهم حركة خفيفة جداً . تنحنج
محبوب ثم وحرك احمد اسماعيل اصابع قدمه بطريقة لا

شعورية ، وتهدد عبد الحفيظ ، ومال الطاهر الرواسي إلى الوراة قليلا ، قال سعيد : « أشهد ألا إله إلا الله ، وراء المؤذن بصوت خافت ، ونفخ حمد ود الرئيس في رمل لا وجود له من يده ولما انتهى الأذان وسمعوا صوت الإمام ينادي في صحن المسجد : « الصلاة ، الصلاة » ، قام كل واحد منهم إلى بيته ليحضر عشاءه . وكما يصلي الناس جماعة في المسجد ، سيمشون هم مجتمعين ، جالسين في دائرة حول صحن الطعام ، يرف عليهم ضوء الصباح الكبير ، الملق في متجر سعيد . يأكلون بنهم ، شأن الرجال الذين تفرق جباههم من الجهد سحابة يومهم . يأكلون الدجاج المحمر ، واللوزية بالمرق ، والبامية المصنوعة في الطاجن . في كل ليلة يذبح أحدهم اما شاة صغيرة ، وإما حلا . ويندو عليهم أطفالهم بمزيد من الأسفل ، ينزل الصحن مليئا وما يلبث أن يرقد فارغا . هذا الوقت من الليل هو قمة يومهم ؛ مثل هذا تعمل زوجاتهم من طلوع الشمس إلى غروبها يأتيهم المرق في صحن عميقة واللحم مغمور في صحن بيضاوية واسعة . يأكلون الأرز وخبزاً سميكاً من القمح ، وفطائر رقيقة تصنع على صاجات ملساء من الحديد . يأكلون السمك واللحم والخضار ، والبصل والفجل ، لا يبالون ماذا يأكلون . حينئذ تتور عضلاتهم ، ويصبح حديثهم حاداً مبتوراً ، يتحدثون وأفواههم مملأة . ويأكلون في صخب تسمع صرير أسنانهم وهي تمضغ الطعام ، وإذا

شربوا تفرقت حلوقهم بالماء . يتكرعون بأصوات عالية ،
ويصيحون بشغافهم . وحين ترد الأواني فارغة ، يوتى
بالشاي ، فيملأون أكوابهم ، ويشمل كل واحد منهم سبجارة ،
ويعد رجله ويسرخي في جلسته . يكون الناس قد فرغوا
من صلاة العشاء . يتحدثون في هدوء وقناعة ، وللملم حينئذ
يشعرون ذلك الشعور الدافئ المطمئن ، الذي يحسه المصلون
وهم يقفون صفاً خلف الإمام ، ككتف بكتف ، ينظرون إلى
نقطة بعيدة غامضة تلتقي عندها صلواتهم . في هذا الوقت
تحف الحدة في عيني محبوب ، وهما سارحتان في الخط الضئيل
الباهت الذي ينتهي عند ضوء المصباح ويبدأ الظلام (أين
ينتهي ضوء المصباح ؟ وكيف يبدأ الظلام ؟) يعمق صمته
وقدذاك ، وإذا سأله أحد أصدقائه فلا يسمع ولا يرد . هذا
هو الوقت الذي يقول فيه ود الرئيس ، فجأة ، جملة واحدة
كانها جبريق في بركة : « الله حي » ، ويميل أحد اسماء ل
برأسه قليلاً ناحية النهر ، كأنه يستمع إلى صوت يأتيه من
هناك . في مثل هذا الوقت أيضاً يقطع عبد الحفيظ أصابعه
في صمت ، ويتنهد الطاهر الرواسي ملء صدره ويقول :
« روح يا زمان وتعال يا زمان » .

هل يحسون حينئذ أنهم يزدادون قريباً من تلك النقطة ؟
أم ترام يدركون أن النقطة الغامضة الصامتة في الوسط ،
أمر قسبي الحياة ولا ينتهي إليها المرء ؟ .
« ايوي ... ايوي . . . ايوي ... ايوي » .

اول من زغردت ام الزين .

كانت فرحة لاسباب عدة . فرحة فرح الأم الغريزي
لزوج ابنها . تلك مرحلة حاسمة ، وكل أم تقول لابنها :
« اشتهي ان افرح بزواجك قبل ان اموت » . وكانت ام
الزين تحس ان حياتها تنحدر للغروب . ثم ان الزين كان ابنها
الوحيد ، بل كان كل ما المحبت ، ولم يكن كبقية الناس ،
فخافت ان تموت ولا يجد من يرعاه . فهذا الزواج اراح بالها .
وزواج الزين مناسبة تسترد فيها هداياها لأهل البلد في زواج
ابنائهم وبناتهم . وكان الناس أحيانا يتمجبون وم يرونها
تسارع بدفع ربع الجنيه ونصف الجنيه في الاعراس ، لاية
غاية ؟ « هل تظن انها سترده في عرس للزين ؟ فكان عرس
الزين مناسبة قطعت السنة الشامتين . والزين لن يتزوج امرأة
من عامة الناس ، ولكنه سيتزوج نعمة بنت الحاج ابراهيم ،
وناهيك بهذا دليلا على كرم الاصل ، والفضل ، والجاه ،
والحسب . ستدخل ذلك البيت الكبير المبني من الطوب
الاحمر (فليس كل بيوت البلد من الطوب الاحمر) ، تدخل
مرفوعة الرأس ، ثابتة الخطوة . سيقومون لها اذا دخلت ،
ويوصلونها للباب اذا خرجت ، ويعودونها كل يوم اذا
مرضت . ستقضي الايام الباقية في حياتها في فراش وثير
من الرعاية والحب . ولعل القدر يملها فتعمل حفيدها او
حفيدتها في حضنها . تزغرد ام الزين ، وتولرد هذه
الحواطر في ذهنها ، فتشتد زغاريدها .

وزغرد معها جيرانها واحباتها ، واهلها وعشيرتها .
لكن كيف حدثت المعجزة ؟

اختلفت الاقويل . قالت حليلة بائمة اللين لآمنة ،
وكأنها تغيظها بمزيد من انباء عرس الزين ، ان نعمة رأيت
الحنين في منامها ، فقال لها : « عرسي الزين . اللي تمرس
الزين ما بتندم » . واصبحت الفتاة فحذت اباها وامها ،
فاجمعوا على الأمر . وهزت آمنة رأسها وقالت : « كلام » .
وزعم الطريفي لزملائه في المدرسة ان نعمة وجدت الزين
في حشد من النساء ، يغازلهن ويمبشن به . فحذتجن بنظرة
صارمة وقالت لمن . « باكر كلكن تا كلن وتشرن في
عرسه » . وخرجت من وقتها فقالت لأبيها وأمها ،
فوافقا على ذلك .

وروى عبد الصمد للناس في السوق ، ان الزين هو الذي
طلب الزواج من نعمة ، وانه صادفها في الطريق فقال لها :
« بت عمي ؟ تمرسيني ؟ » فقالت نعم . وانه هو الذي ذهب
الى عمه وكلمه في الامر فقبل الرجل .

الا ان المرجح ان الذي حدث غير هذا ، وان نعمة ،
بما فيها من عناد واستقلال في الرأي ، وربما بوارع الشفقة على
الزين ، او تحت تأثير القيام بتضحية ، وهو امر منسجم مع
طبيعتها ، قررت ان تتزوج الزين . ويرجع ان معركة عنيفة
دارت في بيت حاج ابراهيم بين الاب والام في طرف ،
والبنات في الطرف الآخر . كان اخوتها غائبين فكتبوا لهم .

ويقال ان الاخوين الكبيرين رفضا البتة ، وان الاخ الاصغر
قبل وقال في جوابه لابيہ : « ان نعمة كانت دائما عنيدة في
رأيا . والآن وقد اختارت زوجها بنفسها فدعوها وشأنها .
خلاصة القول ان حاج ابراهيم اعلن النبأ فجأة . وكانت
الناس كانوا يتوقعونه بعد حادث الحنين . الغريب ان احدا لم
يضحك او يسخر ، ولكنهم هزوا رؤوسهم وزادت حيرتهم
وم ينظرون الى الزين - ينظرون اليه ، فيتضخم في نظرم .
وهكذا انطلقت عقيرة أم الزين بالزغاريد ، وزغرد معها
جيرانها واحباؤها واهلها وعشيرتها ، وكل من يتنقى لها الخير .
« ايوي ايوي ايوي ايوي ايوي » .

لو ان العرس لم يكن عرسه ، لميز الزين صوت كل
منهن في زغاريدها .

هذه بت عبد الله ، صوتها عذب وصرختها قوية من
كثرة ما زغردت في اعراس الآخرين . ظلت عانسا عمرها
فلم تتزوج ، لكنها كانت تفرح لافراح كل احد في الحي .
« اجوج اجوج اجوج اجوجا » .

هذه سلامة ، كانت جميلة ، وكانت تنطق الياء هكذا
وكانت مرهفة الحس . لم يسعدها جمالها ، فتزوجت وطلقت
وطلقت وزوجت ولم تستقر مع رجل ولم تتجب اولاداً ،
حالة الحديث ، مهزارة ، لها مع الزين قصص وحكايات ،
تزغرد لأنها تحب الحياة .
« ايوي . ايوي ايوي » .

هذه آمنة تزغرد من شدة غيظها . (هل تذكر آمنة
وكيف ارادت البنت لابنها فقالوا لها البنت قاصر لم تصر
الزواج ؟)

« اوو ... اوو ... اووا » .

هذه عثمانة الطرشاء، قلبها الاصم عريد بالحب في عرس الزين
ثم اشتعلت شعة من الزغاريد في دار حاج ابراهيم .
قراءة مائتي صوت ، انطلقت مرة واحدة فارجت نوافذ
الدار .

وتزغرد ام الزين فيرد عليها النساء ، وتسمع زغاريدهن
فتزغرد من جديد .

لم تبق امرأة لم تزغرد في عرس الزين .

وماج الحي من اركانه ، وامتلات الدور بالوافدين ،
لم يبق بيت الا انزلوا فيه جماعة من القوم . دار حاج ابراهيم
على سمتها ، امتلات ، ودور كل من محبوب ، وعبد الحفيظ ،
وسמיד ، واحمد اسماعيل ، والطاهر الرواسي ، وحمد ود
الريس . دار الناظر ، ودار العمدة ، وبيت القاضي الشرعي .
وقال شيخ علي لحاج عبد الصمد : « عرس زي دا الله
خلقني ما شفت زبته » .

وقال حاج عبد الصمد : « علي بالطلاق الزين عرس
عرس صح مو كذب » .

اجرى الامام مراسم الزواج في المسجد . ثاب حاج ابراهيم عن ابنته ، وثاب محبوب عن الزين . ولما تم المقد ، قام محبوب ، ووضع المهر على صحن ، حتى يراه كل احد . حادثة جنينه ذهباً ، وهي من حر مال حاج ابراهيم . وقف الامام بعد ذلك ، وادار عليه في الرجال المجتمعين (كانت ام الزين المرأة الوحيدة بينهم) وقال ان الجميع يعلمون انه عارض هذا الزواج ، اما وان الله شاء له ان يتم فهو يسأله سبحانه وتعالى ان يجعله زواجاً سعيداً مباركاً . التفت الناس الى الزين ولكنه كان مطرقاً . وقال محبوب لعبد الحفيظ بصوت خافت : « ايه لزوم ذكر المعارضة والكلام الفارغ؟ » وعجبوا حين رأوا الامام يمشي نحو الزين ، ويضع يده على كتفه ، فالتفت اليه الزين بشيء من الدهشة . امسك الامام يده وشد عليها بقوة ، وقال بصوت متأثر : « مبروك . ربنا يجعله بيت مال وعيال » . تلفت الزين حوله ببلاهة ، ولكن احمد اسماعيل نظر اليه نظرة صارمة فطأطأ برأسه .

دمدم طبل النحاس الكبير وهدر . يقولون انه يتكلم . وقالت بت عبدا لله لسلامة : « النحاس يقول : الزين عرس الزين عرس » . فزغردت سلامة بصوتها الحلو .

تقاطر على الحفل عرب القوز ، يتسابقون على جامهم ، فاستقبلهم الطاهر الرواسي ، واتزلمهم في احدى الدور ، وامر لهم بالطعام والشراب .

وجاء فريق الطلحة عن بكرة أبيه - على رأي المثل -
فتصدى لهم احمد اسماعيل وانزلهم ، ربط دوابهم وجاء لها
بالعلف ، ثم أمر لهم بالطعام فطمعوا وشربوا .

وجاء الناس من بحري . وجاء الناس من قبلي .
جاءوا عبر النيل بالمراكب ، وجاءوا من أطراف البلد ،
بالخيول والحمر والسيارات ، فأنزلوهم زمراً زمراً ، في كل
بيت طائفة ، يقوم على خدمتهم أفراد العصابة ، فهذا
يومهم : يمدون لكل شيء عدته لا تقوتهم صغيرة ولا
كبيرة . لن يمتوا طعاماً ، ولن يذوقوا شراباً ، حتى
يأكل ويشرب الناس .

زغردة منفردة ، ثم مجموعة زغاريد ، ثم طبل وحيد
همهم ، ثم طبول كثيرة لأصواتها أصداء . ولوح الرجال
بأيديهم وهزوا بالعصي والسيوف ، وأطلق العمدة من بندقيته
خمس طلقات . وقالت آمنة لسعدية : « الأمة دي ان
شاء الله تقدروا تكفتوها » . ولم تقل سعدية شيئاً .

نحرت الابل ، وذبحت الثيران ، ووكتت قطعان من
الضأن على جنوبها . كل أحد جاء أكل - حتى شيع وشرب
حتى أرقى .

وكان الزين يبدو مثل الديك ، لا بل اجمل ، مثل
الطاووس . ألبسوه قفطاناً من الحرير الأبيض ، ومنطقوه
بجزام أخضر ، وعلى ذلك كله عباءة من الخمل الأزرق ،
فضفاضة يملأها الهواء فكأنها شرع ، وعلى رأسه عمامة

كبيرة تميل قليلا الى الأمام ، وفي يده سوط طويل من جلد
التمساح ، وفي أصبعه خاتم من الذهب ، يتوهج في ضوء
الشمس نهاراً ويلعب تحت وهج المصابيح بالليل ، له فص من
الباقوت ، في هيئة رأس الثعبان . كان منتشياً دون شرب
من الضجة الكبيرة التي تضج حوله ، يتسم ويضحك ،
يدخل ويخرج بين الناس ، يمز بالسوط ، ويقفز في الهواء ،
يربت على كتف هذا ، ويمر هذا من يده ، ويحث هذا على
الأكل ، ويحلف على هذا بالطلاق ان يشرب . وقال له
محبوب : « دحين أصبحت بسني آدم . حلفتك بالطلاق يا
دوب أصبح ليها معنى » .

جاء تجار البلد وموظفوها ووجهاؤها وأعيانها . وحضر
أيضاً الحلب المرابطون في الغابة .

جاء بأحسن المغنيات وأحسن الراقصات ، ضاربات
الدف وعازفي الطنابير . وأخذت فطومة ، وكانت أشهر
مغنية غربي النيل ، تشدو بصوتها المثير :

« انطق يا لسان جيب المديح اقداح
الزين الطريف خلا البلد أفراح »

وجرجروا الزين وأدخلوه عنوة حلبة الرقص . فهز
بسوطه فوق المغنية ووضع على جبهتها ورقة جنية . وتفجرت
الزغاريد مثل الينابيع .

اجتمعت النقائض تلك الأيام . جواربي الواحة غنّين

ورقصن تحت سمع الإمام وبصره . كان المشايخ يرتلون القرآن في بيت ، والجواري يرقصن ويغنين في بيت ، المداحون يقرعون الطار في بيت ، والشبان يسكرون في بيت . كان فرحاً كأنه مجموعة أفراح . وكانت أم الزين ترقص مع الراقصين ، وتلشد مع المنشدين . تقف هنيئة تستمع للقرآن ، ثم تهول خارجة إلى حيث يطهى الطعام ، تحت النساء على العمل . وتجري من مكان إلى مكان وهي تنادي : « ابشروا بالخير . ابشروا بالخير » وقالت حليلة ، بائعة اللبن ، تفيظ آمنة : « أريتُ يا يمّ عرس السرور » .

نقرت « الدلائك » نقرات نشيطة متحفزة دقات الدليب . وغنّت فطومة : « التمرّ الليمرق بدري سارق نومي شاغل فكري » وقف الرجال في دائرة كبيرة ، تحيط بفتاة ترقص في الوسط ، ثوبها انحدر عن رأسها ، وصدرها بارز للأمام ، ونهداها فافران . ترقص كما تمشي الأوزة ، ذراعها إلى جانبيها تحركها في تناسق مع رأسها وصدرها ورجليها . ويصفق الرجال ويضربون الأرض بأرجلهم ، ويمحمون بحلوقهم . وتضيق الدائرة على الفتاة ، فتدغمي شعرها المشط المعطر على وجه أحدهم . ثم تتسع الدائرة . وتماوج الزغاريد ، ويشدد التصفيق ، ويقوى وقع الأرجل على الأرض ، ويخرج الغناء سلساً ، ملحقاً من حلق فطومة :

و الزول الكونه قشاي طول الليل عليه بشاي ،
وانتشي ابراهيم ود طه من الغناء ، فصاح : د آه . قولي
كان الله يرضى عليك ، .

رقصت حشانة الطرشاء ، وصفق موسى الأهرج . ولم تلبث
دقات الدلايلك أن أبطأت وأصبح لها أزيز مكنوم . هذه
نقرات الجابودي . وقويت حممة الرجال في حلقوقهم . ودخلت
سلامة حلبة الرقص . صالت وجالت ، وهي تروى وتختال
مثل المهرة . كانت خير من يرقص الجابودي ، وكانت لها
محببون كثيرون ، ترقبها عيونهم فتنتفلت منها كالسمكة في
الماء . كفت حلقة الرقص ، واشتد التصفيق ، وهدرت
أصوات الرجال ، ودخل الزين الحلبة ، دخل من تلقاء نفسه
هذه المرة ، طويلا فوق سلامة ، فلطمته بشعرها الطويل
المنهدل فوق كتفها ، وهمزته بعينها . وكان الإمام جالساً مع
جماعة ، في ديوان حاج ابراهيم الذي يشرف على فناء الدار ،
فعالت منه التفاتة ، ووقعت عينه على سلامة وهي منهمة في
رقصها . ورأى صدرها البارز ، ورأى كفلها الكبير ، حين
تضرب برجلها ياتز ويترجرج ، منقسماً الى شقين كأنها نصفان
بطيخة ، بينهما وادٍ هبط فيه الثوب . وكانت سلامة في رقصها
قد انثنت حتى أصبح جسمها في شكل دائرة ، فس شعرها
الأرض ، وزاد بروز صدرها ، وفتوه كفلها ، ورأى الإمام
ساقها اليمنى وجزءاً من فخذهما الممتلئ ، وقد رفع عنه الثوب .

وحين عاد الإمام بوجهه الى محدثه ، كانت عيناه مريدين مثل
الماء العكر .

« ايبيبيويا » .

هذه حليلة بائنة اللبن ، تغرد طمعا في خير تناله من أهل
العرس .

وتحولت دقات الدلائيك الى العرضة . دقات سريعتان
وأخرى منفردة . وأخذ الرجال يرمحون بأقدامهم كما تحب
الحيل . وتقاطر عرب القوز على حليلة الرقص ، فتواثبوا
وتصايحوا وطرقوا بأسواطهم . رجال قصار القامات
مشدودو العضلات ، اجسامهم ريانة ندية في مثل لون الأرض
لأنهم يعيشون على لبن الابل ولحم الغزلان يلبس الواحد منهم
ثوباً يربطه في وسطه ويلقي طرفيه على كتفيه . اذا قفز في
الهواء لمع جسمه في ضوء الشمس يلبسون في ارجلهم اخفافا
وفي فراع كل منهم سكين في غمده . وتختلط أصوات
الراقصين وضربات الدلائيك بدقات الطار ونشيد المداحين في
البيت المجاور . هناك اجتمع حشد آخر في شكل دائرة ايضاً
ويدور فيها رجلان كل منهما يمسك بالطار احدهما الكورثاوي
وعمد المداحين . كان يقول :

« نِعمَ بِالعَبَا وَرُوحِ بِي سَبَلُ القُرْشِ شافِ
العَلَمُ لَوْحُ زَارِ جَدِّ الحَسَنِ »

وتدمع اعين الناس ، وبعضهم يحش بالبكاء ، خاصة الذين

حجوا وزاروا مكة والمدينة والاماكن التي يصفها الملاح .
ويضي الرجل عرج ، في صوت له بجة اشتهر بها :

د نعم العبا وحادا

بي سهل القريش شاف العلم فادى

زار جد الحسين

فرشوك الزبيب والتين والخبص .

كاسات من حيا قالو له هاك اشرب

زار جد الحسين ،

وتختلط زغاريد النساء في حلقة المديح بزغاريد النساء في
حلبة الرقص . وأحيانا عاجر فريق من حلبة الرقص إلى
حلقة المديح . هناك تتحرك أرجلهم ويشور حماسهم ، وهنا
تدمع أعينهم . كذلك يتحول فريق من حلقة المديح إلى
حلبة الرقص ، عاجرون من الشوق إلى الصخب .
وفجأة تبه محبوب .

أين الزين ؟

كان مشغولا بكبية عصائه بتنظيم الفرع ، فاختفى
الزين عن عينه .

سأل عنه كلا من الباقيين ، فقالوا ان أحدا منهم لم يره
منذ قرابة ساعتين . وقال عبد الحفيظ انه يذكر أنه رآه
اخر مرة يستمع للمداحين .

بدأوا يبحثون عنه ، دون ان يحس أحد ، بخافة ان
يقتل الباقيون . لم يجدوه مع الحشد المجتمع مع الإمام في

السماوات الكبير ، ولم يكن في حلقة المديح ، ولم يكن مع أي من جماعات الرقص المتناورة في البيوت . دخلوا المطابخ حيث النسوة يزحن أمام الأفران والقصور ، فلم يكن الزين هناك .

حينئذ أصابهم الذعر ، فإن الزين قد يفعل أي شيء ، قد ينسى أمر زواجه ، ويختفي حكمادته .

وتفرقوا يبحثون عنه ، فلم يتركوا موضعاً . بعضهم ضرب في الصحراء قبالة الحي ، وبعضهم ذهب ناحية الحقول ، حتى ضفة النيل . دخلوا البيوت بيتاً بيتاً . تفرسوا تحت جذع كل نخلة وكل شجرة .

لم يبقَ إلا المسجد . لكن الزين لم يدخل المسجد في حياته ، كان الوقت أوائل الليل ، ليل كثيف مظلم . وكان المسجد ساكناً خاوياً ، قد تسرب الضوء من مصابيح العرس خلال نوافذه ، في خطوط مستطيلة من النور ، انعكس بعضها على السجاجيد ، وبعضها على السقف ، وبعضها على المهراب . وقفوا ينصتون فلم يسمعوا حساً ، إلا أصوات العرس تتناهى إليهم . وتنادوا باسمه وبحوثوا في أركان المسجد وفي ردهاته فلم يجدوا الزين .

وفقدوا الأمل . لا بد أنه هرب . لكن إلى أين ، والبلد كلها مجتمعة عندهم .

ويغتنى خطر خاطر في ذهن محبوب ، فصاح : « المقبرة ! » . لم يصدقوا . ماذا يفعل في المقبرة في ذلك الوقت من الليل ؟

لكن محبوب سار أمامهم فتبعوه .

ساروا صامتين وراء محبوب بين القبور ، تلتأى اليهم أصوات الغناء والزغاريد عالية واضحة ، ثم خافتة بعيدة . كان المكان بلقماً ، إلا من شجيرات السلم والسيال التي تناثرت بين المقابر ، وامتلات الثغرات بين فروعها بالظلام فبدت كأنها سفن في لجة . وفي الوسط بدا الضريح الكبير غامضاً غميفاً . وفجأة وقف محبوب وقال لهم : « اسمعوا ، لم يسمعوا شيئاً أول الأمر ، فأرهموا أذانهم ، فإذا بنشيج خافت يتناهى اليهم .

سار محبوب ، وساروا وراءه ، حتى وقف فوق شبح جائم عند قبر الحنين . وقال محبوب : « الزين . الجابك هنا شنو ؟ » .

لم يرد ، ولكن بكاءه اشتد حتى أصبح شقيقاً حاداً . وقفوا وقتاً يراقبونه في حيرة . ثم قال الزين في صوت متقطع ، يتخلله النحيب : « أبونا الحنين إن كان ما مات كان حضر العرس » .

ووضع محبوب يده على كتف الزين برفق وقال له : « الله يرحمه . كان راجل مبروك . لكن الليلة ليلة عرسك . الراجل ما بيبيكي ليلة عرسه . يا الله أرح » .

وقام الزين وسار معهم .

وصنوا الدار الكبيرة ، حيث أغلب الناس ، فاستقبلتهم
الضجة ، وغشيت عيونهم أول وهلة من النور الساطع المنبعث
من عشرات المصابيح . كانت فطومة تنفي ، والداليلك ترجرجر ،
وفي الوسط فتاة ترقص ، وحولها دائرة عظيمة فيها عشرات
الرجال يصفقون ويضربون بأرجلهم ويحمحمون بحلقهم .
انفلت الزين ، وقفز قفزة عالية في الهواء فاستقر في وسط
الدائرة . ولمع ضوء المصابيح على وجهه ، فكان ما يزال مبتلأ
بالدموع . صاح بأعلى صوته ، ويده مشهورة فوق رأس
الراقصة : « أبشروا بالخير .. أبشروا بالخير » . وفار المكان ،
فكانه قدر تقلي ، لقد نثت فيه الزين طاقة جديدة . وكانت
الدائرة تلتع وتضيق ، تلتع وتضيق ، والأصوات تفتس
وتطفو ، والطبول ترعد وترجرجر ، والزين واقف في مكانه في
قلب الدائرة ، بقامته الطويلة ، وجسمه النحيل ، فكانه
صاري المركب .

- انتهت -

ضوء البيت

(بندر شاه)

التهنئة

إلى أبيّ ،

محمد وعائشة .

وإلى أخويّ ،

علويّة وبشير .

الدرب أنشَحَطَ ، والثومُ جباله أتناطُنْ
والبنْدُرُ فوانيسُه البَيُّوقَدَنُ ، ماتَنُ ،
بَنُوتُ مَضالِيمِ الحَلَا البَنجاطُنْ ،
أمرع ، قودع ، امسيتْ ، والمواعيد فاتنْ .
شاعر سوداني مجهول

إِلا ، لا أرى مثلي أمتَرى اليَومَ في رنمِ ،
تقصُّ به عيني وينكرهُ وهني ،
أنتِ صورُ الأشياءِ بيني وبينه ،
فجعلي كلاً جهلٍ ، وعلمي كلاً علم .
أبو نواس

عبثت بي الأشواق	في حضرة من أهوى
ورقصت بلا ساق	حدقتُ بلا وجه
وطبولي الآفاق	وزحمت برأياقي
وفنائتي استغراق	عشقي يفني عشقي
سلطان العشاق .	ملوكك لكفي

القيتوري

كان محبوب مثل نمر هرم ، جالساً جلسته القديمة رغم
السنين والعملة ، أبداً كأنه يتحفز للوثوب ، معتمداً يديه على
عصاه ، وذقنه على يديه ، متلفحاً ثوبه على رأسه فوق العمامة .
عمقت الأخاديد التي على خديبه عند القم ، والتجاعيد على
الجبهة ، وفي العينين تحولت تلك الحدة مع مرور الأيام ،
وذكريات المارك والهزائم ولا شك ، إلى حمرة عليقة . لم يمد
في العينين إلا الغضب . كنا أمام دكان سعيد ، والليل يزحف
حينئذ على ود حامد . قال محبوب موجهاً كلامه إلى الرمل
عند مُنْفَرَسِ عصاه :

« غَيْبَتَكَ طَالَتْ مِنْ الْبَلَدِ »

أطرقت أفكر . ماذا أقول في مثل تلك الظروف
والأحوال ؟ نعم ، سنوات .

قلت لمحبوب : « الحركة والسكون بيد الله »

ضحك الطاهر ود الرواسي كما كان ود الرواسي يضحك

تلك الأيام ، وقال من مكانه المغم على بقعة الرمل ، بنى
عن ضوء الصباح :

« شِنْ^(١) يَسُوِّي في البلد الفقْرُ دِي . أخير^(٢) له
هناك في محلّه ،

عبد الحفيظ كان أكثرهم تساعاً من قبل ، أيام كان يستطيع
أن ينظر من جانبيين . أما الآن ، وقد حدد لنفسه موقفاً ،
فلم يكن غريباً أن يقول بصوت خالي من الود ، فيه إيماءات
الشجار :

« محله وين ؟ عله هنا . إن طال وان قصر يا هو دا محله »
قلت ، وأنا أحاول عبثاً أن أعيد الزمن إلى سابق عهده :
« على أي حال ، هنا ولا هناك العمر ما فضل فيه
غير أيام »

وكأنما سمع ود الرواسي الاستغاثة فقال :

« يا زول^(٣) . طيب لمن شِنْ نَقُول ؟ »

وظل محجوب معتمداً بيديه على عصاه ، وذقنه على يديه .
لم يكن حمد ود الرئيس موجوداً ، ولا كان أحمد أبو
البنات . وظل سعيد في دكانه يفرغ أشياء من صناديق ويضعها
على الرفوف ، ومعه حفيد له يعارنه . من جوف الدكان قال
سعيد شيئاً فهمه الطاهر الرواسي وضعك له ، بينا الليل
يجمع أطرافه ويتكثف ويمحو معالم البلد ، محوك كتابة
بالطباشير على سبوره .

(١) ماذا . (٢) افضل . (٣) رجل .

انتبهت فجأة لصوت المؤذن « حي على الصلاة حي على
الفلاح » . كان صوتاً اخرق ضعيفاً فاقد الرنين . سألت عنه ،
فقال عبد الحفيظ « سعيد » . أيضاً لم أميزه ، فقال محبوب
ساخراً « سعيد عشا البايئات » ، وقال ود الروامي « ما
تقول له سعيد اليوم . شن عرفه بي عشا البايئات ؟ »

قلت « سعيد اليوم أصبح سعيد عشا البايئات ؟ »
ضحك محبوب ، لا كما كان يضحك تلك الأيام ، وقال :
« ولمسع ياماً تسنم وتشوف » ،

هنا خرج سعيد من دكانه يحمل علبة سجائر ، عرضها
علينا وقبلنا ما عدا محبوب ، وقال :

« ما دام عبد الكريم ود أحمد بقي متصوف ، والزين
أصبح من الأعيان ، وسيف الدين على وشك يعمل فائب في
البرلمان ، ايه الغريب سعيد اليوم يكون اسمه سعيد عشا
البايئات ؟ »

وقلت « عجائب » وأضاف سعيد الذي كان يلقب بالقانوني
في الزمن السابق :

« يا زول . انت عاوز حصه طويله على شان نفهمك
النظام الجديد في البلد . انت فاكير ود حامد هي ود حامد
ال إنت عارفها ؟ »

لا . لم أكن أظن ذلك . ولكنني لم أتوقع أن يصبح سعيد
اليوم مؤذناً . قلت لهم :

« سيف الدين حصل عليه شنو ؟ ارتد ثاني ولا إيه ؟

وقال سعيد :

« انت لست في أيام سيف الدين ؟ يمكن زياده عن سته مؤذنين اتقلدوا المنصب بعد سيف الدين . دلثوقي يا سيدي نحن في عهد سعيد عشا البايتات ،

وقال الطاهر الرواسي :

« سيف الدين من زمان ترك الامام . بقى زي ما تقول بَيْنَ بَيْنَ . رجل في الجنة ورجل في النار ،

وقال سعيد :

« مثل فاس الزمن كلهم . الزمن دا الناس كلهم بقوا بين بين ،

وسمعت محبوب يكركر مثل البعير بغيظ ، وقال الطاهر :

« وانت يا أبو القوانين ؟ بقيت مع فاس الزمن ، ولا صالِدْ زي محبوب النمر ؟ ،

صمت سعيد كان تذكيره بلقبه القديم قد فاجأه ، ثم قال بين الضاحك والغاضب :

« القوانين الله يطيري زمانها بالخير . دلوقت أولاد بكري يقولوا علي سعيد المشوشير . الـ ينحث عن حقه الزمن ده يقولوا عليه مشوشر ،

أضاف محبوب بالطريقة ذاتها :

« أولاد بكري إن شاء الله ما تتعديل عليهم شئ »
إيش ما قبلوا ،

وسألت محبوب ماذا فعل أولاد بكري فقال :
« أسأل سعيد يقول لك »

كان عبد الحفيظ قد تواضاً خلال هذا الحديث دون أن
يشارك فيه ، وهو يبتهل ويهمهم . ولما نادى المنادي للصلاة
في صحن المسجد ، قام مهرولاً قائلاً :
« نحصل الصلاة قبل ما تفوتنا »

كأنني كنت أتوقع شيئاً لن يحدث ، إذ ان محبوب أيضاً
وقف معتمداً على عصاه ، يتأوه ويتبرم . وقال :
« انا كان اقوم لي أهلي . الليل ليل »
ونادى سعيد وراءهما :

« ما تحضروا معانا العشاء ولو على شان الرجل الضيف دا »
ذهب محبوب كأنه لم يسمع وقال عبد الحفيظ من بعيد :
« العشاء ملحق . لكن^(١) الصلاة مع الجماعة ما بتتلحق »

جاء الطاهر الرواسي وجلس يجواري على الكنبه ، وظللنا
وقتاً صامتين ، وأنا أرهف السمع لأصوات الليل في ود حامد .
ثغاء شياه وبقرة أو ثور يخور ، وأصوات شجار ، وصوت
غناء في مذابح . فوج من صراخات تلتقي وتفرق ، في مكان
ما ، في جهة ما ، لا تدري هل هي أصوات مأتم أم عرس ،
(١) لكن .

لا تدري هل تجيء من قبلي أم من بحري . ضوء سيارة يقترب
ويتضح ويملو ويفوت . مكنت الماء على الشاطئ ، ووشوشة
هواء الليل الرطب في جريد النخل . دكان سعيد كحاله وبقعة
الرمل كحالها والليل والنجوم . وقال الطاهر الرواسي :

« مسكين محبوب كبير »

. وقال سعيد من بطن الدكان :

« انت يا ود الرواسي مالك ما بتمجّز مع انك أكبر
مننا كلنا ؟ »

فقال الطاهر :

« عشان أنا قلبي ميت . ناس محبوب وانت قلوبكم حاره .
الزمن دا الواحد يقيف بعيد يتفرج ويتمجب »

وخرج سعيد وجلس جواراً على الكنبه . وقالت لسعيد :
« الدنيا كلها تكبر والكنبة دي في حالتها »
ضحك سعيد وقال :

« دا شغل ود البصير رحمة الله عليه . تقول حديد . شغل
الزمن دا زي الورق »

وقال الطاهر :

« محبوب عنده مع حرارة القلب الأزمه . طلعت عينه »
وقال سعيد :

« والله يا خوي بقينا كلنا يا ساتر استر . إذا ما كان

الأزمه يبقى وجع الكلى أو البطن أو المفاصل . غايته
الله كريم .

وقال الطاهر :

« علشان ما بتسمعوا الكلام . زمان قلنا لكم عليكم بالحلبه
والجوزبيل . الجوزبيل الصباح على الريق والحلبه قبل النوم .
والعجب كان تشرب لك كباية سمه كل يوم » .

وقال سعيد :

« كله جربناه ما نفع . بلدي وافرنجي . حقن بنسلين على
فيتامين . شربنا مية القَرَهْهْ والخرَجَلْ وقرشنا التوم
والبصل . وآخر الزمن كان ناس قالوا تسوي الحنّه . وناس
قالوا تقعد فوق دخان الطلح . يا زول . الكلام على صحة
الجسم الأولانيه » .

وقال الطاهر :

« صدقت والله . ما في شيء زي النشاط . الجسم دا ياما
حملناه حامل . يا زول . الواحد كان زي البغل . إن رفض
الجلبل يهدّه » .

وساد صمت له طعم تلك الأيام ، أيام كان الطاهر الرواسي
ورفاقه ، عصابة محبوب ، يجلسون على بقعة الرمل تلك ،
أمام دكان سعيد ، والطاهر الرواسي يتنهد ملء صدره ،
ويقول « روح يا زمان وتعال يا زمان » .

تنهد الطاهر الرواسي الآن ، بقدر ما استطاعت رثنا رجل
جاوز السبعين وقال « وين ثاني يا حاج سعيد نلقى مثل
الأيام ديك ؟ »

وكان أحفاد سعيد قد فرشوا الأبسطه قبالة الدكان ،
وضعوا عليها سفرة كبيرة ، قمنا ثلاثتنا وجلسنا إليها .
لم يكده سعيد يرفع الغطاء عنها ، حتى وصل عبد الحفيظ .
جلس بيننا قائلاً :

« ما قلت لكم العشاء ملحق ؟ »

قال له سعيد « الصلاة مقبولة يا حاج »

وقال عبد الحفيظ « الإمام عيان الليلة »

وقال الطاهر « مين أم الناس بدله ؟ »

فقال سعيد « الطاهر عامل متغايي . طبعاً النائب . وقت
الإمام يغيب ، منو اليشم الناس غيره ؟ »

قلت لعبد الحفيظ « لا بد نائب الإمام انت »

فقال عبد الحفيظ « سعيد وود الرواسي المسخره ما يخلوها
أبدا . الحكاية ما فيها رئيس ونائب وقت الإمام يغيب أبداً
من كان يصلي بالناس » .

فقال الطاهر :

« على أي حال الإمام ليه زمن متعلعل . والصلاة نفسها
زي كانه ما ليه فيها كبير غرض . ليه رأيك يا حاج
عبد الحفيظ تبقى إمام بالمرّة »

فقال عبد الحفيظ غاضباً :

« يا جماعة انتو أصبحتوا شُيَّبْ وعقولكم عقول أطفال ؟
هُوَ كَوْنُ الانسان يبقى أمام لعبه ؟ دا راجل عالم ومتفقه
في الدين . البلد كلها ما فيها أمام مثله . وقت الله يتوفاه ،
بمدين نشوف »

قال سعيد :

« والزعل لزومه شنو ؟ الطاهر معاه حق . الحكاية مش
صلاة الميدين وخطبة الجمعة وصلاة التراويح ؟ »

وأضاف ود الروّاسي :

« والحمد لله رب العالمين ولا الضالين آمين . وحتى خطبة
الجمعة اياها الكلمتين . اللهم انصر المسلمين واحفظ أمير المؤمنين .
وين أمير المؤمنين دا عاوزين نعرف ؟ »

فقال عبد الحفيظ :

« لا حول ولا قوة إلا بالله . انت يا ود الروّاسي ايش
عرفك في خطب الامام ؟ طول عمرك لا اتوضيت ولا صليت .
الجامع من الله خلقك ما دخلته ولا عتبت على بابه .

فقال سعيد :

« يا عبد الحفيظ خاف الله . كيف ود الروّاسي ما شاف
الجامع ؟ هو في انسان ساعد في بناء الجامع اكثر من
ود الروّاسي ؟ »

فقال ود الرواسي موجهاً كلامه إليّ :
« شايف يا محميد ؟ شايف ناس الزمن دا كيف بقوا
ينكروا الحق ؟ والله صدق ابراهيم ود طه . يقول لي يا ود
الرواسي اتجنّب ناس الدقون^(١) والسبح . ما يحبك من ورام
إلا الشر . انا يا عبد الحفيظ ما أعرف الجامع ؟ في الحر والبرد
منو نقل المويه^(٢) والطوب ؟ منو الوقف لحد ما السقف اترفع ؟
منو اشتغل طول الليل وقت الرجال شخّرت ؟ منو ... بس
نقول شنو ونعيد شنو ؟

فصاح عبد الحفيظ غاضباً :
« علشان جنّس الكلام دا أنا بطّلت قعدة دكان سعيد .
بالله وثا لله لولا الراجل الضيف دا ما كنت جيت المجلس دا ،
ونفض يده ووقف . فصاح به سعيد :
« يا أخي انت جنّيت^(٣) والا شنو ؟ الحكاية ونسه .
انتو عاوزين تحجّجروا الكلام على الناس ؟ يا أخي الجامع ما
تراه واقف ؟ في انسان عاوز يبيعه ولا يشتريه ؟ الـ يصلي
والـ ما يصلي كلهم اشتغلوا . والأجر والثواب عند الله .
بسم الله الرحمن الرحيم . يا أخي انتو عاوزين تجيبوا الاسلام
مين أول جديد ؟ »

قلت لعبد الحفيظ لا عليك اجلس ولكنه لم يثن وقال :
« انتو ناس ربنا عمى بصيرتكم . جنّس الكلام دا لا

(١) الماء .

يُودِّي ولا يجيب . وقِلْتُهُ أخير . سلام عليكم ، ومضى .

* * *

إذا كان الأمر قد بدا لي كما حدثتكم في تلك الرحلة ،
فلعله يشفع لي انني لم أتعمد تضليلكم . كان جدي كما ذكرت
لكم . وكانت علاقتي بجدي تبدو لي في ذلك الوقت ، وبعده
بسنوات طويلة ، كما ذكرت لكم في تلك الرحلة . ثم وقعت في
البلد تلك الواقعة التي لا يحيط بها وصف ، لا في رحلة واحدة
ولا في رحلات عدة ، ولا حتى في العمر بأسره . فجأة اختل
ذلك التناسق في الكون . فإذا نحن بين عشية وضحاها لا
ندري من نحن وما هو موضعنا في الزمان والمكان ، وقد خيل
إلينا يوماً أن ما وقع قد وقع فجأة . ثم تكشف لنا رويداً
رويداً ونحس في ذلك الخضم المتلاطم بين الشك واليقين ،
أن ما حدث كان مثل سقف البيت حين يسقط . لا يكون
قد سقط فجأة ولكنه يظل يسقط منذ أن يوضع في محله أول
مرة . بلى اننا جربنا شق سبل المقاومة ؛ قلنا ان ما
حدث شيء قائم بذاته ، لا صلة له بما كان وما سيكون ،
ظاهرة شاذة بمنزلة كان تلد العنز عجلاً أو ثمر النخلة
برتقالاً . ثم عدنا فقلنا أن ما حدث لبندر شاه وأولاده هكذا ،
ولكنه ما كان ليحدث لنا لأننا لسنا مثل لبندر شاه وأولاده .

ويرد الناس بعضهم على بعض وهم يتشئون بأوهى الأسباب ،
صدقتم ، صدقتم ، ويصمتون صمتاً قلقاً هشاً كما يهدأ الموجع
برهة ثم تعود الفوضى حين يقول أحدهم :

« يا جماعة خافوا الله . كيف تقولون بندر شاه وأولاده
ليسوا مثلنا . قسماً مثلنا وأحسن منا .. كانوا والله زينة
الرجال »

يعاودنا الخوف الدفين ، لأننا نعلم أن هذا هو الحق .
كان بندر شاه حين يحضر إلى عرس أو إلى مأتم يحيط به
أبناءؤه الأحد عشر وحفيده مريد ، ترقى إليهم الأبصار
وتنفو لهم الخواطر لأنهم كانوا ملء السمع والبصر ، زينة الرجال
في البلد .

يقول أحدنا في حسرة :

« يا جماعة . بندر شاه كأنه فتحت له ليلة القدر .
عمل ما يضع رجله يلقي فايذة . محصول التمر الامام دا بطل
مع كل إنسان إلا مع بندر شاه » .

وفي الحال يرتفع أكثر من صوت يقول للمعتز « يا فلان
استغفر الله ، كيان بقينا نحسد بندر شاه ؟ هل أنت أو نحن
نبذل ربع الجهد الذي يبذله بندر شاه وأولاده ؟ »

وما يلبث فلان المعتز أن يراجع نفسه ويقول :

« والله صدقتو يا جماعة . بندر شاه وأولاده ما هم مثلنا .

دليل ناس ربنا راضي عنهم . كل خير يحبسهم حلال عليهم .

ولم يكن عجبنا ينتهي من التشابه الغريب بين بندر شاه وحفيده مريود ، فقد كان الحفيد في هياته وسلوكه مطابقاً تماماً لجده ، كأنما الصانع العظيم صنعها في وقت واحد من طينة واحدة ، وقدم لأهل البلد بندر شاه ، ثم بعد خمسين أو ستين عاماً قدم لهم بندر شاه مرة أخرى على هيئة مريود . تخيل توأمين تأخر وصول أحدهما عن الآخر خمسين أو ستين عاماً . القامة والوجه والصوت ، والضحكة ، العينين ، نصوع الأسنان ، نتوء الذقن ، القومة والقعدة وطريقة المشي . وحين يضافحانك ينصبان على يدك بالجسم كله ، وينظران إليك ، لا كما ينظر بقية الناس وجهاً قبالة وجه ، بل من جانب الوجه نظرة ودودة ولكنها متمعة متفحصة . وحيث تقف بينهما تحس كأنك تقف بين مرأتين وضعت إحداها قبالة الأخرى ، كل واحدة منها تعكس الصورة نفسها في امتداد لانهائي .

كان مريود هو وكيل الجسد ونائبه وقائم مقامه . أذكر أنني دهشت دهشة عظيمة أول مرة رأيت ذلك . كان مريود يكبرني بعام أو نحو عام ، ولم يكن سنه يزيد عن الخامسة عشرة حينئذ . جاء إلي جدي وقت الضحى وعند جدي مختار ود حسب الرسول ، وحمد ود حليلة ، وأنا ، منزو في ركن كعادي لا أتكلم إلا إذا سئلت ، وإذا

تكلمت لم أزد على جملة أو جملتين . دخل مريود وسلم عليهم
ينادي كلا منهم باسمه الجرد ، لا عمي فلان أو جدي فلان .
ثم جلس دون أن يؤذن له بالجلوس قبالة جدي . لم يكن
وقفاً .. لا .. ولكنه كان واثقاً من نفسه ثقة تقرب من
الوقاحة .. لم يضيع أي وقت في المحاملات ، ودخل في
موضوعه مباشرة متجاهلاً الرجلين الآخرين :

« بندر شاه يقول انه اشترى المعجل منك ،

فقال جدي :

«بندر شاه يشتري ولا ما يشتري هو حر. لكن أنا ما بعت»

فقال مريود ضاحكاً :

« إذا كان بندر شاه اشترى منك لا بد انك بعت ،

فقال جدي :

« جدك عرض اتناشر وانا طالب سبعتاشر ،

لم يقل مريود شيئاً ولكنه أخرج من جيبه رزمة جنبيات
مدها لجدي ، فاخذاها هذا دون أن يعدها ولكنه أبقاها
برهة في راحة يده كأنها يزنها ثم قال :

« المعجل مربوط في المراح ، امش خذه ،

فقال مريود ضاحكاً وهو يتأهب للخروج :

« المعجل أنا سُقنته مع شروق الشمس . لمح دلتوقت فوق
النار ويمكن يكونوا أكلوه كبان ،

ولما خرج قلت لجدي « كم دفع ؟ »

فقال جدي « اثناسر »

أخذت الأوراق وعددها فإذا هي بالفعل إثناسر جنيناً .
قال جدي وهو يسترد نقوده من يدي وقد لاحظ دهشتي :
« لأجل الولد الصغير دفع حاضر .. على أي حال المعاملة مع
الولد أخير من المعاملة مع جده » .

يومذاك كان جدي سعيداً بذلك الوضع الشاذ ، وقد
رأيت عيني تختار ود حسب الرسول الضيقين تسعان بإجلال
لا يخالطه تحفظ ، ورنا حمد ود حليلة الى مريود ، وهو
يخرج مقهقاً ، كما يرنو وانسان مخلوق من طين إلى ملاك هبط
من السقف . ولا أخفي عليكم ان كل هذا قد ترك عندي أثره .
أحسست في تلك اللحظة أنني أشاهد معجزة . ولو ان أحداً
قد قال لي يوماً ان الأقدار قد اختارت مريود ليعقد صلحاً
بين الماضي والمستقبل لصدقت . فجدي رغم حذره صدق
وأهل البلد قاطبة صدقوا . ولكن يا له من أمر عظيم كان في
ذلك الضحى . كانت الرياح تجيء من مغاور بعيدة تصرخ آه
وشرّ وثار . كانت العفاريت تقفز من أسطح المنازل وأغصان
الشجر ، من الحقول والرمال وشعاب الجبال ، من تحت أظلف
البقر ومن منعطفات الدروب ، تولول هب هد رب دن ند ثار
دار آه ها . ثم تتكشف الضوضاء في كلمة واحدة ، بندرشاه .
انني الآن ، رغم بعد الشقة ، لا أستطيع أن أتذكر ذلك

الضحى الا وتلتابني قشعريرة . كانت البلد كأن طائرأ رهيباً
اقتلعها من جذورها وحملها بمخلبه ، ودار بها ثم ألقاها من
شاهق .. كنت كشخص في قبضة كابوس مليء بالصراخ
والحركة ، وهو مشلول في وسطه ، لا يملك أن يتأخر أو
يتقدم . كانت الفوضى كأنها تتفجر من تحت أقدامنا ، وكان
الناس يحرون مشتتين ها هنا وما هنا ، يبحثون عن شيء ولا
شيء ، يبحثون عن المصدر وليس ثمة مصدر .. الصور كلها
كنثار الغبار ، ما تكاد تستقر في العقل حتى تتفتت فتنا ومعها
الكون والحياة . هكذا رأيت حمد ود حليلة في ذلك اليوم ،
يتقدم إلى أمام ثم يتقهقر إلى وراء ، كأنه قائم أو ميت ،
تلاعب به قوى غير مرئية .

وفي أطراف ذلك الكابوس كانت نساء حاسرات الرؤوس ،
وجوههن مغبرة يتشبثن رجال مكتوفي الأيدي مربوطين بحبل
غليظ إلى سرج جبل ، وعلى الجبل جندي يحمل بندقية ،
ورجال عشرات يسدون طريقه ، ثم رد رش شب شن ضرابه
يد ناداده ، تنصهر وتختلط وتشكل صورة مجسمة ، هي
صورة بندرشاه على هيئة مريود ، أو مريود على هيئة بندرشاه ،
وكأنه يجلس على عرش تلك الضوضاء ممسكاً خيوط الفوضى
بكلتا يديه ، وسطها وفوقها في الوقت نفسه ، مثل شعاع
باهر مدمر .

كنا مثل سرب عظيم من طيور مذعورة ، تفرق وتلتقي ،

وتعلمو وتهبط ، وتدور بعضها حول بعض ، محدثة صراخاً
منكراً يصم الآذان . في ذلك الضحى كان الماضي والمستقبل
قتيلين لا يجدان من يوارى جثتيهما أو يبكي عليها .

بل ، كان جارنا مسعود ذا صوت جميل وضحكة صافية
تشبه شيئاً عذباً خيل لي يومها انه صوت قرقرة الماء . وقد
كان حصاد التمر كما ورد في تلك القصة ، ونقله بالجمال والحير ،
وما كان من أمر جدي مع جارنا مسعود ، وما كان من أمري
مع جدي . وقد كان من المحتمل أن يظل مكان تلك الحادثة
من بقية أحداث حياتي واضحاً ثابتاً . لولا اننا أصبحنا ذات
صباح فإذا نحن فجأة لسنا موقنين من شيء .

* * *

قلت لسعيد ، الذي كان قبلاً يلعب بسعيد اليوم :

« قالوا سموك سعيد عشا البائتات »

ضحك ضحكته البريئة التي أذكرها من أيام طفولتي في
ود حامد ، وقال بلهجته البدوية :

« الولية فطومة أجارك الله . وقت المُرقي يشلح في
راسها تطلع الكلام خارم بارم »

قلت له : وكان فطومة غنت في عرسك ؟

فقال : « يا محميد اخوي ، في هادي الايام الفلوس
مو تجيب فطومة . عليّ الحرام الفلوس تجيب الهواء من قرونة »

قلت له : « فطومة شين قالت فيك ؟ »

فقال فخوراً وهو يبرم شاربه الصغير ، الذي يجلس قلقاً
على فمه كما تجلس العمامة المفرطة الكبر على رأسه :

« يا زول . فطومة تطير عيشتها . هولكين غنا
نُصّاح ؟ يا زول . العرس النما غنت فيه فطومة أصلاً ما
يقولوا عليه عرس »

وأعدت عليه السؤال ، فقال :

« علي الحرام أخوك عرساً عرساً خلّى ناس هالبلدة تنسى
عرس الزين . اسأل أياً من كان يقول لك العرس عرس سعيد
والا بلاش »

عرس الزين كان أعجوبة . أما ان سعيد اليوم يصبح
صهراً للناظر بجلالة قدره ، فهذه هي المعجزة . وقال سعيد :
« عليك أمان الله . الأمة ما لقينا محلّ نخشرها . قبايل
قبايل . كل قبيلة تسوي الشّي الفلاني . عملنا العقد في
الجامع . الامام قال للرجالة كل واحد يشوف ويسمع .. سعيد
راجل حبابه عشرة ، ما في انسان يقول سعيد اليوم » .

كنت متشوقاً ان اعرف ماذا قالت فطومة ، واعدت

السؤال فقال :

« فطومة تطير عيشتها . تقطع الوصف كأنها تقرأ في
كتاب . العشرة جنيه حلال عليها ،
« هالله هالله .. عشرة جنيه ؟ »

« عشرة جنيه عاقلة وحياة خوتك يا محميد . قلت لها
اسمي يا ولية ، المثل يقول أدي الفناي وعدّه ، وأدي
المداح وعشّه . بدور منك اسم ، ينسى أهل ود حامد إلى
أبد الأبدين كئنية سعيد البوم . جننونا الله يرضى عليك ..
البوم .. البوم .. يقطع طارهم . قالت لي : وقت الدارة
تعمر والرقيص يهيج تشوف كيف غننا فطومة ،
« وبعدين يا سعيد .. فطومة كيف وصفتك ؟ »

« عليك أمان الله . وقت المجاجة قامت والبنات نكمن
شمورهن كدى^(١) ودخلن الحلقة . وأخوك واقف عنتر هز
بالسوط .. الله لا يكسبك يا فطومة ،

« ابوه . وبعدين ؟ »

« قالت كلام كثير .. اسأل عنه أحمد ابو البنات ،
حافظه كله ، الله لا يكسبه حسنة . اسمع هادا الوصف :

وقتين الحبر جاني الخيس الفات
زغردت وقده لك يا اخو الاخوات
أريدك يا سعيد يا عشا البائتات

(١) مكذا .

واسمع كمان :

سعيد الطريف تماش الجـزائر
صيته قام وعمّ البـنادر
عشا البـايتات القوي فارس المشائر
زغردن يا بنات دا عريس بت الناظر

وهنا استبد به الطرب ووقف وضرب برجله وقفز وهز
بيده كأنه في حلقة رقص .

قلت له « لكن الناظر كيف قبل ؟ »

قال سعيد على الفور « مجبور »

قلت « إل جبره مين ؟ »

صمت برهة كأنه يفكر ثم قال :

« مالي خدمته بي إيدي .. يحي ألف جنيه .. عاوز
يفشني فيه »

كان سعيد يبيع الفحم وخشب الوقود ويعمل في الحقول
ويدخر ماله عند الناظر . قلت له :

« يا زول خاف الله . وين لقيت ألف جنيه ؟ »

فقال « إذا ما مصدقي اسأل الإمام . اسأل شيخ علي
وحاج عبد الصمد »

قلت له « يعني الناظر زوجك بنته نظير مالك الموقرة
عنده ؟ »

فقال ؟ تقولوا سعيد اليوم . سعد الغشم . عليك أمان الله ،
مالي أنا عارفه على داير الملم . الحكاية أنا متحضر لها من
زمان ،

فقلت « كيف ؟ يعني انت من زمان مضرب على بت
الناظر ،

فقال « الله . ودي عاوزه كلام ؟ انت قايل الشغل الي
اشتغلته في بيت الناظر .. يا سعيد إملا الأزيار .. يا سعيد
جيب القش للبهائم .. يا سعيد كثر الحطب .. دا كله
ساكت ؟ »

« سمح .. وبعدين »

« ولا بميدن ولا قبلين . يمكن فوق سبعة سنين وأنا
اشتغل زي الحمار . كل ما أجمع خمسة قروش أو عشرة أو
أوعشرين جنيه ، امشي لي صاحبي أبو البنات يقبده لي في
دفتر ، وامشي أدها الناظر . كل سنة يقول لي يا سعيد ما نجني
تاخذ قروشك . أقول له خليها عندك ما بتروح . سنة ورا
سنة ، وقرش فوق قرش . في المدة دي بته الوسطانية عرسوها
وطلقوها . تظنراها شينة وعويناتها عشة ، صبرت لا من
فات سنتين ثلاثة والبت قاعدة . ما في جنس إنسان حام

عليها . أنا أخو الرجال . قلت يا سعيد خلاص . المسألة
تمت .

قاطعته من فرط دهشتي قائلا :

« الله لا يكسبك يا شقي دا كله ونحن قايلنك غشم ؟ »
ضحك وقال « يا زول . في زول غشم ؟ بني آدم الجن
ما يقدر عليه »

« وبعدين يا مقطوع الطاري ؟ »

« بعدين شلت الدفتر ومشيت للناظر . أنا عارفه أحواله
ممكنة بعد ما راح المعاش ، والقروش ، دخلت عليه .
قلت له والله جنبك أنا هسّع غردان في القروش .. يا زول
أقول لك اتمل واطمكحك . وبعدين قال لي : تعال باكر .
القروش ما هن حاضرات . يا زول . خلاصة الحديث . امش
تعال في باكر وبعد باكر . بعدين قلت له اسمع جنبك . انت
قروش ما عندك . دحين انا أدبك فهم . تمرس لي بنتك
الممشة دي . ونبقى حبايب . يا زول .. كان قاعد فوق
كرسي زي قعدتك دي والوقت عصير . نطّ هادي النطة
من الكرسي . أخوك اتحضر . قلت الحكاية فيها ضرب ..
عارف انت عجرة جنب الناظر . قال لي : يا بني آدم انت
عقلك فاقد : انت تفتكر البلد ما فيها قانون ؟ انت سعيد
الوسخان .. : تتزوج بنتي أنا ؟ قايل يخوفني . على اليمين ،

أخوك ركز هادي الركزة . قلت له هي ، بعد داك
مافي جنابك . قلت له هي . افتح اضانك زين . أنا
سعيد ود زابد ود حسب الرسول . عربي حر .
عليّ اليمين أهلي في سود ري يحجبو ضو الشمس . مالي أنا ؟
مسلم موحد الله . أنا الوسخان العفنان دا اعرس بتك . هي
بتك شن طعمها . شينة ومعمشة وعزبة ، وان قعدت لي أبد
الآبدن ما تلقى أخير مني . وإن ابنت كان شاييل لي يمين ،
اطلمك محاكم وانزلك محاكم لا من آخذ قروشي منك ،
تخيلت الناظر بخيلائه وطلاوة لسانه في هذا الموقف المبهين
مع رجل لم تكن صداقته معه إلا نوعاً من التصديق .

« وبعدين يا سعيد ؟ »

وضع سعيد ساقاً على ساق ، ورشف من فنجان القهوة
أمامه . ثم وضع الفنجان برشاقة متكلفة مضحكة وقد
هيات له ليتصدر ساعة أو ساعتين مسرح الأحداث في ود
حامد ، فكانه أصبح في تلك اللحظة القطب الذي يدور
حوله الكون . قال سعيد :

« آني كنت رابط كلامي مع الوليّة أم البت . الهي
يعد لها عليك يا فاطمة بنت التوم . عليّ اليمين مرة توزن قبيلة .
آني كنت عارف علاقتها بينا . أمها من جماعتنا غرب الفور ،

« فاطمة بنت التوم امها منكم ؟ »

« ابي . كيف مؤمننا ؟ فاطمة بت التوم مو أمها

حليمة بت رابع. والامام ذاته مولانا. انت عارف أمه من وين؟
« أوعى كان تقول متكم ؟ »

« بسم الله الرحمن الرحيم. انت مفببي ولا شنو يا محبيد؟
الامام أمه مَرَّهَا بَتْ جادين هي وحليمة بَتْ رابع بنات
عَمَّ لَزَمَ »

« ما شاء الله . يعني حكايته تمت من الجهتين ؟ »

ثلاث مرات . الناس قالوا الراجل جنه ولا شنو . مشيت
دبحت وسويت الكرامة. قلت لهم داير عرس بأمه وابوه. عرس
من اول جدبسد بي غناه ورقيصه ودلكته وسيرته ونجيب
فطومة . الناظر بقي في أيدي زي المجين . أقول له بين
يقول بين . أقول له شمال يقول شمال . عليك امان الله . العرس
هز البلد من فويق الطلحة لا عرب الفور . عرس الزين بقي
جنبه زي الطهوره . انا اخو البنات . عليك امان الله . اخوك
قدل في حوش الناظر. هزيت فوق فطومة حتيت^(١) لها جنبه ،
دا غير العشرة الأخدتن مقدم .. وقتين الوليه غنت :

سميد الظريف جسد لي أمه
والدايره كله المولى يتمه
عرسن سمح والقوم اتلموا
يا حاسدينه هوى أخير تنجموا

(١) حطيت .. وضعت

الزغاريد وجوجت وانا راسي بقى طول السقف ،

قلت له : « طيب والآذان ؟ »

فقال سعيد : « الآذان شن فيه .. انا عامله علي الحرام
حسنة لوجه الله تعالى ، واصله حمد قال فتر من طلوع المبدنه
كل يوم »

قلت له : « وعلى أي حال ما دمت بقيت صهر الناظر
الباقى كله هين »

فقال باحتقار : « ناظر شنو؟ انا فاضي في الناظر ولا حق
في العمدة . انا عندي القروش . علي الحرام في اليوم العلينا دا
ان درت^(١) بت العمده آخذها »

قلت له « والقروش جات من وين ؟ ولا لقيت لك خزنة
مدفونة ؟ »

فوقف وهو يضحك مسروراً وقال :

« لازم امشي احصل السوق ، حكاية القروش احكيها
وقت ثاني »

وخرج وهو يرنم بصوته الضعيف الخالي من الرنين :

سعيد الظريف جيد لي أمه
والدايره كله المولى يتمه

* * *

(١) أردت .

يروى حمد ود حليمه أن عيسى رد ضو البيت خرج عليهم ذات يوم وكانوا صبية صفاراً في لباس كأنه لباس العيد ولم يكن الوقت عيداً . كان يلبس جلابة جديدة من الحرير وعلى رأسه طاقية حمراء جديدة مشغولة وعمة ناصعة البياض وفي رجله حذاء أحمر يلعب . ويقول حمد ان هيئة عيسى كانت شاذة حقيقة وسط صبية بينهم العاري والذي لا يلبس غير خرقة حول وسطه ، والمقطع الثياب والمتسخ الثياب ، ظهر لنا غريباً ومضحكاً . أول ما رأيته صرخت « بندرشاه » وأخذنا جميعاً نردد « بندرشاه ، بندرشاه » وطاردناه حتى أدخلناه داره ، ومن يومها ولا أحد يناديه بغير بندرشاه .

ويستطرد عيسى قائلاً :

« مسألة الأسماء عجيبة . بعض الناس أسماءهم تناسبهم تماماً الخالق الناطق . عندك حسن مُسَاح ، والله لينا ود جبير الدار ، وبخيت أبو البنات ، وسليمان أكل البقي ، وعبد المولى ود مفتاح الخزنة والكاشف ود رحمة الله . كل واحد منهم اسمه لابس عليه زي غمد السكين . وتجدهم جميعاً ملاعين أجارك الله من شرهم . وأنا مثلاً الناس تقول لي ود حليمه ما في إنسان يطري عبد الخالق بالسبب؟ أسأل مختار ود حسب الرسول ، الله لا يعدلها عليه شق إيش ما يقبل » .

جمع حمد ثوبه حول هيكله النحيل وقال :

« حين كنا صبية ندرس القرآن في مسجد حاج سعد ،
كان مختار صبي عاجباه نفسه ، مفتول العضلات مرهوب
الجانب . نجتمع بعد الدرس تحت شجرة السبال الكبيرة
الموجودة إلى يومنا هذا . ويقف مختار وسط الحلقة عاري
الظهر يركز للمبارزة ، كانت تلك الأيام أيام فروسية ومرجلة
والولد الخواف لا يقدر بعيش وسط أولئك التماسيح . والمبارزة
بأيش ، سوط طول الذراع من عروق السنط . اللهم صلي على
نبينا . ما كان صبي يحتمل أكثر من سوط أو اثنين بالكثير من
مختار ود حسب الرسول . أما هو فكان ظهره زي ظهر عجل
البحر قدر ما تضرب فيه بالسوط ولا أثر . أنا ما كنت
أحتمل الضرب أبدا . أقف بعيداً لا بي ولا علي . وكفى الله
المؤمنين شر القتال . طول النهار مختار راكز وسط الحلقة
والأولاد يدخلو واحد ورا واحد . سوط سوطين بره . سوط
سوطين غيره . وكان مختار كل ما يلقي بي يهزأ بي يناديني باسم أمي
من شدة الاستحقار ، يقول لي يا ود حليلة متين تبقى راجل
ندخل الحلقة مع الرجال ؟ المفصة تحش قاي زي السكين ،
وازل غاية الزعل . لكني أنا قليل وكحيان . كيف العمل ؟
يوم من ذات الأيام حزمت أمري موت حياة ما علي شي
وأخير من قولة ود حليلة . أقول لك بني آدم مصيبة معلقة
بالسببية إذا دست على طرفه ما يغلب حيله أبدا . بعد الدرس
جريت إلى بيتنا . كيس شطة يمكن رطل . شلته وانطلقت

فوق فوق الحلاء لحد ما البيوت ظهرت رَهَابٌ رَهَابٌ .
شطة حمراء نار الله الموقدة أكلتها كلها وقلمت عريان ومسحت
بيها جسمي كله . العياذ بالله من النار إل ولّعت في بدني .
نار الجحيم انطلقت وأنا أصبح بطول حسي واي واي والدنيا
خلاء ولا حد سامع وابرطسح واتمرغ في التراب . والعرق
نازل شل شل . يا زول ألم أجل الله السامعين شيء يخول
العقل . بعد داك ألم همني أبداً ، أدخل النار ما أحس بأي
شيء . جريت وقبص في إيدي وعيوني شرار والرواس
ورمان قدر الزير . وصلت السباله لقيت مختار ود حسب
الرسول إل ما يخفي على راكز عامل عنتر خلّص على الجماعة
كلهم . تش دخلت ووقفت قدّامه وركزت . عاين^(١) لي
باحترار . قال ود حليلة : اليوم بقيت راجل ؟ أمرق . انا ما
اقاشط واحد ولد مَرّه . الله وأكبر . رمقته بي عيون زي الشرر .
قلت له ابقى راجل اضرب . اتبسم وضحك ، وعان جاي
وجاي والجماعة يضحكوا . صبركم بالله . ود مفتاح الحزنه
وود رحمة الله ضحكهم عالي . قالوا ود حليلة راح في داهية
مسك السوط وحناّه بي إيديه الاثنين وفرقه في الهوا وج
وج . بعدين لف حوالى ونقرني بالسوط نقرات خفيفة
هنا وهنا ، عاوز يززعني ، وانا راسي فيه ستين ألف عفريت .
وبعدين ركز وضرب رجله اليمين في الأرض ولولح السوط
ونزله . وحياتك نزل علي برداً وسلاماً بعد نار الشطة .

(١) نظر .

جلدي خدران كأنه ميت ، إذا جرحته بالسكين ما يحس .
هَبَدَنِي بالسوط الثاني والثالث . وانا راكز زي الحيطه ،
إذا كان الباب دا يحس أنا احس . وقت وصل السوط السابع
وقف . زَحَّ لي ورا وعَايْن لي باستغراب . كَدَرْتَه بنظرة
زي سم الله الهاري . بلع ريقه . صاحبي بدا يتزعزع .
بَعُدَ ما في ضحكك . الناس سكتوا بهم . ضحكك
ود مفتاح الحزنة وود رحمة الله ييس في حلوقهم .
عليك أمان الله ، حسيت زي كان شيطان مارد في بطني بقي
يتحرك ويكبر ويفرْهِدْ ويفرد جناحاته فوق العالم كله .
حسيت كأني جبار شهورش إذا كان سقف السما وقع أسنده
بأيدي . الشطة اجارك الله وحرقة القلب . صرخة فيه يا زول
بي صوت ما اعرف جاني من وين . قلت له يا وليد ميمونة ،
أحقره باسم امه ، ابقى راجل واضرب بالسوط . قسما
النهارده يا إنت يا انا يشيلوه من هنا للجبانة .

الناس ساكتة صُن . ضربني الثامن والتاسع والعاشر ،
ضرب بي غل ، ضرب القوي لما يعرف انه ضعيف ، ضرب
الضعيف وقت يعرف انه ضعيف . لما وصل ثلاثين ، جددك
وبندر شاه الله بمسيهم بالحير وقفو . مسكوا السوط من إيدته .
قالوا له خلاص انت اخذت حقلك ، الضرب لي حمد . أنا أخو
البنات . يا زول ، حسيت زي كأني سر عسكر الترك .
بقيت انفع واقتدِل . قلت لهم خلوه يضرب . قسماً بسورة

كاف لام ميم ، شوف عندك جنس قَسَم ، ود ميمونة
الليلة لازم يشيلوه جنازه . جدك وبندرشاه قالوا أبداً .
تلاقين سوط كفاية . مسكت السوط لقينه مليون دم . الله
اكبر . هزيت فوق الحاضرين ولَقَّتْ في الحلقة لفتين وانا
أقول واتبَخْتَرُ .

ود مفتاح الخزنة وود رحمة الله منكمشين يعاينوا للارض
من الخوف . نقرت كل واحد بالسوط فوق راسه . بعدين
طلقت الزغاريد . أَيُوَي أَيُوَي أَيُوَيَا . عاينت لي مختار ود
حسب الرسول لقينه راكز متماسك لكن جبهته نَدَّتْ
بالعرق . بقيت ادور حواليه وانقَبِشْهُ بالسوط مرة مرة ،
واصرخ رابِرْ طَحْ بعيد وأجيه راجع ، واقيف قدَّامه وانط
في الهواء عملت عليه حرب اعصاب ، لحد ما اتأكدت زولي
خلاص حالته بقت حالة . ود مفتاح الخزنة وود رحمة الله
بعد ضحكهم ما كان ضدِّي بقي مَعَاي . الوحيدين أُلْ
بقوا يضحكوا وراي كل ما ضحكت . الله يخيبهم . داينها
مع الغالب . رفعت السوط فوق ونزلته شَر . عليك أمان
الله كأنك شرطت لك قماش . مختار ما اتزعزع لكن عينه
رمشت . نَزَلْتُ السوط الثاني سمعته قَنَّتْ . انا اخوك
يا السمحة . اديته الثالث زَح ورا شوية . السوط الرابع
اترتع . السوط الخامس وقع بُبْ غمران . الناس ساكنة
ولا حس . مبهورين . انا التيمان الكحيان حمد ود حليلة

اهزم مختار ود حسب الرسول ، الفارس المغوار والبطل
الهدار .

أقول لك ، شعرت كأنني سيد الكون ، مالك الليل
والنهار . والحكاية كلنا أطفال اكبرنا عمره ما يحصل ثانية
سنين . بقيت أضرب من طرف ، اغير يمين واغير شمال .
اجوط بي جاي وبي جاي . وأكثر ضرب ضربته ود رحمة الله
وود مفتاح الخزنة . يا زول . ركبني جن . وقفت وسط
الحلقة وختيت^(١) رجلي فوق مختار ، وهو راقد جثة هامدة ،
زي كأنني أسد واقف فوق الفريسة . بقيت اتكلم كلام خارم
بارم ذكرني بيه جدك وبندر شاه بعدين . قالوا خلاص كفاية .
جدك قال لي خلاص عرفنا انك راجل . رد عليه بندر شاه
قال إذا كان ود حليمه يفتكر انه راجل ، في ارجل منه .
وما أحس الا وضربة في بطني من بندر شاه . بعدها ما عرفت
حصل شنو . وقت صحيت لقيت نفسي في بيت بندر شاه ،
على عنقريب^(٢) ، وجنبي راقد مختار . والالم إجارك الله . انا
اصرخ واي ، ومختار بصرخ واي .

* * *

« يا محميد »

التفت محميد ناحية الصوت وصرخ « نعم »

(١) حظيت .. وضعت (٢) سرير شعبي سوداني .

تعجب ود الرواسي وقال له « ترد على من؟ »
أدرك محميد فوراً انه كان غاطساً في حلم، وانه استجاب
لنداء لم يوجهه إليه أحد .
قام محبوب ومضى وعرج عبد الحفيظ عليهم في طريقه
إلى المسجد .

قال ود الرواسي « مسكين محبوب . انهزم »
كان السؤال على طرف لسان محميد منذ أول ليلة . لكنه
لم يرد أن يسأل، وكان يأمل أن يحيي الجواب من تلقاء نفسه .
هو، محميد ، أيضاً مهزوم ، هزمته الأيام وهزمته الحكومة .
إن طال الزمان وإن قصر سيئالونه ، سيأله ود الرواسي في
الغالب ، سيقول له « ما بالك تقاعدت وانت لم تبلغ سن
التقاعد ؟ » سيقول له « أحالوني على التقاعد لأنني لا أصلي
الفجر في الجامع » سيقول ود الرواسي « هل هذا جد ولا
هزار ؟ » سيقول محميد « عندنا الآن في الخرطوم حكومة
متدينة ، رئيس الوزراء يصلي الفجر حاضراً في الجامع كل يوم
وإذا كنت لا تصلي أو كنت تصلي وحدك في دارك ،
فسيتهمونك بعدم الحماس للحكومة . ان تحال للمعاش كرم
منهم » .

يدهش ود الرواسي ويقول « أما عجائب »
وسيقول له محميد « بعد عام أو عامين أو خمسة ستجيشنا

حكومة مختلفة . لعلها غير متدينة . وقد تكون ملحدة .
إذا كنت تصلي في دارك أو في الجامع فإنهم سيحبونك للتقاعد ،
سيسألوك الرواسي بدهشة عظيمة « بأي تهمة ؟ » وسيرد
عليه محميد قائلاً « بتهمة التواطؤ مع الحكومة السابقة »

لن يصدقوا آذانهم وسيقولون بصوت واحد « اما عجائب »
كان سعيد قد خرج وجلس على الكنبه يحوار الطاهر ود
الرواسي ، وكان محميد مستلقياً على الرمل يحس برودته على
خده وساقيه . قال سعيد فجأة :

« لعنة الله على أولاد بكري . إن شاء الله ما تتعدل
عليهم »

لم يستطع محميد أن يصبر أكثر مما صبر فقال « ماذا فعل
أولاد بكري ؟ »

كان سعيد عشا البايئات قد وصل في أذانه إلى (حي على
الفلاح) فحس يعاظله متمسراً كسيارة شحن غطست في
الرمل ، يخترع حروف مدّ ليست موجودة ، وينفض الطرف
عن الموجود منها .

ضحك ود الرواسي وقال : « عشا البايئات اللبّه وحلان
أكثر من العادة » .

قام عبد الحفيظ بمزيمه أدهشت محميد . كأنه يريد أن

يجلس ولكنه مصمم على القيام. منذ عاد محميد إلى رد حامد وعبد الحفيظ يحياه كل ليلة ، ولا يقول شيئاً . يحياه كالمعتذر ، كالذي يريد أن ييوح بسر .

واتسعت هوة الصمت حتى امتلأت بكل تلك الأفكار ، وقال سعيد ملاحقاً تساؤله الذي كاد يضيع في الزحام :
« الطريفي ولد بكري عاوز يعمل بندرشاه ،

صعد محميد بخياله مع الاسم الرهيب وهو يكبر كارد جن وسط ذلك الظلام . وكنخلة عملاقة لا أول لها ولا آخر ، التف حولها نبات طفيلي متسلق ، التفت هبوب امشير حول ذلك الاسم ، من أسفل الى أعلا ، من ظلام إلى ظلام . اسم تحيط به كآبة ليست بنبت يومها ، أين ومتى سمعه من قبل ؟ تذكر محميد شخصاً ما ، لا بل كائناً ما ، واقفاً كأنه معلق بين الأمس والغد ، ممسكاً بسوط طويل عليه آثار دم ، مثل سليمان حين طفق مسحاً بالسوق والاعناق . هل ذلك هو ؟

وعلى العشاء تناوب ود الرواسي وسعيد قص القصة على محميد . كان سعيد غاضباً حين بدأ وغاضباً حين انتهى . وكان ود الرواسي يروي بلهجة من لم يعد يدهشه شيء . قال ان الحكاية بدأت بتزاع حول أرض ، فإن أم أولاد بكري هي أخت محبوب . كان محبوب يظن ان الأرض أرضه ، ولكن أولاد بكري تصدوا له فجأة ، وهو شيخ قد طعن في السن ، وهم شباب في أوج رعونة الشباب . ظلوا ينازعونه

حولاً بأكله يطلعون لحكمة وينزلون من محكمة ، خسروا الأرض ولكنهم قوضوا سلطان محبوب . بدأوا يقولون لجهاراً ما كان الناس يقولونه سراً أو لا يقولونه البتة . وكأنما البلد كانت مستعدة لتغيير . زاد الهمس وارتفع اللفظ . وكان الطريفي ولد بكري يتصدى لمحبوب في المجالس ويقول على مسمع منه « هذه العصابة ، محبوب وجماعته ، متى يتخلون عن زمام الأمور في ود حامد ؟ هؤلاء جماعة انتهوا . كفايه أكلوا البلد أكثر من ثلاثين سنة . » كلام كثير من هذا النوع كان يفضب محبوب ، ولكن كل عمل يقوم به ضد أولاد بكري كان يقلل من هيئته .

ويسأل ود الرواسي في حسرة : « ماذا يفعل رجل كبير محترم إذا تحرش به غلام صعلوك ؟ إذا ضربه يقول الناس ، هذا الرجل قليل القيمة يضرب الولد الصغير . وإذا تركه يقول الناس هذا الرجل الباطل لا يقوى على ردع غلام صعلوك »

قال سعيد أن محبوب كان زعيماً في ود حامد ، لمؤهلاته ، ولأن البلد كانت قابلة به . تلك الكلمة « القبول » كان لها وزن عظيم عند محبوب وجماعته ، يقولون فلان « مقبول » وفلان عنده « قبول » وذلك أعظم الثناء في رأيهم . ثم أدركوا كأنما فجأة ، أن الكلمة لم يعد لها معنى ، وأن ذلك الشيء الفاضل الذي يجعل الابن ينصاع لأبيه والمرأة لزوجها ،

والمحكوم للحاكم ، والصغير للكبير قد ثلاثى . كأنما أهل
البلد قد استيقظوا بغتة من حلم قديم ، أو كأنهم استسلموا الحلم
جديد . بدأ الناس ينظرون بعيون جديدة فيها عواطف شق
وليس من بينها عاطفة القبول .

قال ود الرواسي وسعيد ، ان كلام أولاد بكري بدأ
يؤثر في قلوب الناس ، وتكون لهم حزب معارض أخذ يقوى
ويشتد وقاموا يجمع التواقيع لمقد اجتماع عام للجمعية التعاونية وهو
أمر لم يحدث منذ تكوين الجمعية . كان هدفهم إقصاء محبوب
وجاعته من لجنة الجمعية وكل اللجان التي سيطروا عليها منذ
أكثر من ثلاثين سنة . محبوب ، بعدما يربو على ربع قرن من
السلطان المطلق ، وجد نفسه وجهاً لوجه أمام شعب ود حامد
يقاضونه الحساب .

وانتهى الأمر بانعقاد الجمعية برئاسة باشمفتش التعاون الذي
جاء خصيصاً من مروي لذلك اليوم المشهود . قال ود الرئيس
ان الطريفي ولد بكري كان أول المتكلمين . قرأ عريضة
طويلة ضمنها كل ما يمكن أن يخطر على البال من التهم . اتهم
محبوب بالفساد والرشوة والسرقة والمحسوبية وعدم الكفاءة
والإهمال وهلم جرا . وقوال الخطباء وكلهم في الجانب
المعاكس ، كان من بينهم سيف الدين وسعيد البوم .. عشا
البايتات القوي .. فيما بعد عمل وليمة للجنة الجديدة .
وطبعاً ما دام أصبح أمين صندوق . هل تصدق يا محبيد

ان أولاد محبوب صوتوا ضده ؟ وان البنات علن مظاهراته في
ود حامد وهتفن بسقوط محبوب وشلة الحراميه ؟

يأخذ سعيد خيط القصة من ود الرواسي « محبوب قاعد
يسمع الاتهامات كأنه تمثال من خشب . انا والطاهر فقط
حاضرين من جماعتنا . عبد الحفيظ من يوم ما عرف طريق
الجامع استقال من كل شيء ونفض يده . قال كله كلام فارغ .
احمد كان سكران كالعادة وما حضر الاجتماع . ود الريس
زي ما تعرف ، مات بالمفصه . أولاد بكري مهم ، أخت
محبوب ، جات ووقفت وسط الرجال وشتت أولادها
بأفزع الألفاظ . الكلمة الوحيدة النطقها محبوب من أول
الاجتماع لما نهر اخته قال لها « يا وليه روعي لبيتك » .
حكاية غريبة حصلت ما عرفنا أولها من آخرها . اولادنا
اصبحوا ضدنا . المدارس فتحناها بالعرق والتعب والجري هنا
وهنا ، طلعت أولاد بقوا يتفاصحوا علينا . البلد أثارها
اتلخبطت تحت رجلينا ونحن نايمين نوم العوافي . انا وود
الرواسي وقفنا وشتنا الناس واحد واحد ، بالاسم ، ذكرناهم
يحمائل محبوب عليهم ، ايام محبوب كان الوحيد الصاحي
وبقية الناس همل . لكن الأمر انتهى ، صوتوا برفع اليد .
الأغلبية طلعت ضدنا . تحت السيالة الكبيرة ، وسط البلد ،
نص النهار ، محبوب انهزم . محبوب النمر هزمته الضباع .
أطفال وصعاليك وبنات فارغات وحوش . انتخبوا الطريفي

ولد بكري رئيس ، وحسن ولد بكري نائب رئيس ، وجزه
ولد بكري سكرتير ، وسعيد عشا البايئات أمين صندوق ،
وسيف الدين مراقب أعمال ، قالوا وظيفة جديدة لتحسين
العمل في المشروع . البنات بتاع المظاهرة زغردن والطريفي
هتف « يحيا الشعب » . وين الشعب ؟ ناس عشا البايئات
وود رحمة الله ومفتاح الحزنه وهلم جرا؟ (يا كم ديل^(١) الشعب؟).

ويختتم ود الرواسي القصة « محبوب قام من الاجتماع
منتهي . ما تفوه بكلمة . ما دافع عن نفسه . قعد وقام
ساكت . من يومها وهو يعيش على وجه الأرض حيا كيت .
انتهى عهد وبدأ عهد في ود حامد . وإلى اليوم ما نعرف
كيف دا كله حصل ،

فكر محميد وهو يخرج الخطوط نحو داره أواخر الليل ،
انه يعرف مغزى تلك القصة ، لأنه قد رآها تحدث من قبل
في زمان بعيد سحيق ، ولعله كان طرفاً من أطرافها . في تلك
القصة أيضاً ، كانت الحرب ضاربة بين ما كان وما سيكون .
ود حامد التي حملها في خياله كل هذه الأعوام ، وعاد الآن
يبحث عنها مثل جندي في جيش منهزم ، لم يعد لها وجود .
كانت ساقاه تحسان بوطاة السنين الخمسين أو الستين ، ولكن
خياله كان خيال طفل دون العاشرة . الليل البهيم ، وشجيرات
السيال الجاثمات كنسوة في مأتم ، ولمع الأضواء الموهومة في

(١) هذا هو .

تلك الحلقة ، وصوت الحياة الضعيف في كل ذلك العدم .
وفجأة ، ذلك النداء ، وسط الظلام :

« يا محميد »

نداء قريب منه ، كحبل الوريد .

وقال محميد « نعم »

نداء واضح مألوف يقول له « يا محميد تعال »

هش له وقال نعم ، ولم يخطر له ان ذلك أمر مستحيل ،
فقد كان النداء هو الظلام أو البرق الذي يلعب في جوف الظلام ،
ولم يكن له من بد إلا أن يسير وراءه ويقتفي أثره .

* * *

سرت وراء الصوت في جوف الظلام وأنا لا أدري هل أنا
أسير إلى وراء أم إلى أمام . كانت قدماي تفوصان في الرمل ،
ثم أحسست كأنني أسير في الهواء ، ساجداً دون مشقة ،
والأعوام تنحسر عن كاهلي ، كما يتخفف المرء من ثيابه .
ارتفعت أمامي قلعة ذات قباب عالية ، يتوهج الضوء من
نوافذها .. ارتفعت كجزيرة ساجدة في لجة . وصلت الباب

يحدوني الصوت ، فإذا حراس تمنطقوا بالختاجر ، فتحوا الباب ، كأنهم ينتظرون مقدمي ، وسرت وراء الصوت في دهليز طويل ، ذي أبواب ، على كل باب حرس ، حتى انتهينا إلى قاعة واسعة مضاءة بآلاف القناديل والمصابيح والشموع .. وكان في صدر القاعة ، قبالة الباب ، منصة مرتفعة ، عليها عرش ، كرسي عن يمين وكرسي عن شمال وعلى الجانبين وقف اثنا عشر طائفا ورؤوسهم .. كان المكان صامتا ، لا كما تنعدم الضجة . ولكن كان النطق لم يخلق بعد .

تبعمت الصوت حتى وجدت نفسي مائلا أمام الجالس على العرش . وجه ناعم السواد مثل الحمل ، وعينان زرقاوان تلمعان بمكر كوني .. خيل إلي أنني رأيت ذلك الوجه من قبل ، في عصر من العصور . وقال الصوت « اهلا وسهلا بابننا محميد ، الصوت ذاته الذي ناداني من قبل ، وجاء يحدوني إلى هنا ، صوت جدي ، لا مرأى في ذلك ، والوجه وجه بندرشاه ، يا للعجب . ومرت بي لحظة ادراك سريعة ، عابرة ، عرفت فيها كل شيء ، كأنني في تلك اللحظة فهمت سر الحياة والكون . ولكنها ضاعت كما جاءت ، ولم أعد أذكر شيئا . ما عدت أذكر إلا الاسم السحري ، بندرشاه . ونظرت فإذا الجالس عن يمينه نسخة أخرى منه ، كأنه هو ، وفهمت .

وقفت مشدوها برهة انظر إلى الصورتين قراءيان هكذا وهكذا ، تتشابهان حتى لكأنك تنظر إلى أصل واحد ،

لكن ما ان يستقر بك اليقين حق تفرق في بحر من الضلال ..
هل هذا مأثم أم عرس ؟ وهل نحن في الهند أم السند ؟ في أم
درمان أم اصفهان ؟

وأشار بندرشاه إلى الكرسي الخالي عن شماله ، فجلست
عليه . ثم صفق بيديه ، فأدخل الجند أحد عشر رجلاً يرسفون
في الاغلال ، وقفوا أمامه بذل ورفعوا عيونهم اليه بضراعة ،
وقالوا بصوت واحد « يا أبانا اغفر لنا وارحمنا » .

ابتسم الجالس على العرش ، ونظر عن يمينه إلى حفيده مريود .
قام هذا ونزل من المنصة وجيء له بأسواط غليظة طويلة من
عروق السنط . نزع الجند الثياب عن الرجال الأحد عشر ،
وأخذوا يحIRONهم واحداً وراء واحد إلى مريود ، فيجلد كلا
منهم ، والجالس على العرش يسمع ويرى ، يبتسم في رضى ،
ويشير بيده إذا شاء ، حتى يكف الضرب أو يستمر . سالت
الدماء أنهاراً من ظهور أولئك الرجال الأحد عشر ، وهم
يقاسون في صمت ، لا صرخة .. كلا .. ولا آهة ولا .
كان الكون صامتاً أصم وأبكم وأعمى ، إلا من فرقعات السياط
على ظهور أولاد بندر شاه تحت سمع أبيهم وبصره ، يفعل
ذلك الحفيد نياابة عن الجد .

جلدوهم حتى أغمي عليهم ، فسقطوا غرقى في دمائهم .
وصفق بندر شاه فجاء الجند فحملوا الجثث وخرجوا بها .

ثم صفق فجاء الخدم بأباريق الشراب فصبوا منها لبندر شاه
وصبوا المريد وقدموا لي كأساً مع جملة الناس .

وصفق بندر شاه مرة ثالثة فدخلت القاعة فتيات عاريات
بارزات الصدور ، تترجرج أفخاذهن واعجازهن ، فتيات بيض
وسود وصفر وسممر من القوقاز والاهواز وساحل الخرز وساحل
العاج ، وجوههن عابسة كأنها أقنعة ، خالية من الشهوة والحس ،
رقصن وغنن وضربن بالطبل والدف والصنج . ثم تشاءب
بندر شاه ، وفي لحظة خلت القاعة ، وبقينا نحن الثلاثة وحدنا
جالسين على تلك المنصة .

طال الصمت وأنا أنظر إلى رشاش الدم ، وترن في أذني
أصداء طبول وصنوج لا يهجة فيها . تمنيت أن يفسر لي
بندر شاه مغزى ما حدث ، ولكنه لم يقل ، وأدركت أخيراً
أن الصوت دعائي لأكون شاهداً وحسب .

* * *

كان صوت سعيد البوم كما سمعه محميد في تلك الساعة ،
وهو بين النائم واليقظان ، كأنه مغناطيس ، قد علق به غبار
الأحلام الموقودة ، فاتخذ أعماقاً وإبماداً ليست له . لم يكن
كما سمعه أول مرة ، ذلك الصوت الأخرق الضعيف . هب من
فراشه وتوضاً وخرج من داره ، وهبوب امشير تتفخ في وجهه
تكاد تصده ، لا يدري لماذا فعل ذلك ، لأنه لم يصل الفجر
حاضراً مع الجماعة منذ ثلاثين عاماً أو يزيد .

خرج من داره ومشى ، وحذاؤه ينفوس في الرمل البارد ،
والرياح القارصة قلسمه حول ساقيه ، مشى نحو المسجد كما كان
يمشي جده ، كأن النداء في ذلك الفجر قد عناه هو دون
غيره ، كأن ثمة ديناً لا بد من قضاائه ، كأنه أخيراً يقوم
بدور أعد له وظل يهرب منه كل تلك الأعوام .

وصل المسجد فوجده غاصاً بالناس . دهش أول وهلة ،
وسأل عبد الحفيظ هل ذلك الزحام لأن أمراً عظيماً حل
بالبلد . قال عبد الحفيظ « الله يهدي من يشاء » .

لا شك أن عبد الحفيظ كان فرحاً لأن تجارة التقوى بدت رابحة في ذلك الصباح . فها هو سيف الدين المتأرجح بين الهدى والضلال . وما هو ذا يختار ود حسب الرسول الذي لا يصلي إلا على الأموات قام من فراشه وجاء إلى المسجد هذا الفجر تحت تأثير أي سلطان؟ وحمد ود حليلة الذي كان يقول انه طلق طريق الجامع إغاظه في الإمام ، ماذا أتى به الآن ؟ وعبد المولى مفتاح الحزنة الذي كان يقول إذا سئل عن تركه الصلاة « الصلاة موجودة والجامع سكنه معروف ، رُذِيب للجامع حين يرفع الله القدم » ، ويقول نه سليمان أكل النبق : « أنت تتحدث عن الجامع كأنه في مكة وراء البحر وهو على بعد خطوات من دارك »

جاءا كلاهما في هذا الفجر . والكاشف ود رحمة الله حق في هذه الساعة الباكرة ، حسن الهيئة حسن الهندام كأنه مدعو إلى وليمة . والطريفي ولد بكري ، الزعيم الجديد ، لعله جاء يبارك انتصاره على محبوب . و جوب أيضاً ، الذي لم يدخل الجامع في حياته من قبل ، لعله جاء يستمد العون الإلهي لمواجهة هزيمته . وفي الركن الأيسر تحت النافذة كان يجلس رجل لحضوره أثر ، لم يستطع أن يميزه ، سأل عنه عبد الحفيظ فقال أنه لا يعرفه .

شعر محميد وهو يتمعن في الرجل الجالس تحت النافذة ، بذلك الإحساس القديم عنده ، مزيج من الخوف والترقب

والتماسك . وفجأة تدفقت في مخيلته صور كاملة واضحة ليوم
ختانه . كان في السادسة ، تذكر الضجعة ووجوه الرجال
والنسوة يدخلون ويخرجون في الدور ، والذبايح والزغاريد ،
وتذكر جده ممسكاً به ، والسكين ، وان الأمر تم في لحظة
قبل ان يستمد له ، واحساس الفيض كأن أحداً ضربه بفتة ،
والأم المبرح فيما بعد . كان ثمة إحساس غير عادي ، كأن نبياً
ولد في ذلك الفجر ، أو أن معجزة وقعت ، أو ان كارثة
كونية حدثت . كان عبد الحفيظ جالساً جواره فسأله ولكنه
لم يرد ، والتفت محميد فوجد عبد الحفيظ ساجداً يتنفل وقد
أطال سجوده ، ثم سمعه ينهه ببكاء مكتوم . ولما استوى
راكعاً رأى وجهه في الضوء الباهت فإذا هو مبلى بالدموع .

قرأ الإمام سورة « الضحى » بصوت مجلجل استمد قوته
من أحزان الرجال الذين اجتمعوا ذلك الفجر دون سبب
واضح وعلى غير موعد . وكان عبد الحفيظ يبكي وحده أول
الأمر ، ثم انضم إليه سيف الدين ، ثم سعيد عشا البائتات ،
ثم محبوب ، وكان محميد يتأرجح تحت وطأة كل ذلك بين
الشك واليقين ، يحس حين يركع انه وصل ، وحين يسجد
يكشف إن قلبه فارغ من كل شيء . ثم فاض البكاء ، وحمل
الموج الآيات المتلوة آية آية ، تخفق على السطح كأنها أعلام .

وأحس محميد انه يفرق ورأى فوق خط الأفق الشخص
الذي كان جالساً تحت النافذة ، جالساً في صدر القاعة ، كما

كان تلك الليلة ، أسود اللون ، أزرق العينين ، ممسكاً بخيوط
الفوضى مثل شعاع باهر مدمر . كانت ثم ديار عامرة وبيوت
كأنها قلاع ، وحقول ناضجة الثمار ، وأشجار فينانة وطيور
تغني . كانت الأنهار تجري باللبن والعسل ، وقتيات بارزات
النهود ، من كل الأشكال والألوان يرقصن ويفنن . صغانت
الريح قولول شراً وناراً ، ونساء ثكالي ، ورجال مقيدون
بالأصفاد ، ووقع الشياط على اللحم الحي . وكان بندرشاه
يجلس في صدر القاعة يسمع ويرى وأصوات تنادي « يا أبانا
اغفر لنا وارحمنا » . كانوا اخوة احد عشر ، ارقاء للذي
مضى والذي لن يحيى على صورة محمّدة ، ثاروا ذات يوم
وحطموها معاً ، فأقفرّت الديار وعفت الآثار ، وجاء الجند
وقادوم إلى السجن .

استيقظ محميد على صوت عبد الحفيظ وهو يقول له :
« استغفر الله . استغفر الله » فوجد نفسه ساجداً يحس بألم
في جبهته ووجهه مبلل بالدموع . استوى راکعاً وقال :
« السلام عليكم » برعب ، فإذا الناس قد فرغوا من صلاتهم
وبقي ساجداً وحده . كانوا جميعاً ينظرون اليه بدهشة .
التفت فوراً ناحية النافذة ، حيث كان الرجل الغريب ، فإذا
هو ليس هناك . جرى نحوه ، ولكن لم يكن أحد . صرخ
بأعلا صوته « هل رأيتم الرجل الذي كان هنا ؟ » بعضهم قال
نعم وبعضهم قال لا ، ولكن أحداً منهم لم يره حين خرج .

* * *

في تلك الليلة ، بدا كأن الزمان قد دار دورة عظيمة إلى الوراء . كانت ليلة دافئة وكان البدر في تمامه ، وكان محميد يحس في قلبه نشاطاً كنشاط الأيام الخوالي . كان محبوب موجوداً وكان عبد الحفيظ موجوداً ، وكان أحمد والطاهر والسعيدان ، اليوم والقانوني . وكان سعيد اليوم هو قطب الرحى . كان محميد يعلم أنهم سيسألونه قبل أن ينفذ السامر في تلك الليلة ، وأنه سيعكي لهم القصة دون مرارة ، كأنها حدثت لشخص آخر . ضحك سعيد اليوم وقال :

« يا جماعة أنا عاوز استقيل من الجنة . حكاية أمين الصندوق دي غير وجع الراس ما منها فايده » .

والعجيب ان محبوب ايضاً ضحك وقال لسعيد :

« انت وسيف الدين واولاد بكري قايلين الحكاية لعب . أها دَحِينْ نَخْثُوا وَصَرَّوْا » .

وقال الطاهر لسعيد :

« يوم اجتماع الجمعية أنت يا عشا البائتات السَّجَمْ ما أَتَفَنَّا صَحْتَ مع المتفاحين وُقَلِّتُو محبوب وشنو ؟ سِلَّتْهُ سِلَّةُ الحراميه نهبوا البلد . دحين أنتو كان ابقوا رجال وانهبوا » .

وقال سعيد الآخر ، وضحكته تكاد تعود كما كانت :

« فصاحة عشا البائتات من الله خَلَقَنِي ما سمعت زيتها .

اليوم داك مع ان قلبي محروق قرب ينفطر . وقت وقف عشا
الباينات يخطب ، عليك أمان الله لولا رهبة المناسبة ، قرّبت
اقرقر بالضحك . تتذكر يا عشا السّجيم كلامك الثقلنة
يومذاك ؟ » .

ضحك سعيد لهذا وقال محبوب :

« أأنا عليك أمان الله كنت محضّر ردي على الاتهامات
كلها . كنت عاوز أهذل ولد بكري قدام الناس كلهم ما
اخلي له رجلا يقيف عليها . وقت سمعت كلام عشا الباينات
قلت يا زول احفظ لسانك الحكاية بقت مسخرة ولعب
وليدات . عليك أمان الله الواحد بعد دا لو أدّره مليون
جنيه ما يقبل » .

وقال سعيد « يا محبوب انت تتكلم ساكت^(١) . جملة الأيمان
الحكاية حارقاك في شرّاشف قلبك . وهسّع اليوم الثعلينا
دا لو نادوك للجنة البجري وراك ما يحصلك ؟ يا اخوانا
أنتوا مالكم طمّاعين كدى ؟ خلاص أخذتوا حقكم . خلونا
نحن كان نشوف حظنا سنتين تلاته . »

وقال احمد « قبل شويه ما قلت داير تستقيل ؟ »

وقال الطاهر « يا محميد شفت الراجل المنافق عشا السجيم
دا ؟ عليك أمان الله ، كان مرّات حق عشا وليداته ما
عنده . أسأله قول له منو الكان بيعبّره نظره غير محبوب
وشلة الحراميه ؟ »

(١) بلا معنى .

وقال عبد الحفيظ « مشاكل طلاقه وزواجه براها كان
دايرالها لجنه ،

ضحك سعيد عشا الباينات وقال :

« أنا ما اقلومت معاكم . وسط الناس كلها قرّيت
بأفضالكم . الحكايه رضى واختيار . الناس قالوا محبوب
وجاعته برّه . الطريفي وعشا الباينات جوّه . ثاني إيه ؟ »
وقال محبوب :

« سمح ان شاء الله أولاد بكري باكر ينهوك »

وقال عشا الباينات ضاحكاً موجهاً كلامه لمحبوب :

« يا محبوب خاف الله . عاوز تعمل بندر شاه في البلد »
قال محميد في سره ان سعيد لا يدري ما يقول ، ولكن
الاسم بدأ يطفو على السطح ، وسيظل يتردد فيما بعد هكذا
دون سابق إنذار ، حتى تتضح الأشياء على حقيقتها ، إذا كان
ثمة حقيقة ، والافانه سيصدر كما ورد ، من ظلام إلى ظلام .
وقال الطاهر :

« خليك من دا كله . قول لنا كلامك القلته في الاجتماع »

وقال سعيد عشا الباينات ، قطب الرسمى في ك الليلة
المضيئة :

« يا محميد اصحابك ديل حاققرين بالناس وما عندهم علم
بالحقيقة . يقولوا سعيد اليوم . فطُومَه غَنَّت وقالت عشا
الباينات تمساح الجزاير . 'جُمْلَة' الأيمان ، الأدان أنا عملته
لوجه الله تعالى ، والشغل في اللجنة غير الجهجه والتلاتل ما
وراه فايده . 'جُمْلَة' الأيمان ، يوم الليله ، أنا لا سائل في لجنة
ولا مشروع ولا حق سائل في حكمدار المديره .. »

تذكر محميد محادثته مع سعيد من قبل فقال له
« يمكن لقيت لك خزنة مدفونة »

وقال احمد « قالوا سعيد لقاله كنز . ولا وين لقيت الجنج
دا كله يا مرمّد ؟ »

قال سعيد « اللهم ارضى عنك يا شيخنا الحنين »

وقال محبوب « عليك أمان الله لا خزنة ولا كنز . قروش
الناظر دخل عليك بالساحق والمالحق »

ضعك سعيد ولم يرد ، وقال أحمد :

قالوا سعيد عاوز يطلق بنت الناظر »

وقال سعيد :

« بنت الناظر ما بطلقها . لكن العرس إن دارني ما
بصدّه . »

وقال عبد الحفيظ :

« منو البترضاك يا رَمَادُ ؟ انت قايل نفسك صغير ؟ »

وقال محبوب «يلقا له وحده من بنات الفن الطلعن ديل .
وحده تتكلم انجليزي . الزمن دا زمن انجليزي »

وقال الطاهر « واحدة من بنات المظاهره الهتَفَن : يحيا
الشعب . الشعب منو غير فاس سعيد عشا البايات السَجَم ؟ »
دهش محميد دهشة عظيمة حين قال سعيد عشا البايات
باقتناع :

« جملة الإيمان البلد حاصل فيها خير . البلد ماشيه على
خير . إنتو فاس أما تبقوا 'حكّام' أو تقولوا البلد 'خرَبَتْ' .
أيوه ، يحيا الشعب . الشعب يام نحن . بنات المظاهرة حبايبن
عشرة . محتشات ومؤدبات ومتعلقات . بناتنا وبنات وليداتنا .
وإن لقيت لي ويحدثن فيهن تعرّسني ، جملة الإيمان باكر
اعقد عليها .. »

وكانت دهشة محميد أعظم أن أحداً لم يضحك على قولة
سعيد أو يحاجج فيها . كان القمر كأنه يبتسم بطريقة ما ،
وكان الضوء كأنه ينبع لن يحف أبداً ، وكانت أصوات الحياة
في ود حامد متناسقة متأسكة تجعلك تحس بأن الموت معنى
آخر من معاني الحياة لا أكثر . كل شيء موجود وسيظل
موجودا . لن تنشب حرب ولن تسفك دماء . سوف تلد

النساء بلا ألم ، والموتى سوف يدفنون بلا بكاء ، وسوف يحدث التغيير كما تتغير الفصول في مناخ معتدل ، فصل امام فصل ، وفصل وراء فصل ، كل في فلكه يسبحون ، والليل لا يسبق النهار . كان صمناً رائماً ، وكان أروع لأنه حلّ بلا توقع .

قال عبد الحفيظ « الله حي »

فكر مجيد أن واحداً من هؤلاء الثلاثة قد يقوم بدور بطولي . سعيد لأنه خلو من الطموح ، دكانه لا ينقص ولا يزيد . يأكل ويلبس ويتبرم كما عهد منذ أكثر من أربعين عاماً . بغضب وبضحك كما كان . والطاهر ود الرواسي لأنه يضحك على نفسه وعلى الآخرين ، وولاؤه لا لنفسه ، بل للمحبوب . أما سعيد الآخر فهو ابن يرمه ، ونجمه في صمود . ومهما يكن فإن لهم ادواراً لم يؤدوها بعد . محبوب أدى دوره وأنتهى ، وهو صاحب المأساة الحقيقية ، لأنه لا يريد أن يبارح المسرح .

تنهد الطاهر الرواسي ملء صدره وقال :

« روح يا زمان وتعال يا زمان »

ضحك سعيد القانوني وقال :

« أنا أقول لكم خطبة عشا البائتات في اجتماع الجمعية . خطبه لازم يكتبوها في الكتب ويدرسوها في المدارس .

اسمعوا محبيد خل بالك كويس . احمد وعبد الحفيظ ما
كانوا حاضرين . الخلق محشوره تحت السياله . الحر كاظم
الأنفاس ونحن متحضرين للكتل . بعدن صويحبنا الـ ما يغباتا
يقيف عاوز يخطب . الليله قبلها متعشي معانا هنا .
تحلف قال بصوت معانا . وقت وقف انا قلت لي ود
الرواسي ، معليش زي بعضه أهبل وعويل لكن برضه معانا .
لا سلام عليكم ولا بسم الله ولا الحمد لله . قال - يا جماعة
الخير . محبوب وناس الطاهر وسعيد ناس اصحابي وأهلي .
محبوب حبابه عشره . راجل ما يتفضل عليكم . 'جلة'
الأيان راجل يوزن الف راجل ، شكال صريمه ، ومخلص
يتيمه . لكن الحق لله الجماعة اكلوا البلد ، نَقُوا لحنما ما
خَلُّوا غير العظم . الشخَّاب . مِنْ الله مَا خلقنا والجماعه
دِيلْ يسرقوا وينهبوا ، حلال بارد عليهم . الشيء الـ أكلوه
ما في انسان عاوز يرجعه منهم . ناس عليك أمان الله تلقاهم
في الحاره والبارده . سرقوا ونهبوا البلد ، الله لا يكسبهم
حسنه . رجال فرسان وبطونهم ما تشبع . دَحِينْ زي
ما قال الزعيم الطريفي ولد بكري ، الناس دي تتفضل
تروح بيوتها بالتي هي أحسن . والا اذا كان
عندهم كلام ، الشعب واقف لهم بالمرصاد . يحيا الشعب .
يعيش الشعب . يعيش الطريفي . يسقط محبوب . وخصوصاً
يسقط جنى اسماعيل مقطوع الطاري ان شاء الله ما تتعدل

عليه . صاحبي أخو اخوان قروشه كلها مودرها في العرق^(١) .
محجوب راجل حبائه عشره . راجل ما يتفضل عليكم خدم
البلد وسرق ونهب . باع لي البرسيم الحوض بي خمسين قرش .
قلت له أشاركك في البقرة قال شراكه مش عاوز . يا جماعة
صلوا على النبي . الحلال بيتن . والحرام بيتن . فعضوا الحكابه دي
خلتونا نروح لي بيوتنا »

كان اضحك الضاحكين عشا الباتات نفسه . قال وهو
يكاد يختنق من الضحك :
« أدت كل إنسان حقه . عدل ولا مو عدل ؟ » وفجأة
في غمرة المرح تلك قال :
« يا جماعة في سر عاوز اقله ليكم . ما قلته لجنس إنسان »
حصل على انتباههم بعد مشقة ، فقال :

« الشتاء الفات في أمشير . الدنيا برد وهبوب بين العشا
والفجر . ما تقولوا حلم ، ابدا . شوف عيان زي ما انا
شايفكم هالساعة . وحياة خوتكم يا اخوان ، أنا صاحبي
والفانوس موقد ، متغطي بتلاته بطاطين والريح بره . تصرخ
واي واي واي . الشبابيك مقفولة والباب مقفول . بسم
الله الرحمن الرحيم . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . وقف فوق
راسي . قال لي بنهره « قوم » . شيخنا الحنين اللهم ارضى
عنه . وقت الخوف راح مني عاينت له زين . يا هو ذاته ذاته .

(١) الحجرة السودانية الشعبية المصنوعة من التمر .

لابيس عبايته رشاك فوق كتفه وابريه ال ما يغتاني في
 ايده . قال لي قوم قلت له على وين يا شيخنا ؟ قال لي امش
 القلمه . قلت له الخرابات ؟ قال لي ما هّا^(١) خرابات . امش
 القلمه تلقى قصر . قلت له قصر منو ؟ قال لي قصر بندرشاه .
 قلت له بندرشاه يبقى منو ؟ قال لي واحد من سلاطين الدنيا
 الزايله . زمان زمان كان موجود . كان عنده املاك واطيان
 ما ليها اول ولا آخر . اراضيه كانت الخيل ترمع فيها ما
 تصل حدّها . ثمره وعيشه وقمحه كان يغلبوا في لّمه . كان
 عنده ولد واحد وحداشر عبّد . امش القصر فوق القلمه
 تلقى باب مفتوح ادخله وامشي لحد ما تدخل ديوان . تلقى
 بندرشاه وولده ينتظروك . عندهم امانه على شانك . لا تسلم
 عليهم . لا تتكلم معهم . لا تتلفت يمين ولا شمال . ادخل
 استلم الأمانه واهرق . الحذر ثم الحذر تقول بهم ولا بغير .
 تدخل دار الهلاك وال يكوسك ما يلقاك . الأمانه مال .
 مالك حلالك . بندرشاه ظن نفسه يرث الأرض ومن عليها .
 الأرض أرضك وأرض الضعفاء بعدك . قوم . قوم .

يا زول مشيت القلمه لقيت زّي ما وصف لي شيخنا
 الحنين . قصر وين وين ؟ إني آمنت بالله منور تقول بابور بحر
 وحسن غناء ورقيص وضحك . مشيت لا اتلفت شمال ولا
 يمين وزّي كان بنات يحرنني لي جاي ولي جاي . الديوان
 لا شك كان مليون نسوان ، ما اتلفت ولا عاينت لكن الريحه

(١) ليست .

ضاربة مَحَلْب وصندل ما تَغْبَانِي . لقيتهم الإِثْنَيْن جالسين
جَلْسَة 'قَدْرَة' الله كأنه مَلِك ومعاه وزير . الراجل الكبير
قال لي « أهلا وسهلا ومرحبا . أهلا بابننا عشا البائتات .
إجلس اشرب واطرب » . ما رديت عليه . مديت إيدي
وعقلي يحضر ويغيب . الولد الصغير نطق قال « انطق بالكلام .
رُدْ علينا السلام » . عليك أمان الله . قرّبت اتكلم لكن
سَرَّ رب العباد . سكتْ ساكتْ . الراجل الكبير صفق
بإيديه . جاتْ بنْيَه زي الحورية . نهدها طالع يا دوب ،
زي غمرة اللأوبْ . عريانة جَلْ ، تَتَقَصَّع وتَتَقَدَّل . الكفل
زي السَّحْلِيَّة ، والبطن زي جَنَائِن الشائِغِيَّة . مسكتني
من شِيتِي ، وقالت لي هَاكْ هِيَتِي . رَقَدَتْ وفتحت فخذها ،
شفت النِّبْها وال عليها . قالت لي يا الله يا شاكِي تعال وارقد
بين اوراكي . تلقى مُنَاك وتنال هَناك . آخْ آخْ يا اخوان
من وَقْدَة النِّيرانْ . شفت بِي عيني سَكَّة النجاة وسكة
الهلاك . ولولا عناية الله كنت رُحِت في ستين داهية وما
مَتَانِي . اتعوذت في سري من الشيطان الرجيم وقلت يا منجي ،
ومديت إيدي صُمْ بكم زي ما وصَّاني شيخنا الحنين . وقف
الولد الصغير وضرب رجله بي زعل ونهر البت مشت في حال
سبيلها . الراجل الكبير ضحك وقال له لا تقضب يا مريود .
دا وارث وطالب حق ، سلّمه الأمانة وخليه ينصرف بلا
شر . الولد سلّني صره أخذتها ومرقت زي ما دخلت لا سلام

ولا كلام ولا هم ولا بغم . وقت 'فت لقيت نفسي عند الجامع ،
بردان وعرقان ابكي زي النفاقه على الفصل . كان الفجر قرّب
يطلع . ما فتحت الصرة ولا عاينت فيها . حطّيتها عند
المهراب . طلعت المبدنه وأنا ابكي ما أعرف على ايش ولايش ؟
من الحزن ولا من السرور ؟ فرّيت الأذان يا اخوان
طلع الصوت ما هو صوتي . صوت مليان بالأحزان .
ناديت فوق البيوت . ناديت للسواقي والشجر . ناديت
للمال والقبور والغياب والحضور . ناديت للضالين والمزومين
والمكسورين للصاحين وللسكرانين . ناديت للنصارى
والمسلمين . ناديت الله اكبر الله اكبر وأنا أبكي وأنوح ما
أدري أبكي على ال' لقيته ولا' على الشراح' مني . آخ آخ يا
جماعه على تلك الليلة . سمعت بأداني هبوب أمشير تردد
أذاني ، زي كأني أنا سعيد الكعّيان التغّبان ، بندرشاه
زماني ، أقول لأهل الدنيا والآخرة حي على الهلاك ، حي على النجاح
حي على الضلال ، حي على الفلاح . حسيت وأنا فوق ميدنة
الجامع عند الفجر ، كأن' الملائكه والشياطين ، قالوا بصوت
واحد آمين آمين . نزلت وجدت الجامع مليان بشر ، محمود
ومسمود ، خير الدين وسيف الدين ، محجوب وعكثوب ،
محيميد وأبو الوليد ، ود حسب الرسول وود بكري وود
رحمة الله وود مفتاح الحزنه ناس ما دخلوا الجامع من قبل .
زي كأن البلد كلمه اجتمعت في المسجد عند الفجر . كنت

عارف يا أخوان أنهم كلهم حضروا لأنهم سمعوا الصوت .
نادام المتأدي بلساني . كان في شيء عجيب ذلك الفجر .
أقيمت الصلاة وأنا دموعي نازله شل شل . الإمام قرأ سورة الضحى
سمعت بكاء عبد الحفيظ وبعدين سيف الدين وبعدين محبوب
ومحميد ، وأنا أبكي مَعَام وأجرّم وراي ، لحد ما كل
المصلين بكوا الدمع السخين في ذلك الفجر لأيش وعلى أيش ؟
آخ آخ . وكان عند الشباك اليسار راجل غريب ليه علاقه
بكل ما جرى ودار ، يحنّفي ويبين لحد ما الناس قالوا عليكم
السلام . اختفى ولا خبر ولا أثر ومحميد المسكين يصرخ
بطول الحس ، يقول الشخص الكان هنا راح وين ؟

في البيت ضويت المصباح قبل ما يبين ضو الصباح . فتحت
الصره لقيت أشكال وألوان ، كأنها كنوز الملك سليمان .
جلت قدرة الله ، قلبتها في إيدي بدون أي بهجه ولا
انشراح كأنني اقلب في رماد . رميتها في مكان في البيت ما
أدرى وين ، وغمت النهار بطوله نوم كأنه نوم الأموات .
صحيت من النوم وأنا أبكي الدموع الفزار ، ما أعرف لأيش
وعلى أيش .

كان في صوت سعيد وهو يقص تلك القصة شيء حرك
شجون أولئك الرجال فأخذوا إلى صمت غريق ممتد ، قطعه
أخيراً صوت عبد الحفيظ وهو يقول :

« الله حي »

وخيم الصمت من جديد ، وتنهد محبوب وسعيد وأحمد .
ورجأة ضحك ود الرواسي مقهقها وقال :

« يا زول . عليك أمان الله كلام أضغاث أحلام . تضحك على
دقوننا يا عشا البايئات بي كلام زي حجي الزمن السالف ؟
يظهر طلوع المبدنه في الفجر لحبط غحك . باكر تجي تقول لنا
إنك نبي الله الخضر ولا المهدي المنتظر »

حينئذ ضحكوا جميعاً ما عدا محميد ، وقال احمد اسماعيل
الملعب بأبو البنات :

« دا كلام سكر . لازم عشا البايئات كان شالغ . قسم
الواحد يشرب قزازة العرقى يبقى زي اسمه منو دا ؟ شهنذر
ولا بندر شاه » .

لم يعترض سعيد ، ولم يزد على أن قال :

« آخ ثم آخ ثم آخ »

محميد هو الوحيد الذي اعتقد بتأثير الضوء الغامر في
تلك الليلة ، ان سعيد عشا البايئات قد رأى وسمع . وإذا كان
حلاً ، فإنه سيربو مثل طوفان حتى يفرق البلد كلها .

وقال عبد الحفيظ :

« الفجر قرب يطلع . يا الله يا عشا البايئات ، قوم إذن »

طفا سعيد من صمته مسروراً منشراح الصدر ، وقال لهم
في تلك الحالة :

« إيه رأيكم نقوم كلنا نحضر صلاة الفجر وأصله اليوم يوم
جمعة . بعد الصلاة كلكم معزومين فطور عندي في ديوان جناب
الناظر . عندي حبل عديل ندبجه وتنسبط عليه ،

أول من قبل الدعوة أحمد الذي قال :

« إذا كان صلاة بعدها خروف ، ما في مانع »

رفض الطاهر ود الرواسي ، ورفض سعيد ورفض محميد
ولكن محبوب قال فجأة :

« والله كلام عشا البايئات معقول . مِنْهَا صلاة ومنها
عزومة . يا الله يا جماعه »

كان صوته مثل تلك الأيام ، حين كان رئيس المركب يأمر
وهم ينفذون . في تلك اللحظة التأم شملهم كما لم يحدث من
زمان طويل . لذلك قال الطاهر الرواسي ، وهم يتحركون
في قبس الفجر ، بين النور والظلام :

« رحمة الله عليك يا ود الرئيس »

قاموا وساروا وراء سعيد عشا البايئات ، وهم ذاهبون
إلى الصلاة ، كمن يسير إلى وليمة .

* * *

انفض السامر وقد أصاب الدم المسفوح كل احد برشاشه .
مات الحب أو كاد يموت . كانت الشمس تشرق وتقرب ،
والقمر يطلع وينزل ، والريح تهب ، والنهر يجري ، والبلد
تنام وتصحو . كل شيء فقد طعمه ومعناه . وبعد شهر من
وقوع الحادث وجدت ثلاثتهم في بيت جدي ، مستلقين على
تلك الأسره ، هامدين لا قيل ولا قال ، لا كلام ولا سلام .
لبثت وقتاً طويلاً أنتظر ، وانا أقلب الفكر محاولاً فهم
مغزى ما حدث . تذكرت ذلك الضحى يوم جاء مرهود يبيع
ويشتري بتفويض من بندرشاه . ما أشبه المعجزات بالكوارث .
خرجت عن طوري متممداً محاولاً استفزازهم . صرخت
فجأة :

« بندرشاه هو المستول . لولاه ما حدث ما حدث ،
كل واحد منهم رد على وقاحتي بحركة عصبية خفيفة ،
وظلوا صامتين .

القتلى كثيرون فسا بالهم يرثون لقتيل واحد دون الباقيين ؟

« يقال أنها قاوما مقاومة خارقة ،

ورد ود حليمة فوراً بغضب :

« من سمع ومن رأى حتى يقول ؟ »

كنت أريد أن اخرجهم عن صمتهم بأي وسيلة . قلت :

« سمعت الناس يتكلمون »

لكنهم أدخلوا إلى صمتهم ، وقال جدي :

« لعنة الله عليهم »

حد ود حليمة ، كان أقرب الناس إلى مركز الفوضى في

ذلك الضحى ، ولا بد أنه يطوي صدره على أحاسيس مدمره .

إذا تكلم هو فسيتركلم صاحبه . قلت موجهاً كلامي له :

« انت كنت أول من دخل على بندر شاه . أم لا ؟ »

زفر مختار ود حسب الرسول الهواء من فمه بعنف وتأوه

ود حليمة ، وقال جدي :

« زمن ملعون »

لا بد أن الساعة تبدو لهم غاب^(١) قوسين أو أدنى ، فكرت

في أسى ، ان أولئك الرجال الثلاثة ، يفضلون الموت في تلك

اللحظة على الحياة . امتد بهم الأجل حتى رأوا العالم يفرق في

(١) قاب .

طوفان الاثم . بعد حادث بندرشاه ، مات كثيرون من جيلهم فجأة ، وكان جدي كلما سمع بموت ندم من أئداده يتأوه في حسرة . وقد حدث بالفعل أمور عجيبة بعد ذلك الحادث . الكاشف ود رحمة الله رغم تقدمه في السن قرر فجأة أن يهجر البلد . رفض الإمام الصلاة بالناس وقال أنهم جميعاً ملعونون لا تنفع فيهم صلاة ولا وعظ ثم سافر إلى مكة ليموت فيها . زوجة بكري بعد خمسين عاماً من السر ، خرجت من دار زوجها حاسرة الرأس وأقسمت ألا تعود . ثار من لا يثور وشاجر من لا يشاجر ، وقال الناس أن الشياطين أخذت تمشي في الساحات والشوارع عياناً بياناً في وضح النهار . قلت لهم :

« يقال أنهم ربطوهم بالحبال ، كل منها على كرسي ، في صدر الديوان » .

تأوه ود حسب الرسول وتأوه ود حليلة وقال جدي :

« لعنة الله عليهم أجمعين »

قلت لهم :

« يقال أنهم ضربوهم بسياط من عروق السنط »

استوى جدي جالساً فجأة وقال :

« يعني مش خنق أو طعن ؟ »

قلت لهم :

« يقال أنه قارم كالأسد وكاه يظلب أولاده الأحد عشر ،

قال مختار ود حسب الرسول بصوت جريح مكتوم :

« كان عملاقاً دائماً . كان من طينة أخرى ،

نعم ، كان نسيج وحده دون شك ، وقد صاغ حفيده
على صورته ليكون امتداداً له ، وخوَّله مطلق السلطان على
أبنائه الأحد عشر ، فحكمهم بالقوة والمكر دون حب . كل
فلكه القضع فيما بعد . كانت لها طاقة فوق طاقة البشر .

قلت لهم :

« يقال أن مريد كان يحده لكل منهم حده ، ويحده له
جزاءه ، لا قلوبته صغيرة ولا كبيرة . كل ليلة تتعقد محكمة في
الديوان الكبير . يجلس بندر شاه وإلى يمينه مريد على كرسيين
حاليتين على منصة في صدر الديوان . يصدران الحكم معاً ،
ويكونان المقلب بالسيف ، يفعل ذلك مريد وبندر شاه مقربين
على كرميه يسبح فيهما . هل كنتم تطعون ذلك ؟ »

لم يرد أحد على سؤالي ، وتمجبت كيف يكون الإنسان
أسود اللون وأزرق العينين ، وكيف ينبغي رجل واحد
أحد عشر ابناً ، ولماً بعد ولد ، ثم يختار حفيده الأوحد دون
سائر أبنائه ظلاله على الأرض . أما إن ذلك لم يحدث

حقيقة ، واما انه حدث في زمان صحيح أيام كانت قنزل الكوارس والمجرات . قلت لهم :

« يقال أن الجد والحفيد كلاهما يشربان الخمر معاً ، وكانت تنفي لها الجوارى ويرقصن عاريات بالليل في الديوان الكبير أو وسط البيوت . هل كنتم تعلمون ذلك ؟ »

لم يرد أحد على سؤالي ، وتخللت بيوتهم متلاصقة كأنها قلعة حصينة على ربوة عالية ، بعيدة عن بقية الحى . كانت عالماً قائماً بذاته . قلت لهم :

« يقال أن مريود كان يتدخل في أخص خصائصهم بتفويض من بندرشاه . لم يكتولوا أحراراً حتى في تزويج بناتهم »
« قال جدي أشهد إلا إله إلا الله »
وقال حمد ود حليمة « وأشهد أن محمداً رسول الله »
قلت لهم :

« يقال أن مريود كان يوقظهم مع الفجر ويفلق باب الحوش عليهم عند غروب الشمس ، يسوقهم كالغنم للأفراج والأفراج ، هو وبندرشاه »

تأملوا في رقعاتهم ولم يقولوا شيئاً . قلت لهم :
« يقال ان بندرشاه حرم أولاده جميعاً من الارث وسجل كل أملاكه باسم مريود وقال انهم جميعاً لا يسارون قلامة ظفر مريود »

صرخ ود حسب الرسول فجأة وقد استوى جالساً :

« تسمع كلام الأرزال ، ناس ود جبر الدار وود مفتاح
الحزنة وود رحمة الله . لأن قضاء الله حصل يقولوا بندر شاه
كان كيت وكيت . بندر شاه كان رجل ولا كل الرجال .
كان رجل من معدن آخر . بندر شاه يشرب الخمر ؟ أني آمنت
بالله . بندر شاه في حياته ما شرب خمر ولا عرف جنس رزاله »
وفجأة قاموا ثلاثتهم ، وخرجوا يتوكانون بعضهم على
بعض وتركوني جالساً في الغرفة وحدي ، كأنني في مقبره .
كنت غاضباً وكنت حزينا وكنت في حيرة عظيمة .

* * *

قال الطاهر ود الرواسي وهو مستلق على ظهره ينظر إلى
السقف :

« تعرفوا يا جماعة الدنيا دي ماشيه بالعكس . أنت يا
حبيبي كنت عاوز تبقى مزارع بقيت أفندي . ومحجوب كان
عاوز يبقى أفندي بقي مزارع . »

كانت حالة محجوب قد تحسنت في الآونة الأخيرة ولم يعد
يشكو من الأزمة ، وانقطع عن صلاة الفجر في الجامع .
ضحك وقال :

« عليك أمان الله أنا ان كنت لحقت مشيت في حكاية

التعليم دي ، البجري وراي منع ما كان يلحقني . كنت بقيت مدير ولا وزير .

وقال الطاهر :

« حكاية وزير هينه . الزمن دا أبتا من كان ممكن يبقى وزير . جملة الأيمان الطريفي ولد بكري اذا ما بقي وزير ، ما أبقي انا ود أبوي . »

وقال محميد :

« من وين يحببو له وزاره ؟ البلد ما فضل فيها جنس وزاره . »

وقال الطاهر :

« ما بيفلبو حيله . يعملوه وزير الجمعيات الخيرية او وزير الاجزخانات او وزير الواپورات . اي شي من جنس اللغاويص البنسمع بيها . »

وقال محجوب :

« الطريفي ولد بكري ، الجمعيت التعاونية ما هو قادر عليها . كان عاوز عمله وزير ؟ »

وقال الطاهر :

« انت تفتكر الحكاية بالكفاءة ؟ الموضوع كله أونطه

في أونطه . المهم تبقى فصيح لسان وقليل أحسان . بس
كتر من يحيا ويميش . شوف الحزب القوي ادخل فيه . شي
خطب وشي عوازم وشي براطيل . شويتين شويتين تلقى
نفسك بقيت نايب في البرلمان . بعد داك أرقد قفى .

قال له محميد :

« واذا كان بعد ما دخلت البرلمان ما عملوك وزير ؟ تعمل
شئو ؟

قال ود الرواسي :

« اذا ما عملوني وزير جلة الأيمان اعمل عليهم انقلاب » .

قال محبوب :

وبعدين ؟

قال الطاهر :

« بعدين كان شئو ؟ ما خلاص . أرقد قفى . أي حاجه
عاوزها أضرب الجرس . ادخل يا فلان وامرق يا علان .
فلان ، عينتك حكمدار . فلان سويتك باشمفتش . فلان
حكايته بايظه معاي ، دخلتك السجن . فلان ما توريني
خلقتك . فلان حبابك عشره . وقتين أمرق بالعريبه
الشفرليت وسط البلد الناس تهتف ، يمدش الطاهر ود الرواسي .
يحيا الطاهر ود الرواسي . خلاص بقيت حاكم عام ،

فبه محجوب بالضحك وقال :

« أي كان كدى سجم خشمك . انت قايل الحكم ضرب
جرس وادخل يا فلان وامرق يا فِرْتِكَا ؟ »

وقال محميد :

« لمعلوماتك العربية ما ها شفرليت . الشفرليت جنبها
زي الحماره جنب الحصان »

قال ود الرواسي :

« أي لا حول ولا . كان في أكبر من الشفرليت ؟ »

قال محميد :

« أي نعم »

وقال الطاهر :

« قدر ايش ؟ »

وقال محميد :

« قدر الديوان دا »

وقال الطاهر :

« أي لا حول ولا قوة . عليك أمان الله كان كدى أنا
من باكر اعتبروني مرشح للرياسة »

ضحكوا ثلاثهم ، وهم مستلقين على تلك الأسرة نفسها ،
في ذات الديوان ، عند القبولة . وقال محميد :

« يا زول لإحد ربك . شنو مدير وشنو وزير ؟ انت
أحسن منهم كلهم . هك فاضي لا بيبك ولا عليك ،
تنهد محبوب بحرقه وقال الطاهر :

« صدقت والله . الواحد ما دام ضامن عشا ليلته ، عليك
أمان الله ما همه حكمدار ولا سردار . الكلام أنت يا
محيميد . ضيعت عمرك في التعليم ولفيت ورجعت لي ود حامد
السجم دي بخفي حنين . كأنك بقيت افندي بالغلط . من
زمان وأنت نفسك في زراعة الرماد دي »

تنهد محيميد أيضاً ، وهو مستلق على سرير جده عند
القبولة ، وقال بعد تفكير طويل :

« كلامك صحيح . محبوب كان حقه يمشي في السكه دي .
محبوب عنده الطموح . عاوز السلطه . أنا عاوز الحقيقة .
وشتان بين البحث عن السلطه والبحث عن الحقيقة »
ضحك ود الرواسي ساخراً وقال :

« يعني هنتع جيت لي ود حامد المسجته دي على شان
فيها الحقيقة ؟ والله حكاية »
وقال محبوب :

« الحكاية ماها حقيقة . الحكاية بلاد . أنا ومحيميد
كنا دفعه في المدرسه الأوليه . تتذكر ؟ انا كنت اذكي واحد
في الفصل . محيميد كان ورا . أبوي رحمة الله عليه قال

كفاه . بلاش مدارس وكلام فارغ . السنه ديك القمح
الناس غلبوا في حشه . قال يا الله تعال اترزع معانا زيك
زي غيرك . محميد أبوه الله يطراه بالخير قال نفس الكلام .
جده صمم رأيه قال أبداً . يمشي في سكة المدارس لحد ما
يشوف آخرتها . وآخرتها شنو ؟ محميد لف ودار ورجع لي
الزراعة وكأنا يا بدر لا رحنا ولا جينا ،

وقال الطاهر :

« كان رجل جبار متسلط إذا صمم رأيه رأسه والسيف .
رحمة الله عليه ،

وقال محميد :

« وبعد داك كل شيء مشي بالعكس . الإنسان لازم يقول
« لا » من أول مرة . كنت فرحان في ود حامد . ازرع
بالنهار وأغني للبنات بالليل . اشرك للطير وأبليط في النيل
زي القرنني . القلب فاضي وراضي . بقيت أفندي لأن
جدي أراد . ووقتني بقيت أفندي كنت عاوز أبقي حكيم
بقيت معلم . وفي التعلم قلت لهم أشتغل في مروي قالوا
تشتغل في الخرطوم . وفي الخرطوم قلت لهم أدرس الأولاد
قالوا تدرس البنات . وفي مدرسة البنات قلت لهم أدرس
تاريخ قالوا تدرس جغرافيا . وفي الجغرافيا قلت لهم أدرس
أفريقيا قالوا تدرس أوروبا . وهلم جراً ،

استغرق ود الرواسي في الضحك ثم قال :

« ناس ما عندهم نظر . عليك أمان الله ان كنت أنا كنت عملت عليهم انقلاب »

قال محبوب :

« يا ريت نلقائنا انقلاب يطير الطريفي ولد بكري من رئاسة الجمعية »

وفجأة ورد السؤال . قام ود الرواسي من رقدته واستوى جالساً ، ونظر إلى محييد وقال له :

« انت يا محييد قطعاً أصفر مني ومن محبوب . ما أظنك بلغت سن المعاش . اشعنى نزولك المعاش قبل وقتك ؟ »
تذكر محييد حكاية الصلاة وضحك . وقال محبوب :
« صحيح . الحكاية شنو ؟ »

قال محييد :

« وقتين طفع الكيل مشيت لأصحاب الشان قلت لهم خلاص . مش عاوز . رافض . أدوني حقوقي عاوز أروح لي أهلي دار جدي وأبوي . أزرع وأحرت زي بقية خلق الله . اشرب المويه من القلة وآكل الكسرة بالويلة الخضراء من الجروف . أرقد على قفاي بالليل في حوش الديوان أعابن للسماء فوق صافية زي العجب والقمر يلهج زي صحن الفضة .

قلت لهم عاوز أعود للماضي أيام كان الناس ناس والزمان
زمان . قلت لهم خلاص استلموا عهدتكم وأدوني حقوقي فهذا
فراق ما بيننا ،

قال ود الرواسي :

« وشن قالوك يا محميد ؟ قالوا الحكام أولاد البلد
صعبين أجاارك الله . زمان الانجليزي كان ينهرك ويقول لك
أتلا بارة . هسح قالوا أولاد البلد يضربو بالشلّوت ،

قال محميد ضاحكاً :

« ما في ضرب ولا شلايت . كل شي بي نظام وذوق .
الاجراءات قتم حسب القوانين والأصول . وجوابات ، «يؤسفنا
أن نخبركم ، ويسرنا أن نعلمكم ، قعدت في البيت شهر .
بعدين سوّا الحكاية بالتي هي أحسن . وأصله كان باقي لي
سنه ، ضموها للخدمة والسلام عليكم ، عليكم السلام ،

« وأنت ما دام أصلك طالع ، ما ضربت لك واحد كفين
ولا تلاته تفش مفصتك ؟ ،

قال محبوب :

« محميد ما هو زول ضرب ،

وقال محميد :

« إيه لزوم العنف ؟ الحكاية بالعقل ،

« والوليدات والبنيات يا محميد ؟ »

وقال محميد بشيء من الحسرة :

« الأولاد أخذتهم الحكومة ، والبنات أخذوهم الأفندية .
جلال عليهم . دخلوا في عالم العربيات والتلاجات والدرجات .
عاوزين يحوا هنا أهلا وسهلا ، عاوزين يقعدوا هناك اغتبرم
مني هديته لزمان الحرية والمدنية والديمقراطية . أما أنا يا ود
الرواسي ، أفندي بالفلط ، مزارع زي ما قلت ، هام على
وجهه ورجع لنقطة البدء . رجعت عشان أدفن هنا . أقسمت
ما أعطي جثماني أرض غير أرض ود حامد ،
ضحك ود الرواسي وقال :

« انت يا محميد أما شاعر أو مجنون ، أو خرف
الشيخوخة . لكن أهلا بك ومرحبا . ود حامد مسجمة
ومرقده . في الصيف حرها ما يتقدم ، وفي الشتاء بردها
أجارك الله . التمنتني وقت لقوح التمر ، والضبان وقت
طلوع المريق . فيها الدباب والعقارب ومرض الملاريا
والدستاريا . حياتها كد ونكد ومشاكلها قدر سيب الراس .
اسألنا نحن خابرتها زين . الولاده بي كواريك^(١) والموت بي
كواريك . جنابك قضيت حياتك كلها منجمص في مكتب
تحت المروحة . المويه من الحنفية والنور بالكهرباء والسفر
درجة أولى . هلا هلا . ما وقعت قرّاع عز الشتاء . ما
ركبت الحمير لا من جَعَبَاتِكَ ورسن . ما قعدت تعان للتمر

(١) صراخ .

لا من ينجض^(١) يا لله السلامة تصب عليه مطره ولا تحته هبوب .
ما حرست القمح وإيدك فوق قلبك يصيبه طير ولا "دأقيل".
وهسّع وقت الصعيد جاب الهبوب مقلوبة ، جيت تكؤوس
رقدة الديوان تعالين للقمر بلالي في سابع سما . مرحبتين
حبابك والف اهلا وسهلا ،

قال محبوب ضاحكاً :

« عفارم عليك يا ود الرواسي »

وضحك مجييد كما لم يضحك منذ أعوام ، ضحكة نجيلة
خبيّة منطلقة وقال :

« انت يا ود الرواسي أشعر مني »

* * *

قدرت ان الطريفي لا بد أن يكون في السادسة والثلاثين ،
أو السابعة والثلاثين ، فقد كان في نحو الثانية عشرة في عام
عرس الزين . كان محبوب في الخامسة والأربعين حينئذ ،
ذلك أعلمه علم اليقين ، وكان أحمد الذي أصبح الآن أباً لبنات
كثيرات ، وبناته صرن للزواج ، كان عامها في نحو العشرين .
تغنّت وجهه وهو يجلس أمامي في برنّدة الديوان ، خالفاً ساقاً
على ساق ، ممسكاً بفنجان القهوة ، وقت الضحى . لم يكن في

(١) عندما يتصج .

الوجه شيء يلفت النظر ، ما عدا الميزن الضيقتين الزكيتين ،
وتلك الابتسامة الساخرة في ركن الفم الأيسر ، تحدث تناقضاً
بين ما يقوله وما يمني به . كان أيضاً شيء آخر ، ذلك الشيء
الذي تسبغه السلطة على من في يدهم السلطة : مزيج من الاقدام
والخوف والبذل والطمع والترقب والتأسك ، والصدق والكذب .
كأنك ازاء ممثل يؤدي دوراً ، وأنت تعلم أن الذي يجري
أمامك ليس حقيقة ، ولكنك لا تملك إلا أن تستسلم للوهم .
كان الطريفي مدركاً تمام الإدراك طبيعة الدور الذي يؤديه .
ختم خطبته قائلاً :

« الدنيا لازم تمشي لى قدام مش لى ورا .
لا شك انك أنت بالذات تدرك ذلك . محبوب أدي
دوره خلاص . نحن كان نؤدي دورنا »
تذكرت أن الطريفي ليس ابن اخت محبوب وحسب ،
ولكنه أيضاً زوج ابنته .
قال أيضاً :

« محبوب وجماعته ظنوا ان ليهم حق إلهي في السلطة .
نسوا ان البلد اتغيرت . حاجات كثيرة حصلت . ود حامد
ما عادت ود حامد قبل ثلاثين سنة . ظهرت أجيال جديدة
ومطالب جديدة . زمان كان لما الباخرة تظهر الناس يتلموا

تحت الدومة ويتفرجوا عليها كأنها معجزة . دلوقت الوضع
اتغير .

تخيلته وهو صبي ، يصب لنا الماء في ديوان محبوب . كان
يؤدي تلك الواجبات التقليدية بلا اكتراث ، لا يقول «حاضر»
ولا «نعم» ، يحملك تحس بأن عليك أن تصب الماء بنفسك .
يا ترى هل كان يعلم حتى في تلك السن المبكرة ، أن يكون
إنسان أسن من إنسان ، لا يعني شيئاً ؟ وكان معلوم في
المدرسة يقولون أنه تلميذ ماكر ، يتزعم أي حركة تمرد أو
شغب ، وينجو من العقاب . دائماً يفعل هو الخطأ وينال العقاب
غيره . كأنما الأقدار كانت تعدّه لهذا الدور . أيام عرس الزين ،
أوكله محبوب بتوفير العلف لحير الضيفان ، وكان هو أمثل
إلى توفير الخمر للشاربين ، ولما انتبه محبوب ، وجد الحير بلا
علف ، وبجثوا عن الطريفي فوجدوه يسكر مع السكارى .
محبوب انتهره وصفعه ولم يسكت الطريفي ولكنه صرخ في
محبوب وقال له « انت تفتكر نفسك مين ؟ » وترك العرس
ولم يشارك فيه . وكان منذ صغره يعمل ما لا يعمل . كان
يخلف ساقبه بحضور من هم أكبر منه سناً ، وقلّات بصوت مسموع
حين يقص على ود الشايب إحدى أقاصيصه ، وكان يزوج نفسه
في أحاديث الناس الكبار ويقول رأيه صراحة ، ويكون
دائماً معارضة أو تسخيفاً لرأي رجل في مقام والده . كان ثمة
إجماع على أنه ولد ما فيه فايده ، وكان محبوب يقول لأبيه

في المجالس « الطريفي ولدك ، ربنا يكفيننا شره » . ورغم ذلك ، كان دائماً يدهش الناس بتفوقه وإتقان كل عمل يعمل به باختباره . وله في تاريخ ود حامد مواقف بطولية لم تزل التقدير الكافي من الناس ، لأنه كان ما يلبث أن يعمل العمل المجيد حتى يعود فيحطمه بعمل شائن في نظر الناس ، كأنه يفعل ذلك عمداً ، وكأنه لا يبالي قال له الناس أحسنت أم قالوا أسأت . كانوا في حيرة من أمره ينظرون إليه بمزيج من الإعجاب والحدذر .

قال الطريفي :

« الناس عاوزه قائد عارف طبيعة دوره في البلد . محبوب كان عامل نفسه شيخ عرب . تهوئش بدون قيادة وشغل ما فيش . أنا عارف محبوب صديقك الحميم ، لكن دي الحقيقة »

تذكرت أنه في فيضان الدميعة الكبيرة أنقذ أمونة بنت التوم من الغرق ، وأنه ظل ساهراً طول الليل ، يسبح بين الجزيرة والشاطئ ، يفك بقرة مربوطة هنا ، ويقيم حاجزاً هنا ، ويرفع شيئاً وقع هنا ، ويمد يد العون لفريق يطلب النجدة . وفي الصباح ، والناس يقاومون الفيضان مجتمعين ، كان هو نائماً في داره . يقولون وهم يحصون من غاب ومن حضر: « الطريفي ولد بكري الله ينجيّه . في يوم مثل دا الناس

كلها شغاله وهو نايم على قفاه في البيت ، . أمونه بنت التوم
قالت لهم خلاف ذلك ، ولكنهم أبوا أن يصدقوها . وكان
سعيد عشا البايئات يقول في المجالس :
« نُجْمَةُ الإيمان الطريفي ولد بكري راجل حبابه عشرة .
لكين أنتو عமானين » .

يضعك على ود الشايب مع جملة المستهزئين ويقول :
« عشا البايئات عامل محطة إذاعة ودعايات لي ولد
بكري . المتعوس وخايب الرجا » .
ومع ذلك اجتمعوا ذات ضحى ، تحت السيالة الكبيرة
وسط البلد ، وانتخبوه زعيماً لهم .
استأنف خطبته قائلاً :

« موضوع القرابة والصدقة ماليه أي دخل . الموضوع
موضوع مبادئ »
قلت له :

« مبدأك شنو ؟ »

قال بلهجة صلفة ، كما خيل لي وقتها ، ولعلني أخطأت
التصور :

« مبدئي انتشارال البلد دي من وهدة التخلف والتأخر .
لازم نأثمي ركب الحضارة . العصر عصر علم وتكنولوجيا ،

ثم نظر إلي بتعبد وسألني :

« وأنت وضعك شنو في الحاصل دا ؟ »

ضحكت ، ففاظه ضحكتي ، وقال بصلف أكثر ، كما
خيل لي :

« الموضوع جد مش هزار . وضعك شنو ؟ »

كان يمكن أن أسخر منه ، في تلك الظروف والأحوال ،
ولكنني قاومت وصمت . ولعلته لم يدرك الأسباب التي تجعلني
أعطف عليه بصفة خاصة ، فهو ابن مريم ، وكان محتملاً أن
يكون ابني لولا أن جدي قال لا . وقد أبدت أخاها ضده
وتركت الدار واقامت عند محبوب مع أنه ابنها البكر
وكانت تحبه جداً وتقهر به . لم تره بعد ذلك . ثم مالت في
شهر أمشير ، ودفنتها قبيل غروب الشمس . كان وضعاً
مؤلماً . كان الطريفي يبكي كما لم أر إنساناً يبكي ، وامسكناه
بالقوة ، ود الرواسي وعبد الحفيظ وأنا ، حتى لا يدخل القبر
مهما . مسكين . هو أيضاً يتمتذب . الإنسان مهما بلغ به
الطموح فهو ابن انثى . ولعله رأى انعكاسات تلك الأفكار
على وجهي ، فاعتدل في جلسته فجأة ، وكانت في يده سجارة
فاطفاها . تملل في كرسيه . تنهد بصوت مكتوم وأطرق
يتفحص التراب . سألته ، وأنا أترفق به بسبب كل ما
ذكرت :

« تذكر ذلك الفجر في أمشير ؟

رفع رأسه مذعوراً وقال :

« أي فجر ؟

قلت له :

« الفجر المشهود ، لما الجامع اتقى بالمصلين على غير العادة .

في أمشير بعد ما دفننا أملك مريم بالليل ،

أطرق ينظر في التراب ولم يحب . قلت له :

« حملناك غمران من المقابر بعد الدفن . هل تذكر ؟

قال بحدة :

« لا أذكر ، ؟

فقلت :

« فقدت الوعي على طرف القبر وصحيت على بكاء المصلين

في الجامع عند الفجر . بين النوم والصحو حملت حلم .

هل تذكر ؟ ،

أجاب بعنف :

« لا أذكر ،

قلت له :

« سمعت صوت ،

قال :

« ما سمعت أي صوت ،

قلت له :

« ناداك منادي »

أجاب بانفعال :

« ما ناداني أحد »

قلت له :

« هل تذكر الـ حصل في داك الفجر ؟ تذكر بكاء
المصلين ؟ تذكر أنك بكيت حتى كادت روحك تطلع ؟ »

رفع رأسه وجمع أشداته يجهد واضح ، وكان قد تزعزع ،
وقال بصوت مرتعش :

« لا أذكر »

لعلني قسوت عليه ، ولكن أحد أسباب رجوعي ، أن
أعلم حقيقة الأمر قبل فوات الأوان ، فأنا أيضاً عبرت ذلك
الجسر ، وقد دفنت أشياء غالية ، ورأيت أشياء تنبت كما
تتشقق القبور يوم البعث ، ولا بد أن ندرك العلاقة بين شقي
الرحى . قلت له ولعلني قسوت عليه ، دون قصد ، في تلك
الظروف والأحوال :

« أنا اخبرك بالـ حصل . جاءك رسول . قمت في غمره ،
وسرت وراءه في الظلام . رأيت أمامك قلعة زيـ كان الظلام
انشق عنها . أضواءها تظهر وتغيب . تبعت الرسول فإذا
ضجة وحس غناء ورقيص . كان في حفل يُقام وسط ذلك

الظلام . انفتحت أبواب ومشيت في دهليز بعد دهليز لحد ما وصلت قاعة واسعة مضاءة بالمصابيح والقناديل . في صدر المكان كان في واحد على هيئة اثنين . هو هَشْ لك ، ومها رَحْبَا بك ، وقال لك الصوت « أهلاً بالطريفي ولد بكري . أهلاً بزعيم ود حامد الجديد » . أجلسك على اليمين أو على اليسار . وجابولك الشراب . صحت سمعت عشا الباتات يؤذن لصلاة الفجر بصوت هَزَّالك وجدد أشواقك وأحزائك . مشيت بين الظلام والنور ، وانت لا تعلم أنت في أي زمان ، أمس ولا اليوم ولا بكره ، ولا في أي مكان ، هنا ولا هناك . لقيت أمة من الناس اجتمعوا بلا سبب وبلا ميعاد كأنهم كانوا ينتظروك . تذكرت اجتماع الناس عند القبر قبيل المغيب ، والناس تحت السيالة الكبيرة وسط البلد وقت الضحى ، وتذكرت ضحى أول ، قبل ما تولد أو يولد أبوك أو جدك بأجيال وأجيال . كان الناس يحرون مشتتين ها هنا وها هنا ، يبحثون عن شيء ولا شيء . وكنت أنت وبندر شاه تمسكان بخيوط الفوضى ، وسطها وفوقها . كانت وليمة . بكيت مع الناس والناس بكوا معاك . وكان الواحد الغريب عند الشباك يختفي ويبين . أنا سألت « هل رأيت الشخص الذي كان هنا ؟ » بعض الناس قالوا « نعم » وأنت قلت « لا » . هل تذكر ؟

صمتنا صمتاً طويلاً ، وكانت صفحة وجهه مثل سماء

يتجمع سحابها ويتفرق ثم يتكوّن من جديد . وقلت انتشله
من الفرق ، لأنه ابن مريم ، فضحكت فضحك هو أيضاً كما
توقعت في تلك الظروف والأحوال . قلت له :
« الآن أجيبك على سؤالك . إن وضي كما ترى ، وضع
معقد »

كان قد رجع إلى حالته الطبيعية أو كاد . نظر في ساعته
ووقف ليمشي . دهشت للشبه بينه وبين محبوب ؛ القومة
والقعدة والضحكة وتعبير العينين وحركات اليد . ليس فيه
شيء من أمه . جاء يدعوني إلى معسكره . فلم يفلح ، ولكن
لعله أدرك شيئاً مثلي . قال وهو يتجه نحو الباب :
« أنا أيضاً أجيبك . في ذلك الفجر ، رأيت رؤيا ،
وسمعت صوت ولكن ليس كما وصفت » .

*

أنزل حسب الرسول ، النثير عن رقبة الثور ، قبل طلوع
الفجر بمقدار ما تروى ستة أحواض . كان الوقت شتاء في
أمشير ، فيما روى ابنه مختار بعد ذلك بأعوام وأعوام .
وكانت على حَجَرَةِ الْقَيْفِ نار من خشب الطلح ، تؤنس
وحدته وتعطيه بعض الدفء . كان وحده على الساقية يسير
وراء ثوره الوحيد « الإِقْوَقْ » ، ثم يجري ليحبس الماء عن
حوض امتلاً ، ويفتح مجراه في حوض فارغ . كان الرجال
قليلين في تلك الأيام . يقول مختار ود حسب الرسول ان أباه
أطلق الثور من الساقية وقاده إلى مراجه غير بعيد ، ووقف
عند النار ينظر إلى ضوئها الشحيح ينعكس على الماء . وبغته
سمع حركة في الماء كأن تمساحاً طفا ، ونظر فإذا الضوء
المنعكس من النار الموقدة ، يتأرجح فوق حَقَافِي الموج .
ونظر ثانية فإذا دُفْمة تتجه نحوه . قال حسب الرسول فيما
روى ابنه مختار :

« رأيت الدُفْمة تَلَشَّوْبَحُ بين النهر والسماء كأنها ممددة

بين النار على الشاطيء وقبس الفجر الباهت تحت خط الأفق .
 وأحسست بنفسى أضيع وفيما أنا اهوى تذكرت اننى متوضىء
 لصلاة الصبح وان وضوئى لم ينتقض . بدأت أطفوا وأنا
 اتشبث بتلايب القرآن أردد الأسماء بلا وعي حال رجل من
 الأميين . أشرعتُ أسلعتى ، يس ، حاميم ، كاف ، لام ، ميم ،
 قاف ، صاد ، عين ، وكل اسم يدفعني إلى أعلى حتى عدت إلى
 قريب من حالتي الأولى وقلبي يتقافز وعريقي يتصبب وحالتي
 من الكرب والبلاء لا يعلمه إلا الله . رأيت الدمة صارت
 شيطانا واحداً بدل جمع شياطين ، وقلت الذي كفاني شرم
 يكفيني شر هذا كان . تشجعت وتماسكت وبلمت ربي
 وقلت للمارد الواقف في الماء بين الأرض والسماء السلام على
 من اتبع الهدى ، . لم يرد على سلامي ومضى يخوض الماء
 قاصداً مكاني ، فأكثر من التهليل والتكبير ، وبين كل
 بسم الله ولا حول ولا قوة إلا بالله ، أحس بملك من ملائكة
 السلام يحل في قلبي ، حتى وجدت الذي ضاع من لساني
 وجناني . سأله وأنا على تلك الحالة ، وما بي حاجة إلى
 سؤال :

« أنت شيطان أم إنسان ؟ »

فأجابني وهو واقف أمامي ، وكان ما بيني وبينه مقدار
 مائة فرسخ . قال بلغة عربية ولكنة أعجمية :

« شيطان »

كانت مخاوفي قد صارت خوفاً واحداً ، وكان أذنيّ
كانتا مغلقتين انفتحتا مرة واحدة ، فسمعت حين الموج على
الشاطئ كأنه قصف الرعد . قلت له :

« شيطان جايي من وين ؟ »

أجابني وقد اتضعت فصاحته وعجمته أكثر « من محل
ما تجي الشياطين »

قلت له :

« الشياطين تجي من وين ؟ »

فأجاب :

« من بعيد وراء البحر »

قلت له :

« وجيت هنا على شان إيش ا »

قال :

« على شان جوعان »

فجأة انقشع خوفي كما تنقشع الغمامة . قلت في نفسي
شيطان جوعان هذا لا يقبله مُخْ بشر . اما انه شيطان
كحيان ، واما انه بني آدم مثلي ومثلك . ضحكت وسمعت
ضحكتي تسافر إلى الشاطئ الثاني وتعود . قلت له وقد
عدت حسب الرسول ود نختار ، والدنيا في ود حامد فاجر
قرّب يطلع :

« يا زول . شيطان جوعان ؟ عليك أمان الله أنت بني
آدم مثلي مثلك »

كان قد خرج من الماء ورأيتُه واقفاً أمامي لا يغيباني ،
أبيض اللون ، طويل القامة ، عيونُه خضر آراها على ضوء
ناري ، لكنه بني آدم مثلي مثلك . قال لي :

« يا مغفل . هل الشياطين تحضر على طُوف فوق النيل ؟
إنسان ، تمبان وجوعان . أيام بلياليها ، عيوني ما ذاقت
النوم ، وبطني ما ذاقت الطعام »

« اهلا وسهلا ، قلت له ، أهلاً وألف مرحباً ، بالضيف
الغريب الجايي من بلاد الله . وصلت محل عشا الضيفان ،
وجمة الفستّران ، وكنت قد عدت كما أنا وأكثر ، حسب
الرسول ود مختار ولد حسب الرسول الخنجان ، شكّال
الصريمه ومخلص اليتيمه ، ناره ما تنطفي وضيفه ما ينكفي ،
ونحن يعلم الله حالتنا حال ، عندنا عزز وحدة ترضع ، وثور
وحيد بدون بقرة ، لا حيار ولا سرج ، وبيتنا قُطِيّة لسع
ما بنينا طين ، ومختار ابني طفل رضيع . في البيت شوية
دخن لا سمن ولا لحم ، زارعين القمح ومنتظرين فرج الله .
ميهونه أم مختار ، علمت عصيدة دخن بشوية لبن وكنت أنا
اتباطاً في الأكل على شان ياكل الضيف . ديك الأيام ما كنا
عرفنا الشاي والبُن ، نشرب الحلبة باللبن والتمر والسمن ،
ونحن ما عندنا لا دَا ولا ذَا ، الرجل أكل بنهم وانا حمدت

الله بصوت عالي كأنني أكلت عجل بحاله لعل الله يملأ باقي بطن
الضيف بالبركة . اتكرع لكنه ما حمد الله ولا شكره .
نظرت إلى هيئته . الوجه مثل الصخر والأنف مثل الصقر .
والأسنان زي أسنان الحصان . والعيون خضر تلع مثل
الفيروز . جلست صنعة الله . وهدومه زي لبس العساكر
الأتراك مشرطة ومقطعة ومبلولة وعليها بقع دم . وعنده
عليه سألته عنها ، قال وهو يضعك :
« فيها الأكسير »

ما طولت معاه الكلام: بعدما أكل وشرب سقته للمسجد
وهو في تلك الأيام غرفة واحدة من الطين محوط بسور من
القش . كنا أقارب بيوتنا جنب جنب . اجتمع الرجال في
المسجد وقت الضحى للتعرف على الرجل الغريب وكل واحد
أحضر ما يقدر عليه ، إل عنده تمر وال عنده لبن وال عنده
لوبيا وال عنده عصيدة . عمي محمود كان أحسننا حالاً دبح
دجاجتين . اتفدينا قبل موعد الغداء على شان خاطر الرجل
الضيف . بعد الغداء حكيت لهم الحكاية وبدأنا نستفهم عن
سره وفحواه . عمي محمود بدأ بالسؤال قال له :
« ما اسمك ؟ »

أطرق الرجل الغريب مدة طويلة يفكر . فنظرنا بعضنا
إلى بعض حيث ان السؤال لا يحتاج إلى تفكير .
بعد زمن قال :

« لا أعلم ،

سأله عمي محمود بدهشة عظيمة ، وكنا كلنا في دهشة :

« هل يوجد إنسان ما عنده اسم ؟ »

قال الرجل :

« لا بد كان عندي اسم . يهلول ، يهدور ، شاه ، سخان ،

ميززا ، ميرهان . لا أعلم ،

قلت في نفسي أسماء جان ما أنزل الله بها من سلطان ،

سأله :

« هل انت مسلم أو نصراني أو يهودي ؟ »

أطرق مفكراً كالأول ، وبعد مدة قال :

« كان عندي دين ، لا بد . لا أعلم . »

سأله عبد الخالق ود حمد بزعل وكان دائماً أسرعنا إلى

الغضب :

« يا بني آدم . هل في إنسان ما عنده دين ؟ جازي تكون

عابد نار أو عابد بقر أو عابد رماد ؟ فهنا . »

أنا ضحكت وقلت لهم :

« وهل نحن أثبتنا انه ابن آدم ، مش جازي يكون

شيطان ؟ »

رحمة الله ود الكاشف أيضاً ضحك وقال :

« كل شيء جازٍ في مثل هادي الأيام ،

تبادلنا النظرات ، وأنا أشعر اني شخصياً مسؤول عن
وجوده . كان الرجل صامت لا يحير جواب . الله :

« هل تذكر جيت من وين ؟ »

أجاب على الفور :

« قوقاز ، أهواز . خراسان ، أذربيجان . سمرقند ،
طشقند . لا أدري . من مكان بعيد بعيد .. كنت تعباً
وجوعان وعيان ،

تذكرت كيف طلع علي من الماء مثل السحابر وقلت في
سري ما دام قد شبع فلا بد أنه رجع شيطان مثل ما كان .
رحمة الله ود الكاشف سرق السؤال من طرف لساني . قال
للرجل بغضب :

« اسمع يا مخلوق . خلاصة الأمر ، فهمنا . انت إنسان
أم شيطان ؟ »

الرجل ما تردد ولا فكر ، أجاب على الفور : « هو يحذر
ود الكاشف بهيونه الخضر نظرة كادت تعد موادة :

« إنسان . بني آدم منكم »

ضحك عمي محمود ، وكان أعقلنا وأفهمنا ، شيخنا وزعيمنا ، وقال :

« الحمد لله ما دمت عرفت انك إنسان »

مفتاح الخزنة ولد عبد المولى ، كان قاعد بعيد زي عاداته ، قريب من الباب بحيث إذا الموضوع أصبح جد يهرب بلا مشقة ، لا يسأل ولا ينشد ، إذا الناس ضحكوا ، وإذا زعلوا يسكت زح قريب من الراجل وقال له بتردد :

« جنابك ضروري تتذكر شيء . أي شيء .. شغل نحك زين ، يمكن الله يفتح عليك »

عبد الخالق قال :

« مفتاح الخزنة حالاً عمل للراجل جناب علي شان أبيض وعيونه خضر »

رد عليه مفتاح الخزنة بخوف :

« الرجيل من الترك قطع شك . يمكن يكون سنجك أو سردار أو حكمدار . لازم تتدبر وناخذ حذرنا »

ضحك عمي محمود وقال له :

« انت دائماً تهول الأمور يا ود عبد المولى . نحن هسح يهمننا اسمه وجنسه ودينه . مركزه ما ليننا بيه دعوه »

فجأة الرجل كأنه صحا من غيبوبة أو كأنه شاف شبح .
ظهر الخوف على وجهه ووقف على طوله ومد ايديه في الهواء
مثل كأنه يصد خطر ماثي صوبه ، تطاير الشرر من عيونه
وبان الغضب والهلع على وجهه وصاح بأعلى صوته (جَانجْ .
جانج) ورطن بلغة لم تفهما ، ثم مسك جنبه الأيمن وصرخ
صرخة عظيمة من الألم ووقع غمران . ولما كشفنا عليه وجدنا
جرح كبير تحت الضلع مقدار شبر مليان قيح ليه مقدار
اسبوعين أو ثلاثة . في الأول حسبناه انتهى ، لكن صدره
أخذ يصعد وينزل والمرض رشح فوق وجهه . طول الوقت
نحن نسأل وننشد والرجل مضروب خطر ونحن ما عندنا علم
ولا خبر . قلنا لا بد عسكري من جيش الترك هارب لكن
تلك الأيام ما سمعنا بأخبار أي معارك في الصعيد . أحضرنا
له سرير في المسجد وقمنا على تمريره شهر بطوله، نقول صاحبنا
يموت اليوم أو باكر . وأكثر إنسان تمب في تمريره كانت
فاطمة بذت عمي جبر الدار . كانت صغيرة اخواتها ، مريم
أم حاج احمد ، وحليمة أم حمد ، وميمونة أم ولدي مختار .
كانت صبية دون البلوغ ، أقل اخواتها في الجمال ، نحيفة زي
الجراده ، لكنها توزن عشرة رجال ، عقلها زي السكين
وقلها مثل الحجر . أظنها البنت الوحيدده من قبلي إلى بحري
الحافظة القرآن ، قرأت مع الأولاد في خلوة حاج سعد ترتله
بصوت مثل هديل القمري . كذاب الولد الـ يقول لك غلبتها

في الجري أو العوم أو طلوع التمر ، إلى ان أبوها منعها .
كانت شيطان مصرم . ما عندها حياة اللسان ، عيونها سود
وكبار مالبات الوجه كله حين تنظر لها ترد النظرة لحد ما
أنت الراجل تفرض طرفك . الله الله . كانت تركب الحمار
مفشخة زي الراجل ، تزرع وتحرق كأنها راجل . أبوها دايماً
يقول « الله سبحانه وتعالى أعطاني أربعة بنات ، حليلة ومريم
وميمونة والله لنا — الله لنا هو ولده رجب سار عليه لقب
الله لنا بسبب خوفه — وأنعم علي بولد واحد هو فاطمه .
« تعبت غاية التعب في علاج الرجل الغريب . كنا نضحك
معاها نقول لها « الراجل دا يمكن عفريت ما هو بني آدم .
إذا خطفك أو خسف بك الأرض أو عمل لك مصيبه » تقول
لنا « إذا كان هو شيطان فأنا إبليس ذاه كبير الشياطين ، .
جلت قدرة الله الرجل كأنه فعلاً ما هو بني آدم ، المرضه الـ
مرضها تقتل التور . بعد شهر فتح عيونه ونحن مجتمعين في
المسجد وقت الضحى ، نظر لنا ساعة زمان وقال :

« من أنتم ؟ »

عبد الخالق ود حد ضحك وقال :

« نحن الجان الكان مع الملك سليمان »

الرجل اقلقت يمين وشمال وقال :

« اين هذا المكان ؟ »

ود حمد قال له :

« هذا المكان جهنم الحمراء »

نظر الرجل فوق وتحت كأنه عاوز يتذكر وقال :

« ماذا جاء بي إلى هنا ؟ »

ود حمد قال له :

« جابك الطير الأبايل »

الرجل هَبَّ واقف على طوله ونحن ساكتين نَعَاينَ له .
نظر في وجوهنا وأتقدم لي قِدَامَ واتأخر لي وراء وجلس
فوق العنقريب ثم وقف وتفرس في أصابع يديه ورجليه
وفحص ثوب الدمور الـ لبسنا إياه ، وبعدين جلس على السرير
وسكت برهة وقال :

« أنا مَنْ أكون ؟ من أنا ؟ »

كلنا ضحكنا ديك الساعة وعمي محمود قال له :

« انت تكون منو ، هدا هو السؤال »

وبالفعل وجدناه نسي كل شيء ، خروجه من النيل ،
وعصيدة الدُخْن الـ أكلها في بيتنا وجلستنا معاه في المسجد .
شيء عجيب . كأن الرجل اتولد من جديد داك الضحى في
الجامع . قبل داك لا يذكر شيء . تحيرنا في أمره وضربنا
أخماس في أسداس وبعدين سألناه إذا كان في وجهة يريد أن

يقصدها ، فأجاب انه لا يعلم وجهة يقصد اليها . تفأكرنا في أمره كيف العمل ؟ هل نلقيه في النيل من حيث جاء ؟ هل نمسكه الدرب ونقول له سلام عليكم ؟ لكن الشفقة في قلوبنا تغلبت على الحذر ونحن قوم على ما بنا من ضيق الحال لا نرد من طلبنا ولا نخيب سؤال من سألنا . عمي محمود قال له :

« يا عبد الله . نحن كما ترى نعيش تحت ستر المهمين الديان . حياتنا كد وشظف لكن قلوبنا عامرة بالرضى قابلين بقسمتنا ال قسمها الله لنا . نصلي فروضنا ونحفظ عروضنا متحزمين ومُتَكَلِّمين على نوايب الزمان وصروف القدر . الكثير لا يبطرنا والقليل لا يقلقنا ، حياتنا طريقها مرسوم ومعلوم من المهد إلى الابد . القليل ال عندنا عملناه بسواعدنا ما تعدينا على حقوق انسان ولا أكلنا ربا ولا سُحُت . ناس سلام وقت السلام وناس غضب وقت الغضب . ال ما يعرفنا يظن اننا ضماف اذا نفخنا الهواء يرمينا ، لكننا في الحقيقة مثل شجر الحراز النابت في الحقول . وانت يا عبد الله جيتنا من حيث لا ندري ، كقضاء الله وقدره القاك الموج على ابوابنا ، ما نعم انت مين وقاصد وين . طالب خير أو طالب شر . مهما كان نحن قبلناك بسين ظهرانينا زي ما تقبل الحر والبرد والموت والحياة . تقم معنا لك ما لنا وعليك ما علينا إذا كنت خير نحمد عندنا كل خير وإذا كنت شر فاقه حسبنا ونعم الوكيل . »

« دمعت عينا الرجل وأخذ يردد :

« نعم . نعم . نعم »

ونحن أيضاً بلغ بنا التأثر غايته لكلام عمي محمود في شرح حالنا وأحوالنا كأنه يقرأ من كتاب في صفحة الغيب . بعد ذلك قلنا نعطيه إسم ، فالرجل بلا إسم ، وتركنا الحيرة لعمي محمود . وكان الاسم كان حاضر ينتظر صاحبه . قال عمي محمود فوراً :

« ضو البيت . اسم مبارك . ولعل الرجل حل عندنا على هذه الحالة بالخير والبركة »

كلنا وافقنا وقلنا على بركة الله « ضو البيت » وكلنا سألناه ضاحكين إسمك مين فيرد بسرور « ضو البيت » .

جلت قدرة الله ، لحظة ما نطق الاسم أصبح شيء حقيقي كأنه كان كذلك منذ البدء . ونظرنا إلى صاحبنا فإذا هو فعلاً « ضو البيت » ليس جبر الدار ولا مفتاح الخزنة ولا عبد المولى ولا عبد الخالق ، ولكن « ضو البيت » وكانت الاسم كان موجود منذ الأزل أمانة عندنا ينتظر صاحبه الذي جاء يسمى من وراء البحر ووراء الغيب ليستلم أمانته . سبحان ربي . نظرت أنا إلى صاحبي وتذكرت لقائي إياه قبل شهر فقط بين النور والظلام وكأنه مارد تمرد بين الأرض والسماء ، فإذا هو ليس كذلك أبداً . تقلص صوميحي وصغر ، وأصبح

« ضو البيت » ، الغريب المسكين ، ابن آدم ، يأكل ويشرب ،
يضحك ويبكي ، يولد ويموت ، ابن آدم مثلي مثلك . تذكرت
خوفي ذاك الفجر ، ونظرت إلى صويحي وضحكت . جلت
قدرة الله

جينا بعد داك لموضوع الدين ، عمي محمود قال له « يا ضو
البيت . نحن ناس مسلمين . لكن ما عندنا تشدد في موضوع
الدين كل نفس بما كسبت ، والله مُخَيَّر في عباده . ولو كنا
نعلم لك ملة لتركناك على ملتك . اما وانك لا تعرف أنت
من أي دين فأيه رأيك ندخلك معانا ملة الإسلام ، نحن
نكسب ثواب وإن تنجو من غضب الله ، ويسهل عليك
التعامل مع ناس البلد اذا حَبَّيت تستقر من ناحية الزواج
والصر »

ضو البيت قبل على الفور ، فلقنه عمي محمود الشهادتين
فرددتها بصوت واضح ، جعل قلوبنا تحفق وعبوننا تدمع ،
وخصوصاً مفتاح الحزنة الذي اعترته حاله من العشق أثرت
علينا كلنا وأخذ يردد « أشهد الا إله إلا الله وأشهد أن محمداً
رسول الله » مراراً وتكراراً كأنه هو الذي دخل الإسلام
وليس الرجل الغريب . لكن الحقيقة ، اعترقنا جميعاً حاله
عجيبه في داك الضحى في المسجد ، كأننا نشاهد معجزة .
وتأكد لدينا أن موج النيل لفظ « ضو البيت » على شاطئه
ود حامد ليكون بشيراً لنا بالخير والبركة . عبد الخالق ود

حمد هو الذي أخرجنا من تلك الحالة ارتفع صوته والناس بين مهلل ومكبر ، وبأكي ودامع وقال :

« يا جماعة صلوا على النبي . نحن عاملين احتفال مولد ، مُش نتأكد أول الراجل أغلف ولا مطهر ، كشفنا على ضو البيت فوجدناه ويا للخسارة ، أغلف . لكن فرحنا بدخوله الاسلام ما نقص ، وعقدنا العزم أن نعمل له خِتان باحتفال كبير وطبل وزمر وغناء ومديح بعد موسم حصاد القمح ، وأصله داك الموسم ما كان في طهور أو عرس ، وقلنا يكون احتفال ما حصل مثله في البلد من قبل ، لأن ود حامد كلها إسلام منذ خلقها الله وعُمرنا ما شُفنا إنسان يدخل ملة الإسلام من أول وجديد . وكذلك نحن نقرح وتبسط ، نفني ونزقص ونأكل ونشرب ، ويكون الإحتفال مجموعة احتفالات ، سَمَايَه وطهوره وشَرافَه .

شامت قدرة الله أن يكون الاحتفال كذلك ، ويكون احتفال عرس أيضاً ، لأن ضو البيت في التو والحين دخل في حياتنا كأنه واحد مِنّا . كل واحد منا عرض عليه يشتغل مهّاه في حقله ، لكنه أبى وقال تعطوني قطعة أرض اشتغل فيها وحدي فأنا رجل غريب ، وما أحب أدخل مع أهل البلد في مشاكل بسبب الشغل . عمي محمود قال والله ضو البيت إنسان عاقل ، وكان عنده قطعة أرض متروكة بُور منذ الأزل مقدار نصف فدان ، قال له قطعة الأرض دي إنتاجها صعب

لكن إذا حبيتها وهبنا لك . قبيل ضوء البيت الهبة وبدأ
العمل فوراً ، كل واحد فينا ساعده قدر ما يستطيع ، وكان
هو أحضر معاه بذرة « التُّبَّاءِ » في العلبة إل طلع بيها من
النيل ، يقول عليها الإكسير . جلست قدرة الله ، اشتغل كأنه
شيطان من نسل إبليس ، لا يفتر ولا يكل طول الليل والنهار
لا تجده أبداً قاعد أو راقد ، دائماً واقف على طولهِ أو منحني
فوق الممول والطورية وكان إيدهِ فيها سحر . زرع الطماطم
والبصل والبامية والقمح والشعير واللوبيا ، ما ترك شيء .
بعد ثلاثة شهور حصد القمح مثلنا مثله مع أننا سبقناه في
الزراعة بمقدار شهر . وكنت أنا كل ما أشوفه شغال في عز
النهار والناس مرتاحين وقت القيلولة أو بالليل والبرد مثل
السكاكين ، أنظر واتعجب واقول يا ترى إنسان في صورة
شيطان أو شيطان على هيئة إنسان .

ونحن نستعد للاحتفال كما ذكرت ، ضوء البيت طلع علينا
بموضوع الزواج . كنا كلنا مجتمعين في المسجد بعد صلاة الجمعة
حين فاتحنا في الأمر . قال :

« يا جماعة . انتم صنعتم في جميل لا أنساه مدى الحياة
ولا داعي للكلام فكل شيء معروف ومفهوم . وأنا هالساعة
بحمد الله واحداً منكم كأني وجدت معاكم من قديم . خلاصة
الأمر أريد منكم جميل أكبر من كل إلفات . أريد منكم
الصبر والرحم على سنة الله ورسوله ،

سكتنا كأن على رؤوسنا الطير ، وكان كل واحد فينا يفكر ذات الأفكار . أخونا في الإسلام ويحضر معنا الصلوات الخمس ، أي نعم . ونحن ممتيناه وأشر كناه زراعتنا وشقانا ، أي نعم . وهو يعمل عمل جيش من البشر ، أي نعم . وهو في إقامته القصيرة عندنا ، كسب مودتنا كأنه موجود معنا من قديم ، أي نعم . أما أن نزوجه ابنتنا ونحن لا نعلم عنه لا قليل ولا كثير ، وهو عيونه خضر ونحن عيوننا سود ، وهو وجهه أبيض مثل القطن ونحن وجوهنا مثل الجلود المدبوغه ، وهو خرج من الماء ونحن خرجنا من الطين ، وهو مسلم منذ ستة أشهر ونحن مسلمون منذ الأزل ، ونحن حياتنا تبدأ وتنتهى بين النيل تحت ، والصحراء فوق ، وهو حياته ما ندرى كيف بدأت وكيف تنتهى ، وهو اسمه ظهر مع ظهوره ، ونحن أسماءنا سلسلة أباً عن جد مثل البنيان المرصوص إسم فوق إسم إلى آدم . لا حول ولا قوة إلا بالله .

بعد مدة ، عمي محمود رفع رأسه وأدار عينيه فينا ، ينظر إلينا واحد واحد كأنه يقرأ أفكارنا كان رجل عظيم ، رحمه الله رحمة واسعة ، من السلف الصالح الذين لن يمحو الدهر بمثلهم أبداً . لما عيونه قابلت عيون عمي جبر الدار ، ابن عمه ، تمهل مدة ينظر له ، لحد ما جبر الدار غض طرفه وأشاح وجهه . إني آمنت بالله ، والناس صامته صُن ، كل واحد مع نفسه 'جوّه جوّه' . وأنا ذاتي لقيت نفسي في هم

شديد ، والحق لله إني في تيك اللحظة ندمت أشد الندم على
انني طلعت ضو السجيم من النيل ، وقلت في سري يا ليتني
تركته يمشي في حال سبيله . نظرت إلى عمي جبر الدار وهو
منكس رأسه وحسيت بالأسف والحسرة على ما سيصير .
لكن عمي محمود حسم الأمر وقطع الشك . أدار وجهه في
وجوهنا ثم قال :

« نحن لما آخينا ضو البيت هنا في هذا المكان ، وقلنا له
ليك ما لنا وعليك ما علينا ، كنا نتكلم كلام رجال مو كلام
وليدات ، كلام جَد ما هو هِزار . الخوّه واحدة مو ائتين ،
والدين واحد ما هو ائتين . لا يوجد دين للحياة ودين للموت ،
وصداقه في الشغل وفي الزواج لا . ضو البيت أصبح زينا
ومتلنا على الخير والشر في الحارة والباردة . وما دام طلب
مصاهرتنا على سنة الله ورسوله فأهلا وسهلا به ومرحبا به
مرحبتين . أنا لو كان عندي بنت كنت زوجته إياها عن
طيب خاطر ،

صحت ، إني آمنت بالله ، كأنك تسمع جريان الدم في
العروق ، وانا اعترفتني حالة من الحيرة عقلي يحضر ويفيب ،
لا أعلم هل الحاصل في المسجد داك اليوم خير أم شر .
أمورنا كانت ماشيه في خط مرسوم ، ثم من حيث لا ندري
لقينا أنفسنا في سكه ما نعلم تودي على وين . ونظرت إلى
عمي جبر الدار وهو عابس مكفهر كأن الكلام يخصه هو

دون الناس . وفجأة مفتاح الحزنة هتف بعالي الصوت « الله أكبر . الله أكبر ، وضو البيت ، الغريب ، اجش بالبكاء ، إني آمنت بالله مثل الأم ال ثكلت إبنها الوحيد . انضم إليه مفتاح الحزنة وكان دائماً دمعته على طرف عينه ، مرات هتف « الله أكبر ، ومرات ينادي « ابشروا بالخير ، . ثم تمساح ود حسن ، وود بخيت ، وود سليمان ، وود الكاشف ، وود حمد ، وأخيراً جبر الدار هو الآخر انضم إلى زمرة الباكين . لقينا شيء وضاع مننا شيء دالك النهار . ونحن ما ندري البكاء لأيش وعلى إيش ، على ال لقيناه أو على الذي ضاع . عمي محمود كان رجل دمعته عسير لكن عيونه رقرقت ، وأنا محتار بين الحزن والسرور ، أقول يا سبحان الله ، هل هذا ما تم أم عرس . فاض بنا الشوق وتملكنا الوجد كأننا في حلقة ذكر ، وضو البيت ، الرجل الغريب ، جالس وسط المكان ليه علاقة بكل ما جرى ودار ، ومفتاح الحزنة ينادي بعالي الصوت « ابشروا بالخير . ابشروا بالخير ، .

* * *

استيقظت البلد مبكرة على حس الزغاريد في بيت محمود وبيت ابن عمه وصهره جبر الدار ، وكان الرجال قد صلوا الفجر جماعة ولبشوا ينتظرون . عند الشروق ذبح العجل في

قناء المسجد ، وساق محمود « ضو البيت » من ذراعه وعداه
فوق العجل الذبيح ، ومفتاح الخزنة يهتف « ابشروا بالخير ،
ابشروا بالخير » . كان ضو البيت يومذاك كملك وسط الرعية ،
لابساً قفطاناً أخضر من الحرير ، وطاقيّة حمراء ، وعمّة كبيرة
بيضاء ، متلفعاً بشال مزركش الأطراف ، وحذاؤه الأحمر
يلمع في الضوء ، ينظر الناس إلى هيئته ويضحكون فرحين ،
فقد كان منهم من يلبس خرقة حول وسطه ، والمتسخ
الثياب ، والمزق الثياب . كذلك ضحكوا مسرورين حين
جدّد « ضو البيت » إسلامه ، وتلا آيات من سورة « الضحى »
علفته إياها فاطمة بنت جبر الدار ، يجعل الضاد دالاً والجيم ،
وهلّولوا وكبروا . ثم وقف عبد الخالق ود حمد وقال « بسم
الله الرحمن الرحيم وبحمّله وقوته سمّينا هذا المولود « ضو
البيت » ، كما هي عاداتهم حين يسمون الطفل ، فضحك ضو
البيت كأنه طفل ، وضحكوا كلهم مسرورين . وكان الطفل
ولد عند الشروق ، واستوى غلاماً للختان في الضحى .
أجلسوه على قدح الحراز الكبير المنكفيء ، محمود يمسك
بيمينه ، وعبد الخالق بيساره . شحذ رحمة الله ود الكاشف
سكينه ، وفي لحظة كان الدم قد سال ، وقضى الأمر ، ومفتاح
الخرّنة هز ويبشّر ، والرجال يضحكون مسروراً وعجبا كما لم
يضحكوا من قبل . وسمعت اللسوة جلبة الرجال وهن في
أكواخ الطين والقش المتناثر حول المسجد ، فنادين بالزغاريد .

وكان الطفل ولد عند الشروق ، وتم ختانه وقت الضحى
وصار للزواج بعد صلاة العصر . كان عقداً مشهوداً حضره
جيرة ود حامد كلهم ، من الضفة الأخرى ، ومن القرى
المنثورة على الضفتين . كان الناس قليلين في ذلك العهد ،
يسكنون في قرى متباعدة ، تبدو أعضاؤها الخافتة بالليل
كأنها معلقة في السماء ، وتتناهى الأصوات من شاطئ إلى
شاطئ ضعيفة لا تميزها الأذن . ولكنهم كانوا يعملون ما يجري
عبر النهر كأن بين الضفتين جسوراً غير مرئية . يعملون من
سقى زرعهم بالليل ومن سقى بالنهار ، من مريض ومن ولد
ومن مات ومن تزوج ، ومن الذي باع ومن الذي اشترى .
وكانت تربطهم بعضهم ببعض أواصر وقرابات وأنساب ،
وتجمعهم الأسواق والمعاملات ، يتبادلون بذور « التراب » ،
وشتل النخل وفحول البقر والحمير ، ويجمع بينهم المداحون
والمغنون وحفظة القرآن ، هكذا حالهم من ملتقى النهرين
إلى ما وراء حدود مصر . لذلك لم يكن عجباً أنهم تسامعوا
بنبأ الاحتفال الكبير في ود حامد ، فجاؤا من قبلي ومن
بحري ، من السافل والصعيد ، بالمراكب عبر النيل ، وبالحمير
وسيراً على الأقدام ، يحملون هداياهم ، تمر وقح وشعير ولوبيا
وبصل وسمن ودمن ، كل حسب طاقته ، هذا يحمل ديكاً
وهذا يحمل حلاً أو عتوداً^(١) ، يحيئون مشكتين مثل رذاذ
القيث ، ثم ما يلبثون أن يتكاثفوا ويتلاحموا في خضم عظيم

(١) الحمل الرضيع

يحيش ويزخر بحياة جديدة أرحب من حصيلة أجزائه . وكان
« ضو البيت » هو قطب الرchy في ذلك اليوم ، عز الصيف .
تصل المرأة طرف الحمي وعرقها يتصبب لأنها قامت من أهلها
مع طلوع الشمس ووصلت والشمس في كبد السماء ، فتسمع
أصوات السرور وتشم روائح الوليمة ، وتسري اليها عدوى
الطمأنينة من الجمع الغفير الذي غرز بئرق الحياة وسط ذلك
العدم فتزغرد من بعيد ، فرحاً بوجودها بادیء ذي بدء ، ثم
اعلانا للعلا انها ايضاً هنا الآن ، ولها في لهاها صوت يعرب
عن ذلك كله . وما يلبث صوتها أن يندمج في بقية الاصوات ،
فيضيف اليها نَفْخَةً ، لا تميزها الأذن أول وهلة ، ولكن
الذي يرهف السمع يدرك أنها موجودة ، وأن صوتَ الجميع
لا يكون جميعاً دونها . يصلون واحداً واحداً ، واثنين اثنين ،
ضعافاً هزالاً ، كل ظهر قد تقوس ، وكل كاهل قد ناء بأعباء
الحياة والموت ، فيتلقفهم الجمع الكبير ، فاذا كل واحد قد
صار ذاته وأكثر . اليوم ، سوف يحهل العاقل ويسكر المصلي
ويرقص الوقور ، وينظر الرجل إلى زوجته في حلقة الرقص
فكأنه يراها لأول مرة ، لا بأس عليهم لأنهم يؤكدون أسباب
الحياة وسط كل ذلك العدم . وبين الحين والحين تجيء كوكبة
منهم يتسابقون على الحمير في عَثار وغبار ، فكأنهم اعصار
نفتته الصحراء ، لا يموت ، ولكنه يدخل الزحمة فتغلي وتغور .
يحيئون مثل حبات القمح في كرم القمح ، كل حبة قائمة بذاتها

وكل حبة تتطوي على سر عظيم . وأحياناً يصل رجل على حمار له سرج ولجام ، حسن الهيئة حسن الهندام ، فيعلن الحمار عن قدوم صاحبه . يحيئون فقراء كلهم بدرجات متفاوتة ، فيحتويهم فلك منتظم حول مركزه يدور بقدر معلوم . يحيئون ضعفاء فيعودون أقوياء ، ومساكين فيعودون أغنياء ، وضالين فيجدون الهدى . اليوم ، سوف تتلاحم الأجزاء ، فيصبح كل واحدٍ أحداً .

لا عجب إذن ان تلك العدوى سرت في روح جبر الدار ، فأنته الآن في عز الصيف ، تلك المرارة التي اعترته قبل أكثر من عام في عز الشتاء . الزمان الآن صفو ، والحياة بخير ، والبدر في تمامه ، والأصوات متناصقة متأسكة تقول لك أن الموت معنى من معاني الحياة ، لا أكثر . قام في الناس خطيباً بعد المقد ، وقال أنهم جميعاً يعلمون أن فاطمة ابنته ، عنده بمكان السمع والبصر . وتشاء قدرة الله عز وجل أن ينالها « ضو البيت » دون سائر الناس . قال أنه لم يكن راضياً أول الأمر ، ولكنه اليوم أسعد الناس ..

في ذلك اليوم في أمشير ، قام جبر الدار من المسجد حزينا مهموماً . صلى العشاء وحده في داره ، وجاءت ابنته فاطمة وقرأت له القرآن كمادتها كل ليلة . لم تكن الآيات محزنة ، ولكنها جذبت همومه وأحزانه . سألها وهو على تلك الحالة عن رأيها في ضو البيت ، فأجابته :

« زين ما عنده عَوَجَة »

قال لها برفق :

« أراك تحادثينه كثيراً في الحقل »

قالت :

« أعلمه القراءة والكتابة وأحفظه القرآن »

قال :

« لعله يتعلم زين »

قالت :

« يحفظ حالاً كأنه يتذكر أشياء كان يعرفها من زمان »

سألها :

« هل يذكر شيئاً من ماضيه ؟ »

فأجابت :

« تجبه أطيايف ذكريات . ذكريات معارك وحروب في
الغالب . يتكلم عن الطمن والضرب والمدافع والبارود .
يعرق ويحرق وتصيبه رَجْفَة . يكاد يغمر . يرجع لحالته
هو يضحك وأنا أضحك » .

قام جبر الدار من فروة صلاته وجلس على « المنقريب »

وأجلسها جنبه وأحاطها بذراعه . قالت بحزن :
« مرات كأنه يتذكر أمه . يقول كلمات مثل ماما ،
آما . عيونه تدمع . يرطن بلفة غريبة . أسأله لما يفيق يقول
لا أذكر . مسكين ،

أطرق جبر الدار زمناً ويده تداعب خد ابنته بخنو عظيم .
فجأة سأها :

« إذا طلبك للزواج ، تقبلين به ؟ »

سكتت قليلاً ، ثم ضحكت ولم تجب .

حكى لها حينئذ ما جرى في المسجد ، ثم قال :

« محمود كان يتكلم وينظر إليّ كأن الكلام يعني أنا
دون سائر الناس . أنا ما عندي بنت للزواج غيرك . إذا قلت
لا أو نعم الأمر في يدك »

وبينا هما كذلك ، إذا بمحمود يدخل عليها . حيى وجلس ،
ثم قال موجهاً كلامه للبنت ، متجاهلاً الأب :

« يا فاطمة . ضو البيت طالب الزواج . فاتحنا في الأمر
بعد الصلاه . بعدما الناس خرجوا سألته إذا كان في باله شخص
معين . قال أريد فاطمة بنت جبر الدار . هل تقبلينه ؟ »
لم تتردد ، ولم تفكر . قالت فوراً بصوت خفيض ،
ولكنه حاسم واضح :

« نعم »

تذكر جبر الدار ذلك وهو واقف يخطب في فناء المسجد بعد العقد . قال انه لم يكن راضياً أول الأمر ولكنه اليوم أسعد الناس ، وانه تنازل عن كل شيء ، لا يطلب لابنته صداقاً مقدماً ولا مؤخراً .

تصايح الناس « ابشروا بالخير ، ابشروا بالخير » وهزوا بأيديهم ولوحوا بعصيمهم ، وتصافحوا وتعانقوا ، وماجت الزغاريد وتفجرت وتجاوبت في جنبات المسجد وما حوله . حملتها رياح الصيف ودارت بها في الساحات والدروب والحقول ، وفوق قم النخل والطلح والسنط والحراز والسيال والخلقاء والطرفاء والعُثَر ، وعبر النيل . وعادت الأصداء مجسمة من أطراف البلد إلى منبعها حيث الطبول تغز وتهدر ، والناس حلقات حلقات حول الراقصات والمغنين والمداحين . ثم غربت الشمس ، وترجع البدر على عرشه ، وراق الجو وطاب ، وصفا الزمان ، وتم السرور والحبور ، وضوءات نيران الحي ، وازدحت حلقة الرقص عند شجرة السبال الكبيرة وسط البلد . تفجرت أصوات الفرع العظيم من تحت أرجل العارضين ومن بين أكف المصفيين ومن حلقو المغنيات والمغنين ، من الطبول والطنابير ، من أسقف البيوت ومن بين فرجات الأكواخ ، من الحيشان والساحات والدروب ومرابط البهائم . الليلة كل شيخ صب ، وكل شاب عاشق ، وكل امرأة اتشى ،

وكل رجل أبو زيد الهلالي . الليلة كل شيء حي . فاح العبير
وتم السرور وشعشع الضوء ولاذت جيوش الكدر بالفرار .
كل غصن تثنى وكل نهد ارتعش ، وكل كفل ترجرج ، وكل
طرف كحيل ، وكل خد أسيل ، وكل فم عسل ، وكل خصر
نحيل ، وكل فعل جميل ، وكل الناس « ضو البيت » .
كان واقفاً في قلب الدائرة يهز فوق الرافصات بسوط من جلد
عجل البحر ، ويتقاذف الرجال في الحلقة لل مبارزة فيضربهم
كيفما شاء . دخل الحلقة عبد الخالق ود حمد ، الفارس المغوار ،
وعرعى ظهره وركز للضرب . وفي التو برز له حسب الرسول
ود مختار ، نده وصنوه ، فأخذ ضو البيت يلوح بالسوط
وينزله مرة على ظهر عبد الخالق ومرة على ظهر حسب الرسول
ومع وقع كل سوط تغرد النساء ويتصايح الرجال ، ويقوى
هدير الطبول ، وتتفرق الضوضاء وتتجمع حول « ضو البيت » ،
وهو واقف في مركز القوضى ، شاهراً سوطه فوق الجميع ،
يختفي ويبين وسط الزحام ، فكأنه هنا وليس هنا .

مضى كالحلم وكأنه ما كان ، لكنه ترك ابنه عيسى ،
الذي سار عليه فيما بعد امم « بندر شاه » ، ولد بعد موته
بثلاثة أشهر ، وجهه أسود مثل أمه ، وعبونه خضر مثل أبيه ،
وهو في الناس نسيج وحده لا يشبه دا ولا دا .

* * *

قال عبد الخالق ود حمد كما روى ابنه حمد ولد حليلة
بعد ذلك بأعوام وأعوام :

« كنت أنا وعمي محمود وحسب الرسول وضو البيت على
الشاطئ، نفك حطب الساقية ونرفعه ، والدنيا فيضان والنهر
طامي ينذر بالخطر يرتفع كأنه يخطو ، تحس مده كل لحظة .
كانت الشمس قد غربت لتوها وحولت النهر إلى بحر من الدم .
كنا نحن الثلاثة تحت ، وضو البيت فوق على حجرة القيف
تناوله الحطب فيسحبه إلى بر الأمان ، بغتة انهار ما تحت
ارجلنا نحن الثلاثة ولا ندري الا ونحن في عرض النهر نصارع
الموج ، في لحظات تشتتنا ذات اليمين وذات اليسار . كنت
أنا وعمي محمود تماشيح نيل ، أما حسب الرسول فقد كان
فارس بر ، لا يقوى عليه أحد في الجري والمصارعة والقشاط
والصفقة والعرضه ، وفي النهر لا حول له ولا قوة . رأيناه
من بعيد يفتس ويقلع ، فأخذنا نقاوم التيار لنصل اليه ، ولا فائدة ،
فقد كان التيار جبار وغلاب يدفعنا قدفعاً ، مددت له يدي
ومد يده نحوي ، ولا فائدة ، وكان عمي محمود يلف ويدور في
الماء كالتمساح المسعور يحاول ان يحد ثغرة في خضم الماء لينفذ
الى حسب الرسول ، لهته في حمرة الشفق وكأنه وطن نفسه
على الموت ، وسمعته ينادي : « انجوا بأنفسكم وإلا ضعنا كلنا ،
أستودعكم الله . خلوا بالكم على ميمونة ومختار والوليدات ،
مع السلامة . مع السلامة » .

ونحن على تلك الحال رأيت ضو البيت يضرب في اليم متجهاً
صوبنا وكان عمي محمود قد ضاع لا أرى له أثراً، وأنا أغطس
وأطفئ الموج بصفعني في وجهي كقضاء الله وقدره . وأنا
أهوى في القاع رأيت ضو البيت وكأنه معلقٌ بخيوط الشمس
الغاربة ، رافعاً بذراعيه حسب الرسول فوق في حرمة الشفق .
ثم رأيت النخل والشجر على الشاطئ كأنه يغوص معي وتلون
الكون كله بلون الدم بعد ذلك لا أذكر أي شيء إلا أنني
وجدت نفسي على الشاطئ في زحمة الناس وأصوات تتصارع
وأشباح تقفز هنا وها هنا ، نظرت فإذا حسب الرسول راقداً
كالبيت وسمعت صوت عمي محمود ينادي « ضو البيت ، ضو
البيت » . قام حسب الرسول بغتة وأخذ يجري وينظر في
وجوه الناس وينادي « ضو البيت ، ضو البيت » بعد ذلك
هاج الناس وماجوا ، بعضنا نزل الماء وبعضنا جرى على
امتداد الشاطئ ، وضوت المشاعل على الضفتين ، ونادى
الناس من مكان إلى مكان ومن شاطئ إلى شاطئ إلى أن
صارت الدنيا كلها تنادي في جوف الظلام « ضو البيت » .
انتظرنا يوماً بعد يوم ، بين اليأس والرجاء ، نقول لعلي وعسى
ولكن ضو البيت اختفى ، لا خبر ولا أثر ، ذهب من حيث
أتى ، من الماء إلى الماء ، ومن الظلام إلى الظلام ، وحسب
الرسول يبكي ويقول « غير معقول ، غير معقول » .

حزنا عليه كأننا فقدنا نعمة السمع والبصر لأنه عاش بيننا

مثل الطيف ومضى مثل الحلم ، عشرة مواسم لا غير ، خمسة أعوام بحساب السنين ، عمل فيها ما لا يعمله الناس في العمر كله . خير الدنيا انهمر عليه كأنه يقول للشيء كُنْ فيكون . كان يزرع محاصيل الشتاء في الصيف والشتاء ، يعمل على مدار العام لا يكل ولا يفتر . جلب شتل النخل أشكال وألوان من ديار المحس لحد بلاد الرُّبَا طلب ، وعلم الأرض تنبت التبنك ، وعلنا زراعة البرتقال والموز . نحن بين الموسم والموسم نرتاح ، وهو يسافر مع قوافل الجمال ، مره إلى ديار الكبابيش ، ومرة إلى بَرَبَر وسواكن ، وأحياناً الى غاية حدود مصر ، ويرجع يحمل بالثياب والمطور وألوان من الألوان والمأكَل والمشارب ما عرفناها في ود حامد من قبل . هو يكبر ونحن معاه نكبر ، كأن المولى جل وعلا ، أرسله إلينا لبحرنا حياتنا ويمضي في حال سبيله . بنينا بيوت الجالوص بدل القش ، ال كان عنده غرفه عمل ثلاثه ، وال ما عنده حوش عمل حوش . الجامع بنيناه من جديد ووسّعناه وفرشناه بالسجاد والبساط هدية من « ضو البيت » . وهو بنى فوق القلعة بيت داخل بيت وديوان ورا ديوان ، وحوش في بطن حوش ، سبحان الله ، تراها من بعيد كأنها مدينة بجالها ، بعدما كانت الأرض خراب مهجورة طرف البلد . فاطمة بنت جبر الدار بككت عليه الدموع الغزار بكاء الناقة على الفصيل .

كنا نتذاكر ماذا حصل عند المغيب ذاك اليوم . عمي محمود قال انه يذكر انه لمح ضوء البيت كأنه معلق بين السماء والأرض يحيط به وهج أخضر . بعد ذلك لا يذكر إلا انه وجد نفسه على الشاطئ كأنه يستيقظ من حلم ، والناس يتصايحون ويحرون مشتتين ها هنا وها هنا . وقال حسب الرسول انه يذكر وهو بين الموت والحياة انه رأى ضوء البيت وكأنه في قلب الشفق الأحمر ، يتعد ويتعد . وفجأة امتدت يد ماردي من حمرة الشفق وانتزعت وحذفت به فاذا هو على الشاطئ . استيقظ فاذا العالم ظلام والدنيا تصرخ «ضوالبيت» .

قدمع عينا حسب الرسول ويقول « رحم الله ضوء البيت . دفع بروحه ثمن المصيده الى اكلها معنا أول يوم . مضى كالحلم وكأنه ما كان ، لولا ابنه عيسى الذي ولد بعد موته بثلاثة أشهر . ننظر الى وجهه فلا نرى ضوء البيت ، وننظر الى عينيه ، فاذا هو ضوء البيت ، الخالق الناطق » .

انتهى الكتاب الاول ويليه الكتاب الثاني

مَریُود
(بندر شاه)

الفرار

الى روح أبي ،

محمد صالح أحمد

كان في فقره غنى ، وفي ضعفه قوة

عاش محباً محبوباً ، ومات راضياً مرضياً

غير اني قائل ما أتاني من ظنوني مكذب للعيان
أخذ نفسي بتأليف شيء واحد في اللفظ شتى المعاني
قائم في الوهم حتى اذا ما رمته رمت معمي المكان
أبو نواس

فالتمت للانسان مثلاً ، فاذا مثله مثل رجل نجا
من خوف فيل هائج الى بئر ، فتدلى فيها ، وتعلق
بفصنين كانا على سماءها ، فوقعت رجلاه على شيء
في طي البئر ، فاذا حيات اربع قد أخرجن رؤوسهن
من أجحارهن . ثم نظر فاذا في قعر البئر تنين فاتح فاه
منتظر له ليقع فيأخذه . فرفع بصره الى الفصنين ،
فاذا في أصلهما جردان : أسود وأبيض ، وهما
يقرضان الفصنين دائبين لا يفتران . فبينما هو في
النظر لأمره والاهتمام لنفسه ، اذ أبصر قريبا منه كواره
فيها عسل نحل ، فذاق العسل ، فشغلت حلاوته وألهته
لذته عن الفكرة في شيء من أمره ، وان يلتس
الخلاص لنفسه ، ولم يذكر ان رجله على حيات اربع
لا يدري متى يقع عليهن . ولم يذكر أن الجرذين
دائبان في قطع الفصنين ، ومتى انقطعا وقع على
التنين . فلم يزل لاهيا غافلا مشغوفا بتلك الحلاوة
حتى سقط في فم التنين فهلك .

فشبهت بالبئر الدنيا المملوءة آفات وشرورا
ومخافات وعاهات • وشبهت بالحيات الاربع الاخلاط
الاربعة التي في البدن ، فانها متى هاجت أواحدها
كانت كحمة الافاعي والسم المميت • وشبهت
بالفصنين ، الاجل الذي لا بد من انقطاعه •
وشبهت بالجردزين الاسود والايض الليل والنهار
اللذين هما دائبان في افناء الاجل • وشبهت بالتنين
المصير الذي لا بد منه • وشبهت بالعسل هذه الحلاوة
القليلة التي ينال منها الانسان فيطعم ويسمع ويشم
ويلمس ويتشاغل عن نفسه ، ويلهو عن شأنه ،
ويصد عن سبيل قصده • فحينئذ صار أمري الى
الرضا بحالي واصلاح ما استطعت اصلاحه من
عملي ، لعلني أصادف باقي أيامي زمانا أصيب فيه دليلا
على هداي ، وسلطانا على نفسي ، وقواما لأمري •
فأقمت على هذه الحال ، واتسخت كتب كثيرة ،
وانصرفت من بلاد الهند وقد نسخت هذا الكتاب •

كليلة ودمنة

من باب برزويه المتطبب

ملاً صدره بالهواء ، وترك وجهه يفتسل بنسيم الفجر .
لكن روحه لم تنتعش . تريث قبل ان ينحدر في الارض المسواة
المتدبة ، وراءها غابات النخل ، ووراء ذلك النهر ، يلوح هنا
وهنا بين فرجات الشجر . المنظر ، كأن محييد براه آخر مرة .
وجهه متوتر كأنه يقاوم رغبة جارفة للبكاء . أنظر يمينا . هناك .
أين غابة الطلح الكثة التي كانوا يلعبون فيها أيام الطفولة ؟ رائحة
البرم ، زهر الطلح ، خصوصا أيام الفيضان . وهناك عند
منعطف الدرب حذاء الجدول الكبير كانت تشمخ شجرة حراز
ضخمة معرشة ، تلمع ثمارها الصفراء كأنها حلقان الذهب .
ذلك الماء كان له طعم آخر . بلا غطاء ، ذلك السيل ، عليه
قرعة تتأرجح فوق الماء ، تضرب فم الزير يسرة ويمنة ، يشرب
منه الغادي والرائح . من اقامه ؟ لا احد يذكر . ولكنه لم يعد
احدا يملؤه صباح مساء . طعم الجلد المدبوغ ، طعم الماء في
القربة المدلاة من الشعب في سقيفة جده . وطعم ماء النيل ايام
الفيضان ، طعم الاخشاب المبتلة ، واوراق الشجر ، والطين . طعم

الموت • صافي في اماكن الرمل ، عكر في محلات الطين •

عصارة الحياة كلها في ود حامد • مشدد قبضته على
المقبض العاجي ، مقبض عصا الآبنوس ، ومضى بعزم يضعف
ويقوى • غريبة تلك العصا ، الآن ، كأنها امرأة عارية وسط
رجال • يحس ملمسها ويتذكر مريم • ذلك الصوت • ذلك
الشباب • ذلك الحلم • يخرج من داره كل يوم عند الفجر ،
ويمشي هذا المشوار حتى النهر • يسبح ويعود مع الشروق •
يحاول ان يوقظ الاشباح النائمة في روحه • أحيانا الحظ يؤاياه ،
فيسمع ويرى • الرؤى والاصوات كأنها تنبع من تحت قدميه
ومع خبط عصاه على الدرب • هنا كان مكان النورج إيام
الحصاد • رائحة التبن • رائحة القمح • رائحة روث البقر • رائحة
اللبن اول ما يحلب • رائحة النعناع • رائحة الليمون •

محجوب وعبد الخفيظ والطاهر وسعيد وهو • يغمض
عينيه • يراهم كما كانوا • متحركين ابدا ، يجرون ، يقفزون ،
يتشعلقون ، ينطون من الفرع ، يتمرغون في الرمل ، يعيشون مثل
الماء والهواء • ينقر بعصاه على جذع شجرة • يسمع ضحكة
جده • يرى وجهه واضحا • العينان الصغيرتان الغائرتان •
الحنك الناتيء قليلا • الجبهة البارزة • الخدان الممصوكان •
الفم الصغير • الشفتان الرقيقتان • وجه اسود ، ناعم السواد
مثل القطيفة ، وعينان تزرقتان وتخضرتان وتحمرتان
وتسودتان ، حسب الظروف والاحوال • لا يتخيله مفردا أبدا •

دائماً يراه في جماعة ، على يمينه مختار ود حسب الرسول ،
وعلى يساره حمد ود حليلة ، في وسط الجمع . يتذكره الآن
بخليط من الحزن والحقد . لقد اختاره دون سائر ابنائه ليكون
ظلاً له على الأرض ، وخلف له الدار وفروة الصلاة وابريق
النحاس والمسبحة من خشب الصندل ، وهذه العصا . ماذا
تعكس المرأة الآن ؟ كان قد اجتاز الدرب الكبير المؤدي الى
السوق . رأى النخلة عند تقاطع الدروب فقصدها بلا تفكير .
تهالك عندها واسند قامته الى جذعها . كانا مثل اخوين توأمين ،
كأنهما اقتسما حصيلة اعمارهما بالتساوي ، فلا هو يصغر جده ،
ولا الجد يصغر حفيده . ما كان اعجب ذلك ! يتسابقان ويصلان
معاً كنفاً بكنف . يشركان للطير معاً ، ويصطادان السمك ،
ويتباريان في تسلق مستعصيات النخل . يتصارعان ، يوماً له
ويوماً عليه . يدخلان حلقة الرقص معاً فلا يثبت امامهما راقص او
مصفق ، وترقص الفتاة بين الجد وحفيده في دائرة جذب
مغناطيسي مدمر . تكثف الحلقة ، ويشتد التصفيق ، وتتأرجح
الراقصة ، كأنها مشدودة بخيوط غير مرئية ، بين قطبي البوصلة ،
ترمي شعرها المعطر على وجه الماضي مرة وعلى وجه المستقبل مرة .
يقتسمان الغنيمة فيما بينهما لا غالب ولا مغلوب . تلمع عيونهما
ويزعقان ، يطيران في الهواء ويحطان مثل نسرين جارحين . ما
كان اعجبه منظرأ . لكن الحفيد في ذلك الصباح ، ذهب أبعد ،
ولعل صوت الجد في تلك اللحظة ، كما يتخيل محميم

الآن ، لم يخل من رنة غيرة • حينئذ أحس نحوه بكرامية
مريرة ، ولو أن القارب انقلب بهم وغرق ، لما مد الحفيد في
تلك اللحظة يداً لمساعدته • لقد تقفأ أثره خطوة خطوة ، وصار
مثله ، حذوك النعل بالنعل • كانت الفكرة تخطر لجدّه ، فإذا هي
قد خطرت له في عين اللحظة ، ويقول أحدهما الجملة فيكملها
الآخر ، ويتقاصصان أحلامهما فإذا هي تنبع من مصدر واحد •
كان في نظره اشجع الناس وأكرم الناس وأذكى الناس وأكثرهم
حكمة وهيبة • وكان أبوه أصغر الأبناء ، وأكثرهم خيبة أمل لأبيه
وأكثرهم تعرضاً لسخريته • وكان الابن الأكبر ، عبد الكريم
أسطورة قائمة بذاتها قبل أن يظهر الحفيد • هو الذي سافر
بالجمال محملة بالتمر إلى ديار الكبايش ، وعاد يسوق
أمامه قطعان الإبل والضأن • هو الذي جلب البضائع من حدود
الريف وبلاد تقلى والقرتيت • هو الذي أضاف أرضاً إلى
الأرض ، وبيوتاً إلى البيوت ، وعمارة إلى العمارة • هو الذي
أقام الديوان الكبير ، وجاء لأبيه بابرقي النحاس ذي النقوش ،
ومسبحة الصندل ، وعصا الآبنوس ، وفروة الصلاة المعمولة من
جلود ثلاثة نمور • كانا في الديوان وقت القيلولة حين جاء نبأ
طلاقه وزواجه • قال لعمه نيابة عن جده أنه رجل باطل ، كل همه
الجري وراء النساء • كان دون الخامسة عشرة وعمه في الأربعين •
تضارباً والجد مستلق على سريره لا يقول شيئاً ، وكاد الابن
يضرب أباه • بعد ذلك ذهب ولم يعد • وانقضوا كلهم واحداً

واحداً • ولما مات الاب لم يحضره احد من ابنائه • وكان الحفيد قد ذهب ابعد ، فوصل بعد فوات الاوان • ما كان أعجب ذلك •

طلعت خشخشة الجريد اليابس على الاصوات في خياله فاتته • أصغى لجريد النخلة في هبوب الريح مثل هيك عظمي في آكفانه • شاخت الآن ، تلك النخلة كما شاخ هو ، وقد كانت في شبابها ثمر ابكر وتعطي اكثر ، من ثمر الشكثوت العزيز ، زرعها بيديه منذ اربعين عاماً ، واطلق اسمها على مريم « القنديل » • تسميه مريود ويسميها مريوم • رف طيف الصبا مثل برق في افق بعيد ، وأحس للحظة عابرة ، مذاق الثمر ، ونهد مريم يضغط على صدره وهما متماسكان في الماء • كان ثمرها مثل برق يشيل ويحط • ينتظرانها هو ومحجوب خارج الحي في الصباح ، ومعهما الجلباب والعمة والحذاء ، وما تلبث مريم ان تخلع هذا وتكتسي هذا فتتحول من بنت الى ولد • كانت تتعلم كأنها تتذكر اشياء كانت تعرفها من زمن • ثلاثة اعوام والخدعة لم تنكشف • لم يتركوا حيلة لم يلجأوا اليها • ثم فارت الطبيعة فورتها ، واخذ جسم مريم يدعن لنداء الحياة الاعمق • وذات يوم استقرت عينا الناظر عليها وهي مدبرة عنه في حوش المدرسة • اعترفت في الحال كأنها كانت قد سئمت اللعبة • غضب أول الامر ، ثم لاحت له وجوه الطرافة في الموضوع ، فأسرع الى حاج عبد الصمد وعلي ود الشايب • وبين يوم وليلة ، تحولت

مريم ، تحت سلطان تيارات الطبيعة التي لا تقاوم الى مخلوق آخر . أصبحت تغض طرفها ، وتترث في مشيها ، وتخفض صوتها في الحديث ، ولم تعد تسبح معهم في النهر او تلعب او تعمل في الحقل . تحولت مريم بين عشية وضحاها بفعل مؤامرة الطبيعة والعرف الاجتماعي ، الى أثنى وحسب . وكذلك حدث انفجار في وجدان محميد ، بدأ وضعه ازاء مريم يتضح ويتحدد ، وأدرك انها هي الامتداد الطبيعي لوجوده ، وانها هي التي تعطيه احساسه بنفسه وبموضعه في نظام الاشياء . يومذاك بدأ يتراجع عن الدور الذي كان جده يهيئه له ، وكان عليه أن يحارب بسلاحه هو ، فحارب بسلاح جده ، وانهزم ، وذهب ولم يعد الا بعد ان انتهى كل شيء . في تلك العشية ، حين حمل جثمان مريم في ذراعيه ، كان كأنه يعود القهقري الى نقطة البدء ، حين كانت الاحتمالات جميعها قائمة . هل كان الطريفي يدرك ، وهو ينوح على حافة القبر ، أي ثمن باهظ يدفعه الانسان حتى تتضح له حقيقة نفسه وحقيقة الاشياء ؟ هل يقوى على دفع الثمن ؟ هو ، محميد قد دفع الثمن واكثر . كل شبر في هذه الارض التي احبها ثم تنكر لها ، يشهد أنه قد دفع الثمن وأكثر .

هنا ، هب واقفا بعزم ، اعضاؤه بعضها يأخذ بتلايب بعض ، والالام في قلبه اعظم كثيرا من الالام في مفاصله وظهره وساقيه . خطا خطوة واحدة ، ثم التفت كمن يريد ان يقول كلمة اخيرة .

رفع رأسه الى جريد النخلة اليابس • نعم انها شاخت كما شاخ ،
وشعرها سقط كما سقط شعره • نقر جذعها برفق بعصاه كأنه
يؤاسيها ، وحياتها مودعا بصوت مسموع • لا عجب فهي تعلم سره
ونجواه • بعدها ذهب يضرب على الدرب ، حاملا رأسه صوب
النهر •

رأى ضوءا خافتا على الضفة الاخرى ، ولم يكن ثمة صوت
الا تلاتع الامواج الصغيرة تتراكم عند قدميه • لا • ثمة صوت
آخر • ذلك الازيز الذي يصدر من النهر • احيانا وهو يسبح ،
يحبس أنه لن يبالي اذا استسلم لذلك النداء • لبث وقتا وهو
يرمي الحجارة في الماء كما كان يفعل اذ كان طفلا ، ويلتفت
للاصوات الخافتة التي تصدر هنا وهناك مع تبشير الصباح •
سمكة تنط وتغطس ، او طائر ينتفض في عشه • وفجأة ارتعد
جسمه كله كأن الموت قد وضع يده الباردة على كتفيه • كاد
يستسلم في ذلك الفجر • لم تكن سنه تزيد عن السابعة يوم ألقاه
جده في ماء النهر يعلمه السباحة • اخذ يضرب يديه ورجليه في
الماء على غير هدى والجد على مبعدة منه يناديه بصوت فيه قسوة
« اسبح • اسبح » • كيف يسبح ؟ واخذ يغطس ويقطع ، وكان
طعم ماء النهر طعم الهلاك ، وصوت الجد كأنه صوت قدر اعمى
« اسبح - اسبح » • لا يدري ماذا حدث ، ولكنه يذكر لذعة
شمس الصباح وهو يستيقظ على الشاطئ ويذكر ضحك جده •

قال له انه سيج بالفعل دون معونة ، ليس صوب الجد ولكن صوب الشاطئ ، كانه تذكر فجأة شيئا كان قد نسيه ، وقال له انه سيج مثل التماسح العشاري ، صدره بارز فوق الماء مقدار ذراع . بعد ذلك اخذا يسبحان معا كل صباح ، وفي كل مرة يمعنان اكثر تجاه الشاطئ المقابل . كل صباح كانه آخر صباح ، وكأن الموت يتربص له على قمة كل موجة . لكنه تعلم كيف يستمرى ذلك الاحساس بالخوف والترقب والمجازفة ، ولذة الانتصار على النهر حين تلمس قدماه الارض في الماء الضحل ، ثم وهو يتمدد على حجرة القيف ويصطاد شعاع الشمس بين جفنيه . وذات صباح كاد ينهزم . قال له جده ان الوقت قد حان ليسبحا الى الدوامة في منتصف النهر . ارتعد حين قال جده ذلك . كانت الدوامة التي يسمونها « الكونية » ملتقى تيارات رهيبة ، يتجنبها اطول السباحين باعا . ان الموت ولا شك يسكن في تلك البقعة من النهر ، مثل حيوان خرافي مروّع . ومع الخوف بدأ يحس لذة الخطر . ثم تماسك على نفسه وقد وطئن نفسه على الخوض في المخاطرة حتى الموت . كان جده ينظر اليه وفي عينيه ذلك البريق . كان وجهه مقنعا بقناع الموت . فيما بعد ، حين كبر ، وأصبح أقدر على الفهم ، أدرك ان الشعور الذي ربط بينه وبين جده في تلك اللحظة ، قبيل الشروق ، على شاطئ النهر ، كان شعورا بالكراهية مثل لهب النار ، ولكن كما يكره الانسان نفسه . لم يتكلم ، ولكنه قفز في الماء ، وقفز جده ، واخذا يسبحان معا جنبا

الى جنب ، يفصل بينهما ذراعان او ثلاثة ، خمسون عاما او تزيد ،
الماضي ازاء المستقبل ، كأنهما قدر واحد . كان ذهنه مرهفا
مسيطرا على كل عضلة في جسمه . يذكر برودة الماء قريبا من
الشاطئ ، ويذكر جذع نخلة طاف على يساره ، ويذكر غرابا ينق
صوب الشرق . ثم أحس بالماء دافئا ، وكأن كل خلية في جسمه
تسمع وترى . وبدأ حس الدوامة يعلو والنداء يشتد . في برهة
لمح وجه مريم وسمع صوتها ينادي « يا مريود . يا مريود » .
واخذ الصوتان يتجاذبان . واخذ صوت الدوامة الكونية يعلو
حتى طغى على الاصوات كلها . لا يذكر أين كان جده حينئذ .
انقطع الجبل الذي كان يربط ما بينهما . أصبح وحده ازاء قدر
يخصه هو . ثم حملته موجة الى مركز الفوضى . كأن الف برق
برق ، والف رعد رعد . ثم ساد صمت ليس كالصمت . أحس
كأنه يجلس فوق عرش الفوضى مثل شعاع باهر مدمر ، كأنه
اله . وكان يريد ان يقتل ويدمر ويشعل حريقا في الكون كله ،
ويقف وسط النار ويرقص ويتراقص اللهب حوله . لم يعد مسيطرا
على قوى جسمه . وحسب ، ولا على قوى النهر وحسب ، بل على
كل احتمالات المستقبل . الخوف جاء بعد ذلك . فتح عينيه
كمن يخرج من كابوس ، ورأى اول ما رأى طيف مريم يرف
فوقه . نظر فاذا هو قد سبح الشوط كله ، عبر الدوامة ، الى
الشاطئ الآخر . ورأى جده يقفل عائدا من حيث أتى . يا لله .
انه فعل المستحيل . بذء جده . سبح المسافة كلها من الجنوب الى

الشمال • نظر الى جلد النهر يقشعر وسمع الصوت المرعب، واخذ ينتفض خوفاً ، كما يخاف البشر العاديون ، من الجوع والوحدة والموت • جاء جده بقارب وعاد به الى الشاطئ الجنوبي • كان يجذف ويتكلم ويضحك طول الطريق • سيحكي القصة لحمد ود حليلة ومختار ود حسب الرسول ، وسيقول بزهو كما يقول كل مرة ، محميد صورة طبق الاصل مني ، الخالق الناطق • لكن الحفيد في ذلك الصباح ذهب ولم يعد • لم يفطر مع جده كما كانت عاداتهم كل صباح بعد السباحة • لم يذهب وقت القيلولة ليقرأ له حتى ينام • لم يتعش ويسر معه كما كان يفعل كل ليلة ، ولم يياكره في الصباح ليشرب معه الشاي ، ويحكي له انباء الاعراس التي ارتادها بالليل مع اصدقائه محجوب والطاهر وعبد الحفيظ وسعيد ، والمغامرات والمعاينات والحماقات • وفي اليوم الرابع كان حقه على جده انه رماه في وجه الموت قد خف ، ولما سمع صوت جده يناديه ، امتلأ قلبه بالفرح ، وهش وقال نعم • ونعل كل شيء كان سيظل كما هو ، لولا انه أحب مريم ، وجده قال لا •

فجأة سمع صوت حذاء يطفو على وجه الماء ، وينتشر بين الضفتين ، صوتا قويا ممتلئا كأنه صوت الشباب ، قانعا بقسمته • والتفت فاذا قرن الشمس قد ذر ، واذا بقارب يشق عباب الماء بعزم كأنما خرج من منبع الشروق ، وكأن الغناء العذب يعقد بين عناصر الطبيعة على عدوتي النهر بخيوط من حرير •

سعيد عشا البايات القوي

قال الطاهر ود الرواس وهم على ظهور حميرهم ضحى ،
في طريقهم الى سوق الخميس :

« يومذاك انت سألتني سؤال وانا رديت عليه ، لكن انت
قطع شك ما سمعت الجواب » •

أي سؤال ؟ وأي جواب ؟ ولكن سعيد القانوني كان اسبق •
قال من على ظهر حماره « الخندقاوي » الملقب « ثاني دور » ، كانه
يتحدث من منصبه :

« محميد مما رجع لي ود حامد وهو يسأل وينشد تقول
عاوز يؤلف تواريخ » •

ضحك سعيد عشا البايات القوي ، وضحك احمد ابو
البنات • كان عشا البايات في طرف الركب ، كانه على ميرة
جيش غازي ، بحماره « الكورتاوي » الاسود ذي الفرة على
جيئه ، لجامه يشلشل ، والفررة طويلة ذات عبل تكاد تمس

الارض ، وهو بساقيه القصيرين وعمامته الكبيرة وشاربه المبروم ،
كأنه اوزة تجلس على سنام جبل . قال :

« انا أديت محسيد كلام يعرفوه بي موازين الذهب والفضة .
اوعى تنساه ، وقت تجي للكتابة » !

قال احد برح : —

« انت وين لقيت الكلام يا نجم الرماد ؟ كلامك كله خارم
بارم » .

كان رد سعيد عشا الباتات انه ضرب الحمارة على عجزها
بعصاه الخيزران . لم تكثرث ولم تغير سرعتها بل نفضت رأسها
في الهواء بصلف . نظر اليها عشا الباتات باعجاب ، نظرة متفحصة
ناقدة ، وقال :

« وحين يا ابو البنات الحمارة دي مو بت الحمارة العديلة
ديك الجابها جدك من بحري ؟ » .

وقال الطاهر ود الرواس : —

« المحسية جبوتها . دي بت بتها . انت الزمن دا كله
عميان ولا شنو يا مرمد ؟ »

وقال سعيد القانوني : —

« عشا الباتات معذور . مخه مشغول بي امور السياسات
العليا . وحين هو قاضي كمان عشان يؤكد الحمارة امها منو

وجوبتها منو ؟ والله يا الطاهر انت ماليك حق . دا راجل بقى
في زمرة الحكام اجاويد البلد . »

وقال الطاهر : —

« صدقت والله . دا زول من الكبارات . نحن الليلة اتشرفنا
خلاص وقت جنابك زاملتنا للسوق . بعد شويه تشوفوا يسا
جماعة . اول فصل عند الجميز ، يقابلنا الحرس ، كركون سلاح ،
يضربوا لنا تعظيم ، عشان جلات عشا الباتات » .

وقال احمد : —

« صح انت ليه ما تشتري لك عرية يسب « جب » زي
الرجال ؟ القروش الكثيرة دي رايد تخلوها لي منوب ؟

وقال سعيد القانوني : —

« عرييات الجب ان شاء الله تطير في السماء . اولاد بكري
من يوم ما جابوا عرييتهم مسخوا علينا دخول السوق . كل دقيقة
وتانيه توت توت ، عملو لنا صداع » .

هذا الكلام لم يفضب عشا الباتات . قال ، وهو يضحك
ضحكته القديمة ، وقد امال عمامته قليلا الى الامام ، في زاوية
تقول ان سعيد عشا الباتات لا يبالي بأحد .

كانت حوافر الحمير تقعقع في الحصى . محدثة نغما نشطا
متحفزا ، يتزعمها حمار سعيد في أقصى اليسار ، تليه حمارة ود

الرواس التي تسير بلا جهد ، مثل شخص واثق من قدرته ، ثم حمار سعيد القانوني وحماره محميد في الوسط ، وفي اليمنة حماره احمد ابو البنات • وعلى بعد منهم حمار عبد الحفيظ ، يسير كأنما وحده ، يسرع ويبطئ • كان عبد الحفيظ صامتا ، يحرك حبات مسبخته ، وقد وضع عنان الحمار على حافة السرج ، وتركه يمشي على هواه • قال سعيد عشا البائتات : —

« المال كثير احمد الله ، وعريية الجب ان كنت عاوزها ماها مشكلة • لكن على اليمين الانسان مهما كان ، اذا ما شد للسوق فوق حمار عيل زي ده ، وخت فوقه السرج السناري والفروة المرغز ، وربط البطان وشكاله اللجام ، واتحكر قعد ، والحمار يمشي رب رب ، زي كأنه سردار ولا حكمدار ، والحمار ينهق هاها فوق الحلال ••• عليك امان الله الراجل ان ما سوى جنس دا ما يقولوا عليه راجل اخو بنات • »

قال الطاهر : —

« عشا السجم اتاريه عنده فهم • »

وقال احمد : —

« وين يلقي الفهم ؟ حتى ان بقي اشترى له بابور بحر يا هو سجمه ورماده • »

تجاهل عشا البائتات كل هذا ، ونظر الى الحمارة وقال باعجاب : —

« الحسارة دي طفيانه بالحيل • الداهية تقول أيل انحلا »
تعثرت الحمارة وكادت تقع ، وقال احمد مدعورا ، بين الجد والضحك : —

« الله لا اداك حسنة • ما عارفك ، عينك حارة زي نار جهنم • سحرت البهيمة » •
قال عشا البايتات : —

« اذا عاوز تلييها هسّع اشترىها منك » •
قال سعيد القانوني : —
« انت حمارك الراكبه ده شن عيبه ؟ اذا كان القروش غلبتك ما تشوف لك مره تعرسها »

قال ود الرواس : —
« عشا البايتات بعد دا ماليه عرس • احسن له يمشي يحجج »
وقال احمد : —

« ويبقى اسمه شنو ؟ حاج عشا البايتات ؟ »
قال الطاهر : —

« عشا البايتات شنو كان مع الحج ؟ يبقى اسمه حاج سعيد » •

ضحك سعيد عشا البايتات القوي ضحكة طويلة ، تخفي تحتها كلاما كثيرا • ومن عجب ان عبد الحفيظ ايضا خرج عن عزلته وصسته ، فضحك ضحكة قصيرة ضحلة ، جعلت محميد

يدرك بغتة كمن يتذكر ، ان عبد الحفيظ موجود معهم • بعد ذلك انقطع جبل الحديث ، لأن شيئاً ما في انعكاس الضوء على سطح ماء النهر ، جعل محميد يلتفت الى السوراء ، ادار عنان حمارته واستقبل مشرق الشمس • بانت له من ذلك البعد كأنها على هضبة ، بلا أول ولا آخر ، مكشوفة كانسان ينام في المرء بلا غطاء • الضفة الشمالية صفراء تتوهج تحت شمس الضحى ، ثم النهر ، يختفي ويبين ، كالسراب ، كالبرق • أشجار السنط والطلح تتشبث بالماء ، تليها حقول القمح ، وحين يستقر النظر على غابات النخل في الوسط ، تفجؤه فورة الحياة فيها • حقول اخرى تمتد حتى اسفل البيوت ، بعدها رمال وصحراء لا تنتهي • بانت له • معلقة في فراغ ، تدنو فاذا هي على مد الذراع ، ثم تعدو مبتعدة عنه كأنها حلم عسير المنال • هنالك في وضح النهار سمع اصواتهم ، وراهم مرأى العيان • تنادوا به من ناحية النهر والصحراء ، من الشرق والغرب • راهم يخرجون من الماء ، ويتسللون بين فروع الشجر ، ويقفزون فوق هامات النخل ورؤوس البيوت ، وينطون كأنهم يرقصون فوق القباب ويدوبون في شعاع الشمس • الوقت ليس هذا ولا ذاك ، ولكن الشروق كالمغيب ، يصيران ، ويتكرران في كل ومضة عين • نظر بلا فزع ولا دهشة ، ثم بوعي تام جذب عنان حمارته وأدار ظهره للشمس •

- ٣ -

الطاهر ود الرواس

مال الطاهر ود الرواس نحوي دون ان يحول وجهه عن
النهر ، ولكن سؤالي ظل معلقا في الهواء بين النهر والسماء •
كان وجهه واضح المعالم يلمع وسط ذلك الظلام ، كأن الضوء
ينبع من داخله •

فجأة صرخ : -

« بنت الكلب ، الليلة وقعت معاي » !

قلت له : -

« كيف عرفت انها انثى » ؟•

قال : -

« حتى في الحوت ، المره مره ، والراجل راجل » •

كنت اعمى في تلك العتمة ، ولكن الطاهر ود الرواس كان
يسمع ويرى • قال : -

« اصلها عندها تار معاي • قبل خمسين سنة واحدة من

حجوباتها قلبت بي المركب • وقت وقعت في المويه بقت تجرني
من سروالي لسى تحت » •

« وانت شن سويت ؟ »

• خليت لها السروال ومرقت من المويه عريان جل •
صوته في تلك الدجنه مفعم بالحياة والمرح كأن السمكة في
الماء تتحدث اليه بلغة يفهمها : -

« اكثر من ثلاثة شهور وانا وراها • مره تقطع الخيط ومره
تاكل الطعم وتشرد • بنت الحرام تقول جنيه من جنس المغاريت »
كنت اصادفه في رحلاتي عند الفجر ، أحيانا في قاربه فسي
عرض النهر ، وأحيانا في حقله ، وأحيانا على الشاطئ جالسا يرقب
صنارته • وكنت قد نسيت عذوبة صوته ، الى ان سمعته يغني ذلك
الصباح غناء كأنه غلالة من الحرير انتشرت بين الضفتين • ومرة
لمحته من بعد ساهما يحدق في الماء • ناديته فلم يجب • وبعد زمن
أمام دكان سعيد سألته ، ضحك وقال : -

« انت شتني يومداك ؟ حكاية عجيبه والله • تقول صحيح
الواحد وقت يكبر يصيبه الوسواس • عليك امان الله خمسين
سنة ما سُفْتُ شي • خمسين سنة وأنا أصيد في النيل لا شفت
شي ولا سمعت شي • داك الصباح بت الحرام قطعت الجبادة
وغطست • شويتين شبت فوق وش المويه • عليك أمان الله زول
بني آدم ••• بت فتاة عريانه جل ••• انسي آمنت بالله • وسمع

اداني دي قالت بي حسا واضح زي كلامي وكلامك « يا ود
الرواس اخير لك تبعد مني » • وقبل ما ألقى الكلام ال ارد به
عليها غطست ثاني جب في المويه • أنا اخوك يا محجوب • انا
أخو الرجال • قعدت متمحن اعين للمويه »

لو ان سعيد عشا الباتات قال لنا هذا الكلام لضحكنا وقلنا
كلام خارم بارم ، ولو حدثنا به احمد ابو البنات لقلنا حديث
سكر ، ولكن الطاهر ود الرواس طول حياته لم يقل الا كما رأى
وسمع •

قال الآن ، وكأنه يا دوب سمع السؤال : —

« عبد الحفيظ المسكين من يوم بته ماتت اتغير • بقى شكل
ثاني • زمان كان صاحي وعيونه مفتحه • وحين الله اعلم • اذا كان
لقي اليقين في الصلاة برضه زين »

« وانت ؟ »

« أنا ؟ فاطمه بت جبر الدار طول حياتها تصلي • صلاتها
تكفيننا نحن الاثنين • »

يوما ما سوف أسأله عن قصة زواجه من فاطمة بنت جبر
الدار ، احدى اخوات محجوب الاربع • لن يجيبني الآن ، فهو
مشغول بالسمة في الماء ، يتحدث اليها ويمازحها ، وقد نسي
تماما وجودي جنبه • قال لها انه صاد جدتها منذ اربعين عاما ،

وصاد عمها منذ ثلاثين عاما ، وصاد عددا من خالاتها وعماتها
سأله عن أبويها واخوتها • قال كمن يصحو من نوم : -

« آه • منو ؟ شنو ؟ »

« الحكاياه ؟ انت تهت ولا شنو ؟ »

« محميد ! اني آمنت بالله • صوتك جاني من بعيد

خلاص »

« امها وابوها • »

« ام منو وابو منو ؟ »

« السمكه »

« آه • بنية العفاريث • امها ساكنه وسط البحر ، هناك

جوه ، ابدما ما بتطلع ، بس مره مره تشوف حركة الموج فوقها »

« وابوها ؟ »

« ابوها أظنه عرس له وحده تانيه قبلي »

« والاخوان ؟ »

« الاخوان والاخوات السافر قبلي والسافر بحري •

اختا ليها قلبت كم مركب ورا على بحري »

قلت له بدهشة : -

« وهي المقعدها شنو ؟ »

« العلم عند الله • يمكن منتظره اجلها ••••• منتظره تاخذ

تارها مني ... لكن بت الحرام أظن اجلها تم الليلة ! »

الضوء في الشرق على يميننا كأنه ينتظر اشارة من احد ،
وكان النهر يصرخ صراخه الابدی المكتوم في اذن الشاطىء .
الشاطىء لا يفهم ، والنهر لا يستطيع الا ان يتكلم .

في ذلك الغروب كنا نحن الاربعة نصارع النهر لنصل الى
محجوب . فجأة ماتت الارض تحت أقدامنا وفي لحظة بعثنا
الموج ذات اليسار وذات اليمين . اخذ محجوب يغطس ويقطع ،
ونحن الاربعة ، عبد الحفيظ وحمد ود الريس وسعيد وانا نحيط
به في دائرة نحاول ان نجد ثغرة في الموج لنصل اليه . فجأة لمحت
الظاهر ود الرواس يقفز من الشاطىء ، وخيل لي انه لم يكن ينبغي
في الماء، بل كان يطفو على اشعة الشمس الغاربة . اتشغل محجوب
من الماء ورفع يده واحدة . حين أفقنا كان الظلام قد استتب له
الامر . محجوب اتبه دفعة واحدة واخذ ينادي في الظلام ويلعن
النهر ويندب صديقه . ولكن الظاهر ود الرواس ما لبث ان هل
علينا من ناحية اليسار . سمعناه يضحك في الظلام . أخذ
محجوب يلعن ود الرواس كما كان يلعن النهر . ثم ضحكنا كلنا
على محجوب وعلى أنفسنا وعلى لا شيء .

ضحك ود الرواس وحده وقال : —

« محجوب فارس بر وفي البحر لا حول له ولا قوة »

ابتسمت بحزن ، فقد طافت الذكرى بنا معا في آن واحد
وكان تلك الضحكة ظلت حبيسة في صدر ود الرواس كل تلك
الاعوام ، كبقايا ثروة ضاعت ، حتى اثارها وجودي الى جانبه
ذلك الفجر •

قلت له أحثه على التذكر • ذات المكان على ذات الشاطئ..
رجلان شيخان يرقبان شروقا كأنه المغيب : —

« أما انت يا ود الرواس ففارس بر وفارس بحر » لكن
صمته طال حتى يئست منه ، وشغلتنني الاصوات المبهمة التي تتبع
من النهر ، كأنتي اسمعها من مسافة ألف ميل ، فيها اصداء الاودية
الجبلىة البعيدة، والشلالات • واذعنت زمنا للفظ الموجات الصغيرة
وهي تعدو بلا كلل من شاطئ الى شاطئ • ومن آن لآن كان
النهر ، هنالك في القلب ، عند ملتقى التيارات ، يعوي عواءه
القديم • وبيننا أنا كذلك ، اذا بصوت انسان الى يميني ، كأنه
يخاطب النهر والفجر الذي قرب يطلع : —

« الانسان يا محميد الحياة يا محميد ما فيها غير
حاجتين اثنتين ... الصداقة والمحبة • ما تقول لي لا حسب ولا
نسب ، لا جاه ولا مال ابن آدم اذا كان ترك الدنيا وعنده
ثقة انسان واحد ، يكون كسبان • وأنا ، المولى عز وجل اكرمني
بالحيل • انعم علي بدل النعمة نعمتين اداني صداقة محجوب
وحب فاطمة بت جبر الدار »

احسست بحزن ، فقد كنت طول حياتي ، اعتبر صداقته شرفا عظيما لي ، لذلك قلت له برفق : —

« وعبد الحفيظ وسعيد و »

قال : —

« عبد الحفيظ اخوي وسعيد اخوي لكن الانسان
الاخ الصديق الراحل اليوزن الف راجل الكلام
على القلوب ، جوه جوه .. الحكاية مو الطاهر ود الرواس
الحكاية الجد حكاية الطاهر ود بلال ولد حواء العبد »

قال هذا ببساطة ، دون اية مراة ، ثم اضاف : —

« أنت كنت بعيد تغيب حول وتجي تقعد معنا شهر او
شهرين . من يدري ، من أيام المدرسة وبعدين شغل الحكومة .
الزول المعاك ما هو مثل الزول البعيد منك ، مهما كان » .

ثم قال : —

« كذا به المره ال تقول ولدت مثل محبوب ود جبر الدار »
صمت بطريقة طبيعية ، كأنه يريد ان يترك هذه الجملة وديعة
في ضمير الفجر ، ويريد ان يتأكد ان النهر ايضا قد اصفى وفهم .
بعد ذلك تشاغل بخيط الصنارة ، يشده ويرخيه ، ثم ارسله
واهمله كأن السمكة في الماء لم تعد تهمة ، ثم ضحك ، فالتفت
نحوه ، فاذا وجهه الداكن كقطعة الفحم الحجري ، يلعب كأن عليه

وهجا من اضواء النجوم البعيدة ، ذلك الفجر . ضحك اكثر
وقال : -

« عبد الحفيظ خل حكايته . قبيل سألتني عن عبد الحفيظ
لكين الحكاية أل أنت عاوز تسمعها انا عارفها . يا زول ! اשמعني
السنين دي كلها ما سألتني عنها ؟ بس ما كنت قلت لك . عمري ما
قعدت مع جنس انسان وقلت له حصل كيت وكيت . الحكاية
ما ها مجهولة . في شي الناس عارفنه ، والمو عارفنه راح بي
وقته . لكن همع قالوا الكبر يطلق اللسان والحياة شن
فضل فيها غير الونسه . كما أقول لك حاجه الزمن دا كله
وأنا صاري الحكاية في قلبي عاوز احكيها لي انسان مو
محجوب ... محجوب عارفها وعرف اكثر منها لا . انسان
تاني عنده الرحمة وعنده الفهم ، عارف شي وغابي منه شيء
انسان مثلك يا محميد وكمان ... انت عندك طبيعة ...
تخلي الواحد يقول لك الكلام ال اصله ما قاله لي جنس
انسان ... »

هبت من الشرق هبوب صغيرة دافئة احدثت جلبة في الماء
وبين اغصان الشجر لم تلبث طويلا حتى هدأت . قال ود
الرواس : -

« اصله الزمن دا بقى زمن كلام . اذاعات وسنمات وجرائين
ومدارس واتحادات وهوسه . يوفيتها اسمع الاذاعة تلعلم ، العمال

الفلاحين الاشتراكية العدالة الاجتماعية زيادة الانتاج حماية
مكاسب الثورة الانتهازية الرجعية ... أي ياخوانا مصيبة شنو
الوقعت علينا دي؟ اذاعة السجم دي تنبح طول اليوم اصله حسها دا
ما بيفترش؟ قلت لي حاج سعيد انت يا حاج العمال والفلاحين ديل
بلدهم وين؟ قال لي يا مغفل العمال والفلاحين مو يا هن نحن . انا
اخوك . هسع نحن اسمنا العمال والفلاحين؟ قال لي ايوه . أها
وزيادة الانتاج يعني شنو؟ قال لي الانتاج مو ياهو السجم
البنسوي فيه دا ، وزيادة الانتاج يعني تخت السجم فوق الرماد .
بعدين حاج سعيد ضحك وقال لي انت ما تمشي تسأل الطريفي
ولد بكري يفسر لك الكلام دا كله ، ماك شايه كل يوم جامع ناس
سعيد عشا البايات يديهم في الدروس والمحاضرات ؟ » .

صمت برهة ثم قال : —

« يمكن الحاصل دا زين ، العارف منو؟ وما دام جنس
ونستنا دي بقوا يمثلوها في الاذاعات ويسووها في الافلام
ويكتبوها في الكتب أها دحين اتعدل وسمع وسجل يا محميد .
العارف منو؟ يمكن تبقى عبرة لمن اعتبر »

وكذلك مضى الظاهر ود الرواس ينسج من خيوط الفجر
الزاحف نحونا نسج قصة حياته . كان صوته ينخفض ويعلو ،
واحيانا تهب الريح قوية فتفرق كلماته . وكان يخیل لي احيانا ان
عناصر الطبيعة كلها تصمت وترهف السمع لما يقول .

ألهاني حديثه عن مراقبة الفجر ولم اتبه حتى كان ضوء
الشروق قد لامس قمم النخل والشجر وسرى على صفحة الماء .
قال ود الرواس : —

« الحمد لله . الحمد لله »

ثم قال : —

« يا زول . الليلة أتونسنا ونسه كثيره خلاص . لكن الكلام
ودر علينا ملاح الغداء . السمكة بنت الحرام شافت انشغالنا
بالحديث أكلت الطعم وشردت »

ثم صاح موجها كلامه الى ام السمكة الموهومة في عرض
النيل : —

« يا وليه هوي ، قولي لي بتك احسن تبعد مني . المرة
الجاية على اليمين ان طارت وان قعدت ما تفلت من ايدي »
بعد ذلك قهقهه بالضحك وهب واقفا وقال لي : —

« يا خوي قوماك نسدر . بنت جبر الدار تكون حضرت
شاي الصباح »

وكذلك سعدنا تجاه البيوت ، أنا اتوكأ على عصاي ، عصا
الآبنوس ، وهو يخطو امامي خطواته القوية النشطة ، وبدأ يعني
شعرا كنت قد سمعته منه في زمان غير هذا الزمان ومكان غير هذا
المكان .

كان اسمه حسن وسماه الناس بلال لأن صوته في الاذان كان جميلا وفيه لكنة ، ينادي « اشهد الا اله الا اله ، أشهد ان مهديا رسول اله ، هي الى السلاة ، هي الى الفلاه » .

قالوا ان الشيخ نصرالله ود حبيب هو الذي أعطاه الاسم لما سمع من صوته ، وعلمه الاذان وجعله مؤذنا . وكان يقول له « طوبى لمن شهد صلاة الفجر في المسجد على صوتك يا بلال ، فوالله ان صوتك ليس من هذه الدنيا ولكنه نزل من السماء » .

وأحيانا كانوا ينادونه « هلا هلا ولد لا اله الا الله . » أما « هلا هلا » ، فلأنها كانت العبارة الوحيدة التي يفوه بها اذا خطب ، واما « لا اله الا الله » فلأنه كان حين يسأل عن أبيه يجيب « انا ولد لا اله الا الله » .

يحكي الذين رأوه انه كان جميل الوجه ، حسن الصورة ، متناسق الاعضاء ، ليس بالطويل ولا بالقصير ، لونه يتوهج كلون المسك ، لا تستطيع ان تطيل فيه النظر لجمال صورته . كان كثير السكينة ، وقور السمات ، نبيل الملامح والحركة ، كأنه من سلالة ملوك قداماء ، اذا وقف كأنما تتقف معه حاشية غير مرئية ، واذا جلس ، جلس القرفصاء ، ويسكن حتى كأنه يذوب فيما حوله . وحدثوا انه كان يمشي منصبا على الارض بكامل جسمه ، قليل الكلام ، اذا قام او قعد يظل يطرق الى الارض ، ولسانه لا يني عن ذكر الله والصلاة على نبيه . وكان الشيخ نصرالله ود حبيب ،

وهو على علو قدره وعظم شأنه ، يقوم له اذا دخل ، ويوده ،
ويقسم عليه ان يجلس الى جانبه ، ويقدمه اذا خرج . قالوا ان هذا
الاحترام من ذلك الشيخ الجليل كان يبكي بلال فيقول للشيخ :
« يا مولاي هذا لا عبور من متلك على متلي . انا عبدك
وانت سيدي في شأن الله »

فيقول له الشيخ : -

« يا بلال . انت عبدالله كما انا عبدالله . نحن اخوة في
شأن الله . أنا وأنت مثل ذرات الغبار في ملكوت الله عز وجل .
ويوم لا يُجزَى والد عن ولد يمكن انت كفتك ترجح كفتي في
ميزان الحق جل جلاله . كفتي انا ارجح من كفتك في موازين
أهل الدنيا ولكن كفتك يا بلال سوف ترجح كفتي في ميزان
العدل . انا اجري جري الابل العطاش يا بلال لكي احظى بقطرة
من كأس الحضرة ، وأنت شربت الى ان ارتويت يا بلال . أنت
سمعت ورأيت ، أنت عبرت وعديت ، ولما ناداك الصوت قلت نعم .
قلت نعم ، قلت نعم .

يبكي الشيخ حتى تبتل لحيته ، ويقول بلال باكيا : -

« لا يا سيدي ، لا يا سيدي . أنت شيخي وقطبي ومولاي
وسيدي ، وأنا عبدك ومملوكك في شأن الله » .

يروى الذين حضروا زمانه انه كان حين يؤذن صلاة

الفجر ، تحس ان الصوت لا يصل اليك من مئذنة الجامع ، ولكنه ينبع من قلبك . كان امرا عجبا ، فيما حدثوا ، أن يؤذن بلال ها الله ها الله . ويؤم الناس بالصلاة الشيخ ود حبيب نصرالله . كان الجامع يستلئ كل صباح بالمصلين ، وكل صباح يحضر الصلاة فوج من المصلين ، غرباء ، لم يرههم الناس من قبل . كانت ابواب السماء مفتوحة في ذلك الزمان كما قالوا ولما ماتا انحسرت ظلال الرحمة . واغلقت ابواب الملكوت الى يومنا هذا .

يقول الطاهر ود الرواس ان الاسم الوحيد الذي ورثه عن ابيه كان لقبا لم يناد به أحد الا الكاشف ود رحمة الله . كان ود رحمة الله يقول ان بلال رواس ويسألونه رواس ماذا ، فيجيب « بلال رواس مراكب القدرة » . ويقسم أنه رآه عدة مرات بين العشاء والفجر وهو قائم وحده في مركب ينقل قوما غريبي الهيئة الى الشاطئ الآخر . ويقول الطاهر ان أباه حين مات أخذ أساءه جسيما معه . كأنه كان بالفعل روحا مفردا ليس من أرواح هذا الزمان ولا هذه الارض .

قالوا انه مكث حولا واحدا فقط بعد وفاة الشيخ نصرالله ود حبيب ، وانه توفي مثله في نفس الساعة من نفس اليوم من أيام شهر رجب . كان قد امتنع عن الاذآن ودخول الجامع بعد وفاة شيخه واحتجب ، وذات فجر استيقظ الناس على صوته ينادي من على مئذنة الجامع . صوتا وصفه الذين سمعوه بأنه كان

كأنه مجموعة اصوات ، يأتي من أماكن شتى ومن عصور غابرة ،
وان ود حامد ارتعشت لرحابة الصوت ، وأخذت تكبر وتكثر
وتعلو وتتسع ، فكأنها مدينة أخرى في زمان آخر . قام كل واحد
منهم من فراشه وتوضأ وسمى الى منبع الصوت ، كأن النداء عناء
وحده في ذلك الفجر . ولما وقفوا للصلاة رأوا بلال يلبس كفنا ،
وكان الجامع غاصا بخلق كثير ، من أهل البلد ومن غير أهل البلد .
كان أمرا عجبا . كبر للصلاة كما كان يفعل أيام ود حبيب ، ثم
وقف ليصلي بهم ، فلم يقف امامهم حيث كان يقف الشيخ ، بل
وقف معهم في وسط الصف الاول ، وهو على تلك الهيئة . قرأ
سورة الضحى بصوت فرح فاذا بالآيات نضرة كأنها عناقيد كرم .
وبعد الصلاة التفت اليهم بوجه متوهج سعيد وحياهم مودعا
وطلب منهم الا يحملوه على نعش بل على اكتافهم ، وان يدفنوه
بجوار شيخه نصرالله ود حبيب ، على ان يتركوا بينه وبين الشيخ
مسافة تقتضيها أصول الاحترام والتبجيل . بعد ذلك تمدد على
الارض عند المحراب وتشهد واستغفر ، والناس ينظرون في رهبة
ودهشة ، ثم رفع يده كأنه يصافح احدا واسلم روحه الى بارئها .
وحملوه من موضعه ذاك من الجامع الى المقبرة ، وقالوا انه مشى
في جنازته خلق كأن الارض انشقت عنهم . ودفنوه عند الشروق
فيما رووا ، وأم بهم الصلاة رجل مهيب لم ير وجهه أحد ولكن
أكثرهم قال انه كان كأنه الشيخ نصرالله ود حبيب . وحدثوا أنه

ما من رجل شهد وفاة بلال الا وقد اشتهى ان تقبض روحه في تلك الساعة ، فقد جعل مذاق الموت في افواههم كمذاق العسل •

قال الطاهر ود الرواس ان أباه نشأ عبدا هملأ بلا سيد • كل الرقيق كان لهم سادة الا بلال • ويقال انه ربما يكون من ذرية رقيق كان للملك حكم ذلك الاقليم في الزمن القديم يدعى « بندرشاه » • وبندرشاه هذا تضاربت فيه الاقاويل • يزعم بعض رواة الاخبار في ود حامد أنه كان ملكا نصرانيا من ملوك النوبة ، بسط سلطانه قبلي الى غاية ديار المناصير ، وبحري الى حدود الريف ، وكانت عاصمة ملكه حيث تقوم ود حامد اليوم • كان ملكا ذا عزة ومنعة ، جيّش الجيوش وبنى مراكب الحرب فوق النيل ، وأقام القلاع والحصون ، وعمر الكنائس وفرض الضرائب على القوافل • ثم لما دخلت جيوش العرب ، اعترض سيلهم « بندرشاه » هذا ، فهزموه شر هزيمة ومزقوا شمله شر ممزق ، وسبوا نساءه وغنموا أمواله وعبده • ويقال ان بعض رقيق « بندرشاه » اعتنقوا الاسلام ، وبعضهم تفرقوا في البلاد قبلي وبحري •

وفي رواية أخرى ان ذلك الملك لم يكن نصرانيا ولكنه كان ملكا وثنيا غزا ذلك الاقليم بجيش عظيم من الجنود السود من أعالي النيل ، وانهم أقاموا في نواحي ود حامد وما جاورها مملكة سوداء قوية لم تزل تأمر وتنهى حتى حطمها عبدالله جماع

ابان صعود نجم مملكة سناده وقالوا ان اسمه لم يكن «بندرشاه» بل «باتقي» او «جاتقي» ، وان من بقي من امواله وجنوده استرقوا لسوادهم بعد ان كانوا سادة احرارا .

ويرجح بعض المؤرخين ان « بندرشاه » امير حبشي يدعى « مندرس » هرب بسبب صراعات على الملك ايام الملك « راس تغري » الاكبر ، ومعه نساؤه وعياله وعدد من جنده وعبيده . وانهم عبروا النيل الى المتحة ، ثم قطعوا صحراء بيوضة السى ان وصلوا الى منعطف النهر حيث تقوم ود حامد الآن ، فوجدوا ربوة عالية تشرف على سهل واسع خصيب ، تحميه أرض صحراء عقبه من الشرق والغرب ، وتلال حجرية من ناحية الجنوب ، والنهر من ناحية الشمال ، فأقاموا هنالك وبنوا بلدا أسموها (دبوراس) أي (الربوة) بلغتهم ، حسبما تروي الاساطير . وقالوا ان هذا الامير « مندرس » وجد معابد حجرية من عصور غابرة ، فكسرها وبنى من حجارتها قصرا شامخا على قمة الربوة ، كان آية في الجمال والمعمار ، وحصنا حريا حصينا ظل يقاوم البلى ردحا من الزمن . وذكروا ان هذا الامير بلغ من سطوته انه أخذ يغير شمالا وجنوبا في عهود المسيحية المتأخرة وانه فرض الجزية على أمراء الممالك المجاورة . ثم انه لما بلغ أشده وعظم شأنه ، جمع جيشا كبيرا عبر به صحراء بيوضة في خط مستقيم من الغرب الى الشرق ، وعدى النيل عند بربر ، ثم سار بجيشه محاذيا نهر «الابر اوي» . وظل يواصل السير نحو ارض الحبشة وفي نيته ان ينزع الملك

من النجاشي الحاكم • فاستقبلته جيوش النجاشي على الحدود ،
فحاربهم وحاربوه اياما • ثم انهم حملوا عليه حملة كبيرة فقتلوه
ومزقوا جيشه ، فتبدد وذهب ريحه • ومما يذكر ان من بقي منهم
ذاب في بقية عناصر السكان ، ويقال ان من بقاياهم قبيلة صغيرة
في ود حامد يقال لهم « اولاد ود الحبشي » مشهورون بوسامة
رجالهم وجمال نسائهم •

وفي رواية ان « بندرشاه » لم يكن هذا ولا ذاك بل كان
رجلا ابيض اللون وفد على ود حامد من حيث لا يعلم احد أيام
الغارات والهجمات اواخر ايام ملوك سنار ، وكانت ود حامد
موجودة ومأهولة ومعروفة باسمها الذي هي عليه الآن ، فأقام فيها
واخذ يعمل في تجارة الرقيق ، فكون من ذلك ثروة واسعة ،
وحكوا انه سخر عبيده في زراعة التمباك ، وهو أمر لم تعرفه
البلد من قبل ولم يعرف الناس بعد ذلك انه ينبت في مثل تلك
الارض • وكان يجلب الرقيق وسن الفيل من أعلى النيل ، ويسافر
بذلك كله في قوافل عظيمة الى بربر وسواكن وبلاد الريف •
فجمع من ذلك مالا ليس له حد ولا عد • ويؤكد انصار هذه
الرواية ان هذا هو « بندرشاه » الذي بنى القصر على قمة الربوة ،
وجاء له بعمد الرخام والبلاط المنقوش ، وجعل سقفه من خشب
الزان والتيك ، وعمل له سورا عاليا من الحجر ذا باب من
خشب الحراز عرضه مقدار عشرة أذرع • وذكروا انه كان بتلك
الدار نحو من خمسين غرفة تفتح على فناء واسع في الوسط ، كما

كانت بها مرابط خيل ومراحات ابل وحظائر بقر وأغنام ، وان الدار كانت تسقى من ماء جارية لا تنقطع صيفا ولا شتاء . وصفة ذلك ان العبيد كانوا يرفعون الماء من بئر واسعة الى خزان كبير للماء معمول على علو شاهق ومنه تنزل الماء في قنوات الى كافة نواحي القصر . كما وصفوا ان الداخل كان يجد على بوابة القصر حرسا سودا طوالا اشداء متمنطقين بالسيوف ، يقفون ديدبانات ليلا نهارا . ويعبر الانسان الفناء الواسع ثم يصعد درجا فيجد حرسا آخرين واقفين على جانبي باب سميك يدخل منه فاذا قاعة كبيرة مستطيلة الشكل في جانبها الذي يقابل الباب منصة مرتفعة عليها كرسي كبير من خشب أسود له مساند من العاج حيث يضع الجالس يديه ، تنتهي بصورة محفورة على العاج على هيئة أسد رابض . وقالوا ان القاعة كانت تضاء ، بقناديل معلقة في السقف وانها كانت تعبق ببخور عطر الرائحة متصاعد من مجامر موضوعة في كوى في الجدران . وحدثوا أن اعظم متعة عند بندرشاه هذا ، كان ان يجلس على ذلك العرش كل ليلة بعد ان يكون قد أكل حتى شبع وشرب حتى ثمل ، فيأمر بعبده فيساقون اليه في اغلال الحديد . ويأمر جلاديه فيجلدونهم بسياط غليظة من جلد عجل البحر ، حتى يغمى عليهم وتسيل الدماء من ظهورهم . ثم يأمر بهم فيجرون جرا . ثم يصفق فتدخل القاعة جواري عاريات يرقصن ويغنين ويضربن بالدف والطنبور ، حتى يأخذ منه النعاس ، وما ان

يتشاءب حتى تخلو القاعة ويحمله عبيده الى غرفة نومه . وذكروا ان بندر شاه قضى زمنا على هذه الصفة يسوم عبيده سوء العذاب ، لا لذنب جنوه ، ولكن متعة وتلذذا . حتى كان ذات ليلة ، حين ثاروا ثورة رجل واحد ، وانقضوا عليه فقتلوه ، ثم قطعوه قطعاً ورموا لحمه في بئر القصر ، واحرقوا القصر بما فيه ، وفروا كلهم تحت جناح الليل ولم يتخلف الا غلام صغير او رجل كبير او امرأة طعنت في السن . ويذكرون ان القصر بقي حتى بعد ان حرقه العبيد أبدا طويلا على هيئته التي كان عليها الى ان رآه الامير يوسف ود الدكيم الذي حكم ذلك الاقليم ايام المهدي . ولما رآه وقف عنده وتعجب لمنظره وسأل اهل البلد عن بناء فذكروا له روايات متضاربة . ظل يحدق في البناء الشامخ وهو يردد « الله قادر . الله قادر » ثم قال « البناء دا ما بناء ابن آدم . دا عمل شياطين » . ثم أمر جنوده فهدموا ما بقي منه وسووا به الارض ، ولم يبق منه اليوم الا قحوف حجارة وشظايا آنية مدفونة في اكوام التراب العالية المكومة هناك فوق القلعة .

اما ابراهيم ود طه ، وهو راوية ثقة في تاريخ ود حامد ، فيؤكد ان بلالا ليس من عبيد ملك نصراني . ولا أمير حبشي ولا ملك وثني ولا غير ذلك . وانما سيده شخص يعرفه كل أحد ، ليس مجهول الحسب ولا مطعون النسب ، وهو عيسى ود ضو البيت . ومعروف ان ضو البيت أبا عيسى كان رجلا من الاشراف ،

وفد على ود حامد من الحجاز وتوطن فيها ، وتزوج فاطمة بنت جبر الدار الاولى ، من قبيلة الحوامدة أصحاب الاصل والفصل ، سادة ود حامد الذين سميت البلد باسمهم ، وهي غير ود حامد الاخرى في الصعيد الموجودة قرب مدينة شندي . ويقول ابراهيم ود طه ان « بندرشاه » كان لقبا عُرف به عيسى ود ضو البيت في صباه ، وهو من نوع مزاح الصبيان ، أطلقه عليه ابن خالته حمد ود عبد الخالق ود حمد المعروف بولد حليمة .

ويوضح ابراهيم ود طه ان جبر الدار حفيد حامد الاكبر صاحب الاسم ، أنجب ولدا واحدا هو رجب الذي سار عليه لقب « الله لنا » لجنه ، وانجب اربع بنات كل واحدة منهن توازي مائة رجل ، حليمة ومريم وميمونة وفاطمة . اما حليمة فقد تزوجها عبد الخالق ود حمد ذاك ، واما مريم فقد تزوجها الشيخ محمود ود احمد ود حامد ابن عم جبر الدار ، وكان زعيم البلد في زمانه ، واما ميمونة فقد تزوجها حسب الرسول ود مختار ولد حسب الرسول الملقب بالخمجان وكان فارس فرسان ونزال ضيفان . واما فاطمة وكانت صفراهن وانجبهن ، فقد تزوجها ضو البيت وأولدها ولدا واحدا هو عيسى ولد ضو البيت . وقد مات أبوه وهو في بطن أمه ، وترك له مالا كثيرا . وكانت أمه تدله في صفره وتلبسه الثياب الزاهية الغالية التي لم يعرفها اهل البلد . لذلك كان الصبيان يتندرون عليه فسموه اسما غريبا لم يلزمه طويلا اذ نسيه

الناس مع مرور الايام • وفاطمة هذه هي ام « اولاد ضو » وهم
فرع من قبيلة الحوامدة •

ويروي ابراهيم ود طه ان عيسى ود ضو البيت تزوج ابنة
خاله رجب ، فأولدها احد عشر ابنا ذكرا ، تلد له ولدا كل عامين ،
باتتظام وبلا تقديم او تأخير ، وانها ظلت تلد حتى بعد ان تزوج
ابناؤها ، وكان يتفق احيانا ان تكون هي نساء والى جانبها
زوجة ابن لها نساء ايضا • وظلت هكذا الى ان ماتت وهي لم
تبلغ بعد الاربعين •

ويؤكد ابراهيم ود طه ان بلالا هو الابن الثاني عشر لعيسى
ود ضو البيت من جارية له سوداء جميلة ذكية كان يحبها
ويؤثرها • ولكنه لم يلحقه بنسبه ، ولما مات ، خجل اخوته ان
يسترقوه ، ولكنهم استكبروا ان يعاملوه معاملة الحر ويشركوه
في ميراث أبيه • لذلك نشأ بلال لا هو حر يقال له ابن فلان ولا هو
عبد يقال له عبد فلان • وكان هو في خاصة نفسه ، انسانا عجيبا ،
جميل الهيئة ، جميل الطباع ، متعففا ورعا ، اخلاقه اخلاق سادة
امجد • ومن عجب انه شب كأنه نزل فجأة من السماء ، او انشقت
عنه الارض ، او انه طلع من النيل ، شخصا كامل الهيئة والتكوين ،
فلا انسان من أهل البلد يذكره طفلا ولا أحد يعلم من رباه ، ولا
احد يقول لك رأيت بلالا او سمعت بلالا الى ان ظهر فجأة
وهو فتى يافع ، يلزم الشيخ نصرالله ود حبيب ويقوم على خدمته •

اتبه اهل البلد فجأة الى هذا الانسان البديع الذي يخلب جماله القلب ، ويفتت صوته الصخر ويلين الحديد ، وكان حين ينادي مع الفجر بصوته الاعجم «أشهد الا اله الا اله اشهد ان مهديا رسول الاله» تحس كأن ود حامد كلها ، بانسها وحيوانها وشجرها وحجارتها ، ورملمها وطينها ، من اسفلها الى اعلاها ، من برها الى بحرها ، قد اهتزت وارتجت وأصابتها قشعريرة . لم يكن دعاؤه دعاء الى الصلاة ، وانما كان دعاء الحياة منذ عهد آدم ، ودعاء الموت منذ كان جبريل واسرافيل وميكائيل وعزرائيل . كان يؤذن للصلوات الخمس كل يوم ، لم يتخلف يوما واحدا ، الى ان مات الشيخ نصرالله ود حبيب ، فانقطع عن الاذان ، واحتجب واختفى عن العيان ، حتى كان اذانه المشهود يوم وفاته . وكان يختم اذان العشاء والفجر دوما بقوله « البدار البدار يا قوم . يا قوم ، المركب رمت . البحر غريق . اهل الله مسكوا الطريق . دا زمان صاحب الزمان . سلطان العصر . دا زمان نصرالله ود حبيب . دا زمان نصرالله ود حبيب » .

ذكروا ان اول عهده بمصاحبة الشيخ نصرالله ود حبيب كان وهو فتى يافع فوق الخامسة عشرة ودون العشرين . ربما كان يضرب بعيدا في الخلاء يتفنت ويتعبد ، الله وحده يعلم ، لانه كان غير واضح في البلد ، كانه ليس موجودا فيها بالمرّة . وذات يوم والقوم في حلقة الشيخ نصرالله ود حبيب ، بعد صلاة الفجر ،

وكانت تلك من عوائده ، بعد ان يفرغ من صلاة الفجر والعشاء ،
يمكث مقدار ساعة يرشد الناس ، ويسألونه ويجيبهم ، قالوا انه
فجأة صمت مدة وتغير وجهه ، ثم صاح بأعلى صوته « الينا يا
بلال ، الينا يا بلال »

لم يفهم القوم ما يريد الشيخ وقالوا له : —

« على مين تنادي يا شيخنا »

أجابهم بصوت مختلف : —

« بلال الخير • بلال الخير • بلال الخير »

يردد الاسم هكذا ثلاث مرات •

أيضا لم يفهموا ، وصمتوا يفكرون برهة • وفجأة قال
احدهم ، كأنما نزل عليه وحي :

« الشيخ يقصد حسن »

ولما استوضحوا القائل أي حسن يعني ، احتار كيف يصفه •
ثم كأنما انجلت لهم الحقيقة كلهم في آن واحد فصاحوا جميعا : —
« حسن هاالله هاالله ... العبد »

حينئذ خاطبهم الشيخ نصرالله ود حبيب ، وهو في ما يشبه
الغية : —

« بلال ليس عبدا لأحد • بلال عبد الله • ود الله لو علمتم

من أمره ما اعلم لانصدعت قلوبكم خشية ولاصابكم الجزع
والبلبله • انه رأى وسمع ورمى الى درجات تتقطع دونها القلوب
حسرة • والله ان بلالا لو سأل الله لأبرّه ولو طلب من الحق
جل وعلا ان يخسف بكم الارض لفعل »

قال الشيخ هذا بصوت أصاب سامعيه بالهلع ثم اخذ ينادي
من جديد :

« الينا يا بلال • الينا يا بلال »

اقسموا انه ما ان فرغ الشيخ نصرالله ود حبيب من ندائه ،
حتى سمعوا صوتا يصيح عند باب المسجد : —
« لييك • لييك » •

ودخل ، وعليه غبار سفر بعيد ، حول رقبتة مسبحة طويلة
من اللالوب وفي يده ركوة جلد ، فانكب على قدمي الشيخ يقبلهما
وهو يردد باكيا « لييك • لييك » انهضه الشيخ وعانقه وقبله على
خديه وبين عينيه ، وقال له ، وعيناه تدمعان : —

« لماذا يا أخي تبعد عني هذا البعاد ؟ اما كفاك وكفاني ؟ ترفق
بنفسك يا حبيبي فانك قد تبوءت رتبة قل من وصل اليها من
المحبين الخاشعين ، وانني أركض فلا أكاد الحق بفبارك »

قالوا ، وبكى بلال حتى كادت روحه تزهرق ، وهو يردد :
« يا سيدي لا تقل هذا الكلام • انت القطب • انت صاحب

الزمان وانا عبدك ومملوكك » •

قالوا ، وأراد الشيخ ان يجعله منه بمقام الاخ فأبى البتة وحلف الا يكون له الا بمقام المملوك من سيده • فأذن الشيخ ، ونفسه تأبى ذلك ، فكان بلال يقوم على خدمة الشيخ نصرالله ود حبيب بالليل والنهار ، يملأ له ركوة صلاته ، ويحضّر له طعامه ، واذا مشى الشيخ في الحر ، يحمل فوق رأسه مظلة خضراء كبيرة ، واذا ركب الشيخ لأمر ، وقلما كان يفعل ذلك ، يصحبه راجلا ممسكا بعنان جواده • وكان يأبى ان يجلس في حضرة الشيخ نصرالله ود حبيب ، ولا ترضى نفسه الا بالوقوف او يقعي عند مجلسه كأنه كلب أمين • وكان الشيخ نصرالله ود حبيب يرى منه ذلك ، فيقول له : —

« يا بلال ، يا بلال • لماذا تريد ان تهيننا باذلالك لنفسك ؟ »

قالوا ، وكان الشيخ نصرالله ود حبيب قطب زمانه بلا نزاع • كان الناس يقصدونه من اطراف الارض ، طلبا لعلمه وتبركا بصحبته ، يجيئون في قوافل من ديار المغرب وتونس ومصر والشام وبلاد الهوسه والفلاحي ، يحملون اليه الهدايا النفيسة فيفرقها على الناس في مجلسه ولا يدخل داره منها شيئا • ولما ظهر الامام محمد احمد المهدي كتب اليه يدعوه الى مبايعته ، فكتب اليه الشيخ نصرالله ود حبيب يقول :

« أما فائًا لا نصدع ، الا لأمر الملك الواحد الاحد . فان كنت مهديا فالله العليّ التقدير يزيدك هدى فهو صاحب العزة يختار من عباده من يشاء ، فامض على كتاب الله وسنة نبيه فانك لن تضل مع ذلك باسم الملك القدوس الرحمن الرحيم ، يهدي من يشاء ويضل من يشاء ويؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء . » ورووا انه لم يكن يخوض في أمر المهدي ، لا بتأييد ولا بانكار ، وترك اصحابه لا يرد احدا منهم اراد ان يلحق بصاحب تلك الدعوة ، فلم يذهب منهم الا نفر قليل . ولما آل الامر الى الخليفة عبدالله التعايشي أرسل اليه يأمره ان يقدم عليه في ام درمان ، فرد عليه بغليظ القول مما اغضب الخليفة ، فأراد ان يسيّر اليه من عسكره من يسكونه ويحملونه صاغرا الى الخليفة . ولكنه احبط في يد الخليفة فلم يفعل شيئا مما عزم عليه . وذكروا ان الشيخ نصرالله ود حبيب كان يقول ، وهو يعني الخليفة عبدالله التعايشي : —

« والله والله الذي لا اله غيره ، ان امراء المسلمين ، اذا أخذ منهم الاغترار ، وتزينت لهم الدنيا وهي دار البوار وأعجبتهم حالهم وكثرة انصارهم وسكروا بكأس السلطان وبدا لهم انهم أقوياء مخلصون في محابسههم ، ضربهم الله بصولجان عزته ، وقصم ظهورهم ، بسيف نقمته ، وسلط عليهم سيوف اهل الكفر ، ومكن منهم اعداءهم ، واخرج لهم من مكامن جحورهم من يكيدون

لهم ويغالبنهم حتى يذهب الغالب والمغلوب ، والطالب والمطلوب ،
فينقلبون وكأنهم اعجاز نخل خاوية ، او كهباء ذرته الريح في يوم
صنصف كما فعل الله بقوم عاد وثمود ، فالبدار البدار » .

قالوا ، وكانت في ود حامد امرأة صاعقة الحسن تدعى حواء
بنت العريبي ، هبطت من ديار الكبايش مع ابويها في سنوات
قحط وجذب . فماتا عنها ، وبقيت وحدها ، تمشط وتفزل وتعمل
في دور الميسورين في البلد . ووصفوا ان وجهها كان كفلق
الصباح ، وشعرها أسود كالليل مسدل فوق ظهرها الى عجزتها ،
وانها كانت فرعاء لفقاء ، طويلة رموش العينين ، اسيلة الخدين ،
كان في فمها مشثار عسل ، وانها كانت مع ذلك شديدة الذكاء ،
قوية العين ، مهذاراً ، حلوة الحديث ، متبرجة ، في حديثها شيئاً
من تفحش وتغنج . فأرادها الكثيرون . ومنهم بعض عراة اهل
البلد ، فتمنعت واعتصمت ولم تقبل منهم طالب حلال او حرام .

قالوا ، ولم يعلق قلب حواء هذه من دون الناس جميعا الا
بلال ، فكانت تعرض له وهو في صلاته وعبادته ، فلا يرد عليها
ولا يجاوبها . وظن الناس اول الامر ، انها انما تعبت به ، ثم تيقنوا
انها ، ويا للعجب ، قد هامت به هياما كاد يذهبها عن نفسها . ولما
أعيتهما الحيلة ذهبت الى الشيخ نصرالله ود حبيب ، وشكت له
وتذلت وتفرغت ، فأشار على بلال ان يتزوجها . فقال له : —

« يا سيدي روحي فداك . لكن لا تخفى عليك خافية من

أحوال عبدك المسكين • انا ماشي في دروب اهل الحضرة ، وانت
تأمرني بأفعال اهل الدنيا »

فقال له الشيخ : -

« يا بلال • ان دروب الوصول مثل الصمود في مسالك
الجبال الوعرة • مشيئة الحق غامضة • يا بلال ، ان حب بعض
العباد من حب الله ، وهذه المسكينة تحبك حبا لا أجده من جنس
حب أهل الدنيا ، فعسى الحق ان يكون ارسلها اليك لأمر اراده •
عساه جلت مشيئته اراد لك ان تختبر مقدار حبك بميزان حب هذه
المسكينة لك فاما صحوت وانقطع سبيلك واما ازددت ظلماً الى
كأس الحب السرمدي ويكون سبحانه وتعالى قد أنقذ مشيئته
بإذلالك في ارادته القصوى »

فصدع بلال لأمر شيخه وتزوج حواء •

قالوا ، ولم يجتمع بها الا ليلة واحدة ، بعدها استأذن شيخه
ان يسمح له بأن يرى ذمته منها ، فأذن له • وكانت قد جلبت منه
في تلك الليلة ، بابنه الذي سمي الطاهر ، وغلب عليه اسم الطاهر
ود الرواس • وبعد ان سرحها بلال ، أبت ان تدخل على رجل
آخر ، وانصرفت لتربية ابنها ، فكان شأنها في ذلك شأن المتصوفة
العاكفين • وذكروا انها لما رحلت عن الدنيا وهي تناهز السبعين ،
كانت على ابهى هيئتها وحسنها ، لم ينقص من جمالها مثقال ذرة ،

ولم يغير الزمن منها مقدار شعرة ، فكأنها كانت من تصاريفه في
حصن حصين •

يقول الطاهر ود الرواس : —

« ما رأيت حبا مثل حب تلك الام • وما شفت حنانا مثل
حنان تلك الام • ملت قلبي بالمحبة حتى صرت مثل نبع لا ينضب •
ويوم الحساب ، يوم يقف الخلق بين يدي ذي العزة والجلال ،
شايلين صلاتهم وزكاتهم وحجهم وصيامهم ، وهجودهم وسجودهم ،
سوف أقول : — يا صاحب الجلال والجبروت ، عبدك المسكين ،
الطاهر ود بلال ، ولد حواء بنت العريبي ، يقف بين يديك خالي
الجراب ، مقطوع الاسباب ، ما عنده شيء يضعه في ميزان عدلك
سوى المحبة » •

نادى سعيد عشا الباتات في ذلك الفجر بصوت كأنه
مغناطيس ، علق به غبار الاحلام المؤودة ، وكانت هبوب أمشير
تردد نداء مريم « يا مريود • يا مريود • أنت لا احد • أنت لا شيء
يا مريود • »

استقبلتني عند الباب ، ورأيتها تختفي وتبين ، السى ان قال
الناس ولا الفضالين آمين • كان العطر الذي لاحقني كل تلك
الاعوام يعبق من ارجاء الكون يذكرني بمريم تعد على اصابع يدها
وتقول « احمد • محمد • محمود • حامد • حمد • حمدان ••• »

« الابناء اكثر من الاسماء يا مريوم »

تضحك وتقول : —

« تتمهم عشرة بالبنات »

دفناها عند المغيب كأننا نفرس نخلة ، او نستودع باطن
الارض سرا عزيزا سوف تتمخض عنه في المستقبل بشكل من
الاشكال • محجوب قبل خدها ، وانا قبلت جبهتها ، وكاد الطريني
يهلك من البكاء ، وحملناها برفق نحن الستة ووضعناها على حافة
القبر • اسمع ذلك الصوت الذي ليس مثله صوت يجيئني من بعيد

مثل ناي سحري ، في غلالة من اضواء الاقمار في ليالي الصيف ،
ولمع الشعاع على سفن النخل الندي ، ووهج النوار في حدائق
البرتقال . تقول وهي تجر عماتي من راسي :

« نسكن البندر . سامع ؟ البندر . المويه بالاناييب والنور
بالكهرباء والسفر سكة حديد . فاهم ؟ اتمبيلات وتطورات .
استباليات ومدارس وحاجات وحاجات . البندر . فاهم ؟ الله يلن
ود حامد . بحم ورماد . فيها المرض والموت ووجع الراس .
اولادنا كلهم يطلعوا افندية . فاهم ؟ زراعة ابداء . وحياة محجوب
اخوي زراعة ما نزرعها ابداء . »

أحسست بها خفيفة بين ذراعي وانا انزل بها في القبر .
كان نهدها يضغط على صدري ونحن متماسكان في الماء ، نفطس
ونطفو ، وغضت طرفها وغضضت طرفي ولم تذهب للمدرسة بعد
ذلك ، وكان السر قد انكشف . أغيظها بضحكي واسألها عن
أعمال اولادنا ، فتفكر بحزم وتقول وهي تعد على اصابع يدها : —

« احمد يطلع مدير »

« مدير شنو ؟ »

« مدير أي حاجة »

« ما شاء الله . ومحمد ؟ »

« محمد يطلع محامي »

« عجائب . ما اخير قاضي يا مريوم ؟ »

« محامي عشان يدافع عن المظلومين . القاضي قالوا يدخل

النار »

« زين • ومحمود ؟ »

« محمود ••• محمود ••• محمود يطلع حكيم »

« سجم خشمك • وحامد ؟ »

« حامد كمان يطلع حكيم »

« هاللة هاللة • بقيتي ام الحكماء • والخامس اسمه مين

يطلع شنو ؟ »

« حمد • حمد يطلع مهندس »

« مهندس ؟ الله اكبر • والسادس ؟ »

« حمدان يطلع ناظر »

« ناظر محطة ؟ »

« ناظر مدرسة • »

« مثل مدرسة ود حامد ؟ »

« ود حامد ان شاء الله تغطس في الارض • مدرسة كبيرة

من الحجر والطوب الاحمر وسط الجنانين »

« وبقية العشرة الكرام ؟ »

« الباقيين اذا طلوعوا اولاد او بنات يكونوا كلهم معلمين او

حكماء »

« البنات كمان ؟ »

« ليه لا ؟ »

« طيب ومتين تولدي الامة دي كلها ؟ وقت يصل عاشر واحد
يكون عمرك خمسين سنة • »
« ابدا • عشرين بالكثير اذا بدينا السنة الجاية »
« تزوج السنة الجاية ؟ »
« ليه لا ؟ »

اضحك واتقلب في الرمل من شدة الضحك ، فلم أكن قد
بلغت الثالثة عشرة بعد ، وكانت مريم دون العاشرة • تضربني على
صدري وظهري بكلكا قبضتيها وتجرجع عمامتي وثوبي ، وتغضب
حقيقة •

اجلس واقول لها بجدة متصنع وانا اعد على اصابع يدها : —
« اسمعي يا غشيمة • اولادنا يطلعوا زي كده • احمد زراع •
محمد زراع • حمد يطلع شيخ الصعاليك • حامد يطلع مداح ،
يمدح الرسول مثل حاج الماحي زمان واحمد ود سعيد اليوم في
العفاض »

تقول مريم بغيظ : —
« الرسول صلى الله عليه وسلم • »
ثم تزيد ، وعيناها العسلتان الواسعتان تلمعان بالغضب : —
« محمد أول وبعدين محمود »
« قبله او بعده ، الحكاية واحدة • كلهم مزارعين » تقول

مريم ، وهي مثل نسر يوشك ان ينقض : —
« أها وحمدان ؟ »

أسكت برهة وأنا أكاد لا أقوى على حبس الضحك ، وصدر
مريم يصعد ويهبط بالغيط : —

« حمدان عندي ليه وظيفة كبيرة • حمدان يا ست الحسن
والجمال ، يطلع رئيس ••• رئيس ••• رئيس الحرامية في
المديرية الشمالية »

تنشب أظافرها في وجهي وتضربني بقبضة يدها الصغيرة ،
وتعضني ، وتركلني برجلها ، وأنا اضحك متقلبا في الرمل ،
وهي تصرخ : —
« ابدا • ابدا • ابدا »

ونحن على تلك الحالة ، يجيء محجوب ، فأحكي له الحكاية •
يقول محجوب : —

« ليش تؤخر الزواج للسنة الجاية ؟ باكر على طول نعمل
العقد • مريم خلاص استوت للزواج ولا يمكن نخليها تنتظر سنة
كمان »

ونظل نعايشها هكذا حتى تشرد منا باكية •

لكننا كنا أعز انسانين لديها ، انا قبط احلامها مستقبلا في

المدينة ، ومحجوب اخوها الاوحد بين أربع بنات ، مريم صفراهن .
نظرت اليه وسط الجمع ذلك المساء ، وقد لفته اشعة الشمس
الغاربة ، غاضبا شرسا ، كأن الموت خصم ارسلته الحكومة . كان
يأمر وينهى بصوت اخرش ، وقد اسلم الناس قيادهم اليه . كان
زعيمًا مطلق السلطان ذلك المساء ، كما لن يكون بعد ، نشطا
متحفزا كحيوان مفترس يتأهب للانقضاض في أية لحظة ، وسلطان
الموت لا يظال . اما أنا فقد كنت حزينا بشكل آخر . كنت أراها
سابحة على موجة تسافر وتعود ، والدنيا بتسم بوجه طفل .
عينها العسلتان تزحمان الوجه ، وحاجباها النبلان ينعقدان
فوقهما ، وثغرها مثل برق يشيل ويحط . كان الطيفي يبكي حتى
كاد يهلك ، وانا أحس في قلبي بفجعة مثل الفرح . مضوا يحفرون
القبر وانا أرى مريم طفلة دون الرابعة ، تقرأ معنا القرآن في خلوة
حاج سعد ، فعلت ذلك قدرة واقتدارا ، لا راد لرغبتها العارمة في
فك طلسم الحروف . تجيء فنطردها فلا تنطرد ، فاضطربنا انا
ومحجوب ان نعلمها ، فكأننا اطلقنا جنا من قمقم . أخذت تقرأ
وتحفظ وتفهم ، حتى لحقت بنا وكادت تفوتنا . وصارت تقارعنا
الآية بالآية والسورة بالسورة ، حتى ضقنا بها ذرعا . ولما دخلنا
المدرسة سعدنا اننا نتعلم اشياء لا تفهمها ، ونرجع فنقرأ لها التاريخ
والجغرافيا والحساب ، نفيظها بذلك . فأخذت تمالكنا وتستعطفنا
لنأخذها معنا . قلنا لها : —

« المدرسة للاولاد . ما في بنات في المدرسة »

قالت وكأنها قد فكرت في الامر مليا :

ـ « يمكن اذا شافوني يقبلوني »

ضحكت وقلت لها :

ـ « وانت ايه العجيب فيك اذا شافوك يقبلوك ؟ »

واضاف محجوب :

ـ « انت فاكركه نفسك بدر البدور ؟ قبيحة ونحيفة زي

الجرادة »

لم تكثرث لمعاشتنا وقالت بجذ :

ـ « اذا شافوني اقرأ واكتب • الحكاية مش قراية وكتابة ؟

ايه الفرق بين الولد والبنت ؟ »

قال محجوب :

ـ « نظام الحكومة كذا • مدرسة للاولاد يعني للاولاد •

آنت عاوزه الحكومة تعمل لك نظام مخصوص ؟ »

قالت :

ـ « ليه لا ؟ »

ضحكنا ، لان تلك كانت عادة مريم ، تظن كل شيء ممكن •

بغثة قالت ، وكانت قد قلبت الامر في ذهنها الحديد ، وانهت الى

حل ، قالت وعيناها الجميلتان الذكيتان تستشرفان فوق رأسينا الى

بعيد :

— « خلاص • ما دام الحكومة لا تقبل غير الاولاد ، أصير
ولد • »

كتمنا دهشتنا واستوضحناها قصدها •

« يعني امشي معاكم للمدرسة كأنتي ولد • »

محجوب سألها بسخرية :

« أنتِ تبقي ولد ؟ »

وأنا سألتها بسخرية أشد :

— « انت تبقي ولد ؟ »

قالت وقد تعلق عيناها الجميلتان بأفق بعيد ، تراه هي ونحن
لا نراه :

— « ليه لا ؟ ما دامت الحكومة ما تقبل الا الاولاد • ألبس
جلاية وعمة وامشي معاكم ، متلي متلكم • ما في أي انسان يعرف
أي حاجة • أيه الفرق بين الولد والبنت ؟ »

ضحكنا انا ومحجوب بوسائل شتى ؟ سخرية بها ، وأغَاظَة
لها ، واعجابا وحبا • قال لها محجوب :

— « عندك ان البنت مثل الولد ؟ »

« ليش لأ ؟ »

وأنا سألتها :

— « ما في أي فرق ؟ »

قالت :

« ابدا »

وقال لها محجوب :

— « الخالق الناطق ؟ »

« ليس لأ ؟ »

قلت لها :

— « متلي متلك ؟ »

« الا ... »

قلت استعشها :

— « الا ... ؟ »

قالت :

— « السجم »

قال محجوب وهو يقهقه ساخرا :

— « سجم خشمك »

لكنها لم تكن خجلة • واجهتنا بغتة ، فرأينا اضواء ذلك

الافق البعيد ، تتوهج على جبهتها وحول عينيها • نظرنا بعضنا الى بعض كالمسحورين ، وقلنا أنا ومحجوب بصوت واحد ، وقد بدأ ذلك الافق البعيد يتراءى لنا نحن ايضا :

— « صحيح • ليش لأ ؟ »

خلت اصواتنا من السخرية واتخذت نبرات فيها رهبة •
قال محجوب :

— « اصل الفصول في المدرسة ناقصة •• »

وانا قلت :

— « والناظر كل يوم على حواره قبلي وبحري يترجى الناس
يجيبوا اولادهم للمدرسة ••• »

وقالت مريم :

« وانا طول اليوم ما عندي شغل ، ادخل بيت وامرق من
بيت • »

وقال محجوب :

« ومريم فالحة »

وانا قلت :

« وعندها رغبة »

ومريم قالت :

« وخسارة ما ... »

قلنا نحن الثلاثة بصوت واحد ، كأننا جوقة تنشيد لفجر أخذ
يطلع : —

« صحيح ليش لا ؟ »

قالت في ذلك الضحى ، ولم أكن اعلم حينئذ ان الجبل الذي
بيني وبينها سوف ينقطع وشيكاً والى الابد : —

« خلاص الزواج الليلة • لكن انا لسّع ما حضرت حالي »
محجوب لم يفهم ، ولكنني ادركت فوراً ما تعني • قلت لها : —
« ان شاء الله كل شيء يتم بخير • ما تشفقي ابدا »

لم تكن بها علة ، ولم تلزم فراشها غير يوم واحد ، كأنها
قررت ان ترحل فجأة • كأن كل الذي حدث لم يحدث • هو على
يمينها وانا على يسارها ، وحدنا معها ، كما ارادت • كانت خضلة
مثل عروس ، ليس بها شيء ، سوى بعض جبات العرق على
جبهتها • كان وجهها متألقا وعيناها تتلامعان مثل البروق • نظرت
الي وهلة كأنها لا تعرفني ثم قالت وهي تنظر الى محجوب : —

« بس مريود لسّع ما وصل • كيف يحصل الزواج ومريود
لسّع ما رجع من السفر • »

حينئذ فهم محجوب ، فأجهش بالبكاء • قال لها وهو يبكي :
« مريود وصل • كل شيء حاضر للزواج • »

قالت بفرح : —

« رجع ؟ متين ؟ »

قلت لها : —

« انا مريود يا مريوم • طبعا العقد يتم الليلة • كل شيء جاهز »

تمننت في وجهي ، وبان الغضب في عينيها ، وعادت كما اذكرها منذ اربعين عاما او يزيد : —

« أنت ما مريود • انت بكري • ابدا ما اتزوج بكري •
ابدا • ابدا »

قال لها محجوب : —

« كيفن ما هو مريود ؟ يا هو ذاته ذاته • يا دوب وصل من السفر • »

تفرست في وجهي من جديد • قلت لها : —

« انت غيبانة ولاه شنو يا مريوم ؟ »

قالت بصوت آخر ، كأنها شخص آخر : —

« العيون عيون مريود • والخشم خشم مريود • والحس حس مريود • لكن انت ما مريود • مريود اصغر • ابدا انت ما مريود • انت منو ؟ »

صمت قليلا ، ثم قالت : —

« يمكن انت مريود • انت مريود وما مريود • زول وما
زول • انت لا أي زول ولا أي شيء • » ثم بكت وقالت : —
« خسارة • مريود مات • وانا يزوجوني بكري • ابدًا •
احسن انا كمان اموت ولا اتزوج بكري • »

بعد ذلك غفت وسكنت ، فحسبناها قد ذهبت عنا • لكنها
استيقظت فجأة ، وكان وجهها وكل ما بها ، ونحن واياها ، كأن
هو ادج أجاب أخذت ترحل • قالت : —

« سراع سراع • المواعيد جات • الوقت قرب • خلاص
انا بقيت للسفر • أحسن تتو ادع من هسّع • مع السلامة • مع
السلامة • أبقوا عشرة على رقتكم • والوليدات »

محجوب قبل خدها وهو يغالب الدموع فتغلبه • وانحنيت
عليها وقبلت جبهتها ، فتشبثت بي وطوقتني بذراعيها ، فأحسست
بها مثل سر عزيز ، مثل شيء عسير مستحيل • ذلك العطر • ذلك
الشباب • ذلك الحلم • دارت عجلة الزمان القهقري ، حتى توقفت
عند ليلة صيف قمرء ، ليست من ليالي هذا الزمان ولا هذه
الارض • وسمعت حس بكائي كأن احدا غيري يبكي الدموع التي
ظلت حبيسة كل تلك الاعوام • هذه حصتي من كل شيء • هذا
نصبي وارثي • مات عنها وتركها لي لتموت على صدري • لعلي
لهذا عدت •

كانت مثل طائر • رفعها محجوب من نعشها فشقق ضوء
المصاييح على حافة القبر ، وسمعت هبوب أمشير تنادينني بلسان
مريم « لا شيء • لا أحد • » خطا بها نحو القبر ، فاعترضت طريقه
ومددت يدي • نظر الي برهة ، ورأيت عينيه ترقان وتغوررقان ،
فتركها لي • كانت خفيفة مثل فرخ طائر وانا اسير بها في طريق
طويل يمتد من بلد الى بلد ومن سهل الى جبل • لم يكن حلما •
ابدا • كانت مريم نائمة على كتفي • سرت بها على ضفة نهر
الى وقت الضحى ، فأيقظها لفح الشمس على وجهها • انفلتت مني
وقفزت في الماء • كانت عارية • أشحت عنها ، ولكنني لم أطلق
صبرا فأدرت لها وجهي • نظرت ، فاذا هي في بركة من الضوء ،
وكان اشعة الشمس هجرت كل شيء وتعلقت بجسدها • كانت
تغطس وتقلع ، وتختفي هنا وتظهر هناك ، وتضحك لي من جهة
اليمن ، ثم اذا هي تنادينني من جهة اليسار • نعم • نعم • نعم •
أريد ان اغرق في نبع ذلك الضوء الذي ليس من اضواء هذا
الزمان ولا هذه الارض • لكنني ترددت ، ليس اكثر مما يطرف
جفن العين • في تلك اللحظة ، عاد الشعاع الى منبعه ، وذهب
الطيب ، لا أعلم الى أين • ناديت بأعلى صوتي « يا مريوم • يا
مريوم • » فعاد الصدى مجسما بالسنة شتى « يا مريود • يا
مريود • » ضربت دون هدى في صحراء عقبة تويوي ريحها
وتتهائل رمالها ، حتي بلغ اليأس واخذ مني الجهد • ثم اذا شجرة
طلح يلمع نوارها • تهالكت عندها • فجأة احسست بمريم • بعيد

المشاء او قبيل الفجر ، لا اعلم . لكنني اذكر ظلاما رهيفا وضوءا
ينسكب على وجهي من عينيها ، شربت منه حتى بلغ مني الظما
غايتها . قلت لها : -

« ألا أسير معك ؟ فاني الآن اقوى . »

قالت : « لا . انت تعود ادراجك وانا اسير من هنا
وحدي . »

قلت : « لكنني ... »

قالت : « انك لن تستطيع معي صبرا . فوراء هذه البيداء
جبال . ووراء الجبال بحر . ووراء البحر لاذا ولاذا . النداء لي
وحدي . أنت تعود وانا امضي . »

ثم أخذت رأسي ووضعت في حجرها ، وهددتني زمنا
بصوت كأنه ديب نمال في تلال رمال ، وقالت لي : -

« لا تبتس يا ضوء عيني فاني لن ابعده . سوف تراني
وتسمع صوتي . »

قلت وانا لست انا « هيهات . هيهات . »

حينئذ قبلتني بين عيني ، وابتسمت بكل جمال وجهها في
وجهي ، وقالت : -

« بلى بلى يا رمانة قلبي • اذا احتجتني فادعني فسوف
أجيء »

قلت : —

« هيهات • هيهات »

قالت : —

« ولكن عليك ان تصبر وتذعن »

قلت : —

« اذا اجعلي لي آية »

قالت : —

« آيتك ماء • آيتك ماء • ابدا تتلفت خلفك •
آيتك ان تظل يقظان الى آخر العهد • ستراني وسوف اعينك
قدر المستطاع • »

« فلاسر معك خطوات اقدمك • »

قالت : —

« لا يا تفاحة فؤادي • هنا مفترق الطرق وانه الوداع • »

عصر الحزن قلبي عصرا ، ولم أجد الدمع الذي أبرّده حر
جوفي لانها سلبتني نعمة البكاء •

قلت لها : —

« اذا زوديني • »

قالت : —

« لا »

قلت : —

« زوديني • »

قالت : — « لا »

قلت : —

« زوديني »

قالت : — « لا »

قلت : —

« زوديني • »

قالت : —

« واحسرتا عليك يا محبوبي • خير الزاد انا • وانتي
مفارتك من هنا • لا شبع لك من بعدي ولا ري ، ولا شفيح ولا
نجي • فاضرب حيث شئت ، وتزود ان استظعت واطلب النجاء •
الى ان تلقاني فأعطيك المن والسلوى • »

ثم ابعدت • وسمعت صوتها كأنه ينزل من السماء ، ويحيط
بي من النواحي كافة ، تطويه رياح وتنشره رياح : -

« يا مريود • انت لا شيء • انت لا احد يا مريود • انك
اخترت جدك وجدك اختارك جدك وجدك اختارك لانكما ارجح
في موازين اهل الدنيا • وابوك ارجح منك ومن جدك في ميزان
العدل • لقد أحب بلا ملل ، واعطى بلا أمل ، وحسا كما يحسو
الطائر ، واقام على سفر ، وفارق على عجل • حلم أحلام الضعفاء ،
وتزود من زاد الفقراء ، وراودته نفسه على المجد فزجرها ، ولما
نادته الحياة ... لما نادته الحياة ... »

قلت نعم • قلت نعم • قلت نعم • ولكن طريق العودة كان
أشق لانني كنت قد مشيت •

دومة ود حامد
سبع قمر

الاهداء

إلى أخي فتح الرحمن البشير

نخلة على الجدول

« يفتح الله ! ، ... »

« عشرون جنيهاً يا رجل ، لحل منها ما عليك من دين ،
وتصلح بها حالك . وغداً العبد ، وانت لم تشتري بعد كبش
الضحية ! واقسم لولا اني اريد مساعدتك ، فان هذه النخلة
لا تساوي عشرة جنيهاً . »

وقتل حمار حسين التاجر في وقفته . ولم يكن صاحبه قد
رجل عنه ، فانه لم يرد ان يظهر لشيخ محبوب تليفه على شراء
النخلة ذات البنات الخمس ، التي يسميها السودانيون في الشمال
« الاساق » ، وقد قامت وسطها النخلة الام ، ممشوقة
متفطرسة ، تتلاعب بفدائرها النسبات الباردة التي هبت من
الشمال تحمل قطرات من مياه النيل . ورأى الحمار الابيض
البدن حمارة اتى رعى عن بعد بين سيقان النرة . فتفق
نهيقاً اجشمت ممتداً ، ثم رفع رجله الخلفية اليسرى ووضعها ،
ورفع رجله الامامية اليمنى ووقف على حافة حافره ، وتشاغل
بخصل من نبات « السمدة » الريانة التي نمت على حافة الجدول ،

وكانه قد تبرم بهذه المساومة التي لم يكن من ورائها طائل .
والحق ان حسين التاجر ، بشيابه البيضاء الفضفاضة ، وعباءته
السوداء التي اشتراها في زيارة له للخرطوم ، وعباءته من
« الكرب » ، غمرة واحد ، وحذائه الاحمر الذي لم تخرج ايدي
صناع « المراكيب »^(١) ، في الفاشر اجود منه ، وحماره الابيض
البدن اللامع ، والسرج الاحمر المدهن ، والفرو البنية التي
تدلت وكادت تمس الارض ، كانت صورة مجسمة للكبراء
والفطوسة .

ولكن شيخ محبوب لم يجر جواباً ، وكان يبدو في وقفته
تلك كالمشده ، يروى الى افق بعيد متناه . ورويداً رويداً
خفت في اذنيه ضوضاء « اهل الخير » الذين تجمعوا ليتوسطوا
بين التاجر وشيخ محبوب ، وخفت صوت الساقية الحزين
المتصل .

ولف ضباب الذكريات معالم الاشياء الممتدة امام ناظري
شيخ محبوب . الناس والبهايم وغابة النخيل الكثة المتلاصقة ،
واسواض النيرة الناضجة التي لم تمحص بعد ، والاحواض الجرداء
العارية قطعت منها النيرة ، ومرحت على بقاياها قطعان الضأن
والماعز . كل ذلك تحول الى اشباح يتراقص في وسطها جريد
لخة محبوب . وفي أقل من لحظة الطرف استعرض الرجل
حاضره . أجل ، غداً عبد الاضحى حين يخرج الناس مع
شروق الشمس في ثيابهم النظيفة الجديدة ، ويصلون مجتمعين

^(١) هي الأحذية السودانية الشعبية ..

على مقربة من ضريح الشيخ صالح . وإذ يعودون إلى بيوتهم تنضح وجوههم بالبشر والسعادة ، وتسيل دماء الاضاحي ، ويقبل الأضياف ويخرجون ، ويتردد في الحي صدى ضحكاتهم اما هو ... اما بيته ... ؟ انه لا يملك ثوباً نظيفاً يخرج به إلى الصلاة ، وليس عند زوجته غير « ثوب زراق » اشتراه لها قبل شهرين نال منه البلى وتراكت عليه الأوساخ . اما ابنته خديجة فقد كادت تفتت قلبه ببكاؤها من أجل ثوب جديد تعرضه على لداتها وتعيّد به مع صاحباتها . ومن أين له جنهيات ثلاثة يشتري بها خروفاً يضحى به ؟

وتتم شيخ محجوب في صوت لا يكاد يسمع ، شيء يشبه التوسل والابتهاال : « يفتح الله » وزم شفّيته في عصبية ، وعاد بعقله خمسة وعشرين عاماً إلى الورا . الا ما أعجب تقلبات هذا الزمن ! لقد كان يومئذ شاباً قوياً أعزب لم يبلغ الثلاثين بعد ، يعمل في ساقية أبيه مقابل كسوته وشرابه . فلم يكن يحتاج إلى المال ، ولم يكن يعرف له قيمة . وفي ذات صباح مشرق من أصباح الصيف ، مر بابن عمه اسماعيل ، وكان الأخير منهمكاً يقطع الشتل لينغرسه في أماكن أخرى من أرض الساقية . ووقع نظر محجوب على شتلة صغيرة رماها اسماعيل بعيداً ، على انها خالية من « الأضراس » لا تصلح . فالتقطها محجوب ونفض عنها التراب ، وقال لابن عمه ضاحكاً : باكر تشوف دي تبقى قرة زي العجب . . وتبسم اسماعيل في سخرية ، واستغرق في عمله . وعلى حافة الجدول قريباً من

الساقية ، شق محجوب حفرة صغيرة وضع فيها « النخيلة »
وواراها التراب وفتح لها الماء بعد أن تلا آيات من القرآن
وردد في شيء من الخشوع . « بسم الله ، ما شاء الله ، لا حول
ولا قوة الا بالله » ، مثلما يفعل أبوه كلما غرس شتلة أو حصد
نبتاً . ولم ينسَ أن يصب في الحفرة قليلاً من ماء الابريق الذي
يتوضأ به أبوه تيمناً وتبركا .

وانزل محجوب غصّة صعدت في حلقه ، ثم مرر أصابع
يده النخيلة المعروقة بين شعيرات لحيته المتفرقة . الا ما كان
ابرك ذلك العام ! بعد ستة أشهر فقط من غرسه « النخيلة »
تزوج من ابنة عمه ، ولم يكن يملك من مال الدنيا شروى نقيير .
ولا هو يدري إلى الآن كيف تمت المعجزة . انه لم يكن يظن
أبداً انه سيتزوج في يوم من الأيام ، هو الذي عاش أيام صباه
منبوذاً محتقراً من أهله محفوا من الحسان ، يتهمه كل أحد بالغباء
والخيبة . وطالما ترنم وهو يخوض الماء في لذعة البرد ، عاري
الرأس ، عاري الصدر :

« الدنيا بتسبينك والزمان يُوريك »

وقلّ المال يفرّكك من بنات وادبك ،
غير انه تزوج ، ولبس حريرة العرس ، وتمسح بالدلكة ،
 ووضع على رأسه « الضريبة » ، وأحاطت به الصبايا يهزجن
بالأغاني . ولكم شعر بالعظمة والكبرياء وقتها . كل ذلك بعد
غرسه النخلة بستة أشهر . وفي العام التالي ولدت زوجته بنتاً
اسماها آمنة تيمناً بمقدمها ، ووفاء لذكرى جدته التي كانت

تعطف عليه من بين اهل جميعاً. وحينما وصل به تيار الذكريات الى مولد آمنة ، تفرق في عينيه الدمع . ابن الآن آمنة ؟ انها زوجة لابن اخته ، الذي حملها الى اقاصي الصعيد في الجزيرة ، وقد كانت تهره وتعطف عليه .

ليت حسناً كان مثلها عطوفاً باراً . حسن ! وعرض الرجل على شفته السفلى بعنف حتى كاد يفرس اسنانه في لحمها المتهدل . حسن ابنه الوحيد ، سافر قبل خمسة أعوام إلى مصر ، ومن وقتها لم يرسل لهم حتى خطاباً واحداً يطمئنهم فيه عن صحته . لقد حاول الرجل جاهداً أن ينسأه ، ويمحوه من ذاكرته ، ويعده من الأموات . وكانت زوجته تبكي كلما ردد محبوب في صوت حزين متهدج بيت الدوبيت الذي كان له خير سلوى ، كلما جاشت بنفسه الذكرى ، وكلما تمثل ابنه طفلاً صغيراً حلواً يبول في حجره ، ثم صبيّاً يساعده في أعمال الساقية ، ثم شاباً يافعاً يشب عن الطوق ، ويهجر الأهل والدار ، وينسى حقوق الابوة ، ولا يسأل عن الاحياء ولا الأموات . أجل والله - « الزول ان أباك خليه واقنع منه ، وكَمْ لله من دفن الجنى وفات منه » .

وكان القدر أراد أن ينسيهم كل شيء يربطهم بحسن ، فرمى آخر ما في جمعته من سهام قاسية مسمومة ظل يسدها منذ عامين ، تباعاً ودون توقف . وأصاب السهم الأخير النجمة « البرقاء » التي ربها حسن ، وجمع لها الحشيش وأثرعها طعامه وأنامها في فراشه . ماتت وما عادت تشغو في بكرة

الصباح حين كان حسن يقفز نشيطاً خفيفاً من فراشه فيطعمها ويسقيها ويأخذها معه إلى الساقية ، ترعى وتمرح وتلتف الزرع ريثما يفرغ هو من عمله . ماتت ، وكذلك اجتاح المحل والقحط كل القطيع الذي رباه شيخ محبوب .

ثم رغرر طائف من السعادة على الوجه الحشن الجمعد ، وجه محبوب . وغابت المرارة التي أحدثها ذكر حسن عندما تذكر الرجل قطيع الضأن الذي رباه في ذات العام الذي شهد مولد آمنة . قطيع كامل من نعمة واحدة اشتراها بما تجمع عنده من ثمن حيضان البصل . كان يعاملها كما يعامل أبناءه ، يحلب لبنها بنفسه ويكوم القش في مراوحها ويفك لها صفارها ويلبث الساعة والساعتين يداعبها وينظف وبرها ، وتغمره السعادة وهو يشاهدها تناغي صفارها وتشرب الماء المخلوط بالدريش ، وتتناطح فيما بينها . كان يطلق عليها الاسماء كما يسمي الناس أطفالهم ، يعرف كل واحدة منها بسميها . ذات الذيل الأبيض ، وذات البقعة السوداء على أم الظهر الظهر كسرج الدابة ، والخروف ذو القرن المكسور ، والخروف ذو القرون الملتوية . وبعد عامين من زواجه اشترى عجلة صغيرة عجفاء والاهاسبر باله والحبوب حتى استوت بقرة جميلة كحبة العينين لها غرة في جبينها تجر الساقية وتدر اللبن . وفي أثناء ذلك أثمرت نخلة الجدول ، أول شيء يمتلكه في حياته . وسارت الحياة رغداً كأنما استجاب الله دعاءه يوم شق في الأرض على حافة الجدول وغرس النخلة . لقد استغنى عن

أبيه ، وبنى لنفسه بيتاً يؤويه مع عائلته ، وصار ثرياً يمد المال مثل أي تاجر ، يجلس في السوق منتصباً تملأه الثقة أمام كوم الذرة ، يكيل منه للمشتريين وينتهر زملاءه غير هياب ولا مكترث . وصار يلبس النظيف ، ويأكل الطيب ، وينام على الفراش اللين ، ويتدفد في برد الشتاء ببطانية ثقيلة من الصوف اتفق فيها جنهين . وحينما كان الناس يتبرعون في الأعراس بخمسة قروش كان يتبرع هو بمشرة ، وبزجاجة مليئة من سمن الضأن النقي ، وكيلة من أجود أنواع التمر « القنديل » ، حتى لقب بالظريف بعد أن كان يلقب بالغبى . ولولا تعلقه بزوجته لتزوج بنتاً بكرًا يتهافت عليها خيرة شبان البلد .

كل هذا عفتى على آثاره الزمن . لقد مات الزرع ، وببس الضرع ، وعم القحط فأغرق الرخاء ، وحبا الشيب فطفا على الشباب ، وكان النيل يفيض بين ضفتيه زاخراً مواراً ، يسقي الأرض ويخرج ما في باطنها من الخير ، فما عاد يفيض إلا بحساب ومقدار . اتراها الخزانات التي أقاموها عليه فحجرت الماء ؟ أم تراها نبوءة الشيخ ود دوليب تحققت ؟ لقد أُنذر الناس في يوم من الأيام انه سيأتي عليهم يوم ، يصير فيه اللبن كثيراً نافهاً مثل الماء ، وتصير كيلة الذرة بقرشين ، ويصبح ثمن النعجة ريالين . ولكن الناس كدأبهم أبداً سيضيعون بهذا الخير ، وسينهمكون في النسي وينسون الله ، فيأخذهم الله بذنوبهم . وفكر شيخ محبوب برهة ، وحدث نفسه بأنه لم

يرتكب كثيراً من المعاصي . صحيح أنه كان يشرب الخمر أحياناً ويرقص في الأعراس ويخالس الحسان النظر على غفلة من أم حسن . ولكنه لم يؤخر فرضاً ولم يهتك عرضاً ولم يفعل شيئاً من هذه المعاصي التي يقول فقهاء القرية إنها كبائر تغضب الله . لا بد أنه الكبر الذي فت من عضده وأرغى من مفاصله ، فما عاد يحتمل لدعة البرد ولا قائظ الحر . ولم يكن حريصاً على ما عنده من خير ، فبدده أولاً بأول . وفي غمرة أتعابه ومرير شيخوخته هجره ابنه حسن ، وهو أحوج ما يكون إلى ساعده الفتي . وهكذا ظل محبوب يكابد الفاقة وحده ، فاستدان ورهن وباع . وليس عنده اليوم من مال الدنيا إلا بقرة واحدة وعزتان وهذه النخلة التي ظل جاهداً يحاول استبقاها .

وقطع عليه ذكرياته نهيق حمار التاجر ، وصوت صاحب المحار وهو يقول له : يا راجل انت ساكت زي الأبلة مالك ؟ ما تدينا كلمة واحدة خرينا نمشي ؟ ، وكان رمضان قد جاء من طرف الساقية ، وقال لمحبوب ان عشرين جنينها ثمن معقول ، خاصة وهو أحوج ما يكون إلى المال . وفكر الرجل برهة متردداً بين الرفض والقبول . عشرون جنيناً يستطيع أن يحل منها دينه ، ويشترى ضحية العيد ، ويكسو نفسه وأهل بيته . ولكن ربحاً قوية هبت تتلاعب بحريد النخلة ، فأخذ يوشوش ويتعارك ويتلاطم كغريق يطلب النجاة . وبدت النخلة لمحبوب في وقفها تلك رائحة أجمل من

أي شيء في الوجود . وهما قلبه لابنه في مصر . ترى هل يحسن لنداء الرحم ؟ هل تؤثر في قلبه الدعوات التي أرسلها محجوب في هدأة الليل ، وأحس الرجل بفيض من الأمل يملأ كيانه ويطنني على إحساسه ، وترقرق في عينه دمع حبسه جاهداً ، وتتم : « يفتح الله . أنا تمرقي ما ببينها » . وردد الرجل في نفسه : « يفتح الله » ، وقاده ذلك إلى التفكير في سورة الفتح من القرآن الكريم - « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً » - الفاتحة - الفرج . وأحس لأول مرة بأن في عبارة « يفتح الله » شيئاً أكثر من كلمة تنهي بها المبايعة ، وتقف الباب في وجه من يريد الشراء . انها مفتاح لمن أعسره الضيق وأمضه البؤس وأثقلت كاهله أعباء الحياة . وما كان أحوج محجوب إلى الفتح والفرج حينئذ .

وجذب التاجر عنان حماره في صلف ، ثم همز بطن الحمار بكعب رجله ، وقال في صوت بارد كوقع الصوت : « يفتح الله ، يفتح الله ، باكر بتجي تدور الدين » .

وقبل أن ينطلق الحمار بعيداً أبصر محجوب ابنته الصغيرة تهول نحوه مضطربة فرحة . فتحرك في قلبه أمل بدأ عسيراً مستحيلاً أبعد عنه . ولم ينتظر الطفلة ريثما تصل ، بل أسرع نحوها يسألها عن الخبر : (شنو ؟ مالك ؟) وحاولت الصبية أن تفض إليه النبأ بصوت متكسر الشغ : (الناس ... دالو ودست البنات دا من مسر ... وداب لنا معاه دواب من حسن اخوي) .

جواب من حسن ؟ وانطلق الرجل كالمجنون لا يفكر

ولا يعني بنبض قلبه معربداً - بين جنبيه . يطغى الأمل بين
حناياه مرة على اليأس ، ويفيض اليأس تارة فيفرق الأمل .
وابنته الصغيرة تمسك بطرف ثوبه المتسخ ، تسرع جاهدة
لكي تمشي معه ، وهي أثناء ذلك تتباكى محتجة على خطوات
أبيها المسرعة .

وفي بيت (ناس ست البنات) انتظر محجوب بين
صفوف المستقبلين . وفي غمرة اضطرابه لم يفت عينه المستطلعة
رجال يعرفهم جاؤوا يسألون عن أبنائهم وأقاربهم ونسوة
يعرفهن جئن يسألن عن ازواجهن وابنائهن . كلهم آمال مثل
آماله ، تجاذب اليأس ويغالبها اليأس . ولم تخطيء عينه الشاب
الذي عاد من مصر ، ودست البنات يرتدي ملابس نظيفة
ككل عائد من السفر ، ويتكلم لهجة غريبة على شيخ
محجوب ، بادي الثقة بادي الكبرياء . وأخيراً لمح الشاب
شيخ محجوب بين المستقبلين فدلف نحوه مبتسماً . وشعر
الرجل بالضيق والخرج ، إذ تحولت كل الأبصار نحوه .
ولم يع شيخ محجوب من كلام محدثه إلا (حسن مبسوط -
قال لك تعفي عنه . أرسل لك ثلاثين جنيه وطرده ملابس) .
وفي الطريق إلى بيته تحسس الرجل رزمة المال التي صراها
جيداً في طرف ثوبه ، ثم غرس أصابعه في الطرد السمين تحت
إبطه ، وانحدر طرفه من على غابة النخل الكثيفة
المتدة عند أسفل البيوت ، وتميز في وسطها نخلة ، مشوقة
متفطرة جميلة تتلاعب بجريدها نسبات الشمال . وخيل إليه
أن سمف النخلة يرتجف مسبحاً : (يفتح الله ، يفتح الله) .

حفنة تَمْر

لا بد انني كنت صغيراً جداً حينذاك . لست اذكر كم كان عمري تماماً ، ولكنني اذكر أن الناس حين كانوا يرونني مع جدي كانوا يربتون على رأسي ، ويقرصونني في خدي ، ولم يكونوا يفعلون ذلك مع جدي . العجيب انني لم أكن أخرج أبداً مع ابي ، ولكن جدي كان يأخذني معه حينما ذهب ، إلا في الصباح حين كنت أذهب إلى المسجد ، لحفظ القرآن . المسجد والنهر والحقل ، هذه كانت معالم حياتنا . أغلب أندادي كانوا يتبرمون بالمسجد وحفظ القرآن ولكنني كنت أحب الذهاب إلى المسجد . لا بد أن السبب انني كنت سريع الحفظ ، وكان الشيخ يطلب مني دائماً أن أقف وأقرأ سورة الرحمن ، كلما جاء زائر . وكان الزوار يربتون على خدي ورأسي ، تماماً كما كانوا يفعلون حين يرونني مع جدي . نعم كنت احب المسجد . وكنت أيضاً أحب النهر . حالما تفرغ من قراءتنا وقت الضحى ، كنت أرمي لوعي الحشبي ، واجري كالجن إلى أمي ، والتهم

إقطاري بسرعة شديدة واجري إلى النهر وأغمس نفسي فيه .
وحين أكلُ من السباحة ، كنت أجلس على الحافة . واثأمل
الشاطيء الذي ينحني في الشرق ويختبئ وراء غابة كثيفة من
شجر الطلح . كنت أحب ذلك . كنت اسرح بخيالي وأتصور
قبيلة من العمالقة يعيشون وراء تلك الغابة ... قوم طوال
فعال لهم لحى بيضاء وأنوف حادة مثل أنف جدي .
أنف جدي كان كبيراً حاداً . قبل أن يجيب جدي على
أسئلتى الكثيرة ، كان دائماً يحك طرف أنفه بسبابته .
ولحية جدي كانت غزيرة ناعمة بيضاء كالقطن . لم أرَ في
حياتي بياضاً انصع ولا اجمل من بياض لحية جدي . ولا بد
أن جدي كان فارع الطول ، إذا انني لم أرَ احداً في سائر
البلد يكلم جدي إلا وهو يتطلع إليه من اسفل ، ولم ارَ جدي
يدخل بيتاً إلا وكان ينحني الخنساء كبيرة تذكرني بالحناء
النهر وراء غابة الطلح . كان جدي طويلاً ونحيفاً وكنت احبه
واتحيل نفسي ، حين استوي رجلاً ، اذرع الأرض مثله في
خطوات واسعة . واطن جدي كان يؤثري دون بقية احفاده .
ولست الومه ، فأولاد اعمامي كانوا اغبياء وكنت انا طفلاً
ذكياً . هكذا قالوا لي . كنت اعرف متى يريدني جدي ان
اضحك ومتى يريدني ان اسكت ، وكنت اتذكر مواعيد
صلاته ، فاحضر له المصلاة ، واملأ له الابريق قبل ان
يطلب ذلك مني . كان يلذ له في ساعات راحته ان يستمع اليّ
اقرأ له من القرآن بصوت منغم ، وكنت اعرف من وجه

جدي انه ايضاً كان يطرب له . سأله ذات يوم عن جارنا مسعود . قلت لجدي : (اظنك لا تحب جارنا مسعود ؟) فاجاب بعد ان حك طرف انفه بسبابته : (لانه رجل خامل وانا لا احب الرجل الخامل) . قلت له : وما الرجل الخامل ؟ (فاطرق جدي برهة ثم قال لي : (انظر الى هذا الحقل الواسع . ألا تراه يمتد من طرف الصحراء الى حافة النيل مائة فدان ؟ هذا النخل الكثير هل تراه ؟ وهذا الشجر؟ سنط وطلع وسيال . كل هذا كان حلالاً بارداً لمسعود ، ورثه عن أبيه) . وانتهزت الصمت الذي نزل على جدي ، فحولت نظري عن لحيته وادرت في الارض الواسعة التي حددها لي بكلماته . (لست ابالي من يملك هذا النخل ولا ذلك الشجر ولا هذه الارض السوداء المشققة . كل ما اعرفه انها مسرح احلامي ومرتع ساعات فراغي) . بدأ جدي يواصل الحديث : (نعم يا بني . كانت كلها قبل اربعين عاماً ملكاً لمسعود . ثلثاها الآن لي انا) . كانت هذه حقيقة مثيرة بالنسبة لي ، فقد كنت احسب الارض ملكاً لجدي منذ خلق الله الارض . (ولم اكن املك فداناً واحداً حين وطئت قدماي هذا البلد . وكان مسعود يملك كل هذا الخير . ولكن الحال انقلب الآن ، واطنني قبل ان يتوفاني الله سأشتري الثلث الباقي ايضاً) . لست ادري لماذا احسست بخوف من كلمات جدي . وشعرت بالعطف على جارنا مسعود . ليت جدي لا يفعل ! وتذكرت غناء مسعود وصوته الجميل وضحكته القوية التي تشبه صوت

الماء المدلوق . جدي لم يكن يضعك أبداً . وسألت جدي لماذا باع مسعود ارضه ؟ (النساء) . وشعرت من نطق جدي للكلمة ان (النساء) شيء فظيع . (مسعود يا بني رجل مزواج كل مرة تزوج امرأة باع لي فدناً او فدانين) . وبسرعة حسبت في ذهني ان مسعود لا بد ان تزوج تسعين امرأة ، وتذكرت زوجاته الثلاث وحاله المبهدل وحمارته العرجاء وسرجه المكسور وجلبابه الممزق الايدي . وكدت اتخلص من الذكرى التي جاشت في خاطري ، لولا انني رأيت الرجل قادماً نحونا ، فنظرت الى جدي ونظر اليّ . وقال مسعود : « سنحصد التمر اليوم ، ألا تريد أن تحضر ؟ » وأحسست انه لا يريد جدي ان يحضر بالفعل . ولكن جدي هب واقفاً ، ورأيت عينه تلمع برهة ببريق شديد ، وشدني من يدي وذهبنا الى حصاد تمر مسعود . وجاء أحد لجدي بقمع عليه فروة ثور . جلس جدي وظللت أنا واقفاً . كانوا خلقاً كثيراً . كنت أعرفهم كلهم ، ولكنني لسبب ما أخذت أراقب مسعوداً . كان واقفاً بعيداً عن ذلك الحشد كأن الأمر لا يعنيه ، مع ان النخل الذي يحصد كان نخله هو ، وأحياناً يلفت نظره صوت سبيطة ضخمة من التمر وهي تهوي من عل . ومرة صاح بالصبي الذي استوى فوق قمة النخلة ، وأخذ يقطع السبيط بمنجله الطويل الحاد ، « حاذر لا تقطع قلب النخلة » . ولم يذنبه أحد لما قال ، واستمر الصبي الجالس فوق قمة النخلة يعمل منجله في العرجون بسرعة ونشاط ،

واخذ السبط يهوي كشيء ينزل من السماء . ولكنني انا اخذت
افكر في قول مسعود : « قلب النخلة » وتصورت النخلة شيئاً
يحص له قلب ينبض . وتذكرت قول مسعود لي مرة حين
رأني اعبث بحريد نخلة صغيرة : « النخل يا بني كالادميين
يفرح ويتألم » . وشمرت بحياء داخلي لم أجده سبباً .
ولما نظرت مرة أخرى إلى الساحة الممتدة أمامي رأيت
رفاقي الأطفال يوجون كالنمل تحت جذوع النخل يجمعون
التمر ويأكلون اكثره . واجتمع التمر اكواماً عالية .
ثم رأيت قوماً أقبلوا واخذوا يكيلونه بمكايل ويصبونه في
أكياس . وعددت منها ثلاثين كيساً . وانفض الجمع عدا
حسين التاجر وموسى صاحب الحقل المجاور لحقلنا من
الشرق ، ورجلين غربيين لم أرهما من قبل . وسمعت صغيراً
خافتاً ، فالتفت فاذا جدي قد نام ، ونظرت فإذا مسعود
لم يغير وقفته ولكنه وضع عوداً من القصب في فمه وأخذ
يمضغه مثل شخص شبع من الأكل وبقيت في فمه لقمة واحدة
لا يدري ماذا يفعل بها . وفجأة استيقظ جدي وهب واقفاً
ومضى نحو أكياس التمر وتبعه حسين التاجر وموسى صاحب
الحقل المجاور لحقلنا والرجلان الغربيان . وسرت انا وراء جدي
ونظرت إلى مسعود فرأيت به بدلف نحونا ببطء شديد كرجل
يريد أن يرجع ولكن قدميه تريد ان تسير إلى أمام . وتحلقوا
كلهم حول أكياس التمر واخذوا يفحصونه وبعضهم اخذ منه
حبة او حبتين فأكلها . واعطاني جدي قبضة من التمر فاخذت
امضغه . ورأيت مسعوداً يملأ راحته من التمر ويقربه من أنفه

وبشمه طويلاً ثم يعيده إلى مكانه . ورأيتهم يتقاسمون . حسين
التاجر أخذ عشرة أكياس ، والرجلان الغريبان كل منهما أخذ
خمس أكياس . وموسى صاحب الحقل المأجور لحقنا من ناحية
الشرق أخذ خمس أكياس ، وجدي أخذ خمس أكياس . ولم
أفهم شيئاً . ونظرت إلى مسعود فرأيت زائغ العينين تجري
عيناه شمالاً ويمناً كأنها فأران صغيران ظاهراً عن جحرهما .
وقال جدي لمسعود : ما زلت مدينياً لي بخمسين جنبها
نتحدث عنها فيما بعد ، ونادى حسين صبيانه فجاءوا بالحير ،
والرجلان الغريبان جاءا بخمسة جمال . ووضعت أكياس التمر
على الحير والجمال . ونهق أحد الحير وأخذ الجمل يرغب ويصيح .
وشعرت بنفسى أقرب من مسعود . وشعرت بيدي تمتد إليه
كأنى أردت أن المس طرف ثوبه . وسمعت يتحدث صوتاً في
حلقه مثل شخير الجمل حين يذبح . ولست أدري السبب
ولكنني أحسست بألم حاد في صدري . وعدوت مبتعداً .
شعرت انني أكره جدي في تلك اللحظة . وأسرعت العدو
كأنى أحمل في داخل صدري سرا أود أن أتخلص منه .
ووصلت إلى حافة النهر قريباً من منعناه وراء غابة الطلح .
ولست أعرف السبب ، ولكنني أدخلت أصبعي في حلقي
وتقيأت التمر الذي أكلت .

رسالة إلى إيلين

عزيزتي إيلين ،

الآن أنتهيت من فض حقائي . أنت عظيمة ولست أدري
ماذا أفعل بدونك . كل شيء يلزمي وضعتي في الحقائق .
تسعة قمصان « فان هوسن » ثلاثة منها لا تحتاج للكي .
« أغسلها ونشفها والبسها » . وأنت تعلمين انني لن أفعل شيئاً
من هذا القبيل . ربطت العنق التي اشتريتها لي في العام الماضي
في بوند ستريت ، وجدتها مع خمس كرافتات أخرى .
« خمس كرافتات تكفيك . أنت لن تخرج كثيراً ولن يدعوك
أحد لحفلة . وإذا دعيت فلا تذهب » . كم أحببتك لأنك
لم تنسي أن تضعي في حقائي هذه الربطة ... ربطت عنق
قرمزية اللون ، واحدة من ملايين الأشياء الصغيرة التي تشد
قلبي إليك ... في مثل هذا الوقت من العام الماضي ،
بعد ثمانية أشهر من معرفتي إياك ، في القطار الذي يسير تحت
الأرض ، الساعة السادسة والناس مزدحمون ، ونحن واقفان
وأنت متكئة عليّ ، فجأة قلت لك : « انني أحبك » . أريد

أن أتزوجك ، . احمرّ خداك والتفت الناس إلينا . طيلة
ثمانية أشهر عرفتك فيها لم أقل لك أنني أحبك . كنت أتهرب
وأداري وأزوغ . ثم فجأة وسط الزحام ، في الساعة السادسة
مساء ، حين يعود الناس التعبين مرهقين إلى بيوتهم بعد عمل
شاق طيلة اليوم ، فجأة خرجت الكلمة المحرمة من فمي وكأنني
محموم يهذي . لا أعلم أي شيطان حرك لساني ، أي تأثير
أثارني ، ولكنني شعرت بسعادة عظيمة ، في تلك الساعة ،
في ذلك الجو الخائق ، بين تلك الوجوه الكالحة المكدودة
التي أختفت وراء صحف المساء . ولما خرجنا ضغطت على
يدي بشدة ، ورأيت في عينيك طيفاً من دموع ، وقلت لي:
« انك مهووس . أنت أهوس رجل على وجه البسيطة .
ولكنني أحبك . إذا رأيت أن تتزوجيني فأنت وشأنك » .
ثمانية أشهر وأنا أتهرب وأحاور وأحاضر . أحاضر في
الفوارق التي تفرقنا . الدين والبلد والجنس . أنت من
ابردن في سكتلندا وأنا من الخرطوم . أنت مسيحية وأنا
مسلم . أنت صغيرة مرحة متفائلة ، وأنا قلبي فيه جروح بعد
لم تندمل . أي شيء حببني فيك ؟ أنت شقراء زرقاء العينين
بمثلة الجسم ، تحبين السباحة ولعب التنس ، وأنا طول عمري
أحن إلى فتاة سمراء ، واسعة العيون ، سوداء الشعر ،
شرقية السمات ، عادية الحركة . أي شيء حببك فيّ ،
أنا الضائع الغريب ، أحل في قلبي هموم جيل بأسره ؟
أنا المغرور القلق المتقلب المزاج ؟ « لا تتعب عقلك في تفسير

كل شيء . أنت حصان هرم من بلد متأخر ، وقد أراد القدر أن يصيبني بجبك . هذا كل ما في الأمر . تذكر قول شيكسبير . كيوبيد طفل عفريت . ومن عفرتة أنه أصاب قلبي بحب طامة كبيرة . مثلك . وتضحكين ، ويقع شعرك الذهبي على وجهك فتردينه بيدك ، ثم تضحكين ضحكتك التي تحاكي رنين الفضة . وذهبننا إلى مطعم صيني واحتفلنا ، وكنت نسيت أن اليوم هو يوم ميلادي . أنا لا أحفل بأمسي ولا بيومي وأنت تحفلين بكل شيء . أنت تذكرت ، فأحضرت ربطة العنق القرمزية هذه . كم أحبك لأنك وضعتها بين متاعي .

عزيزتي إيلين ،

هذه هي الليلة الأولى بدونك ... منذ عام . منذ عام كامل . ثلاثمائة وخمس وستون ليلة ، وأنت تشاركينني فراشي ، تنامين على ذراعي ، تختلط أنفاسنا وعطر أجسادنا ، تحلمين أحلامي ، تقرأين أفكاري ، تحضرين أفطاري ، نستحم معاً في حمام واحد ، نستعمل فرشاة أسنان واحدة ، تقرأين الكتاب وتخبريني بمحتواه فأكتفي بك فلا أقرأه . تزوجتني ، تزوجت شرقاً مضطرباً على مفترق الطرق ، تزوجت شمساً قاسية الشعاع ، تزوجت فكراً فوضوي ، وآمالاً ظمأى كصحاري قومي . الليلة الأولى عداك يا طفلة من ابردين - وضعتها الأقدار في طريقي . تبينتك وأخيتني . « يا أختاه . يا أختاه » . البذلة الرمادية التي تؤثرينها -

« ثلاث بدل أكثر من الكفاية . رجل متزوج يقضي شهراً
مع أهله لن يحفل بك أحد ، ولن تهتم بك صبايا بلدك ،
ولا حاجة بك الى هندمة نفسك والاعتناء بشكلك . ومها
يكن فان شكلك لا تجدي معه هندمة . اذهب وعد ألي
سليماً : إذا ضحكت لك منهن فتاة فكشر في وجهها ، .
اطمئني فلن تضحك لي فتاة . أنا في حساين كنخلة على
الشاطي، اقتلها التيار وجرفها بعيداً عن منبتها . أنا في
حساين تجارة كسدت . لكن ما أحلى الكساد معك .
الليلة الأولى بدونك . وبعدها ليالي ثلاثون كمفازة ليس
لها آخر . سأجلس على صخرة قبالة دارنا وأتحدث إليك .
أنا واثق أنك تسمعينني . أنا واثق ان الرياح والكهرباء التي
في الأثير والهواجس التي تهجس في الكون ، ستعرف آذانها ،
وستحمل حديثي إليك . موجات هوج من قلبي ، تستقبلها
محطة في قلبك . حين تنامي مدتي ذراعك حيث أضع رأسي
على الوسادة ، فاني هناك معك . حين تستيقظين قولي
« صباح الخير » فاني سأسمع وأرد . أجل سأسمع . أنا الآن
أسمع صوتك المذب الواضح تقولين لي : « اسعد في عطلتك
ولكن لا تسعد أكثر مما يجب . تذكر انني هنا أنضوى
وأنظرك . ستكون مع أهلك فلا تنس انك برحيلك ستتركني
بلا أهل ، .

أتم الخطاب وثناه أربع ثنيات ووضعه في الغلاف ، ثم كتب
العنوان . ورفعه بين أصبعيه وتمعنه طويلاً في صمت كأن فيه

سرّاً عظيماً . نادى اخاه الصغير وأمره بالقائه في البريد . مرت
بعد ذلك مدة لم يعرف حسابها ، لعلها طالت أو قصرت ،
وهو جالس حيث هو لا يسمع ولا يرى شيئاً . وفجأة سمع
ضحكة عالية تتناهى اليه من الجناح الشمالي في البيت . ضحكة
أمه . واتضح لأذنيه اللفظ ، لفظ النساء اللاتي جئن هنئن
أمه بوصوله سالماً من البلد البعيد . كلهن قريباته . فيهن العمّة
والخالّة وأبنة العم وأبنة الخاله . وظل كذلك برهة . ثم جاء
أبوه ومعه حشد من الرجال . كلهم اقرباؤه . سلموا عليه
وجلسوا . جلي بالقهوة والشاي وعصير البرتقال وعصير
الليمون . شيء يشبه الاحتفال . سأله أسئلة رد عليها ، ثم
بدأوا في حديثهم الذي ظلوا يتحدثونه طول حياتهم . وشر
في قلبه بالامتنان لهم أنهم تركوه وشأنه . وفجأة تضخمت في
ذهنه فكرة أرتاع لها . هؤلاء القوم قومه . قبيلة ضخمة هو
فرد منها . ومع ذلك فهم غرباء عنه . هو غريب بينهم .
قبل أعوام كان خلية حيّة في جسم القبيلة المترابط . كان يغيب
فيخالف فراغاً لا يمتلىء حتى يعود . وحين يعود يضافحه أبوه
ببساطة وتضحك أمه كمعادتها ويمامله ببقية أهله بلا كلفة طوال
الأيام التي غابها . أما الآن .. أبوه أحتضنه بقوة وأمه
ذرفت الدموع وبقية أهله بالغوا في الترحيب به . هذه المبالغة
هي التي أزعجته . كأن احساسهم الطبيعي قد فتر فدعموه
بالمبالغة .

« طويل الجرح يغري بالتناسي » .

وسمع صوت ايلين واضحا عذبا تقول له وهي تودعه :
« أرجو من كل قلبي أن تجد أهلك كما تركتهم ، لم يتغيروا .
أهم من ذلك من أن تكون أنت لم تتغير نحوهم » .
آه منك يا زمان الزوج !



دومة ود حامد

لو جئت بلدنا سائحاً ، فأغلب الظن يا بنيّ انك لن تمكث فيها طويلاً . تجيئنا شتاء وقت لقاح النخل ، فتدري سحابة داكنة ربضت على البلد . ليس هذا يا بنيّ غباراً ولا هو بالضباب الذي يثور بعد وقوع المطر . هذا سرب واحد من أسراب (النَمْتَة) التي تربط على الداخلين إلينا أفواء الطرق . لعلك رأيت هذه الآفة من قبل . لكن هذا النوع منها احلف انك ما رأيته قط . هاك يا بنيّ هذه الشبكة من « التل » فضعها على رأسك . انها لن تقيك هذه الشياطين ، ولكنها تقويك على احتمالهم . اذكر صاحباً لابني يزامله في المدرسة ، استضافه عندنا قبل عام في مثل هذا الوقت . أهله من البندر ، بات عندنا ليلة ، وأصبح متورم الوجه محموماً مزكوماً . وحلف لا يبيت ليلة أخرى عندنا .

وتجيئنا صيفاً فتجد عندنا ذباب البقر - ذباب ضخيم كحملان الحريف ، كما نقول بلمجتنا . ومن هذا البلاء أهون

عليك « النعمة » ألف مرة . انه يا بني ذباب متمرس ، بعض
ويلسع ويطن ويزن ، وعنده حب عظيم لبني آدم ، إذا شم
رائحتهم لازمهم ملازمة . هش عنك يا بني - قاتل الله «النعمة» .
وتجيبنا في وقت ليس صيفاً ولا شتاء ، فلا تجحد شيئاً .
أنت ولا شك يا بني تقرأ الجرائد كل يوم ، وتسمع الاذاعات
وتزور السينما مرة أو مرتين في الاسبوع . إذا مرضت فمن
حقك أن تعالج في المستشفى ، وإذا كان لك ابن فمن حقه ان
يتعلم في المدرسة . أنا أعرف يا بني انك تكره الطرقات
المظلمة ، وتحب أن ترى ضوء الكهرباء يتوهج ليلاً . وأنت
لست شغوفاً بالمشي ، وركوب الجدير يحدث ندوباً في مقعدك .
يأليت يا بني ، يا ليت ... الطرقات المرصوفة في المدن .
المواصلات الحديثة .. العربات الجميلة المريحة . ليس عندنا من
كل هذا شيء .. نحن قوم نعيش على السر
سترحل عن بلدنا غداً ، أنا واثق من ذلك ، وحسناً تفعل ،
مالك ولهذا العناء ؟ نحن قوم جلودنا ثخينة ، ليست كجلود
سائر الناس . لقد اعتدنا هذه الحياة الخشنة ، بل نحن في
الواقع نجبها ، لكننا لا نطلب من أحد أن يحشم نفسه مشقة
الحياة عندنا . سترحل في غد يا بني - اني أعلم ذلك ولكن
قبل أن ترحل دعني أريك شيئاً واحداً - قل اننا نعتز به .
عندكم في المدن المتاحف - أماكن تحفظ تاريخ القطر والأجداد
السابقة . هذا الشيء الذي أحب أن أريكه ، قل انه متحف .
شيء واحد نصر ان يراه زوارنا .

مرة جاءتا واعظ ارسلته اليينا الحكومة ليقم عندنا شهراً .
وحلّ علينا في موسم لم يرَ ذباب البقر أسمن منه في ذلك
الموسم . تورّم وجه الرجل في اليوم الأول . وتصبّر وصلى بنا
صلاة العشاء في الليلة الثانية ، وحدثنا بعد الصلاة عن مباحج
الحياة في الفطرة . وفي اليوم الثالث أصابته حمى الملاريا ،
وأصابته الدسنتاريا وانسدت عيناه تماماً . زرته في عصر ذلك
اليوم فوجدته طريح الفراش ، يقف على رأسه غلام يهش عنه
الذباب . فقلت له : « يا شيخ ، ليس في بلدنا شيء نزيكه ،
ولكنني أحب أن ترى دومة ودحامد » . ولم يسألني ما دومة
ودحامد - وان كنت أرجح انه سمع بأمرها ، فمئذا الذي
لم يسمع بها ؟ - ولكنه رفع إليّ وجهاً كأنه رثة بقرة ذبيح ،
وكانت عيناه كما قلت لك مغلفتين ، ولكنني كنت أعلم أن
وراء أهدابها مرارة . وقال لي : « والله لو كانت دومتكم
هذي دومة الجندل ، وكنتم المسلمين تقاتلون مع علي ومعاوية ،
وكنت أنا حكماً بينكم في يديّ هاتين مصائركم ، ما تحرّكت
من مكاني هذا شبراً » . وبصق على الأرض كأنه يشتمني
وأشاح عني بوجهه . وسمعنا بعدها ان الشيخ أرسل برقية إلى
مرسليه يقول لهم فيها : « ذباب البقر أكل رقبتي ، والملاريا
حرقت جلدي ، والدسنتاريا غرست أسنانها في أحشائي .
أقبلوا عثرتي يرحمكم الله . هؤلاء قوم لا حاجة لهم بي ولا بواعظ
غيري » . ورحل الرجل ، ولم ترسل لنا الحكومة واعظاً
بعده . لكن قريتنا يا بنيّ شهدت والله رجالاً كباراً ذوي

حول وطول وأسماء في البلد مثل الطبول ، ما ظننا يوماً مجرد
ظن أنهم سيأتون إلى هنا - جاءوا والله أفواجاً أفواجا .
ها قد وصلنا .. تصبّر يا بنيّ - ماهي إلا ساعة وتهب
نسمة العصر ، فتخفف من تكالب هذه الآفة على وجهك .
هاهي ذي .. دومة ود حامد . انظر اليها شائخة برأسها
إلى السماء . انظر اليها ضاربة بعروقتها في الأرض . انظر إلى
جزعها المكتنز المتلىء كقامة المرأة البدينة ، وإلى الجريد في
أعلاها كأنه عرف المهر الجائحة . حين تميل الشمس وقت
العصر ، ترسل الدومة ظلها من هذه الربوة العالية عبر النهر ،
فيستظل به الجالس على الضفة الأخرى . وحين تصعد الشمس
وقت الضحى ، يمتد ظل الدومة فوق الأرض المزروعة
والبيوت حتى يصل إلى المقبرة . أتراها عقاباً خرافياً باسطاً
جناحيه على البلد بكل ما فيها ؟ قررت الحكومة مرة قطعها
عندما أرادوا أن ينظموا مشروعاً زراعياً ، وقالوا أن موضع
الدومة هذا هو خير موضع لاقامة مكنة الماء . أهل بلدنا كما
ترام منصرفون كل إلى همّ يومه ، ولا أذكر انهم ثاروا على
شيء قط . ولكنهم لما سمعوا بأمر قطع الدومة ، هبوا عن
آخرهم هبة رجل واحد ، وسدوا على مفتش المركز السبل .
كان ذلك في عهد الحكم الأجنبي . وأعانهم الذباب أيضاً ،
ذباب البقر . وعلا اللفظ من حول الرجل يقولون له إذا قطعتم
الدومة فانتنا سنحارب الحكومة حتى نموت عن آخرنا . وفعل
الذباب فعلة في وجه الرجل . فشنت أوراقه في الماء وسمعناه

يصيح : « خلاص .. في دومة .. ما فيش مشروع » . ولم تأتِ مكنة ماء ولم يأتِ مشروع ... ولكن بقيت لنا دومتنا .

هيا بنا يا بنيّ إلى البيت ، فليس هذا وقت الحديث خارج البيوت . هذا الوقت قبل المغيب بقليل ، وقت يتسع فيه نشاط جيش « النمة » قبل أن ينام . وفي هذا الوقت لا يقوى على لسمه إلا من عاشره عشرة طويلة ، وثخن جلده مثلنا . انظر إليها يا بنيّ - إلى الدومة - شاحخة آنفة متكبرة ، كأنها .. كأنها صنم قديم . أينما كنت في هذه البلدة تراها ... بل انك لتراها وأنت في رابع بلدة من هنا .

سترحل عن بلدنا غدا ، ما في ذلك شك ، هذي آثار الجولة الصغيرة التي قمنا بها بادية على وجهك ورقبتك ويدبك أيضاً . لكن قبل أن تذهب سأتم لك قصة الدومة ، دومة ود حامد . تفضل يا بنيّ . البيت بيتك .

تقول من زرع الدومة ؟

ما من أحد زرعها يا بنيّ . وهل الأرض التي نبتت فيها أرض زراعية ؟ ألم ترّ أنها حجرية مسطحة مرتفعة ارتفاعاً بيناً عن ضفة النهر كأنها قاعدة تمثال ، والنهر يتلوى تحتها كأنه ثعبان مقدس من آلهة المصريين القديمة ؟ لا يا بنيّ ، ما من أحد زرعها . اشرب الشاي يا بنيّ ، فأنت محتاج إليه بعد الهنة التي تعرضت لها .. أغلب الظن أنها نمت وحدها ، ولكن ما من أحد يذكر انه رآها على غير حالتها التي رأيتها عليها

الآن . ابناؤنا فتحوا أعينهم فوجدوها تشرف على البلد . ونحن حين ترتد بنا ذكريات الطفولة إلى الوراء ، إلى ذلك الحد الفاصل الذي لا تذكر بعده شيئاً ، نجد دومة علاقة تقف على شط في عقولنا ، كل ما بعده طلاس فكأنها الحد بين الليل والنهار . كأنها ذلك الضوء الباهت الذي ليس بالفجر ولكنه يسبق طلوع الفجر . أتراك يا بنيّ تتابع ما أقول ؟ هل تلمس هذا الشعور الذي أحسه في ذهني ولا أقوى على التعبير عنه ؟ كل جيل يجيء يجد الدومة كأنما ولدت مع مولده ونمت معه . أجلس إلى أهل هذه البلد واستمع اليهم يقصون أحلامهم . يصحو الرجل من نومه فيقص على جاره أنه رأى نفسه في أرض رملية واسعة رملها أبيض كلجين الفضة . مشى فيها فكانت رجلاه تقوسان فيقتلعها بصعوبة . ومشى ومشى حتى لحقه الظمأ وبلغ منه الجوع ، والرمل لا ينتهي عند حد . ثم صعد تلاً ، فلما بلغ قمته رأى غابة كثة من الدوم في وسطها دومة – دومة طويلة ، بقية الدوم بالنسبة اليها كقطيع الماعز بينهم بعير . وانحدر الرجل من التل وبعدها وجد كأن الأرض تطوى له . فما هي إلا خطوة بخطوة وخطوة ، حتى وجد نفسه تحت دومة ود حامد . ووجد انه فيه لبن رغوته معقودة عليه كأنه حلب لساعته ، فشرب منه حتى ارتوى ولم ينقص منه شيء . فيقول له جاره : « ابشر بالفرج بعد الشدة » .

وتسمع المرأة منهن تحكي لصاحبتها : « كأنني في مركب

سائر في مضيق في البحر ، فإذا مددت يدي مسست الشاطئ
من كلا الجانبين . وكنت أرى نفسي على قمة موجة هوجاء
تحملني حتى أكاد أمس السحاب ، ثم تهوي بي في قاع سحيق
مظلم . فخنقت وأخذت أصرخ وكان صوتي قد انحبس في
حلقي . وفجأة وجدت مجرى الماء يتسع قليلا . ونظرت فإذا
على الشاطئين شجر أسود خال من الورق له شك ذو رؤوس
كأنها رؤوس الصقور . ورأيت الشاطئين ينسدان عليّ وهذا
الشجر كأنه يمشي نحوي ، فتملكني الذعر وصحمت بأعلى
صوتي : « يا ود حامد » . ونظرت فإذا رجل صبح الوجه
له لحية بيضاء غزيرة قد غطت صدره ، رداؤه أبيض ناصع ،
وفي يده سبعة من الكهرمان . فوضع يده على جبهتي وقال :
« لا تخافي » . فهدأ روحي . ونظرت فإذا الشاطئ يتسع
والماء يسيل هادئا . ونظرت إلى يميني فإذا حقول قمح ناضجة ،
وسواق دائرة ، وبقر يرعى . ورأيت على الشاطئ دومة
ود حامد . ووقف القارب تحت الدومة ، وخرج منه الرجل
قبلي ، فربط القارب ومد لي يده فأخرجني . ثم ضربني برفق
بسبعته على كتفي ، والتقط من الأرض دومة وضعها في
يدي . والتفت فلم أجده ، وتقول لها صاحبها : « هذا
ود حامد .. تمرضين مرضاً تشرفين منه على الموت . لكنك
تشفين منه . تلزمك الكرامة لود حامد تحت الدومة » .
وهكذا يا بني . ما من رجل او امرأة . طفل أو شيخ ،
يحلم في ليلة إلا ويرى دومة ود حامد في موضع ما من حلمه .

تسألني لم سميت بدومة ود حامد ؟ صبراً يا بنيّ ..
هالك كوباً آخر من الشاي .

في أول العهد الوطني جاءنا موظف في الحكومة ، وقال
لنا أن الحكومة تنوي أن تنشيء لنا محطة تقف عندها
الباخرة . وقال لنا أن الحكومة الوطنية تحب أن تساعدنا
وتطورنا ، وكان متحمساً يتحدث ووجهه متهلل . ونظر فإذا
الوجوه التي حوله لا تستجيب لشيء مما يقول . نحن يا بنيّ
لا نسافر كثيراً ، ولكننا إذا أردنا السفر لأمر مهم - كتسجيل
أرض أو النظر في قضية طلاق - فأننا نركب حيرنا ضحى
كاملاً ، ثم نأخذ الباخرة من المحطة في البلد المجاورة . لقد
اعتدنا يا بنيّ على ذلك ، بل نحن من أجل هذا نربي الحمير .
فلا غرو أن الموظف لم يرَ على وجوه القوم ما يدل على انهم
سمعوا للنبا . وفتر حماس الموظف وأسقط في يديه وتلعثم في
كلامه . وبعد فترة من الصمت سأله أحدهم : « أين تكون
المحطة ؟ » وقال الموظف انه لا يوجد غير مكان واحد يصلح
محطة - عند الدومة . ولو انك في تلك اللحظة جئت بامرأة
وأوقفتها عارية كما ولدتها أمها وسط اولئك الرجال ، لما أثرت
دهشتهم اكثر مما فعلت تلك الجملة . وسارع أحدهم فقال للموظف :
والباخرة تمر عادة هنا يوم الأربعاء فإذا علمت محطة هنا
فانها ستقف عندها عصر الأربعاء . فقال الموظف ان الموعد
الذي سيحدد لوقوف الباخرة في محطتهم سيكون في الرابعة
بعد الظهر من يوم الأربعاء . فردّ عليه الرجل : « لكن هذا

هو الوقت الذي تزور فيه ضريح ود حامد عند الدومة ،
ونأخذ نساءنا وأطفالنا ، ونذبح ندورنا - نفعل ذلك كل
أسبوع . فرد الموظف ضاحكاً : « إذاً غيروا يوم الزيارة » .
ولو ان ذلك الموظف قال لأولئك الرجال في تلك اللحظة أن
كلاً منهم ابن حرام ، لما أغضبهم كما أغضبهم عبارته تلك .
فهبوا لتوم هبة رجل واحد ، وعصفوا بالرجل وكادوا
يفتككون به ، لولا أنني تدخلت فانتزعتهم من براثنهم ، وأركبته
حماراً وقلت له انجُ بنفسك . وهكذا ظلت الباخرة لا تقف
عندنا . وما تزال إذا حز بنا الأمر وأردنا السفر ، نركب
حميرنا ضحى كاملاً ونأخذ الباخرة من البلد المجاورة ، لكن
حسبنا اننا تزور ضريح ود حامد ومعنا نساؤنا وأطفالنا ،
نذبح ندورنا كل يوم أربعاء ، كما فعل آباؤنا وآباء آبائنا
من قبلنا .

امهلني يا بنيّ ربّما أصلى صلاة المغرب ... يقولون
ان المغرب غريب ، إذا لم تدركه في وقته فاتك ...
« عباد الله الصالحين .. أشهد ألا إله إلا الله ، وأشهد أن
محمداً عبده ورسوله ... السلام عليكم ورحمة الله ... السلام
عليكم ورحمة الله » .

وي . وي . هذا الظهر يوجهني منذ أسبوع . ماذا تظنه
يا بنيّ ؟ ولكنني أعرف أنه الكبير ... ألا ليت الشباب ...
كنت في شبابي آكل نصف الخروف في إفطاري وأتعشى بلبن
خمس بقرات وأرفع كيس التمر بيد واحدة . وكذاب من

قال انه صار عني فصرهني . كانوا يسمونني « التماسح » .
مرة عمت النيل أدفع بصدري مركباً موسوقة قعاً إلى
الشاطئ الآخر ... ليلاً . وكان على الشاطئ الآخر رجال
على سواقيهم . فلما رأوني أدفع المركب نحوهم ألقوا ثيابهم
وفزعوا وفروا . فناديتهم : « يا قوم ما لكم قبحكم الله ؟
ألا تعرفونني ؟ أنا التماسح . أنتم والله الشياطين تخاف من
خلقتكم القبيحة » .

هل قلت لي يا بنيّ ماذا نفعل حين نمرض ؟
انني أضحك لأنني أعلم ما يدور في رأسك ... أنتم في
البنادر تسارعون إلى المستشفيات لأدنى سبب . إذا جرح
أصبع الواحد منكم هرع به إلى « الحكيم » ، فلفه في عصابة
وعلقه على رقبتة أياماً ، وهو مع هذا لا يطيب . مرة كنت
أعمل في حقلي فعض شيء أصبعي ، هذا الاصبع الخنصر .
فانتصبت قائماً وتلفت أبحث عن العشب . فإذا ثعبان لا بد .
أحلف لك انه في طول ذراعي هذا . فسكته من رأسه
وسحقته بين أصبعي . ثم عضضت أصبعي الملدوغ ومصصت
منه الدم . وأخذت حفنة من التراب فدلكته بها !

بيد أن مثل هذا أمر طفيف . ماذا نفعل في الملّات ؟
جارتنا هذه ... ذات مرة تورم حلقها فاقعدها طريجة
الفراش شهرين . وذات ليلة تكاثرت عليها الحمى ، فهضت من
فراشها سحراً وتحاملت على نفسها حتى اتت .. أجل يا بني ..
اتت دومة ود حامد . وتروي المرأة ما حدث فتقول :

« وقفت تحت الدومة وانا لا أكاد اقوى على الوقوف. وناديت
باعلى صوتي : « يا ود حامد — جئتك مستجيرة وبك لائذة..
سارقد هنا عند ضريحك ، وتحت دومتك ، فأما أمتني واما
أحييتني . وان ابرح مكاني هذا الا على احدى الحالتين » .
وتستمر المرأة في قصتها فتقول : « وتقلصت على نفسي وانا
استشعر الخوف ، وسرعان ما اخذتني النوم . وبينما انا بين
النائمة واليقظة ، اذا اصوات تترتل القرآن ، واذا نور حاد
كأنه شفرة السكين قد سطع حتى عقد بين الشاطئين . فرأيت
الدومة وقد خرت ساجدة . وهلع قلبي ووجب وجيبا حتى
ظننته سيخرج من فمي . ورأيت شيخاً مهيباً ابيض اللحية
ثامع الرداء ، يتقدم نحوي وعلى وجهه ابتسامة . وضربني
بسبعته على رأسي وانتهرني قائلاً : « قومي » . وقسماً انني
قمت وما ادري انني قمت ، وجئت الى بيتي ولا اعلم كيف
جئت . ووصلت عند الفجر ، فابقظت زوجي وولدي وبناتي
وقلت لزوجي اوقد النار وضع عليها وعاء الشاي . وقلت
لبناتي زغردن . فانكبت علينا البلد . وقسماً ما خفت بعدها
ولا مرضت بعدها » .

نعم يا بني ، نحن قوم لا نعرف دروب المستشفيات . في
الامور الصغيرة ، كلدغات المقارب والحصى والفكك والكسر ،
نلزم الاسرة حتى نشفى . وفي المعضلات نذهب الى الدومة .
هل اقص عليك يا بني قصة ود حامد ؟ ام انك تريد ان
تنام؟ اهل البندر لا ينامون الا في اخريات الليل—ذلك ما اعلمه

عنهم . أما نحن فننام حين يسكن الطير ، ويمتنع الذباب عن
مشاكسة البقر ، وتستقر اوراق الشجر على حال واحد ،
وتضم الدجاج اجنحتها على صفارها ، وترقد الماعز على جنوبها
تجتر ما جمته في يومها من علف . نحن وحيواناتنا سواء بسواء
نصحو حين تصحو وننام حين تنام ، وانفاسنا جميعاً تتصاعد
بتدبير واحد .

حدثني ابي نقلا عن جدي قال : « كان ود حامد في الزمن
السالف مملوكا لرجل فاسق ، وكان من اولياء الله
الصالحين ، يتكتم ايمانه ولا يجرؤ على الصلاة جهاراً
حتى لا يفتك به سيده الفاسق . ولما ضاق ذرعاً بحياته مع
ذلك الكافر ، دعا الله ان ينقذه منه . فهتف به هاتف ان
افرش مصلاتك على الماء ، فاذا وقفت بك على الشاطيء فانزل .
وقفت به المصلاة عند موضع الدومة الآن ، وكان
مكاناً خراباً . فأقام الرجل وحده يصلي نهاره ،
فاذا جاء الليل اتاه امرؤ ما بصحاف الطعام ،
فيأكل ويواصل العبادة حتى يطلع عليه الفجر ، كان هذا قبل
أن تعمر البلد . وكأنا هذه البلدة باهلها وسواقيها وعمارها قد
أنشقت عنها الأرض . كذاب من يقول لك انه يعرف تاريخ
نشأتها . البلاد الأخرى تبدأ صغيرة ثم تكبر . ولكن بلدنا
هذا قام دفعة واحدة . أهله لا يزيد عددهم ولا ينتقص ،
وهيأته لا تتغير . ومنذ كانت بلدتنا ، كانت دومة ود حامد .
يحكى ان أحد لا يذكر كيف قامت ونمت ، كذلك لا يذكر

أحد كيف غمت الدومة في أرض حجرية ترتفع على الشاطئ ،
وتقوم فوقه كالديبدبان .

حين أخذتك لزيارتها ، هل تذكر يا بني السور الحديدي
حولها وهل تذكر اللوح الرخامي القائم على نصب من الحجر ،
وقد كتب عليه « دومة ود حامد » ؟ وهل تذكر القبة ذات
الأهلة المذهبة فوق الضريح ؟ — هذا هو الشيء الوحيد الذي
وجد على بلدنا منذ أنبثها الله . وقصة ذلك كله أقصها عليك الآن .
حين ترحل عنا غداً — وأنت لا شك راحل : متورم
الوجه ، متوهج العينين — فأحرى بك يا بني ألا نلعننا ، بل
ظن بنا خيراً وفكر فيما قصصته عليك الليلة ، فلملك واجد
ان زيارتك لنا لم تكن شراً كلها .

أنت تذكر انه كان لنا قبل أعوام نواب وأحزاب ،
وضوضاء كبيرة ما كنا نعرف أولها من آخرها . كانت الدروب
تسوق إلينا أحياناً غرباء تلقىهم على أبوابنا ، كما يلقي موج
البحر بالحشائش الغريبة . ما منهم أحد زاد على ليلة واحدة
عندنا : ولكنهم كانوا ينقلون إلينا أنباء الضجة الكبيرة في
العاصمة . حدثونا يوماً أن الحكومة التي طردت الاستعمار قد
استبدلت بحكومة أخرى أكثر ضجة ونواباً . وكنا نسألهم :
« من الذي غيرها ؟ فلا يردون علينا جواباً ، ونحن منذ أبينا
أن تقوم المحطة عند الدومة ، لم يعد يعكر علينا صفونا أحد .
وانقضى عايمان ونحن لا نعرف شكل الحكومة ، سوداء هي
أو بيضاء ، ورسلسا يبرون ببلدنا ولا يقفون فيه ، ونحن نحمد

الله انه كفانا مؤونة استقباهم . حتى كان قبل أربعة أعوام ، حين حلت حكومة جديدة محل الحكومة الاولى-وكان هذه السلطة الجديدة شاءت أن تشمرنا بوجودها . صحنونا ذات يوم فإذا موظف ذو قبعة ضخمة ورأس صغير ومعه جنديان ، وهم عند الدومة يقيسون ويحسبون . سألناهم ما الخبر ، فقالوا ان الحكومة تريد ان تبني محطة تقف عندها الباخرة تحت الدومة . قلنا لهم : « ولكننا ردنا عليكم ذلك من قبل ، فلماذا تظنون اننا سنقبله اليوم ؟ » قالوا : « الحكومة التي سكنت عنكم كانت حكومة ضعيفة ، ولكن الحال قد تغير الآن » . ولا أطيل عليك فقد اخذنا بنواصيرهم وألقيناهم في الماء ، وانصرفنا الى أعمالنا . وما هو إلا أسبوع حتى ألتنا كوكبة من الجند، وعلى رأسهم ذلك الموظف الصغير الرأس ذو القبعة الكبيرة فنادى بهم ان خذوا هذا وخذوا هذا وخذوا هذا ، حتى أخذوا عشرين رجلاً منا كنت أنا بينهم . وحملونا إلى السجن . ومضى علينا شهر . وذات يوم جاء الجند أنفسهم الذين سجنونا ففتحوا علينا الأبواب . وسألناهم ما الخبر . فلم يكللنا أحد . ولكننا وجدنا حشداً كبيراً خارج السجن - أول ما رأونا هتفوا ونادوا وعانقنا اناس نظيفو الثياب ، تلمع على معاصمهم ساعات مذهبة وقفوح نواصيرهم برائحة المطر . وحملونا في موكب كبير إلى أن أتينا أهلنا . فوجدنا خلقاً كبيراً لا أول له ولا آخر ، وعربات واقفة وخيولاً وجمالاً . وقال بعضنا لبعض : « ان ضوضاء

العاصمة قد وصلت عندنا ، . وأوقفونا نحن الرجال المشرين
صفاً يمر علينا الناس يصافحون أيدينا ... رئيس الوزراء ...
رئيس مجلس النواب ... رئيس مجلس الشيوخ ... نائب دائرة
كذا ... نائب دائرة كذا ... ونظر بعضنا الى بعض دون
ان نفهم ما يدور حولنا ، إلا أن سواعداً كلت من طول ما
صافحت من أولئك الرؤساء والنواب . ثم أخذونا في حشد
عظيم إلى حيث الدومة والضريح . ووضع رئيس الوزراء
الحجر الأساسى للنصب الذي رأيت ، والقبة التي رأيتها ،
والسور الذي رأيت . وكما هب الاعصار برهة ثم يذهب ،
اختفى ذلك الحشد كما جاء فلم يبت ليلة عندنا ... وأحسبه
ذباب البقر. فقد كان عامها سميناً بديناً يطن ويزن كالعام الذي
جاء فيه الواعظ .

وقد روى لنا أحد هؤلاء الغرباء الذين تلقىهم الدروب
عندنا قصة تلك الضجة فيما بعد فقال : « لم يكن الناس راضين
عن تلك الحكومة منذ أن جاءت ، وهم يعلمون انها لم تأتِ
إلا بشراء عدد من النواب . وظلوا يتربصون لها الفرص .
كانت المعارضة تبحث عن شرارة توقد بها النار . فلما حدث
حادث الدومة معكم وأخذوكم فالقوا بكم في السجن ، نشرت
الصحف النبأ ، وخطب رئيس الحكومة المقالة في البرلمان
خطبة نارية قال فيها : « لقد بلغ من طغيان هذه الحكومة
انها أصبحت تتدخل في معتقدات الناس ، في أقدم الأشياء
المقدسة عندهم » . ووقف الخطيب وقفة ذات أثر ، ثم قال

وصوته يتهدج بالعاطفة : « اسألوا رئيس وزرائنا الموقر عن دومة ود حامد . اسألوه كيف أباح لنفسه أن يرسل جنده وأعوانه فيدنسوا ذلك المكان الطاهر المقدس ؟ » وحل الناس الصيحة . واستجابت أفئدة الناس في سائر القطر لحادث الدومة كما لم تستجب لحادث من قبل . لعل السبب أن في كل بلد من بلدان هذا القطر علماً كدومة ود حامد ، يراه الناس في أحلامهم . وبعد شهر من الضوضاء والصراخ والشعور الملتهب ، اضطر خمسون من نواب الحكومة أن يسحبوا تأييدهم منها . فقد أنذرتهم دوائرهم أنهم إما أن يعلنوا ذلك ، وإلا فهذه الدوائر التي انتخبتهم تنفض أيديها منهم . وهكذا سقطت الحكومة وعادت الحكومة الأولى إلى الحكم ، وكتبت الصحيفة الأولى في القطر تقول : « ان دومة ود حامد أصبحت رمزاً ليقظة الشعب » .

ومن يومها ونحن لا نحس للحكومة الجديدة وجوداً . من يومها لم يزرنا أحد من القوم الكبار العمالقة الذين زارونا . وحمدنا الله انه كفانا مشقة مصافحتهم . عادت حياتنا إلى سيرتها الأولى ، لا مكنة ماء ، ولا مشروع زراعة ، ولا محطة باخرة . وبقيت لنا درمتنا تلقي ظلها على الشاطئ القبلي عصاراً ، ويمتد ظلها وقت الضحى فوق الحقول والبيوت حتى يصل إلى المقبرة . والنهر يجري تحتها كأنه أفعى مقدسة من أفاعي الأساطير . بيد أن بلدنا قد زاد نصباً رخامياً وسوراً حديدياً وقبة ذات أهلة مذهبة .

ولما فرغ الرجل من كلامه ، نظر إليّ وعلى وجهه ابتسامة غامضة ترفرف على جانبي فمه كضوء المصباح الخافت . فقلت له : « ومتى تقيمون طلبة الماء والمشروع الزراعي ومحطة الباخرة ؟ » فأطرق برهة ثم أجابني : « حين ينام الناس فلا يرون الدومة في أحلامهم » . قلت له : « ومتى يكون هذا ؟ » فقال : « ذكرت لك أن ابني في البندر يدرس في مدرسة . انني لم الحقه بها . ولكنه هرب . سمى اليها بنفسه . انني أدعوا أن يبقى حيث هو فلا يعود . حين يتخرج ابن ابني من المدرسة ويكثر بيننا الفتيان الغرباء الروح ، فلعلنا حينئذ نقيم مكنة الماء والمشروع الزراعي .. لعل الباخرة حينئذ تقف عندها .. تحت دومة ود حامد » .

فقلت له : « وهل تظن أن الدومة ستقطع يوماً ؟ » فنظر إليّ ملياً ، وكأنه يريد أن ينقل إليّ خلال عينيه المتعبتين الباهتتين مالا تقوى على نقله الكلمات : « لن تكون ثمة ضرورة لقطع الدومة . ليس ثمة داعٍ لازالة الضريح . الامر الذي فات على هؤلاء الناس جميعاً أن المكان يتسع لكل هذه الأشياء - يتسع للدومة والضريح ومكنة الماء ومحطة الباخرة » . وبعد أن صمت برهة نظر إليّ نظرة لا أدري كيف أصفها ، ولكنها أثارت في نفسي شعوراً بالحزن - الحزن على أمر مبهم لم أستطع تحديده . ثم قال : « أنت لا شك راحل عنا غداً . فإذا وصلت إلى حيث تقصد ، فاذكرنا بالخير ولا تقسُ في حكيمك علينا » .

...إذا جاءت

« المكتب العالمي لفنون السياحة » .
هكذا بكل بساطة قررت لافتة طولها ثلاثة أمتار ،
وعرضها متران ، في إطار أصفر ، لوحتها من خشب البلوط
مدهون بطلاء أزرق ، حروف ضخمة بالثلث ، مذهبة ،
معلقة على مبنى عتيق ، في الدور الثالث في عمارة متداعية .
أول فكرة خطرت في ذهن أمين ذلك الصباح ، عبر عنها
بصوت مرتفع : « انه لا يؤمن بتخزين الأفكار » . قال وهو
ينظر إلى سقف المكتب . « أنا لا أومن بالابتدال في الاعلان .
المكتب العالمي لفنون السياحة ؟ هل نحن أصحاب كباريه ؟
هل نحن نبيع المعيني ؟ » .

وخطر له وهو يتحدث ان سقف المكتب لا يمتاع في
طبقة جديدة من طلاء أكثر بهجة . ورفعت سناء أهداب
عينها الطويلة في بطاء متعمد . الذي لا يعرفها يحسب انها
تدبر إغراء زميلها . « أمين . أنت من هؤلاء المعنوهين الذين

ينشدون الكمال في كل شيء . . ولأول مرة ذلك الصباح ،
نظر أمين إليها ، نظرة مركزة حاول أن يبالغ في حداثتها .
سواء فتاة ليست من نوعه . إنها فتاة رخوة : أبوها مدير
شركة ، رسبت في امتحان السنة الثانية في الجامعة ثلاث
مرات ، وتركتها بمحض إرادتها . لو أرادت البقاء لبقيت .
تأتي للمكتب في سيارة فوكسهول موديل ٤٩ ، وتبدو أصغر
من سنّها . السيارة تبدو أصغر من سنّها . قال أمين وقد شعر
بألم في جفنه للمجهود الذي بذله في تركيز نظره . « حين
نبالغ في الدعاية للعبة ، يشعر الناس نحوها بشك تلقائي .
يصح أن نسمي هذا جهاز الوقاية . العقل الباطن يحمي
المستهلك من الوقوع في مأزق . أمين قرأ نتقا من فرويد ،
ويروق له أن يزوج « العقل الباطن » في ثغرات الحديث .
وبحركة لا إرادية لمست سناء القرطين الطويلين المتدليين
من أذنيها كل منها على شكل هلال ، يتدلى بسلسلة فضية من
أفنها . (ترى هل أمين يغمزها ؟) انها تبالغ في صبغ
وجهها بالبودرة وشفتيها بالأحمر ، وعطرها قوي لا مفر منه .
فساتينها من حرير تحدث حفحفة جافة مثيرة حين تمشي .
صوت يابس ألمس يشعرك بامتلاء جسدها . وخطر لأمين أن
في سناء شيئا . هي ليست من نوعه ، ولعلها تميل إلى الابتذال .
لكن شيئا فيها يجذب . وفتح فمه ليتحدث ، فدخل بهاء
وظل فمه مفتوحا . وقال بهاء بقسوة مرحة : « ما لك فاغرا
فلك هكذا كالأبله ؟ هل لتباغتك متلبسا بغزل سناء ؟ »

وضحكت سناء ووقفت . ثم وجدت أن لا داعي للوقوف
فجلست . وخطر لأمين أن بهاء شاب مغرور . (ماذا يحسب
نفسه ؟) ولم تسعفه الذاكرة باسم ممثل من هوليوود يشتمه به ،
فانقطع حبل الفكرة في ذهنه .

جلس بهاء على مكتبه ، ونفخ على سطحه الزجاجي .
لم يكن على المكتب غبار . ولكن بهاء يفعل ذلك كل صباح ،
كأنه يحشد طاقته للعمل وضع حقيبته الجلدية على المكتب .
ضربها بجنان على جنبها . ثم فتحها وأخرج منها دفاتر
وأوراقا وكتيبات سياحية نثرها على المكتب : « مررت في
طريقي على وكالة كوكس . أعطوني هذه الكتيبات .
أهم من ذلك انني أغويت فتاة سويدية فرضيت أن تقابلني
الليلة » . تنحنحت سناء تلقائياً : « لا بد لي أن أتعلم كيف
أسيطر على انفعالاتي » .

فترة صمت .

وقال أمين : « هارودز » .

وقالت سناء : « ماذا ؟ » .

ولم يقل بهاء شيئاً .

وقال أمين : « هارودز . اتش . اي . آر . آر . او .

دي . اس . متجر في لندن . كم أتوق إلى السفر إلى لندن
وشراء سترة صوفية من هارودز » .

وقال بهاء : « ما شاء الله » . ثم قام من مكانه وأدار

آلة تكييف الهواء ، فامتلأت الغرفة الصغيرة الرثة بأزيز

مكتوم ، وارتعشت أطراف الأوراق ارتعاشاً خفيفاً .
آلة تكثيف الهواء ، وتلفون جديد أخضر ، ورف لامع
أبوابه من الزجاج ، مملوء بكتب كأنها لقطاء اجتمعوا في
ملجأ أيتام . مثلاً : « الجزء السابع من دائرة المعارف
البريطانية » . « المستطرف من كل فن مستظرف » . كتاب
عن « القانون الدولي » لمؤلف اسمه ليلينثال . « كيف تتعلم
الاسبانية في سبعة أيام دون معلم » . « رحلات ابن بطوطة » .
ومن تظن كانت تحاكك الركاب مع شيخنا الرحالة ؟
« لو كريشيا بورجيا » . ثم الجزء الأول من دليل التلفون ،
الأسماء بين ألف وجيم . وفي ركن مهجور اختلت « امرأة
من روما » بمصطفى صادق الرافعي . وأعجب من ذلك أن
« رندلي » سميد عقل و « مسز ورن » صاحبة برنارد شو ،
لم يجد إثمًا في أن يناما جنًا إلى جنب . (ما أضيع الأيتام
على موائد اللثام) .

لم يجد أمين ما يفعل ، فنظر أمامه . وقع نظره على
الجزء الأسفل من جسم سناء خلال فرجة المكتبة . كانت
تجلس قبالة ارتعش قليلاً حين رفعت ساقها اليمنى ووضعتها
فوق ساقها اليسرى . حوّل أمين بصره إلى خريطة كبيرة
للعالم ، معلقة على الجدار لكنه لم يستطع مقاومة الإغراء ،
فأدار طرفه ببطء كأنه يقود سيارة بجذر في طريق جبلي .
ونظر . أحسن بقرصة صغيرة بين كتفيه . وتابع ثنية الفخذ
من عند الركبة إلى حيث تاه في طيات الرداء . أحس في أنفه

برائحة الطين المبتل . ثم خطر له خاطر غريب . فخذها
أبيض وذراعاها عمراثة ونحرها أحمر .

تمطت سناء في تراخ مليء بالإيجاء . ونظرت إلى أمين ،
وانفرجت شفتاها دون أن تبسم . وقال أمين في سره : « أنها
مبتذلة . أغلب الظن انها سهلة المنال . فتاة بلهاء ، سريعة
التأثر ، تقرأ القصص الأوروبية وتحاول ان تحياها . لا يستبعد
انها قرأت في الليلة الماضية « عشيق الليدي تشاترلي » ثم
خرجت تبحث عن حارس غابة ! » .

أمين قسا في حكمه عليها ففي تلك اللحظة كان بهاء
يقول لنفسه : « لماذا تحاول هذه الفتاة أن توهب الناس بانها
رخيصة ؟ » تذكر ليلة اخطأ في حكمه عليها فظنها رخيصة
طلب منها ان تتعشى معه فقبلت بحماسة . (البرق يلعب أولا ،
ثم يهطل المطر) . تعشيا في مطعم عشاء ما كان ألد مذاقه
وما كان أخف وقعه على القلب ، بين ضحك منها وسحر منه ،
وطيف ابروس يرف عليها . أخذ وعطاء . (أول الفيت
قطر) . ثم خرجا للزفة في سيارة استعارها من صديق . (في
التأني السلامة . وبعض البروق لمعها خلب) . سارا في طريق
يحاذي البحر ، هادىء تقل فيه الحركة ، ظلام مثل الحمل
ناعم كثيف ، والموج يفعل فعله في الشاطيء ، ونجمة بعيدة
تغمز في السماء . (هذا زمان الشد فاشتدي زيم) . وفقد بهاء
سيطرتة على صوته وهو يقول : « أحب الظلام ، والمطر ،
والصحراء . موسمي المفضل هو الشتاء . الربيع أمقته ، الربيع

فصل مقيت . صدق الذي قال : « ايلول للفم فمدي لي
زندك . هل أخبروا أمي أني هنا عندك ؟ » وفكرت سناء ،
« محاولة حسنة ، من رجل ليست فيه قطرة من شاعرية » .

لم يفهم بهاء شيئاً أول الأمر . لماذا لا تستجيب ؟ ما بالها
تجلس هكذا في وقار بعيداً عنه ؟ (بعض البروق لمعها خلب) .
ومد يده فلمس يدها . لم تفعل شيئاً . لم تسحب يدها . لم
تصرخ فيه . لم تقترب منه . تركت يدها حيث هي ، ميتة
فاقده الحياة . وكأنها بوسيلة غامضة قد فصلتها عن جسمها .
كان اليد لم تعد جزءاً منها . ظل بهاء كذلك ، يقود السيارة
بيد ، ويحاول باليد الأخرى أن ينفخ الحياة في يسد ميتة
لا حياة فيها . ثم أحس بفناء وخرج ، أحس انه سخي ،
فاستعاد يده من على يدها ، وقال لها : « هل نعود ادراجنا ؟ »
فقالت : « من الأفضل » . فكر وهو يدخل في فراشه :
« كانت ليلة فاشلة . لكنها تجربة . في المستقبل سأترث .
سأبتعد عن الفتيات الداعرات الظاهر ، العفيفات الباطن .
لا يرجى منهن خير » ... ومن أين لأمين أن يفهم سر الابتسامة
الساخرة التي ارتسمت على شفي بهاء ؟

تذكر أمين انه كان يتحدث عن هارودز ، فتنحج
وقال : « هارودز » . كان بهاء يكتب شيئاً . توقف عن
الكتابة . وضع قلمه . نظر إلى أمين مقدار خمس ثوانٍ وسأله
بصوت لا يخلو من ضجر : « يا سيدي ماله هارودز ؟ »
« متجر في لندن »

ورفع بهاء صوته : « نعم . أعرف هذا . متجر في لندن
في حي اسمه فايتسبردج . أنا أيضاً قرأت عن لندن . لكن
ما هي المناسبة ؟ »

ورفع أمين صوته أيضاً : « المناسبة انني لا أحب اسم
هذه الوكالة . اسم مبتذل . أنا أو من بالاعلان الهادى .
الدعاية الذكية التي تحترم ادراك الزبون . الدعاية في هارودز
مثلاً ... »

وقال بهاء : « يا سيدي هارودز شيء ونحن شيء . وعلى
أي حال نحن لم نختار الاسم لنرضي نقاد الأدب . اسم والسلام .
ماذا في الاسم ؟ »

أمين لم يقتنع . لكنه سكت . (حتماً بهاء مغرور .
فيه حب التسلط واضطهاد الغير . لا بد أن أباه قسا عليه
في صفه . من أباح له أن ينصب نفسه مديراً للشركة ؟
من يظن نفسه ؟ يأمر وينهي ويوقع على المكاتبات ، والحساب
في البنك باسمه هو) . هذه الثورة هدأت في قلب أمين ،
حين تذكر أن الشركة العالمية لفنون السياحة ، في طول
الشهر الذي مضى من عمرها ، لم يكتب لها أحد ، وان فتح
الحساب في البنك لم يتعد كونه تعبيراً عن الأمل الوطيد في
المستقبل ، من جانب أصحاب الشركة ، وإعراباً عن حسن
النية تجاههم من جانب البنك ، وان ... وفجأة حدث شيء .
شيء حول المكتب الكالنج الجدران ، والبساط الرث ، وجهاز
تكييف الهواء ، وملجأ الكتب اللقطة ، حولها في برهة

متألفة خارج حدود الزمن ، إلى شيء متكامل ، له معنى
وهدف . فجأة بدا كما لو أن الحياة ما تزال بخير ، وان
البروق ليست جميعها تكذب ، وان الآمال ، منها ما يترعرع
ويزهو وينضج ويثمر ... دق جرس التلفون . قفزت سناء ،
اتسعت فتحة فم أمين ، امتدت يد بهاء في قوة رمزية مصممة ،
ترمز إلى عزم جيل بأسره أن يشق لنفسه طريقاً طريفاً
حافلاً ، يعتقد في قمم تفضل فيها العين . امتدت يد بهاء
فالتقطت سماعة التلفون . تنحنج بهاء ، ولمس شعر رأسه في
حركة سريعة قوية ، ومن غور بعيد في جوف صدره ، أخرج
صوتاً هادئاً رزيناً ، فيه ثوب ، وفيه استعداد للتفاهم . لم
يكن صوته المألوف ، لا ، بل هذا هو الصوت الآخر الذي
يفري به النجاح . « هالو . المكتب العالمي لفنون السياحة ...
ماذا ؟ تريد من ؟ » ثم ، كالثعبان الذي يجمع جسده ويطويه
في الحجر ، ضاع الصوت الهادي الرزين ضاع الثوب . ضاع
الاستعداد للتفاهم . لم يعد ثمة نجاح يفري به . وخرج من سقف
حلق بهاء صوت أعجف ، نحيل ، حاد النبرات ، هو الصوت
الذي ينادي به الخادمة في البيت ، ويمارك به أمه إذا أبت
أن تقرضه مالا ، ويودع به الفتيات في أواخر لياليه الفاشلة .
بذلك الصوت قال بهاء للالة الخضراء على مقربة من شفتيه .
« يا سيدي هذا ليس المطار . هذا ، المكتب ، العالمي ،
لفنون السياحة » .

(آه منك يا لمع السراب !) .

تعلق بصر سناء بذبابة تدب على الحائط، وتابعت بإحساس متبدل رحلة الذبابة في طريق عسير وعمر ، فيه جبال وأودية وسهول مصفرة ، وحفر تزل القدم فيها على حين غرة ، ومنعطفات لم تخطر على بال الذبابة من قبل . وكما يحدث لسناء أحيانا ، استيقظت من سباتها فجأة ، كان إنسانا شك إبرة في ذراعها ، او كأن ماء بارداً هطل على رأسها دفعة واحدة . وأحست في تلك اللحظة من يقظة الروح ، برابطة غريبة تربطها بتلك الذبابة الدائبة السير . (لماذا لا تطير ؟ هل قص أحد جناحها ؟) كانت الذبابة تكبر في عينيها أحيانا ، وأحيانا تتضاءل . مرة تسير خبا ، مرة تتناقل خطاها وأحيانا يخيل لسناء انها وقفت قلث ، وتجنف العرق من وجهها . ويقوم في وجه الذبابة ، بفتة ، تنوء بارز في الحائط ، جبل غرسته الأقدار في سبيلها ، فتدور حوله ، وتتحايل عليه ، وترفع رجلها كأنها تريد أن تصعد فيه ، فتقع على جنبها ، فتقف برهة ساكنة تمتحن الجبل ، ثم تواصل السعي . (لماذا لا تطير ؟ هل قص أحد جناحها ؟) في ذلك الزمان والمكان ، ارتبطت « حقيقة » فتاة اسمها سناء ، « بحقيقة » ذبابة ليس لها اسم .

أوقف بهاء جهاز تكييف الهواء ، فسقطت الذبابة . ولو سألت سناء في تلك اللحظة ، لأقسمت لك انها سمعت صرخة حادة مبهمه ، وسمعت ارتطام جسم ثقيل بسائل مثلشل كأنه ماء بحر !

وقال أمين وهو يحدق في هوة بعيدة القرار ، وكأنه يخاطب « كما » مجهولاً هو المسؤول عن كل ما حدث : « المكتب العالمي لفنون السياحة . أي نعم ، لفنون السياحة . فتح أبوابه منذ شهر . فهل استفاد أحد من خدماته ؟ أبداً . في مكان ما ، أدار شخص ما قرص التلفون ، وفي نيته أن ينتهي صوته إلى غاية محددة ، فانتهى صوته عندنا . لماذا ؟ » وكان أحد قد طرق الباب ، فلبته سناء ، فإذا صبي كحيل العينين يحمل آلات في حقيبته .
« جئت لأصلح دورة المياه » .
بعد ذلك مرت الدقائق في صخب .

مضى بهاء يقرأ عن بلجيكا ، في أحد الكتيبات التي جاء بها من كوكس وعبر بذهنه طائف سعيد ، شفاف مثل جناح النمرشة ، فقد ترامت له الفتاة السويدية ، ولم يكذبصدق أنها بالفعل ستملاً ليلته تلك بأسنانها التي تحاكي اللؤلؤ . ونظر إلى ساعته .

أسبل أمين جفنيه ونظر في استرخاء إلى رقعة العالم الممتدة أمامه على الحائط . وبدت له دنيا عجباً مزرقة مخضرة محمرة . (آه لو طوفت بهذه الدنيا الفسيحة) .
مرأى الخرائط ، وجو المطارات ، ورائحة الصيدليات ، هذه الأشياء تثير في قلبه شعوراً من فصيلة واحدة . شعوراً

بالحنين لا يبدي كنهه . وتذكر كيف ولد المكتب العالمي
لفنون السياحة . كانت يقرأ كيف عاش هنري ديفد ثورو
في ولدان مكتفياً بذاته . وفجأة لسبب لا يدريه أحس
في قلبه ذلك الشعور المعين ، ذلك الحنين العجيب . تحولت
سطور الكتاب أمام عينيه إلى خرائط واسعة مصقولة ،
دنى فسيحة مزرققة مخضرة محمرة . وسمع أزيز ألوف الطائرات
تهبط وتصعد في فياقي من الاسفت . وشم ، نعم ، شم رائحة
عطور وعقاقير وأدوية وقوارير رشيقة ملفوفة في أوراق
ملونة ، تمتد وتورق وتزهر وتنفوح في صيدليات لا يحصرها
الحصر . من هذا العالم الصافي العطر الراحل ، نبتت فكرة .
قامت من حينها كاملة ناضجة فتية .

« ننشئ شركة للسياحة » .

كان قد اجتاز الامتحان النهائي قبل يومين ، وحصل على
ليسانس التجارة . (العمل الحر يا بني ، العمل الحر . البحر في
حاجة إلى سباح ، والدنيا هنالك وراء الأفق تنتظر أن تبني) .
وقفز من مقعده ، فإذا هو عند بهاء في داره . زميله في الصف ،
شريكه في الخازي ، غريبه في المغامرات ، لا بل أخوه
وخذن نفسه ، ومع ذلك فقد كانا جد مختلفين .

استقبل بهاء الفكرة دون حماس . ولكن قليلاً قليلاً ،
أخذت معالمها تتضح في ذهنه ، أخذت جزئياتها تتفاعل
وتتداخل وتنفرق وتجتمع ، فإذا ثمة أفواج زمر زمر كأنها

الحجيج من أطراف الأرض ، وإذا لهجات ولغات وأزياء ،
قيمات وطرابيش وبنادق ، ووحوش مكشرة أنيابها في
أدغال وأحراش ، أموال عملات ، أشكالاً ألواناً ، دولارات
وسترليني وفرنكات وماركات ولبيرات . رأى مكتباً عربياً
أنيقاً كأنه كمبة الحجيج في وسط غمام أبيض منقوش كالقطن ؛
صبياً حسان مبتسمات الثغور ، ونساء ملتقات الأجسام ،
ثغور ونحور واعجاز ونهود ، نساء شعر ملايين ظامئات
للحب ، يحومن حول بدر في سمائه يدور في أفلاك خارج
حدود الكون ... بهاء .

ضرب بقبضة يده ، وعلى جبينه نزيف الرؤيا ، وقال
وكأنه يتحدى الحياة نفسها ، كأنه يخاطب الأقدار ذاتها :
« المكتب العالمي لفنون السياحة » .

لم يسمع أمين شيئاً ، فقد كان هو الآخر قائماً في دنيا لم
يسمع بها أنس ولا جن . ولكن انتفاض المنضدة حمل إليه
الخبر ، ان الأمر قد أبرم .

هذا كان قبل شهر . ثم أفلت الأمر من يديه ، واصبحت
القسمة قسمة غير عادلة . اصر بهاء على القسم ، وعلى اتفاق
رأس المال كله في شراء جهاز تكييف الهواء ، والتلفون
الأخضر ، وخزانة الكتب ذات الأبواب الزجاجية . اصر على
كتابة العقد بخط يده ، المقعد الذي يعطيه ستين بالمائة من اسهم
الشركة ، مع ان ثلثي رأس المال ساهمت به سناء ، وفي

العقد بند يذكر شيئاً عن « أعباء الإدارة » .

فتحت سناء درج مكتبها ثم أغلقته ، ونبشت في أوراق
بين يديها ، ونقبت في حقيبتها ، ثم نسيت عم تنقب ،
فكفت ، ووضعت يدها على خدها وتأوهت . وفي لحظة
مشحونة بالألم أحست سناء بوطأة العيش .

لو أن الموت زارها في تلك اللحظة القصيرة من عمرها
لابتسمت له . أحست بنفسها ممثلة في مهزلة ، نعم ، مهزلة
ضالة في متاهة دون هدف . دون هدف . دون هدف .
سمعت أهلها ضجة ضخمة في بيت كبير ، وشمّت رائحة الثوم .
في تلك الليلة الظلماء على شاطئ البحر ، حين لمس بهاء يدها
شمرت بالرضا . لمس بهاء يدها فارتعش ابطالها . هل هي تحب
بهاء ؟ لعلها تحب بهاء . وصوبت نظرة يائسة نحوه

الصبي الكحيل العينين فرغ من اصلاح دورة المياه ،
وخرج والآلات الحديدية تصلصل في حقيبته . خرج دون
أن ينظر إلى الأشباح الثلاثة الجالسين هناك . لم يودعهم .
وقبل أن يصل إلى الباب التفت نحوهم مدعوراً ، فقد قفزت
سناء كأن شيطاناً أصابها ، صارخة صرخة بعيدة الغور .
انتفض المكتب العالمي لفنون السياحة وارتج . امتلأ بصخب
وهرج ، تلاطمت حيطانه ، تأوهت منافذه ، تناثرت أوراقه
ثم اتضح أن المذنب صرصار سقط على رأس سناء من الحائط .
هدأت سناء من ثورة نفسها ، وهي تحس بالخبجل والتبرم

والسخط . وجلست صامئة هبط صدرها ويعلو ، وفي طويتها شعور بالقلق يغور ويفطس ويطفو ويتمطى ويتقلص ويمتد ، شيء لا بد من التعبير عنه . وفجأة تبلورت الفكرة في ذهنها ، كما لو كان سقوط الصرصار على أم رأسها ، برقاً لمع في ديجور دنياها فأثار لها الطريق . وانتصبت واقفة كأنها مدفوعة بقوة خارجة عنها . وجمعت أصابعها على حقيبتها بعزم . (البروق لاتلع فرادى . البروق تومض ومضات متتابعات ، جماعات جماعات) . وسمعت نفسها تقول : « مهزلة . هذه الشركة مهزلة . لن أعود غدا . سأعود إلى الجامعة . سأؤكد هذه المرة من النجاح » .

« طاخ » .

الاشباح الثلاثة جفلت دفعة واحدة . (البروق لا تلعب فرادى) رعد قصف وفرقاع في ضوضاء طفت على طنين افكارهم جميعاً ، وحطمت التوتر المسرحي الهائل الذي خلقته سناء بتصريحها الرهيب . وقطاوالت اعناقهم جميعاً من خلال النافذة نحو مصدر الصوت في قرار الشارع . وانتفض وجه سناء بغتة ، وضاحت حدقتا عينيها ، ثم غطت وجهها بيديها وجلست ، وظل جسمها كله بما فيه من ثنيات ونتوءات وتعاريج ، يهتز بضحك ، جارفاً مبجوحاً متشنجاً ، وهو خليط من نداء الديك للفجر ، وبكاء الأم الثكلى ، ونهيق الحمار وتأوه الأنثى في ساعة الخلق . ابتسم أمين ، وعاد بهاء في

صمت فجلس في مكانه . وقال أمين وابتسامته تزيد اتساعاً :
« يا لها من نهاية . هناك في الشارع ، في تلك البئر السحيقة
يرقد جثمان ... » - وهنا ضغط على الكلمات باشمزاز واضح
« ... المكتب العالمي لفنون السياحة . اسم مبتذل ، مكتوب
بمحروف مذهبة ، في لافتة سمجة ، ترقد هناك في الشارع » .

وقامت سناء وخرجت ، وما يزال يعلق يحسمها اللدن بقايا
ضحك . وتتبعها امين بنظرات فيها جوع ، ثم لحق هو أيضاً
بنظراته .

ظل بهاء جالساً . لم يكُ على وجهه غضب ولا اضطراب
ولا قلق . لا، بل كان طائف من الرضا، نعم، الرضا، يرف على اركان
فه ، فقد كان يفكر في حسناء سويدية ، ستضيء ظلام ليله
ذاك باسنانها التي تحاكي حبات اللؤلؤ . ونظر الى ساعته ثم
قال بصوت مرتفع ارهفت له الحيطان الرثة، والتلفون الاخضر
والسجاد الذي شهد اياما أكثر رخاء من تلك، والكتب اللقيطة
في مأواها الزجاجي، وجهاز تكييف الهواء : « اذا جاءت » .

هكذا يا سادتي

هذه الفتاة لم تبسم لي ؟ ألأنني أجني ؟ أم لأن أنفها كبير
وفمها واسع وعيناها زرقاوان ؟ أهل هذا البلد يحبون المرأة
دقيقة الانف ، صغيرة الفم ، دعجاء العينين . واضح هذا من
تحلقهم حول تينك المراتين .

كانت الفتاة كأنها تقف على الشاطئ الآخر . بيني وبينها
بحر من الأمور التافهة . أول ما دخلت القاعة وقعت عيني على
فمها الواسع ، رأيت جفنها يرتعش قليلا . لعلها فهمت .
وجاءت ربة البيت ووضعت ذراعها الممتلئة الأملس في ذراعي
وساقتني في غمامة من العطر إلى الباقيين . لم تفرغ من نطق
اسمي حتى افترت ثغور النساء ، مرة واحدة ، ومد الرجال
أيديهم . كأنهم كانوا ينتظرون قدومي من زمان طويل .
كأنهم دربوا أنفسهم ، واستعدوا للقيائي كما يستعد الممثل لمقابلة
الجمهور أول مساء أنا الجمهور . من هم اذآ ؟

بلدنا يرحب بك .
« أهلاً وسهلاً شرفت » .
« نحن جميعاً تحت أمرك » .
« تكرم عينك » .
« ألا تعتقد أن بلدنا أجمل بلد على وجه الأرض ؟ »

كيف أجيب على سؤال كهذا ؟ لم أجد مفراً من أن أحول
بصري عن صدر المرأة ، وألقيه على الجبل . صحيح ، هو
بلد لا يخلو من حسن الجبل متوهج السفوح ، والبحر عند
قدميه هادئ ، شفاف . في أول الليل . هذا صحيح . أما أن
هذا البلد هو أجمل بلد على وجه الأرض ...

« صدقت يا سيدتي . بلدكم روعة . لم أكد أصدق عيني .
حين حلقت الطائرة فوق شعلة النور هذه ، حسبت انني في
في حلم . وما أزال اعتقد انني في حلم » .

وفهمت المرأة ما أعني ، فحمرت خديها حمرة خفيفة .
علامة الخجل . اقسم انها دفعت الدم إلى خديها بتعمد وارادة ،
كانها تسيطر على شرايينه ومنافذه ومصباته . وتذكرت الفم
الواسع فالتفت بعيني دون أن أحول وجهي عن محدثي .
ما تزال تنظر إلي . هل هي أجنبية مثلي ؟ والتفتت محدثي
بطرف عينيها ايضاً إلى حيث وقع نظري ، ولما نظرت إليّ كان على
وجهها طيف مرح ، كأنها تقول لي : « فهمت » هذه المرأة
يجب أن احسب حسابها ، سيكون المساء بيني وبينها ساحة

حرب صامته ، فاما هزمتني وأما نجوت . هذه الساعة التي
تكتك في ججمتي ، ليتني استطيع شلها . اذا لاستمتعت
بالسهرة . اذا لضحكك وغازلت وناققت ، وأي ضرر ؟
لكنني اعلم انها ستظل تدور . سأفكر ليتني أعطل فكري
هذه الليلة ، فأنا متعب وهؤلاء القوم عندهم استعداد ، واريد
أن أنام كالطفل . هذا لن يحدث . شيء في داخلي سيقف
بمعزل ، يراقبني ويراقب الناس . هذا الصوت الصغير ، سيظل
يهس من داخلي : « خطأ » ، « لا تفعل هذا » ، « سخي
سيوعز إليّ بأن أضحكك في الموقف الذي تكفي فيه هزة
الرأس . سيدفعني إلى زم شفتي في عناد ، في الموضوع الذي
يحسن فيه الضحك . وهذا الطيف الساخر في عيني ماذا
أفعل به ؟ سيسمع الناس صوتاً لا يخلو من عذوبة يقول كلاماً
معسولاً وقبل أن يقع الكلام حيث أريد له أن يقع ، ينظرون
إلى الطيف الساخر في عيني ، يكذب كل ما قلت . وضع
معقد . لكنني هذه الليلة سأحو الطيف الساخر ، بأي وسيلة .
سأشرب إذا استدعى الأمر .

« ويسكي ؟ »

« لا . اشكرك . عصير برتقال . »

ونظر إليّ رب البيت مستغرباً ، نظرة شملتني من رأسي
إلى قدمي .

« انت عشت وقتاً طويلاً في انكلترا ، أليس كذلك ، ؟
« بلى »

« ومع ذلك لا تشرب ؟ »

« لا عن ورع ، ولكنني ذقت الشراب فلم يرقني . سأشرب
هذه الليلة إذا استدعى الأمر » .

وتلفت الرجل حوله كمن يبحث عن معين . وكانت المرأة
قد أدارت لنا ظهرها . كانت تضاحك فتاة مسبلة الشعر ،
على عينيها نظارة . لكن ظهرها كان معي . أقسم ان ظهرها
كان يقول لي كلاماً . تحولت لمخونا فجأة ، وقال زوجها :
« هذا الرجل لا يشرب » .

وجحظت عينا المرأة كأن زوجها قال لها : « هذا الرجل
هارب من السجن » .
« ماذا ؟ »

« سأشرب هذه الليلة إذا استدعى الأمر » .

« تشرب الآن وإلا صحت بأعلى صوتي ، وجمت عليك
الناس » .

واخذت الكأس من يدها ، وقد أغوتني عيناها . عيناها
خضراوان محاطتان بزرقة كالبقع الضحلة في البحر ،
وانساناها واسمان أما بفعل الشراب ، وأما للمجهود العظيم
الذي تبذله المرأة لهزيمتي . ما شأنها بي ، هذه المرأة ؟ واضح
انها قررت ان تهزمني هذه الليلة ، لكن لماذا ؟ في سنوات
مراهقتي ، اثرت النيران في جوفي بأحلام عن هذه المرأة .
في مطلع شبابي ، علمتني الحب واحدة كعذه المرأة .

امرأة في نحو الأربعين . امرأة . وجه حي ، وصدر صلب
شرس ، وكفل كبير فاتىء . صرخة بدائية هذه المرأة .
تخون زوجها ، ما في ذلك شك ، وتنام الليل بجواره لا يقلقها
شعور بالإثم . لو انني الآن تركت نفسي على سجيبتها ،
لهزمتني دون كبير جهد ، لكنني لن استسلم ، بأي حال من
الأحوال ، لن استسلم .

أحلف لكم انها قرأت ما دار في ذهني ، فضحكت ،
وقالت : لا تخف مني . انني لا أعض ، .

تحسست بطرف لساني السائل الأصفر ، وحاولت أن
أحدد لذهني طعمه . (ذهني يطلب مني ان أحدد له كل
شيء) . لكنني لم أستطع . وتذكرت طعماً آخر ، إحساساً
آخر ، حاولت كثيراً ان أحدده لذهني فلم استطع . بعض
الأمور لا يمكن وصفها ، ولعل إغراق بعض الناس فيها نوع
من المثابرة .

« لسانك لونه قرمزي ، كأن في فمك غروب شمس » .
وهنا ، هنا ، يا سادتي ، أحلف لكم انني كدت أنهزم .
ضربة واحدة مفاجئة ، اتتني من حيث لا احتسب . أعددت
لكل شيء عدته ، أغلقت كل الشفرات ، رسمت الخطط ،
وعززت خطوط دفاعي . جبهتي السمراء ، شعري المجعد ،
عيناي الطويلتا الأهداب . أما لساني ، فهذا لم يخطر لي على
بال ، وأما إن في فمي غروب شمس ! وتراجعت من هول

الضربة فضحكت ، وضحكت محدثي ، وهي تعتمد إبراز
أسنانها المنتظمة العاجية ، ومدت لي لسانها .

« يا قوة الله » .

وكدت أقع ، لولا أن هب الماضي لنجدتي . لغير ما
سبب ، نفر الجرح الذي في قلبي ، وتذكرت عيونا أخرى ،
عينين واسعتين كلها زرقة ، مثل الأماكن العميقة في البحر .
تذكرت الأنف الكبير ، غيري كانوا يحسبونه قبحاً ، وكنت
أراه جميلاً ، جميلاً . سمعت بأذني ضحكة صافية عذبة ،
كصوت الماء البارد المدلوق . رأيت أسناناً لم تكن منتظمة
ولا عاجية ، ولكنني أحببتها . رأيت فماً واسعاً . رأيت
حاجبين نبيلين في جبهة متفطرسة . أي شيء لم يعجبني فيها !
مضى على كل هذا عامان ، وما يزال الجرح ينفر في قلبي ،
وما تزال قترامى لي عند منعطف كل طريق . هذه المرأة ،
لماذا لا تفهم أنني ضعيف ، وأنني اجنبي ، فتتركني وشأني ،
ولا تمد لي لسانها؟ واحسب ان الذكرى انعكست على وجهي ،
مثل سحابة الشتاء ، فأبعدت المرأة وجهها عني ، واغلقت
فمها وأخفت ابتسامتها في مكان ما . يا للغرابة ، حينئذ بدا
وجهها كأنه وجه أم ليلي نجوت .

وكأنما هدأ روعي ، واستعدت سيطرتي على نفسي ،
فسمعت ضحك الناس حولي . النساء أكثر من الرجال ،
والجمال أغلب . تخلصت من الكأس التي في يدي وبحشت عنها .

كانت ما تزال تقف على الشط الآخر ، بيني وبينها البحر
ما يزال ، تلك الفتاة الواسعة الفم الكبيرة الأنف الزرقاء
العينين . وكانت تراقبني ، كمن يهمها أمري . لعلها أجنبية
مثلي . وأحسست بقدمي تنويان السير تجاهها ، لولا أن
دهمني رجل ربعة القامة ، أحمر الوجه ، مكنتز الحصر ،
في عينيه وعلى شفتيه فجور ، كأنه كان يقص لأحد حكاية
منكر فعله ليلة أمس . هل عاشر جون بتجمن هذا الرجل ؟

« Business men with awkward hips,
And dirty jokes upon their lips » .

دهمني الرجل وأنا على مفترق طرق ، ورائي اغواء
أحسب انني نجوت منه . وأمامي شوق لا أعرفه ، والبحر
ما بيننا . نظر إليّ وكأنه لا يحفل بي . ليس معي شيء يدل
هذا الرجل على « مكاني » . أنا في هذه اللحظة « أجنبي » ،
وحدي ، وليس معي شيء يدل هذا الرجل على « مكاني » .
ولا بد انه كان حب الانتقام ، فقلت للرجل ، بصلف اعلم
انه من طبعي ، أحاول جاهدا أن أخفيه ، صلف اعلم انه
درع أستتر به ضعفي ، قلت للرجل :

« انت لا شك مدير شركة أو بنك أو شيء من هذا
القبيل » .

لو انه كان مثلي ، لهمة « من هذا القبيل » ، لكنه تذرع
بأول الجملة ، وقال في سرور : « نعم . لكن كيف عرفت ؟ » .

لو انني كنت كريماً لأعنت هذا الرجل على الفرح ،
لكنه أساءني ، وأنا لا أغفر الإساءة . قلت له :

« قرأت جون بتجمن » .

وبينما كان الرجل المكتنز الخصر ، الداعر الشفتين ؛
البطيء الذهن يحاول أن يفهم ، خطوت أنا خطوة نحوها .

كنت أحسب انني وحدي المحتفى به ، لكن يبدو أن
هنا أكثر من واحد ، كلهم ضيوف شرف . وماذا يهمني
ما دام على الشاطئ الآخر مرفأً انزح إليه ؟ لو انها خطت
خطوتين ، إذاً لقرّبت عليّ الشقة ، لكنني هكذا سأضطر
إلى عبور البحر ، وكل هذه العقبات الصغيرة في الطريق كيف
أثقل عليها ؟ ومن الذي يضمن لي الاّ افعل شيئاً ، الاّ اقول
شيئاً ، قد يعوقني عن السير ؟ لو انني شربت .

« ويسكي ؟ »

« نعم . أشكرك » .

فضلت هذا على خلق أزمة أخرى . وأمسكت الكأس
أديرها في يدي ، وأحرك الضوء في جوانبها ولا أعرف ماذا
أقول لهذه الصبغة .

« هل زرت بلدنا من قبل ؟ »

« لا . هذه أول مرة » .

لماذا أقول الحقيقة ؟ ولعلي بهذا أفتح مجالات جديدة
للحديث .

« سيمجيك ، ستعبه جداً ، فهذا أجمل بلد في العالم » .
« صدقت . حين حلقت بي الطائرة فوق شعلة النور هذه ،
حسبت انني في حلم . وما أزال أعتقد انني في حلم » .
ولم تقم أزمة . إذا تمسكت بهذه الجملة ، فقد اصل إلى
المرفأ هذه الليلة سالماً ، وقد لا احتاج الى الشراب .

وخطوت خطوة اخرى نحوها .

« هل هذه أول مرة ؟ »

« نعم أول مرة » .

« سيطيب لك المقام » .

« أنا واثق من هذا » .

« أنا سعيدة بلقائك » .

« أنا السعيد » .

« أنا سعيدة بالتعرف اليك » .

« بل تم لي أنا الشرف » .

« هل تمجيك بلدنا ؟ »

« لا »

وصعقت ، ونظر إليّ الرجل مشدوهاً . هذا ما كنت
أخشاه . إذا لم أفعل شيئاً ، فقد ينتهي الأمر بكارثة .

وتلفت حولي أبحث عن ملاذ . ولكن لا ملاذ . خفت
ضجة الناس في أذني وعلا لفظ آخر ، لم أعد أرى شيئاً غير
وجهها . تلك التي ذهبت منذ عامين ، لم أعد أرى غير
عينيهما الزرقاوين تحدقان في غضب ، لم أعد أسمع غير صوتها
يقول متحرشاً :

« أنت كالأخرين كذاب منافق » .

تركتني لأنني كذاب منافق ، ومنذ عامين وأنا أنتقم
من نفسي ، ومن الآخرين . لكن ليس الآن ، لينها تتركني
الآن . ولا جدوى لا مهرب .

« هل هذه أول مرة ؟ »

« لا ليست هذه أول مرة » .

« أقمت هنا شهراً قبل اليوم . سرقوني في الفندق » .

« أقمت هنا شهراً قبل اليوم . عرض عليّ رجل ابنته
فبصقت في وجهه » .

« دعوني إلى العشاء ، ودفعت أنا الثمن » .

وظل الصوت الصغير ، يهمس لي : أحسنت . لكن
هذا ليس وقته ، لو انني أشرب . إنما الذي لا بد منه سيحدث .
« قرأت كتبهم ، ثم رأيتهم ، فوجدتهم يقولون شيئاً ،
وفعلون غيره » .

« بلدكم جيل ، لكنه مليء بالحنات والصحف »

من الذي يشرب كل هذه الخمر ؟ من الذي يقرأ كل هذه الصحف ؟

ولم أعد أسمع غير صوتها والصوت الصغير في داخلي يصرخان :
« احسنت ، احسنت » ، ولا بد ان صوتي اخذ يعلو ، فقد بدأ الناس ينظرون إليّ كالشدهين .

« بلدكم جميل لكن الأخ منكم لا يحب الخير لأخيه » .
« بلدكم مشرق الوجه » لكن لماذا تمشون عراة في الشتاء وتلبسون الملابس الثقيلة في الصيف ؟ » .
« فتياتكم مشوقات القدود » لكن صدورهن كالينابيع الجافة » .

وظل صوتي يعلو ، ولاحظت الناس يبتعدون .
« انتم طيبون ما في ذلك شك . لكنكم تخشون بعض البعض ولا تخشون الله » .
« بلدكم جميل . لكنني لم أرَ فيه حية ولا شارباً » .
« أقمت هنا شهراً قبل اليوم . قالوا لي اننا نجبك . لكنهم كانوا يكذبون » .

ولاحظت الناس يلتصقون بعضهم ببعض حتى أصبحوا كقطيع الضأن حين يدهمه المطر .
« خزائنكم مملأى بالكنوز . لكن المال تنفقونه على الأطباء » .

« بلدكم جميل ، لكن « الغرباء » فيه قليلون »
« أنتم خير أمة أخرجت للناس ، لكمكم تضحكون جماعة
وتبكون جماعة ، وليس فيكم صوت واحد يرتفع منفرداً
كآلة الكمان » .

« أنتم شم الأنوف من الطراز الاول ، لكن ليس فيكم
واحد يسبح عكس التيار » .

وسمعت فجأة زجاجاً يتحطم ، واحسست بلطمة قوية
على فكي . وكأنني استيقظت من نوم ، فرأيت شاباً أشقر
يحملني في وجهي بفضب ، وتلفت حولي فإذا القوم كلهم قد
تجمعوا كتلة واحدة على مبعدة مني ، بعضهم عابس ، بعضهم
غاضب ، بعضهم متحرش ، وبعض الوجوه عليها ذلك التعبير
الأجوف الذي رأيته على وجوه المصلين ذات يوم .

واقتربت الفتاة مني حتى وضعت يدها برفق على ذراعي .
وخرجت المرأة من الجمع وجاءتني بكأس من الشراب ،
شربته فوراً ، دفعة واحدة .

ووقفنا ننظران إلى .

المرأة التي ظننتها خصماً كان وجهها وجه أم .

وقالت الفتاة بصوت لم أسمع مثله في حياتي رقة وعذوبة
وصفاء ، فيه شيء من صوت تلك التي تركتني قبل عامين ،
لكنه كان أحلى :

« كدت أياس من لقائك . تغربت كثيراً وانتظرت ،
وأظنك أنت هو » .

« أنت إذاً أجنبية مثلي ؟ »

ومسحت براحة يدها العرق عن جبينها ، ووضعت يدها
في يدي وقالت لي : « هيا » .

ونظرت فإذا المرأة تراقبنا وعلى وجهها حنو عظيم . كان
وجهها وجه أم .

عدت إليها وقلت لها : « ساحيني فقد أسأت بك الظن ،
فضحكت وقالت : « لا بأس عليك . لملي شجعتك على هذا ،
قلت لها : « والباقون هل يساحونني ؟ » قالت : « لا تقلق .
انهم سينسون ، النسيان هو فضيلتهم الوحيدة ، لهذا فهم
لا يعرفون الحقد » . ثم نظرت إلي الفتاة وقالت وهي تبسم
بعطف : « اخفي تنكر مثلك . ان كان الفكر هو الذي تبحث
عنه ، فانك ستسعد معها » .

ووضعت ذراعي على كتف الفتاة . وضعت ذراعي على
كتف الفتاة الواسعة الفم ، الكبيرة الأنف ، الزرقاء العينين ،
كما يضع أب ذراعه على كتف ابنته ، وقلت لها : « هيا » .
وهكذا يا سادتي تزوجت . لعلها تغفر لي ، تلك التي
تركنتي منذ عامين . وأحياناً أنسى أيها تعيش معي ، لكن
لي طفلتين تفنيانني عن الأوهام .

مَقَدِّمَات

أَغْنِيَّةُ حُبِّ

كنت دائماً أود أن أغني . لكن صوتي كان نشازاً ، ولم
أكن أستطيع أبداً أن أجيد نغمة واحدة ، لسوء حظي . إلى
أن لقيتها . قالت ان أردت فعلاً أن أغني ، فعليّ إذاً أن
أغني ، مها كان وقع صوتي .

قلت : « لكن صوتي نشاز » .

قالت : « غنّ عن الحب . الناس تستوهم أغاني الحب
الحزينة » .

وهكذا ابتدأت . لم يحفل الناس بي أول الأمر . ثم أخذوا
يصغون . بل ان بعضهم أحب أغانيّ . كانت عيناها خضراوين
وكان فيها واسماً وحاجباها نبيلين مقوسين بروعة . كانت
تحبني وتحب العالم كله ، ما عدا اليابان قتل اليابانيون أخاها
في الحرب الأخيرة .

ومع هذا فقد تركتني لأنني ترددت .

أمر محزن ، نوعاً ما ، لأنني وإن كنت أحب أن يسمع
الناس غنائي ، فأنني أغني لها خاصة .

خطوة للأمام

كانت ممرضة .

وكان معلماً .

تزوجاً .

كان اسمر داكناً ، أسود إذا شئت . لم تكن سميرتها
داكنة ، بيضاء إذا شئت .

كان أنفه أفطس ، لكنه لم يكن قبيحاً . وكان أنفها
اغريقياً ، جذاباً بأي قياس قسته .

وكان شعرها لحامسي اللون ، ناعماً وطويلاً ، وكانت عيناها
رماديتين ، تذكران الرائي بأمسيات معينة .

وكانت عيناها سوداوين ، وكذا شعره الذي لم يكن أسود
فحسب بل كان اكرت أيضاً .

في مكتب التسجيل في فولام رود ، حيث أخذها وحيث
تركته يأخذها ، كانت تصرفات المسجل لا غبار عليها ،
لكن خيل لبعض الحاضرين انه كان محرجاً بعض الشيء .

وأخذها معه إلى أهله .
أخذ يعلم وأخذت تمرّض ، وولدت له ابناً .
« ماذا تسميه ؟ » .
« سامي . يسهل لفظه ، بالانكليزية والعربية » .
ونما صحيح الجسم وافر الحكمة ، فكما الأب كذلك الابن ،
والأم ممرضة . أما الفنى فلم يكن مؤكداً .
كانت عيناه رماديتين ، تذكّران الرائي بأصيات معينة في
لندن .
وكان شعره نحاسي اللون ، وكان مع هذا أكثر أشعث .
لم يكن أنفه اغريقياً ولا كان أفطس .
وهو أمر حسن .
« سيكون طيباً » ، تردد أمه باستمرار .

لست حتى الممات

كانت تعمل كاتبة اختزال في شركة التلفزيون . وكانت تسكن مع عائلة في فينشي ، وتقضي عطلات الاسبوع مع امرتها في سيد كب . ولم يكن يبدو انها متعلقة بأهلها كثيراً .
التقيا عشية رأس سنة ١٩٥٩ ، في حفلة رقص نظمها معهد الدراسات الشرقية بجامعة لندن .

« ماذا تدرس ؟ »

« أعد رسالة الدكتوراه في التاريخ »

كان رقصه فظيماً ، لكن معرفته باللغة الانكليزية كانت جيدة . بدا صغير السن جداً – وربما كان هذا مظهرأ خادعاً . وكان صوته عذبا ، ورائقاً للاذن . كانت اميل إلى البدانة ، فأعجبه ذلك . كانت تقاطيع وجهه وسيمة حادة ، الأمر الذي لم يغيب عنها .

وأعطى كل منها الآخر رقم تلفونه .

بعد ثمانية أشهر حصلت المعجزة . ومع هذا –

قالت : « لست أدري » .

قال : « أنا أيضاً لست أدري » .

« عد إلى بلدك ، وأنا سأسافر - إلى كندا ربما » .
وهكذا عاد ليدرس التاريخ في إحدى المدارس الثانوية .
وكتبت له من كندا تقول انها قد حصلت على وظيفة في
شركة الاذاعة الكندية وان الحياة في أوتاوا لا بأس بها .
وكتب لها رسائل طويلة تلتهم عاطفة ، وكان يختمها
دائماً بقوله : « لك حق المئات » - قد يخيل اليك انه كان
يبالغ .

كتبت تقول : « الراتب جيد ، وكندا ممتعة ، لكن لماذا
علينا أن نكون بعيدين هذا البعد واحدا عن الآخر ؟ »
أجاب : « لأنه من جهة ، ليس من العدل أن أجرجرك
إلى هذا المكان ، البالغ الحرارة والكيف الغبار ، ولأنني فقير
لا أستطيع أن أثقل ضميري بك » .
وكانت الرسائل تحمل الحب من أفريقيا إلى كندا ، ومن
كندا إلى أفريقيا بانتظام .
وكان الحب يشتد - هكذا كانت تقول الرسائل -
وأستطيع أنا أن أصدق ذلك .

مات بالالتهاب السحائي في صيف ١٩٥١ .
ولم يخبرها أحد .

ظلت بعد هذا بأشهر تواصل الكتابة وتساءل : « لماذا
لا تجيب ؟ أم انك لم تعد تحبني ؟ » .
ثم توقفت عن الكتابة .

الاختِـبَار

كانا يعيشان في منطقة سويس كوتيج . هو محام . من دربان ، وهي ممرضة من نطنفهام وكانا صديقي .
كانا يقمان حفلة عشية كل سبت . يدعوان إليها أناساً من كل نوع ، جلهم ممن يسمونهم اليوم « افرو أسيويين » . تلميذ طب من نيجيريا ، محاضر جامعي من الهند ، فتاة من الصومال تدرس الخدمات الاجتماعية ، تلامذة مصريون حتى إبان معركة السويس ، جميع الأنواع — ذلك الضرب من الأشخاص الذين يشترون صحيفة « الفارديان » ويقرأون « الاوبزيرفر » و « انكاونتر » ويتحدثون عن ألان بيتون . وكان صديقا يـصوتان لحزب العمال .

كان هذا الطالب الغاني أسود كالابنوس ، لكنه — إن أنت لم تكترث للونه — كان وسيماً . خلف حاجز اللون كان خفراً ، لكنك إن سمعت له بالدخول كانت إنسانيته لا تعرف حدوداً . خلف حاجز اللون كنت في أمان . لكنك إن أزعجتك لم يكن ثمة ضمان . كان ذلق اللسان ، يحيد الرقص ،

يضحك بطلاقة . وكان من عادته أن يمد لسانه بين أسنانه
الشديدة البياض عندما يتكلم ، وكانت الفتيات يحدن ذلك
جذاباً .

لم يكن ينبغي أن تفعل ذلك - لكنها علقت بحبه .
ليس هذا فحسب ، لكنها أيضاً هرباً معاً .

التقيت صديقي صدفة قبل أيام ، على مقربة من مخازن
سوان اند ادغار في ساحة بيكاديلي . حيثه ، لكنه لم يرد
عليّ التحية ، وظل يحدق أمامه بعيداً .



سوزان و علي

كان اسمه علي . واسمها هي سوزان . الخرطوم . لندن .
درست الفن في معهد سليد . درس العلوم السياسية في معهد
الاقتصاد بجامعة لندن .

قالت : « تزوجني » .

قال : « لا . صعب » .

قالت : « لكنني أحبك » .

قال : « وأنا أيضاً أحبك . لكن .. » .

ومن ثم عاد إلى بلده .

وأخذا يتراسلان .

« لكنني أحبك يا علي » .

« وأنا أحبك يا سوزان ، لكن ... » .

سنة أشهر .

كتبت تقول : « قابلت رجلاً . سأتزوجه » .

كتب يقول : « لكنني أحبك يا سوزان » .

وانقطعت الرسائل .

يفكر بها في غالب الأحيان .

وتفكر به من حين لآخر .

لكن

الفهرس

لمحة عن الطيب صالح فناناً وإنساناً	٥
١ - موسم الهجرة إلى الشمال	٩
٢ - عرس الزين	١٧٩
٣ - ضو البيت (بندر شاه)	٢٨١
٤ - مريود (بندر شاه)	٤٠٣
٥ - دومة ود حامد	٤٧٥
● نخلة على الجدول	٤٧٩
● حفنة تمر	٤٨٩
● رسالة الى إيلين	٤٩٥
● دومه ود حامد	٥٠١
● . . . إذا جاءت	٥١٩
● هكذا يا سادتي	٥٣٥
● مقدمات	٤٤٩

- أغنية حب ٤٤٩
- خطوة للامام ٥٥٠
- لك حتى الممات ٥٥٢
- الاختبار ٥٥٤
- سوزان وعلي ٥٥٦

